الصافي سعيد

KITSH

رواية

الكيتش 2011

سوتيميديا
ناشرون عرب



رواية / roman

KITSH
2011

الكاتب: الصافي سعيد

الطبعة الأولى: سبتمبر 2016

الناشر والموزع: سوتيميديا للنشر والتوزيع
العنوان: 85 شارع بالفي - تونس
صندوق بريد: 570 تونس - حشاد
تونس 1049
الهاتف: 31400756 (216+) الجوال: 97126757 (216+)
الفاكس: 32400756 (216+)
البريد الإلكتروني:
contact@sotumedias.tn

المعرف الدولي للكتاب
978-9938-918-06-9



الطباعة: المغاربية للطباعة واشهار الكتاب - تونس

الصافي سعيد



رواية

الغلاف: لوحة بعنوان «ماندا روز»
للرسامة والنحاتة والفوتغراف
الألمانية «غابي بلام» GABY BLAM

▌بريسكريبتوم

حالما انتهيت من كتابة النص، أحسست أنني خرجت من حياة ثم عدت إلى حياة أخرى. شعرت بفراغ يغمرني ويأخذني بقوة إلى ارتباك النهايات.. كنت مستمتعا بعالم آخر قد صنعته بنفسي وبأشخاص آخرين قد أصبحوا أصدقائي.. عايشتهم برفق ولم أكن لأقسو عليهم حتى عندما يداهمني الغضب أو النضوب.. أحببتهم جميعا ولم أكره أحدا منهم. حتى دناءاتهم لم تكن ثقيلة. سكنت في دواخلهم وسكنوا بداخلي..كانوا يذهبون معي إلى كل مكان.. إلى غرفة النوم، إلى المقهى، إلى الحمام.. لا بل أصبحت أشرب معهم القهوة وأتجادل معهم وأفكر في مصيرهم إلى درجة بات من الصعب عليّ طردهم أو تصفيتهم.. قلت ذات مرة لإحدى صديقاتي الواقعيات: «أنا عائد الآن إلى البيت، لألتقي مع شاهي شهبار». سألتني من تكون؟ أجبتها: إحدى بطلات روايتي الجديدة.. لقد أحببتها.. أنا الذي رسمتها على الورق. والآن أريد أن ألتهمها كمن صنع تمثالا من الحلوى ثم أكله.

هكذا يعيش الروائي. فهو يكتب حياة أخرى، متدفقة، ذات إيقاعات متصاعدة ومتوترة، مصنوعة من بؤس العزلة، فتصبح أكثر متعة من الحياة الواقعية، الرتيبة والكئيبة التي نعيشها، والتي لا نتدخل كثيرا في مجراها إلا وهميا! وبذلك فهو يصنع من عزلته أقصى درجات متعته ..وها إني أدعو القراء إلى مشاركتي في هذه المتعة فأقول: أن من حرم نفسه من متعة القراءة، عاش حياة واحدة بائسة.. ومن عاش عزلة الكتابة، عاش حياة مليئة بالمتع..!

*** *** ***

أحذر القراء أن يبتعدوا عن الأفكار الجاهزة التي طبعت أغلب الروايات العربية! أحذرهم كذلك بعدم الاعتماد على ما جاء في النص من معلومات أو أرقام أو تحليلات أو نظريات أو تواريخ أو أحداث أو أسماء!..

إنه سرد خلاسي بامتياز.. متدفق، متساب، مربك، مفزع ومتوتر الإيقاعات والانفجارات، بعيد عن المنطق ويرتدي طابع الحكمة أحيانا، لكنه لا يتحلى لا بالكياسة ولا بالإيتيكات.. فلا هو واقع ولا هو محض خيال.. إنه حقل لإرباك الخطوات والحواس والذكاء.. سيتداخل الواقع بالخيال مع شخصيات طائرة من بلد إلى بلد.. مندفعة من مغامرة إلى أخرى دون دراية.. مسترسلة في هذيانها حينا، ومحاولة السيطرة على ضعفها في أحيان أخرى..

هاهم شاهي شهبار، مصعب الصراف، والشيخ العطار ومراد عباس وكريم كروان بك ويحي علوان وخوسيه بلانتيرو ومهى زعفراني وساندرا ومراد شمان وستيفاني نيكولاس وباشكير آغا

ومرام حسن الحلبية وسمى عبد الصمد وعباس فرشخاي والياهو دانيال في رحلة من غرناطة إلى الموصل مرورا بطنجة وتونس واسطمبول حيث تدار خيوط لعبة الشرق الأوسط في بيت «آل أوشاكي»، ذلك البيت الذي سكنته طليقة كمال آتاتورك لطيفة خانم.. ذلك البيت الذي انتقلت ملكيته من كريم إلى مصعب الصراف ثم إلى الشيخ رشدي العطار الذي دشن مرحلة جديدة بإزاحته لمصعب الصراف وتصفيته للخليفة أبو عمر العدناني! مع أولئك جميعا، عاش كذلك إيكو ونيتشه والتقى لوركا بسلفادور دالي وتجادل طاغور مع اينشتاين، وتناقش ماركس مع نهرو وتبارى الحسن الثاني مع ميتيران وشرب الجميع نخب هذا العصر الكئيب أو هذا الربيع الكاذب دون أن ينتبه أحد إلى أن مرام الحرة، مرام الحلبية، مرام اليزيدية تلك البجعة البيضاء! قد خرجت من الرواية.

*** *** ***

وهاهي مرام قد خرجت من الرواية لتكمل حكايتها بنفسها وهي تدافع عن حقها الذي لم يقدره لا الكاتب، ولا شخوص الرواية ..ولا حتى القراء.

قالت مرام: قرأت الرواية.. ولا شك أنكم قرأتم ما قرأت.. ثمة أشياء لم يذكرها الكاتب لأنه لم يكن يعرف كل شيء.. وأظن أنه كان لا يعرف كيف يقترب مني.. الآخرون أيضا لا يعرفون عني إلا أشياء صغيرة .. ستيفاني اقتربت مني جيدا في اسطمبول والموصل لكنها لم تعرف كيف تقودني إلى قول الحقيقة. مراد شمان اكتفى بنصفي الآخر.. فؤاد عبدي لم يكن على اطلاع

البتة بالخطة (البجعة والوحش).. باشكير آغا، كان يعرف تفاصيل كثيرة لكنه كان متمسكا بالواجب وكاتما للسرّ. وعلى أيه حال، فإن الأبطال الحقيقيين دائما مجهولون ويحتاجون إلى رواية أخرى! وأنا واحدة من أولئك الأبطال.! أقول لكم أيضا: إذا طار البالون في الهواء، فلا يعني أنه يتمتع بالحرية!.

● قال رجل لبيكاسو:

«يبدو أنك لا تحسن الرسم سوى هذه الخطوط والألوان المتداخلة» فتناول بيكاسو ريشة وراح يرسم حبّة قمح على الأرضية.. وكانت حقيقية إلى درجة أن أحد الديكة تقدم محاولا التقاطها، عندها انبهر الرجل وقال لبيكاسو: «لماذا إذن تصرّ على هذه الرسوم الغريبة وأنت تحسن الرسم بهذه الطريقة الرائعة»، فأجابه بيكاسو ساخرا وبهدوء: «في الحقيقة أنا لا أرسم للدجاج»!!

*** *** ***

● الكيتش هو أن تكون نفاية دون أن ترى نفسك نفاية إلا حين يبدأ عمال التنظيفات في جمع النفايات!.

الفصل الأول

«نحن حيوانات بوضع عمودي»، يقول لنا، أمبرتو إيكو متهكما بعيون ثاقبة. لذا يصعب علينا أن نعيش أو نرى رؤوسنا تتأرجح في الأسفل. لهذا أيضا أوصى أمل دنقل بأن يدفنوه واقفا. قال: احفروا قبري عميقا واغرسوني في التراب كشجرة، ولا تدفنوني ممددا تحت التراب...

إذن نحن حيوانات واقفة عموديا.. نشبه المسلات والصوامع والأبراج والنخيل، ولا نشبه القطارات أو السيارات التي تزحف زحفا.. اكتسبنا أفكارا عن الاتجاهات. هذا يمين. وهذا يسار.. وهذا فوق وذلك تحت. عرفنا المشي والنوم والقفز والزحف والسباحة والرقص ثم امتلكنا حواس التذكر والشم واللمس والرغبة والخوف والألم ثم عبرنا عنها بأصوات متعددة ولغات متعددة وأحاسيس متداخلة. كنا مهيئين منذ البدء للصدام والخلاف والاختلاف وحتى للقتل والابتذال. كلما عرفنا أكثر، توغلنا أكثر في الصدام والانفصال والتمرد. قادتنا المعرفة إلى المحرقة في أكثر من بلد عبر أكثر من دين.. ولم يكن الله في عون أحد حين أراد كل واحد أن يستحوذ على الآخر.. وعبر حقب طويلة ومذابح فظيعة قمنا بجمع خلاصات للآلام البشرية.. ومع ذلك فإن لا أبيقور الإغريقي ولا مهدي عبد الرزاق العراقي، استطاعا أن يتخطيا الآلهة أو الموت أو يتخلصا من المعاناة والرذيلة أو يحققا النصر والسعادة.!

بعدما توقف ذلك الشريط في ذهن مهدي عبد الرزاق، طرح على نفسه سؤالا عويصا وهو يتأهب لصلاة الجمعة. قال بصوت أبكم: قبل أكثر من ثلاثين عاما، كنت أقبّل عشرات الطالبات في جامعة الموصل. كن مسلمات ومسيحيات ويزيديات وتركمانيات وكرديات. وكانوا رفاقي يسمونني «دون جوان جامعة نينوى».. والآن لا أتجرأ حتى على ملامسة أيديهن.. حتى المصافحة باليد بين رجل وامرأة أصبحت ممنوعة.. ما الذي حصل؟ .. هل أنا الذي تغيّر وعاد إلى جحره الأول؟ هل العراقيون حزانى ومتخلفون إلى هذا الحدّ؟. هل الأمريكان هم الذين جعلونا هكذا؟.. رجال يلفهم الحزن والعنف والترصد. ونساء يلفّهن السواد والخوف!!..

كنت أنتمي إلى كلية الهندسة. لم أكن بعثيا ولكني كنت أتظاهر بأنني بعثي يحب الحزب القائد وكذلك القائد المهيب.. جرس العراق كان يوقظ بداخلي أحاسيس تمتد من بابل المجيدة إلى بغداد العريقة.. أحيانا كان نبوخذ نصر يتساوى عندي في عظمته وبطشه مع صدام حسين.. كنت أتجاهل عصر المغول والسلاجقة كمن لا يريد أن يتذكر العار الذي ألحق بأمه أو بأبيه ذات مرة.. والآن ها نحن نريد أن نطمس كل علامة على عبقريتنا التاريخية.. أنا نفسي أصبحت على قناعة بأن نبدأ من جديد، ولكن في كل خطوة أقول: ما هو الجديد الذي يمكن أن نبدأ به.. فكل شيء قد حدث في العراق من العبقرية إلى الضمور، ومن المجد إلى الانحطاط ومن القوة إلى الرذالة والنذالة.. لا شيء يبدو لي جديدا غير تهديم ما تبقى شاهدا على تاريخ عظمتنا.. والمفارقة: فلكي نبني عظمة جديدة علينا أنا نمحو كل عظمة أخرى..!

حين كنا نبحث عن تسمية لدولتنا، اقترح عليّ «باشكير آغا»، الملقب بأبي عبد الله الكبير، اسم «دولة ما بين النهرين الإسلامية». ذكرني اقتراحه بدولة ما بين النهرين القديمة. وبتلك التسمية الإغريقية «الميسوبوتاميا» Mesopotamia. رفضنا جميعا تلك التسمية رغم جدارتها التاريخية لأننا سنبدو كما لو أننا قادمون من بعيد.. من الموت.. وقلت لأبي عبد الله: «ثمة شعلة تتقد في قلوب المسلمين قاطبة، هي شعلة إحياء الإسلام.. المسلمون يريدون دولتهم الشاسعة.. ونحن سنبني لهم حصنا للانطلاق والانتشار»..

كنت قد أحضرت تخطيطا جغرافيا لأعرضه على المجتمعين. وقد احتوى على مثلث مقلوب يتوسط بلاد العراق والشام. ويمتد من حلب حتى صحراء الأنبار وهو يضم الموصل والرقة ودير الزور وتدمر.. ثم شرحت لهم قائلا:

- انظروا، هذا سهل شاسع جدا.. مساحته تتجاوز بريطانيا العظمى. أرض خصبة ذات حرارة وطاقة ومياه وزراعة وفيرة وكذلك فيضانات مفاجئة. إذ حفرنا عدة أمتار نعثر على الماء إذا لم يغمرنا الغاز والنفط.. في هذا السهل أقيمت مدن عظيمة في الماضي صممت بشوارع طويلة ومستقيمة وبيوت مرتفعة وقصور ومعابد. ستكتشفون بقايا كثيرة من مدينة بابل التي كانت أبهى وأعظم المدن.. مدينة التجارة العالمية التي كانت ملتقى لبضائع الشرق والغرب.. وإذا وضعنا أنفسنا سادة على أرض بابل وكذلك أرض نينوى ثم أرض حلب وتدمر، فإننا سنضع أنفسنا في قلب التاريخ من جديد.. هاهي الرقة عاصمة هارون الرشيد الثانية

تستكين إليكم.. وعلى بعد عشرات الكيلومترات من الفالوجة، تسترق بغداد عاصمة الرشيد الأولى، السمع إليكم لكي تحثوا خطاكم إليها.. لن نطيل النقاش حول تسمية دولتنا وأدعوكم بقبول ومبايعة الدولة الإسلامية للعراق والشام.. وأعدكم بأن هذه الدولة ستصبح أكثر شهرة من نيويورك في أقل من سنة.. إن جميع المسلمين ينتظرون قراركم لمباركتكم ومبايعتكم..

أعدت ذلك جيدا وبلغة مضخمة عند صلاة الجمعة فأحسست بأن المجد قد هز أركان المسجد الذي راح يرقص طربا.. امتلأت ردهات المسجد بالدعاء والتكبير واقترب من المنبر مصلون كثيرون يريدون تحيتي وملامسة أطراف جبتي للتبرك، لكن الحرس أبعدوهم، وصرخت في الحراس:

- ابتعدوا.. اتركوهم يسلمون عليّ.. لكن الحراس لم يفعلوا ما أمرتهم به. فقد فهموا نبرتي وتصرفوا كما لم أقل شيئا.. وحين هدأت الأصوات وقد هدها التعب من شدة الصراخ، همست في أذن أحد حراسي القريبين جدا قائلا له:

- احضر لي ذلك الرجل الذي يقف عند الطرف الأيسر في الصف الرابع والذي يرتدي عباءة صفراء مقلمة بالأبيض..

حين أصبح الرجل أمامي بادرته سائلا:

- ما اسمك أخي الكريم..

قال بسرعة وكأنه ينتظر سؤالي منذ برهة:

- عبد الرزاق.. عبد الرزاق يحي.. كنت زميلك في جامعة

الموصل.. لست من أقاربك وإن كنا نتشابه في الأسماء.. ولكن كنا زملاء دراسة..

وسألته بلهجة محببة:

- شاكو ماكو يا عبد الرزاق. هذا يوم عظيم أن نلتقي في هذه الجمعة المباركة!

ثم قلت له بلهجة حازمة أو تقترب من الحزم:

- أنت الوحيد يا عبد الرزاق الذي لم أرك متحمسا للخطبة.. كنت صامتا طوال الوقت.. هل لديك ما تفيدني به من اعتراضات.؟

حين استعد عبد الرزاق للإجابة ورأيته قد سحب شجاعته من الدرج الذي يخبئ فيه عادة الرجال خوفهم ودناءاتهم وحقائقهم وشجاعتهم، تذكرت نقاشات عبد الرزاق البيزنطية في الجامعة التي كان يطلق عليها كلمة ديالكتيك لكي يبدو متحالفا مع العلم والتاريخ.. ثم تذكرت خلافي معه حول مقولة القائد الضرورة. وهكذا بادرته بسؤال مبهم:

- ألا ترى أن الضرورة تفرض علينا قوانينها الأكثر ثقلا، حين نتمادى في الاستخفاف بها؟

لم يتلعثم عبد الرزاق. كعادته كان محشوا بعبارات قوية وحجج كثيرة، فتكلم كما لو أنه كان يقرأ من كتاب التاريخ..

- لا أريد أن أتحدث عن برج بابل.. نحن العراقيون مولعون بالبدايات الكبرى.. نذرنا أنفسنا للحريق منذ البدء.. لا زلنا ذاهبون إلى الأمل ونحن نرتدي بدلات متفجرة.. بنى العراقيون

برج بابل لكي يصلوا إلى السماء فعاقبهم الرب لغرورهم.. جعلهم يتكلمون لغات عدة فاختلفوا وضاع الحوار وكثر عدم الفهم وعم القتال ثم تناثر برجهم إلى كومات من الطابوق الأحمر.. أنى أراهم لا زالوا يبنون الأبراج للتقرب إلى الله ولكن الله لا يريدهم أن يقتربوا من الشمس.. جاءهم إبراهيم من بلاد بعيدة لكي ينقذهم من الغرور. كان نبيا عظيما جامعا للكلام والصحف البشرية. عاش في زمن واحد مع حمورابي العظيم الذي أراد أن يصهرهم في قانون عادل وصارم، ولكنهما رحلا دون جدوى كبيرة.. ولا شك أن قصة نوح والطوفان قد كشفت لنا بأن لا جدوى من هذه الأرض!!..

تمادى عبد الرزاق في شؤمه حتى أصابني بالوهن فقاطعته قائلا:

- حذار يا عبد الرزاق.. إنك تتكلم إلى خليفة الله، أمير المؤمنين..

ثم وضعت يدي على كتفه الأيمن وقلت دون أن يسمعني أحد:

- ومع ذلك سوف لن تتركني لوحدي.. أعرف أنك لن تفعل شيئا يليق بعمرك وثقافتك بدوني.. أنا واثق يا عبد الرزاق أنك بذرة عراقية تريد أن تنمو وسط هذه الصحراء..

قلت له أيضا قبل أن أذهب:

- نحن أناس بسطاء، نريد أن نحيا.. لا نريد أن نكرر المأساة. لسنا يهودا لكي يعاقبنا الله بسبب خطايانا.. (كنت متأكدا أنه سيرد علي بأن العراقيين علموا اليهود العصيان والخطايا.. وهم ليسوا إلا نتاج ثقافة عراقية قديمة) ولكني وعدته بأن نلتقي مرة أخرى ونتحدث في مواضيع كثيرة..

لست أدري الآن المدة التي استغرقت حديثنا، غير أن الألسن تناقلت ما مقداره ساعة.. وهذا لم يحصل البتة. فالمدة لم تتجاوز العشر دقائق.. وأظنها أقل.. أزعجتني تلك المبالغات والمغالطات لحين ثم رايتها ضرورة لإشعاع صورة القائد الصبور والمتفتح والمحاور واللطيف!..التي أشاعها الناس والفايسبوك..

*** *** ***

دخل هارون الرشيد إلى مقصورته المفضلة في قصر الرقة ذات مساء متعبا ومتخما بأحاديث الأيمة والساسة والقادة العسكريين.. أحس بوعكة سببها أنه أكل بطيخا كثيرا في أحد الحقول، حيث توجد إسطبلات الخيول ومقرات للاجتماع وكذلك ساحات فسيحة للتدريب. أمر بإحضار إحدى محضياته التي كانت تسمّى «زينب الحرّة».. ثم انهمك في مسامراته عسى أن تخف وعكته.. ولكن القادة الكبار عادة ما يموتون بأتفه الأسباب.. تطورت تلك الوعكة حتى باتت حمى قرمزية.. ومات هارون الرشيد في القاعة التي يجلس فيها حاليا السيد مهدي عبد الرزاق.. هذا الذي سيصبح خليفة للمسلمين في القرن الواحد والعشرين..

بعد نحو13 قرنا جلست مرام حسن أو مرام الحلبية ربما في المكان نفسه الذي جلست فيه «زينب الحرّة». كان مهدي عبد الرزاق عائدا لتوه من جولة على معسكرات رجاله، ولكنه لم يكن، بل لم يصبح بعد في مقام وصولجان هارون الرشيد.. كان فقط يتقن فن الإصغاء لمن تداعب قلبه بأهازيج وأغاني بعد يوم شاق وطويل

مثل هارون الرشيد. وإذ يميل الناس غالبا إلى تكوين فكرة عن القائد السياسي أو العسكري مفادها أنه متجهم وجدي وحذر في علاقاته بأصدقائه، فإن ذلك كله يعود إلى حب الناس لقائدهم للاحتماء به.. تلك العلاقة يمكن أن يوصفها أي شاعر بعلاقات الأبوة المجازية، ولكن بما أنها مجازية، فهي ليست دقيقة أو صحيحة أو حتى منطقية.. فالمنطق هو أحيانا ما لا نتوقعه يصدر عن رجل مثل مهدي عبد الرزاق. ذلك الرجل الذي يتهيأ لإشعال الشرق الأوسط من غليونه العثماني..

جلست مرام على ركبتيها لتؤدي التحية إلى سيدها مهدي عبد الرزاق.. وإذا صدقنا حكايتها.. فقد فعلت ذلك تلطفا لا أمرا.. ثم ساعدها على الوقوف وأمرها بالجلوس على أريكة قرب أريكته.. كان ينفخ في أرجيلته بشهية تمساح وكانت بقبقات الماء يمكن سماعها على مدى كل الغرف المجاورة وكذلك في الساحة التي تفتح عليها مقصورته. أما الدخان فكان يملأ فضاء المقصورة ويزيد فيتكوم ثم يتساقط على الأرائك مستسلما لجاذبية الصوف والحرير.. وكان يدهشني صمته إلى درجة أنني تمنيت لو يظل صامتا.. ثم رأيته قد أخرج الصنبور من فمه متوقفا عن السحب، وأشار به عليّ بأن أقترب منه أكثر ثم قال بتراخي دون أن يفقد الصواب. (وأظنه قد استفاد من تهجي عيوني لكي يبادرني بكل ما تتمناه كل امرأة تكون في حضرة أمير أو رجل يعد نفسه بالإمارة..)

- كم مرة اختلينا في هذه المقصورة يا مرام؟..

قلت له بتغنج:

- لنقل أكثر من ثلاث مرات..

تنهد ثم قال:

- لا شك أنهم ينسجون قصصا عجيبة عن لقاءاتنا.. بإمكان المرء أن لا يفعل شيئا يغضب الله إذا اختلى بامرأة.. ولكن الناس يجعلونه يفعل ما يغضب الله، لأنهم يعتقدون أنه يفعل حتى لو لم يفعل.. إذا دخلت فكرة إلى أفئدة أو أدمغة الناس، فمن الصعب اقتلاعها..

هكذا أيضا كان هارون الرشيد في ذهن العامة.. بل حتى في ذهن وزرائه.. شيوع فكرة ما حتى لو كانت خاطئة عن شخص ما، هي الصورة الوحيدة التي تختزنها ذاكرة الناس ثم يحتفظ بها التاريخ. فلو أن المؤرخين لم ينصتوا إلى العامة، لكانت عقول الناس أكثر خفة ونظارة وشفافية.. وبما أن المسألة حساسة جدا، فقد كان على كل من مهدي عبد الرزاق ومرام الحلبية أن يرسما سبيلا ثالثا يقع بين الدماثة والحذر أو بين الإعجاب والتحفظ..

قال مهدي عبد الرزاق وهو يمسك بخيط الحديث الذي كاد يضيع منه:

- لقد استقر عزمي على أن تكوني على رأس كلية البنات التي نعتزم فتحها قريبا..

وأصرت مرام في الحين على التكلم بنفس العبارات وبنفس الإيقاع:

- أنا أيضا استقر عزمي على أن أكون من جندك.. هذه بهجة لا

تضاهيها بهجة..

- سوف أطلق عليك لقب «مرام الحرة»، كما كان يفعل قادتنا الخالدون في بغداد أو في الأندلس.

وسألت مرام ببراءة ساذجة:

- ما الذي كانوا يفعلونه؟..

بالتأكيد لم تكن مرام تعرف ما الذي يقصده مهدي عبد الرزاق، على نحو الدقة، ولكنها كانت على قناعة أن النساء إذا وجدن من يبعث في أوصالهن نبضات الحرية، فإنهن يصبحن قائدات سياسيات من النوع الأشد حزما وبأسا. وبما أن المرأة الحرة في قاموس الحريم تعني المرأة التي تصبح زوجة شرعية وتخرج من بيت الحريم إلى بيت الزوجية، فقد اختلط عليها الأمر إلى أن سمعت مهدي عبد الرزاق يقول لها:

- هل تعرفين لماذا اخترت لك لقب مرام الحرة؟

- أريد أن أعرف لأن ما أعرفه لا يرقى إلى اليقين..

- لأنك تشبهين عائشة الحرة يا مرام..

- ومن تكون هذه السيدة؟

- عائشة الحرة هي أم عبد الله الصغير.. كانت من الشخصيات النبيلة والساحرة في تاريخنا.. لم يذكرها المؤرخون العرب إلا كأم لآخر ملوك غرناطة، بينما هي إحدى السيدات اللاتي أبلين في دحر العدو الإسباني.. لقد عملت على نقل السلطة من زوجها الشيخ المسن والمترهل إلى ابنها محمد أبو عبد الله الذي كان لا

يزال شابا. وقد فعلت ذلك بخبرة ودهاء. وتمكنت من تأخير سقوط غرناطة لبضعة سنوات. كان ابنها يعود إليها شاكيا من ساحة القتال، لكنها لم تيأس. قالت له ذات مرة: «إذا تكسر سيفك، تقدم خطوة نحو عدوك فسوف يطول سيفك ذراعا».. في نهاية المطاف رأته يبكي فصرخت فيه: «لا تبك كالنساء على ملك لم تعرف كيف تحفظه كالرجال»..

كان زوجها المسنّ علي أبي الحسن قد وقع في غرام محضية إسبانية تدعى إيزابيلا. تركته معها في قصر الحمراء ثم دبرت انقلابا دقيقا حمل ابنها أبو عبد الله إلى الحكم. في الحقيقة ربما كانت معركة بين عائشة العربية الحرة وإيزبيلا الإسبانية المحضية.. وبما أن المعركة تحمل في أحشائها مخاطر على الحكم والسلطة. فقد قررت عائشة إقالة زوجها الخائن وإعطاء الحكم لابنها لطمأنة الأندلسيين الذين باتوا قلقين على مصيرهم.

لو أن مهدي عبد الرزاق لم يكن صادقا فيما كان يقوله ليلتها لمرام لتوقف عن الكلام آنذاك، أي حين طرق الغلام «جهشان» باب المقصورة.. أومأ إليه بالانصراف ثم عاود يتكلم:

- كانت عائشة تسكن الجناح الذي يضم ساحة السياح والملقبة ببهو الصبا، ثم اختفت ذات ليلة لتظهر وهي تقود الهجمات على القصر كله حتى هرب أبي الحسن تاركا العرش لابنه أبي عبد الله.. أنا الآن لن أكمل لك القصة.. ولكن أريد فقط أن أقول لك يا مرام:

- مغامرة عائشة قذفت بنساء أخريات إلى عالم القيادة

والسياسة.. أنا لن أقذف بك. لكن يمكن أن تقذفي بنفسك..

ولفهم الموقف جيدا في تلك الليلة.. كان لا بد أن نعود إلى قصة حياة مرام حسن الحلبية التي أصبحت تعرف «بمرام الحرة»..

*** *** ***

لو لم أدرس الموسيقى لمدة عامين بالمعهد الموسيقي بحلب، ما كنت لأتعلم الغناء على أصوله. ليس هذا تبجح أمام فنانات عربيات ملأن مطاعم وملاهي إسطمبول بالصراخ والرداءة. ولا هو تلفيق من أجل الحصول على حظوة ما لدى الجمهور.. أو لدى لجنة خليجية لنيل الجوائز. كانت الموسيقى تحيط بي من كل جانب.. في العائلة حيث كانت أمي تعزف العود وتردد بعض أغاني إسمهان.. وكان الحيّ الذي أسكن فيه، حي الراشدين توجد به أكثر من فرقة للقدود الحلبية.. أخي الأوسط سفيان كان راقص باليه. عاد من موسكو وهو يفكر في فتح مدرسة للباليه، لكن الحرب أرجعته إلى حيث كان. أخي الأكبر عدنان، كان ضابطا في الجيش في قسم المخابرات الجوية، قطع الاتصالات بنا تماما. بل لم نعد ندري ما إذا انشق عن الجيش أو لا يزال ضابطا أو توفي في إحدى الجبهات.. ولأن الوضع لم يعد يحتمل في مدينة راحت تتشقق تحت عيون أهاليها، فقد عزمت على السفر إلى إسطمبول. (عندما جئت إلى الحياة بعد ولدين ذكرين، كاد أبي أن يجن من الفرح.. أطلق علي اسم مرام تيمنا باسم فنانة قديمة كان يعشقها حسب رواية أمي المغرضة، لكنه كان يناديني دائما باسم «دلفين».. كنت أشبه الدلفين حين كنت صبية، ثم استوى عودي واكتسب رشاقة نادرة

في عائلة أمي وأبي.. أحيانا كانت أمي تناديني بالبجعة، ثم أضافت عمتي إليها نعتا فأصبحت أعرف بالبجعة الوردية)..

حين وصلت إلى إسطمبول عاد لقب «البجعة الوردية» ليسيطر على كياني.. حين أتجول قرب البوفسور أرى نفسي قد تحولت إلى بجعة حقيقية، حتى أنه كثيرا ما تراودني فكرة مجنونة كأن أنزع ثيابي لأصبح بجعة حقيقية. كان الماء يدفعني إلى ارتكاب تلك الحماقة.. وكنت أرى في ذلك عريا مباحا بالنسبة لامرأة مثلي ذات بياض ناصع شبيهة بالثلج.. البجعات يتراقصن حول المياه باحثات عن الانبثاق أي عن الوجود الحر. هن شبيهات لنساء مستحمات داخل الحلم باحثات عن دفء (الشواطئ أو الأنهار لها وظيفة جنسية حسب باشلار، فهي استحضار للأنثى حول ضفاف الماء الناصع، ألبريء المختلط بالروائح والغبطة والرغبة). هذا الشعور لم تكن تدركه مرام لكنها كانت تعرف كيف تعبر عنه بحركاتها ومشيتها وغنجها رغم ذهنها المشتت.

كان شمان مراد، وهو رجل أربعيني يعمل كنادل رئيسي في مقهى ومطعم «شاكاناو» قد بدأ ينصب شباكه لهذه البجعة الوردية.. لقد لمحها وهي تقترب من البجعات القريبات من مقهاه لمدة ثلاثة أيام متتالية.. وفي نفس التوقيت تقريبا.. قبل أن ينتصف النهار.. ثم رآها مرة أخرى قبل أن يأتي المساء بقليل.. وفي هذه المرة اقتربت من مربعه الخاص المسؤول عنه، فدعاها للجلوس كما يفعل عادة مع جميع السياح.. تكلم معها بالتركية في البداية ثم أدرك بسرعة أنها لا تفهم لغته، ثم خاطبها بإنكليزية متواضعة، فلم تدرك جيدا ما كان يقوله.. بعد ذلك أطلق حولها وابلا من الترحيب

باللغة العربية ذات اللكنة الكردية.. ولأن الماء يحررنا من الإرادة المكبلة ويدخلنا إلى عوالم الحس، فقد دخلت إلى المقهى وأنا أنشر عيوني بجميع الاتجاهات بحثا عن مكان مناسب، مشمس ومحاذي للماء (لم يعد للشمس أكثر من ساعتين لكي تودعنا).. قادني شمان مراد (الذي سيقودني فيما بعد إلى أماكن أخرى وعوالم أخرى) إلى زاوية قريبة من الماء وبعد أن هيأ الطاولة وأبعدها عن طاولات أخرى لكي تصبح بين مظلتين شمسيتين تحسبا لمطر قد يأتي فجأة، ناولني الكارت، ثم اقترح عليّ ما إذا كنت أرغب في نارجيلا.. غرست عيوني في الكارت فلم أفهم شيئا تقريبا لأنها مكتوبة باللغة التركية.. وبعد حين اكتفيت بقنينة ماء وكابوتشينو..

في إسطمبول، في بلاد المياه الساحرة.. كل شيء يتنرجس. وكل شيء يصبح ساحرا ومسحورا.. رأيت عالمي الجديد والذي لا زال غامضا وضبابيا في ذلك المساء بعيون ساحرة وجميلة. بعيون نرجس المستغرق في ذاته، المشبع بذاته، الذي يفكر دائما في صورته العظيمة.. ككائن مرتبط أشد الارتباط بالماء.. وها هو يسافر من مدينة إلى أخرى ومن جزيرة إلى أخرى بحثا عن ينبوع يرى فيه صورته معكوسة في صورة الحب.. وآنذاك سيقول نرجس لنفسه: «أنا أحب نفسي كما يحبها من يحبني.. لا لم أعد أحب نفسي كما أنا»..

بدأ شمان يقترب مني من حين إلى آخر ليقدم خدماته وضحكاته. عرفت بحسي الأنثوي أنه نحل ذكر (يعسوب حالما يقتنص فرصته، يختفي من الوجود)، تبادلنا بعض الكلمات الخفيفة والمدعمة بالإعجاب المتبادل.. كانت البجعات تتحركن في جميع

الاتجاهات. راقبتهن بشغف فعرفت أنهن يرقصن على إيقاع ما تحدثه أجنحتهن من دوائر وإيقاعات على سطح الماء.. سألت شمان دون أن أفكر جيدا في السؤال فقلت له:

- أعتقد أنهن يرقصن فرحا بالمساء..

قال شمان بسرعة إذ كان ينتظر أن أنفتح عليه:

- إنهن يودعن النهار والشمس.. لسن حزينات، ولكنهن يبحثن عن الدفء لأن الشمس أوشكت على الرحيل..

أعجبني جوابه اللطيف والمحمل بطيف من الرغبات المكبوتة. وضع يده على طرف طاولتي، فبدا متكئا على عضلة ذراعه المفتولة (أعتقد أنه كان يريد أن يكشف عن مفاتنه) ثم أشار بيده الأخرى:

- أنظري.. إلى تلك البجعة التي تسبح على اليسار لوحدها.. تلك أكثر قلقا.. لكنها أكثر نضجا من جميع أفراد السرب.. إنها القائد الذي يقف في المقدمة استشعارا بالخطر.. والآن حان الوقت لكي ترينها تنضم إلى السرب بعد أن يحل الظلام..

كنت أتابع حركاته بشغف وأستمع إلى تفسيره بانجذاب (هذا أقل ما يجب أن أقوله الآن، وإلا فإنني سأبدو فاسقة في نظر بعض صديقاتي في حي الراشدين بحلب). بعد حين اقترب من البركة الملاصقة إلى البحر، ورايته يحرك الماء بيديه وكأنه يدعو البجعات إلى عشاء باذخ!.. بدت لي اليد المداعبة للماء بتلك الخفة والنعومة، كما لو أنها يد خيالية رغم كونها حقيقية، تسري من تحت الماء نحو يد أخرى باحثة عن المداعبة.. تلك الصورة المنبعثة

من طاقة الاشتهاء جعلتني مرحة ومرهفة وجعلت أناي التعبة أكثر تعلقا بالرجاء. آنذاك عرفت أيضا أن العرافات المشتغلات على سطح الماء بدل الرمل ربما أكثر شطارة لأنهن جنيات خرجن من البحر ولسن بدويات تائهات فوق بحر من الرمال مثل عرافاتنا في بادية الشام!!

عاد شمان نحو طاولتي كاشفا عن ابتسامة عريضة. شكرته لأنه اهتم بي أكثر من اهتمامه ببقية الزبائن (الحقيقة لم يكن يجلس في مربعه إلا عجوزين، رجل وامرأة كانا ينشطان من طاقة الحب لديهما فيما أعتقد).. وحين رآني أستعد للمغادرة، دس لي بطاقته الشخصية مع الفاتورة. عرفت فيما بعد أنه (شمان مراد، رياضي سابق. ونادل – درجة أولى. كما يثبت رقمه وطابع وزارة السياحة في تركيا).. لاحظت وأنا أدخل إلى الشقة التي أسكن فيها منذ نحو شهرين في حي أو «مدينة نيو سراييفو» بضواحي إسطمبول الأكثر جمالا وروعة، أن شمان لم يسألني لا عن اسمي ولا عن بلدي. ولم يحشر نفسه في تلك الأسئلة الصغيرة والمقلقة. فكما لو أنه مختص في الغرباء الذين غالبا ما يحتاجون إلى التخفي ويبتعدون عن الإحراج، فقد جعلني مرحة بأشياء صغيرة، لكنها غاية في الغواية.. فكرت أن يكون شمان واثقا من نفسه. كما فكرت في كونه ربما رجل محترف يتقن فن الغواية بحيث يجعلك أكثر شغفا كلما بدا لك غامضا. (ولكن لماذا دس بطاقته الشخصية؟ وماذا لو أني تركتها داخل صندوق الفاتورة؟ في الحقيقة راودتني تلك الفكرة ولكني لم أحب أن أظهر له كإمرأة لئيمة أو متعالية).. توقفت عن التفكير في شمان حين هاتفتني شاهي شهبار التي

تسكن في العمارة المقابلة لعمارتي.. فكما لو أنها كانت تراقبني من بلكونها، فحالما شاع الضوء في شقتي حتى رن الهاتف:

- هاي مرام.. أكيد وصلت الآن..

- هاي شاهي.. كان نهارا جميلا..

عبأت رئتي بنفس جديد.. ثم قلت لها:

- كان يجب أن ننتظر المساء حتى نعرف ما إذا كان النهار جميلا..

انتظرت شاهي قليلا، عسى أن أحكي لها ما حدث معي أثناء النهار.. وحيث جف صبرها قالت لي بدلع:

- لا تقولي لي أن الغرام قد غمرك فجأة.. ثم أضافت:

- صوتك مليء بحشرجة المرح.. وهذه علامة أولى من علامات الحب..

- أنت تعرفين أكثر مني.. أنا وأنت كائنات لا يعرفن الحب.. يوم. يومان. ثم ننسى..

منذ مراهقتي وضعت الحب في المرتبة الثانية من أولويات حياتي. بدا لي الحب كأنه قطعة موسيقية صامتة لا يمكن عزفها أو خلقها إلا إذا كنا على دراية واسعة بالفن واللعب والخيال، وقدرة خارقة على القبض عليه والإحاطة به والاندماج فيه لتحقيق درجة عالية من الاكتمال. أحيانا أقول لنفسي أن هذا ما لا تفكر فيه نساء اليوم. وأن مثل هذا التفكير يجعلني متخلفة عن الحياة والحب.. وإلى هذه اللحظة وأنا في السابعة والعشرين من عمري لم أستطع أن أحسم بين الحياة والحب.. صديقاتي يقلن

لي أن الحياة هي الحب والحب هو الحياة، غير أنني لا أزال أرفض تلك العبارة التي تبدو لي كتعزية لنساء فشلن في الحياة، فعوضن فشلهن بالاستغراق في الحب.. كنت دائما على قناعة: ما لن نعرف الحياة، لن نعرف الحب.. كل ذلك كان يدور بخاطري وأنا استمع إلى شاهي وهي تدعوني إلى سهرة مع بعض الأصدقاء في الليلة المقبلة. قالت لي:

- مرام.. أنت الآن على جناح موسيقى داخلية!. وغدا سأتشرف باستقبالك على عشاء خفيف مع بعض الأصدقاء..

- أقبلك شاهي.. أنا محتاجة أن اضحك.. مضى زمن طويل دون ضحك.. كل شيء جميل في إسطمبول.. إلا الضحك قليل ونادر.. فكما لو أن الأتراك كائنات لا تضحك..

*** *** ***

فيما كان لويس الرابع عشر يحشد بلاطه في باريس وفرساي، مستعدا لأي غدر على العرش أو غزو خارجي، كانت ألمانيا لا تزال تقع تحت الخوف من الكارثة.. كارثة الغزو التركي. قبل ذلك بقرنين زحف الأتراك على القسطنطينية التي أصبحت تعرف بإسطمبول أو بالإستانة أو بالباب العالي ليعلنوا عن ميلاد إمبراطورية إسلامية مترامية الأطراف تحت قيادة رجل لقب بسليمان القانوني, منذ البداية أدرك الأتراك أن الشعوب على دين ملوكهم.. فإذا ما فاز وانتصر القائد فإن بروتستانت وكاتوليكي وأرتودكسي أوروبا سيصبحون مسلمين. أما إذا خسر أو انهزم، فإن أجزاء من إمبراطورية قد ترتد نحو المسيحية. استمر الأتراك يهددون

أوروبا إلى أن ظهر رجل في روسيا اسمه بطرس. إلى ذلك الوقت وحتى في عهد إيفان الرهيب لم ينتبه الروس الضائعين بين السهول والغابات والثلوج إلى ما يجري من حولهم: لو سيطر الأتراك على أوروبا الوسطى فإنهم سينجحون في محاصرة روسيا من الغرب ومن الجنوب.. لم يكن بطرس الأكبر أقل وحشية من إيفان الرهيب الذي كان نيرون ربما أكثر لطفا منهما.. كما لم يكن أقل ولعا باحتساء الخمر من بقية الفلاحين، لكنه كان يريد أن يصوغ بلاده على النمط الأوروبي. اختار طريق المال والتجارة والموانئ والمدن. بدأ بصناعة السفن لبلاده إذ كان في البداية تاجر سفن. ثم انطلق.. وفي النهاية حطم طموحات الأتراك فأعادهم على أعقابهم.

ذلك الشريط المتورم والمليء بالخوف أو بالفوبيا، أعاد لكريم كروان بك وجع ساقيه المتورمتين بسبب مرض عضال أصابه منذ أن كان جنديا يقف الليل كله حارسا لحدود بلاده الشمالية لمدة خمس سنوات دون كلل ولا تعب.. أحيانا كان يبيت تحت الثلج المتهاطل عليه وهو لا يتحرك. كان الجنود الأتراك مشهورين بالانضباط حتى قيل: إذا أردت كسب معركة، فعليك أولا بقائد من ألبانيا ثم فتش عن الجنود الأتراك.. قبل نحو قرنين وصل جده إلى أضنة على حصانه بعد رحلة سير دامت نحو أسبوع لم ينزل فيها عن ظهر حصانه حتى أنهم اضطروا إلى شق حذائه من فوق قدميه من شدة التورم ثم أخذوه لينام ثلاثة أيام متتالية. وها هو يصل إلى شقة «شاهي شهبار» كما لو أنه جاء على حصان جده. فما إن دخل إلى الصالون حتى ارتمى على الأريكة ونزع حذاءه ليرميه جانبا..

وصل كريم كروان بك متأخرا إلى حد ما. وهو رجل أعمال من

أزمير. يملك عمارات في إسطمبول وعدة مطاعم منتشرة في كل من أنقرة وأزمير وإسطمبول بالإضافة إلى بضعة بواخر تجارية.. ووصل معه فؤاد عبدي، وهو من أكراد سوريا الأقوياء، والمتنفذين في عالم المال والأعمال.. أما مصعب الصراف، رجل الأعمال القطري، فقد وصل شقة شاهي شهبار قبلهما بحوالي ساعة. وهو ما يعني أن مصعب بك كما كانت تناديه شاهي، كان أسرعهم في الوصول إلى الشقة. وهو على أية حال لا زال اصغرهم وأكثرهم شبابا وفتوة.. وصل مصعب مع باشكير آغا الذي ظل صامتا إلى حين المغادرة إلى حد تمنت فيه كل من مرام حسن وسمية القريتلي وشاهي شهبار سماع صوته.. فقد بدا كما لو أنه أقسم بأن لا يفتح فمه في تلك الليلة. غير أن المفاجأة لا تقف عند صمت باشكير آغا (الذي قد يكون لا يتقن العربية إذ دار الحديث من أوله إلى آخره بعربية مهشمة ومفوحة بلكنة شامية) وإنما تمتد إلى حضور مراد شمان.. فحتى ما قبل الوداع بقليل كانت شاهي تعتقد أن مرام هي التي استدعت مراد شمان فيما كانت مرام تعتقد أن شاهي هي التي استدعته.. وبذلك وقع خلط وبعثرة للكلام وغيرة مستحدثة وشكوك. اختفت سحابة الشكوك بين مرام وشاهي حين استأذن مراد شمان بالانصراف موجها كلامه إلى كريم كروان:

- كريم بك.. ربما تأمرني بشيء..

- تمام شمان بك.. يمكنك الذهاب. غدا قد نلتقي كالعادة..

وقف الجميع لوداعه، وشكروه على صحون الأكل التي سبقته إلى الشقة.. ولكن مرام ظلت واقفة ثم سارت أمامه لتفتح له

الباب وهي تودعه قائلة:

- لم أكن اعلم أنني سأراك مرتين خلال أربع وعشرين ساعة (وأظنه بحث طويلا عن الرد قبل أن ينطق به، أو هو يملك بداهة خارقة) إذ سمعته يقول قبل أن يتجه إلى المصعد:

- قد نتأخر طويلا.. ولكن حين نأتي، نحضر دفعة واحدة..

وبالرغم من أن مصعب القطري قد لاطفها كثيرا وأن كريم بك قد أغدق عليها الكثير من الأوصاف الخفيفة والحلوة المذاق لدى امرأة لم تتخط بعد الشباب.. وأن باشكير آغا قد جعلها مرحة ومتيقظة الحواس وهو يبدو كأمير قوقازي أشقر يستطيع أن يروض ستة أحصنة دفعة واحدة. كذلك بالرغم من وسامة ودماثة فؤاد عبدي، وهو الوحيد الذي كان يتكلم عربية واضحة ذات مذاقات شامية موغلة في التغنج، رغم أصوله الكردية إلا أن مرام قد استفحل بها التوتر حين غادر مراد شمان الشقة. بدت وكأنها تركت وحيدة. ثم لم تأخذ فرصتها في عرض مواهبها الفنية وولعها بالموسيقى. وبإحساس الأنثى أن الرجل الذي يسرع إلى المغادرة هو الأكثر ولعا وقربا إليها، فقد كادت أن تهاتفه لكي تطمئن عليه وتشكره على حضوره!..

هكذا حالما نعود إلى بيوتنا بعد حفل عشاء أو سهرية أو حتى جلسة في مقهى، نشرع بسرعة في تقييم الأشخاص الذين قابلناهم وتحدثنا معهم وتعرفنا عليهم.. وثمة أكثر من طريقة لمثل ذلك التقييم: الرجال يبدأون بالنساء والنساء يبدأن بالرجال. أما إذا كان الجميع رجالا، فإننا غالبا ما نبدأ بالأقل حضورا وتوهجا

لإسقاطه من القائمة تماما. أما إذا كان الجميع من النساء فغالبا ما تبدأ المرأة بإسقاط الأكثر حضورا وتوهجا أيّ بالتي سببت لها إسهالا في المعدة.. مرام أرادت أن تقوم بهذا الامتحان في التقييم فاحتارت بمن تبدأ. تركت النساء جانبا. أو لنقل مرت على كل واحدة بسرعة، فكتبت على دفترها الصغير كما لو أنها لا زالت تتعلم كتابة النوتة: شاهي امرأة نزقة ومليئة بضجيج العواطف ورنين المال. سمية القريتلي ليست لديها أية فكرة واضحة عن أهل الشام وهي تبدو على حماس غامر بإسقاط بشار الأسد. طموحة لكنها غامضة. بعد ذلك كتبت اسم مراد شمان ووضعت تحته خطين ثم رأت أنه رجل أنيق في هندامه وكلامه، وسيم وطيع. يحاول أن يكون نفسه وهو ليس نفسه في الوقت نفسه. مصعب الصراف، شره في الأكل والنظرات. يقول أشياء كثيرة دون أن يكون مفهوما. خال من أية مسحة شاعرية لكنه قوي ومتنفذ. باشكير آغا: أمير غامض وساحر ومستغرق في ذاته كما لو أنه نرسيس، أكثر صدقا من جميع الحاضرين حتى لو لم يتكلم. أما كريم بك كروان فهو رجل قوي.. يبدو كما لو أنه زعيم مافيا قديم ومحترف. ثم لاحظت التالي: كان يبتلع العرق كما لو أنه ماء.. وقد ردد مرارا: ما أروع هذا النبيذ!.. فهل كان يشرب عرقا أم نبيذا؟.. والأرجح أنه لم يفرق في تلك الليلة بيني وبين شاهي أو سمية!..

الفصل الثاني

كان نجيب سليمان مصريا أصيلا وقبطيا عريقا. كان باحثا في فن العمارة. أبحاثه أذهلت العديد من زملائه خاصة أولئك الذين كانوا يستكثرون عليه موهبته وجهده ومثابرته.. كان يردد دائما على طلبته في جامعة القاهرة قولة تعلمها في ألمانيا أيام دراسته قد نطق بها فريديرك الأكبر ذات يوم «لم يكن الناس كما قيل لهم، متساوين في القدر. فكما هي بعض سلالات الكلاب أفضل من غيرها في الصيد. هم كذلك ينتمون للسلالة الأفضل في الحكم».. قليل من طلبته من كان يدرك جوهر تلك القولة، ولكن حين زار الرئيس الأمريكي جامعة القاهرة في العام 2009، قال أحد الطلبة: ها هي سلالة أخرى تتأهب للحكم.. ذلك ما يقصده أستاذنا نجيب سليمان».

في الحقيقة لم يكن نجيب سليمان يقصد على وجه الدقة ما ذهب إليه أحد طلبته، كما لا تؤهله شجاعته ولا دماثته ولا درجتة العلمية ولا حتى دينه لكي يقول أن من يتهيأ للحكم الآن هم سلالة من كلاب الصيد.. فهناك دائما من يذهب مباشرة للشتم والتحقير. كما يوجد دائما من يوظف كلمات وتعابير الآخرين لخوض أسوأ المعارك. ومتى كان الوعي هابطا، كانت اللغة كذلك هابطة. إن المرء وهو يعاني من الإحباط لا يعود قادرا

على صناعة النبل حتى لنفسه. ويزيد التعصب من ذلك الهراء الذي يشبه الخراء لدى الناس حتى يصبح ثقافة عامة.. لا يخاطب المتعصب والمحبط نفسه أو غيره بلغة نظيفة ونابضة، وإنما يمعن في إذلال اللغة حتى تصبح أداة لهدم كل جسور التسامح والتعالي عن الصغائر..

تساءل يوما راهبا بوذيا أمام أبناء وطنه: «لماذا نعتقد أن شخصا يتباهى بأنه الأذكى والأقوى والأشجع والأكثر موهبة، أنه شخص سخيف ومحرج لنفسه، بينما حين يتكلم رجل باسم شعبه فيقول: نحن الشعب الأفضل والأقوى والأذكى والأكثر موهبة على سطح الأرض يصفق له أبناء وطنه بحماس ويسمونه وطنيا ثم يتخذونه قائدا؟».. أجاب نجيب سليمان عن سؤال الراهب البوذي بحكمة القبطي الصبور الذي كان ذات يوم في مقدمة الدنيا، فأصبح عند مؤخرتها، دون أن يفقد صوابه أو حسه الفني الرفيع.

- لا يوجد شيء وطني في تلك الغوغائية.. يا إسماعيل داي.

ثم أضاف يقول بعد أن وضع نظارته جانبا وكان جالسا في صالون فندق «ألبير الأول» الذي يتوسط العاصمة الجزائرية مع شلة من زملائه المختصين في فن العمارة..

- يستطيع الإنسان أن يتعلق بوطنه من دون الحاجة إلى الإصرار على أن بقية الأوطان لا قيمة لها أو أن بقية سكان العالم من النفايات..

كان إسماعيل داي الجزائري الأصيل الذي ينتمي إلى سلالة الدايات هو الوحيد الذي كان ينصت جيدا لنجيب سليمان.. ورد

عليه بسخرية قائلا:

- ولكن نحن المصريون والجزائريون سادة في هذا النوع من العجرفة.. الجزائريون يعتقدون أن لا وطنية بعدهم. والمصريون يعتقدون أن لا عراقة تضاهي عراقتهم.. حتى لكأن كل ما هو أصيل في هذا العالم ينتمي إلى مصر وكل من هو شجاع في هذا العالم هو جزائري..

- وبسبب ذلك الإسفاف والإشباع، لم يعد هناك سلام في بلاد العرب..

قال البروفسور نجيب سليمان ثم أضاف متسائلا:

- ألا ترى معي صديقي إسماعيل، أن الربيع العربي كان نتاج ذلك الإشباع السخيف.. من المحاكاة الركيكة. نجح التونسيون في طرد رئيسهم.. أو هكذا اعتقدوا، فهب جميع العرب لكي يفعلوا نفس الشيء.. كانوا كما لو أنهم يقولون لأنفسهم: لماذا هم نجحوا وليس نحن!؟ أنا نفسي سمعت من يقول ذلك في جامعة القاهرة وفي ميدان التحرير.. «التونسيون ليسوا أفضل من المصريين.. لا بد أن ننجح ونطرد أبو الهول من قصره».. كذلك فعل الليبيون.. ثم تحرك اليمن فبدا وكأنه عائد إلى عصر سدِ مأرب.. ثم هب السوريون بجميع طوائفهم لتمزيق جسد الأسد فإذا بهم يمزقون بلادهم ومدنهم وقراهم.. وهكذا!..

لأول مرة يعثر إسماعيل داي عن مصري مختلف. يشبهه كثيرا.. ولا شك أن نجيب سليمان قال لنفسه نفس الشيء: «لأول مرة أعثر على جزائري مختلف، لا يعتقد البتة أنه من «شعب مختار» نسي الله أن يذكره في إحدى كتبه!».. فرغم أن إسماعيل داي

ينتمي بالدماء إلى عائلات الدايات العريقة التي حكمت الجزائر لعدة قرون، إلا انه لم يكن يظهر أمام زملائه في الجامعة أو أصدقاءه في المقهى أو جيرانه في الحي إلاّ كرجل متواضع.. يتكلم بأناقة كما لو أنه يحصي عدد الكلمات التي ينطق بها.. لا يخلط بين العربية والفرنسية والأمازيغية كما يفعل الآخرون. يبتسم لإرسال طاقة إيجابية إلى كل العابسين والمتوترين والغاضبين.. ولا يتبجح ابدا بأنه حفيد أصيل لحسين داي.. درس في ألمانيا وتخرج كمعماري منذ عدة سنوات واشتغل طويلا على مشروع إنقاذ حي القصبة في الجزائر العاصمة.. واجه معارك عنيدة مع البيروقراطية والجنرالات وكذلك المنتقدين.. واكتشف أن أغلب المالكين يريدون الهدم ليرثوا أراضيهم ثم يبيعونها بأعلى الأسعار. لا أحد يريد التاريخ.. حتى الجنرالات الأكثر وطنية في التلفزيون والصحف يدفعون الناس إلى رفض صيانة حي القصبة من أجل أن يشترونها من أصحابها بأبخس الأسعار.. قال إسماعيل داي معلقا على كل مل يجول في خاطره وخاطر نجيب سليمان:

- هل تعرف ماذا يسمي الألمان مثل تلك الإسفافات.. إنهم يطلقون كلمة واحدة لتلخيص كل ما هو هابط ودنيء وسفيه ومدعي وسخيف ومقرف ومزيف ورديء وغير أصيل ومبتذل ومنحط، كلمة واحدة هي كلمة «كيتش».. نحن كيتش العالم يا صديقي نجيب!..

- وهل تعرف أنت يا صديقي إسماعيل ما أصل هذه الكلمة كيتش؟

- لا تقل لي أنها عربية الأصل. وإلا فإننا سنكون جزء من هذا

الكيتش..

- نعم هو ذلك. وهل تعتقد أن نختلف إذ نقرر أن نختلف.. ثمة محركات جدا معقدة، أصيلة ومكتسبة في الدماغ.. استطاع العلم أن يغير لون الجلد ويستبدل الدم داخل أجسادنا ويفك شيفرات أجدادنا البعيدين جدا.. لكنه لم يعرف كيف يغير محركات الدماغ البشري.. هل يمكنك أن تعطيني إنسانا واحدا في العالم لا يحبّ.. أو لا يصاب بالغيرة، أو لا يفكر في الانتقام؟..

- وما أصلها بالعربية؟ قل لي.. أنا جدِ فخور الآن.. ها أن الألمان يأخذون كلماتنا ويجعلوا منها مصطلحات يحتاج العرب إلى تفكيكها للحصول على قدر من الإشباع.. هل هذا ما يجب أن أدركه.. أو ثمة شيء آخر يا أستاذ.!؟

- بالطبع ثمة شيء آخر.. هو أن نعرف أنفسنا حتى نقيم الآخرين بعناية ودقة..

كلمة كيتش يا أستاذ، تعني النفاية أو الخرقة. أي الممسحة، وبما أن الممسحة مصنوعة من القش أو من الخيش، وهو أردأ أنواع القماش فإن تحويرا بسيطا قد طرأ على القش أو الخيش لكي تصبح كيتش.. أظن أنني أقنعتك.. كما أقنعت من قبلك أحد الفنانين الألمان..

كان إسماعيل داي قارئا جيدا لميلان كونديرا. قرأ أغلب رواياته: الخلود، حياة مرحة، خفة الكائن التي لا تحتمل.. الحياة في مكان آخر.. وقد عرف من خلال قراءاته أن كونديرا كان مولعا باستعمال تلك الكلمة لشدة احتقاره لشعب استبدل الكرامة باللامبالاة وعاش تحت الاستبداد مخمورا بالمجد المزيف.. عرف

أيضا أن كونديرا ابتدع لهذه الكلمة معنى آخر أكثر ثراء حين اكتشف أن الإنسان لا يزال سجينا لفكرة أو لإيديولوجيا أو حتى لدين تحت سحر الاستبداد. ثم حين يكتشف نفسه خارج السياق يصبح ناقما من نفسه باللامبالاة إلى أن يتحول إلى خرقة أو نفاية..

- هل تقصد أننا ننتقل من استبداد إلى استبدادا!..

- وكذلك من قهر إلى قهر.. كنا نعيش في قهر بسيط اسمه الاستبداد. الآن ها نحن ننتقل إلى القهر المركب . وهذا اسمه الديمقراطية العربية المعجونة بالدم والإرهاب.. في كل بلاد الدنيا لا يبني الديمقراطية إلا الديمقراطيون. إلا في بلادنا.. ها نحن نرى بعيوننا أن من يبني لنا الديمقراطية.. إما إرهابيون عائدون من أفغانستان أو جنرالات مهزومون أو الحلف الأطلسي.. وهذا أيضا نوع آخر من الكيتش..

آنذاك كان لا بد أن تبدأ الجلسة المسائية من السيمينار الذي تقيمه جمعية المحافظة على التراث المعماري الجزائرية.. ولذلك فقد تهيأ إسماعيل داي للحاق بالقاعة، فنهض نجيب سليمان ثم سارا معا وكل منهما مثقل ببقية حديث هو أقرب إلى الجلد الذاتي..

*** *** ***

ألقى نجيب سليمان محاضرته حول العمق والجوهر والسطح. وبدا راديكاليا في تحليله حتى نال إعجاب الحاضرين.. قال: أن العرب لا يعرفون ما هو العمق ويخلطون بينه وبين الجوهر. ورأى في ذلك اعتراضا في المفاهيم والمسافات نتجت عنه ثقافة

السطح.. وقال أيضا: رغم أن الحضارات القديمة في هذه المنطقة كانت تصبو إلى السمو والعلو إلى درجة أغضبت الله بأبراجها ومسلاتها ثم تصالحت معه بصوامعها وكنائسها، إلا أن العالم العربي يبدو الآن كما لو أنه مساحات خالية من العمق.. وكائنات فاقدة للجوهر.. كل شيء أصبح متعجرفا، مسطحا، رديئا، خاليا من الحياة. تراكميا.. كميّا. أراجيف وأكاذيب وادعاءات ومهارات في التحيل وفدلكات وهرطقة وأونطة وبهلوانيات.. العمارة لا تعني وجود عمران.. والمدينة لا تعني وجود مواطنين.. والأحزاب لا تعني وجود ديمقراطية.. والتنمية لا تعني العمل.. وكذلك الحب ليس إلا قناع لإخفاء رغباتنا ونزواتنا..

كان إسماعيل داي يستمع إليه بانتباه. وكان خائفا أن يقفز إلى موضوع «الكيتش» فيحطم محاضرته قبل أن يلقيها، وقد اختار لها عنوان: «الكيتش أو فكرة الخلاص الجماعي».. وحين ترك نجيب سليمان مقعده على المنصة، تنفس إسماعيل الصعداء قائلا لنفسه: لم يترك شيئا لم يفعله.. ولكن الحمد لله أنه لم يذكر كلمة الكيتش.

بدأ إسماعيل داي محاضرته بإحضار الفيلسوف أفلاطون الذي قال ذات مرة: «إننا نذهب أو نغرق في الحب لأننا نريد أن نصبح مكتملين.. ومعنى ذلك أن الحب هو رحلة بحث عن الاكتمال.. أو عن الهيئة الأولى».. قال إسماعيل داي وهو يستشهد بما جاء في كتاب -المحاورات- لأفلاطون الذي أورد حكاية عن حفل عشاء، قام خلاله الكاتب المسرحي الساخر أرسطو فانيس بتسلية ضيوفه حين روى لهم التالي: كان البشر فيما مضى مخلوقات ذات أربع أذرع وأربعة أرجل ووجهين. وذات يوم أغضبوا الآلهة، فشطر

الرب زيوس كل واحد منهم إلى اثنين. ومنذ ذلك الزمن فقد كل فرد (رجلا أو امرأة) نصفه الثاني.. ومنذ ذلك الزمن دخل كل فرد في رحلة معاناة بحثا عن نصفه المفقود حتى يشعر بالاكتمال..

ما قاله رجل ساخر وثمل في ذلك العشاء، هو ما نعتقده حتى الآن. إننا ناقصون ونتوق إلى الاكتمال. ولكن الرحلة طالت وأصبح من الصعب الحصول على الاكتمال، فذهبنا إلى الادعاء.. أو الزيف أو الكذب أو التمثيل لنعوض ما ضاع منا خلال تلك الرحلة..

أضاف إسماعيل داي: ها هنا حين يعجز الفرد عن بلوغ الاكتمال، تنبت فكرة أخرى هي ليست دائما نبيلة أو عظيمة كما قد ينظر إليها.. إنها فكرة الخلاص الجماعي.. هذه الفكرة غالبا ما يعتنقها الحالمون بعالم أكثر عدلا وسعادة، لكنها في النهاية غالبا ما تجعل منهم مغفلين أو نفايات أو سلع كاسدة.. يبدأ الشعور بكونك نفاية، من التعارض بين أنفسنا وبين العالم. آنذاك يسيطر عليك الإحساس بأنك خارج السياق وخارج المعنى. وهذا ما يدفع بك إلى الاستعانة بأشياء مزيفة وتافهة وأحيانا براقة للتخفيف من ثقل ذلك الشعور.. ولكن وأنت تبحث عن معنى لذلك تكتشف أن كل ما يحيط بك لا يعدو أن يكون لعبة خداع. هذا ما يحدث للمناضلين.. سرعان ما يندمجون في فكرة السمو والخلاص والتضحية، وحين تنقشع السحب، يكتشفون أنهم بعيدون عن الجماهير.. أو هم غرباء عنهم.. يصابون بالإحباط والفشل ثم يزعمون أن الجماهير غبية، وأن فكرة الشعب هي ذاتها فكرة مزيفة. وأن الشعب لا يريد الخلاص وإلا تبنى أفكارهم وسار

معهم لأنهم هم الخلاص المحض..

خفض الدكتور إسماعيل داي من صوته قليلا وتناول جرعتين من الماء ثم عاد ليقول:

- سأضرب لكم مثلا عن ذلك بنفسي: حين كنت شابا كنت أنتمي إلى اليسار. كانوا يصفوننا باليسار المتطرف.. اندمجنا في مقولة الثورة مستمرة لتروتسكي.. واعتقدنا أن الجماهير يجب أن لا تتوقف ولا ترتهن للأحزاب.. كنا نقرأ بنهم ونتجادل بعنفوان ونحلم بعالم جديد متحرر، حفيف ومليء بالوعود والسعادة.. شيئا فشيئا بدأت أكتشف أننا نقوم بعمليتي خداع في نفس الوقت.. خداع الذات وخداع الناس.. فأن تكون أنت ولست أنت في نفس الوقت، أمر لا يطاق.. يجعلنا نتعذب دائما أو نتشبه على نحو مستمر.. في لحظة ما بدأت أشعر كما لو أنني بهلوان، فكان علي أن أقود نضالا ضد نفسي قبل أي نضال آخر ضد البورجوازية.. وحين تعاقبت أحداث عنيفة في بلادنا، بدا لنا أننا أصبحنا خارج السياق. ولأننا أصبحنا خارج السياق، أصبحنا ضد السياق. وها هو ما يسمى بالربيع العربي يأتي ثم يمضي دون أن يكون في إمكان من نذروا أنفسهم للثورة أن يجعلوا منه ثورة أو ربيعا.. وما حدث لكثير من المناضلين الآن، عشته أنا منذ حوالي عشرين عاما.. كان سقوط جدار برلين بالنسبة لي الصدمة التي دفعتني إلى سياق الحياة من جديد.. لم أنتبه إلى أننا خارج الاهتمام والسياق والمعنى إلا حين تحول جدار برلين إلى نفاية في قلب أوروبا.. إن هذا ما أسماه الألمان بـ«الكيتش». وحين أراد إسماعيل داي أن ينهي محاضرته بعد أن تلقى إنذارا بتجاوز الوقت المخصص له..

قال ملخصا:

- الكيتش هو أن نرفع عمارات وأبراجا عالية من الزجاج في قلب الصحراء وتحت بؤرة الشمس..الكيتش أيضا هو أن تكون نفاية دون أن ترى نفسك نفاية، إلا حين يبدأون بجمع النفايات..

*** *** ***

بعد العشاء عاد كل من نجيب سليمان وإسماعيل داي إلى نفس المكان الذي جلسا فيه عند الظهيرة.. في فندق «البير الأول». وهو الفندق الذي سكن فيها ماركس لمدة ثلاثة أشهر بنصيحة من أطبائه عندما أصيب بالربو.. جاء إلى الجزائر ليستريح من برد أوروبا، فكتب عن أراضي وفلاحي الجزائر مستفيدا من أرشيف الإدارة الإستعمارية.. تعرف كذلك على المسلمين فعدل نظرته إلى الدين حتى بدا بالنسبة لفيورباخ كما لو أنه مرتد عن أفكاره.. كان اسم الفندق وكذلك بناؤه الكولونيالي يوحي بأنه يحتوي على عظمة إضافية، لأن جزء من تاريخ الجزائر الحديثة قد صنع بداخله.

فكر نجيب سليمان إنه يشبه فندق «شيبرد» بالقاهرة الذي أصبح قطعة تاريخية نادرة شاهدة على عصور طويلة من الفن والأبهة وحتى السينما. بناه رجل يوناني في الأربعينيات من القرن التاسع عشر.. وهذا يعني أنه بني في نفس الوقت مع «ألبير الأول»..

انضمت إلى جلستهما السيدة الدكتورة زينب مرتضى، وهي من جامعة الموصل. وتكتب في الحضارات كما تنشر كتبها بالإنكليزية. وقد درست بجامعة بركلي لعدة سنوات وكانت من مؤسسي منظمة «فريدوم هاوس» الشهيرة. وحين انهار نظام صدام حسين، عادت لتدرس تاريخ الحضارات في جامعة الموصل..

ولكن حين أصبحت الموصل تحت الهوس الديني، انتقلت إلى بيروت لتحاضر في الجامعة الأمريكية..

ما إن استوت الجلسة وسجل النادل طلباتهم من مياه معدنية وشاي منعنع حتى قذف الدكتور سليمان بإشكالية، قال إنها ما انفكت تحيره.. وبعد أن أشعل غيلونه، صاغ تلك الإشكالية على النحو التالي:

- كيف يمكن لثورة أن تتحول إلى كرنفال من الخداع المزركش.. وثورة أخرى تتحول إلى كرنفال من الدم والرعب؟.. وأيهما التي تستحق أن تكون ثورة؟.. ومن الذي يقول لنا أن هذه ثورة وأن هذه ليست ثورة، وهل ثمة ضرورة لمثل هذه الثورات أصلا؟ وهل التاريخ لا يتقدم إلا بهذه الطريقة؟..

بمثل هذه الصرامة التي طرح بها الدكتور سليمان أسئلته، كان على الحاضرين (لقد انضم أثناء ذلك إلى الجلسة المستشرق الإسباني المختص في تاريخ عمارة الأندلس خوسيه دي بلانتيرو. وقد استمع جيدا لما طرحه الدكتور سليمان) أن يجمعوا أفكارهم وصرامتهم وموضوعيتهم حتى لا يتحول مثل ذلك الموضوع إلى هرج أو تهويمات رعوانية..

سأل إسماعيل داي في البداية:

- لا شك أنك تقصد ثورات الربيع العربي..

فرد نجيب سليمان:

- لا ليس بالضرورة.. وإن كان لدينا المثال الأول والثاني في هذا الربيع.

وتكلمت الدكتورة زينب مرتضى من زاوية أخرى فرأت أن

مفهوم الثورة قد بات متخلفا. العصر لم يعد يحتاج إلى مثل تلك الثورات. الثورات اليوم توجد في المخابر والأفران والتكنولوجيات وكذلك في الأفكار ومراكز التفكير.. إنها ليست من اختصاص الشوارع كما لا زلنا نعتقد نحن العرب.. إذا تركنا الشوارع تصنع ما تريد في عصر الديناميت والأحزمة الناسفة، فإنه لن يبقى لنا ما نفعله!..

لم يكن بلانتيرو ربما متحمسا للكلام، ولكن لا بد أنه شعر بالاستفزاز وهو يستمع إلى كل ما قيل لمدة نصف ساعة.. وكما لو أنه شعر بالحنق رغم دماثته، فقد ذهب مباشرة إلى لبّ الموضوع. وبعد أن أخبرهم بأنه قام بزيارات عديدة خلال السنوات الأربعة الماضية لكل من تونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا والعراق، قال بصوت أجش:

- إن ما يجعل ثورة حمراء، عنيفة، دموية، وأخرى ناعمة، هو كمية الشر الذي تحمله بداخلها.. ذلك الشر المبتذل المعجون بالإهمال واللامبالاة. أقول لكم أن أبطال الثورات الحالية ليسوا هم أبطال الثورات الذين قرأنا عنهم.. الاختلاف قائم هنا.. كان ثوار الماضي يتحركون عبر وعيهم واستعدادهم. أما ثوار اليوم، فهم ماكينات غير واعية يجري تحريكها من خارج الإرادة..

أضاف مسترسلا:

- وحين يحل الاستخفاف والاستهزاء يكثر الابتذال. وحين يعم الابتذال تصبح الإرادات زركشة شعارات.. كل ثورات العرب رفعت شعار الإرادة - إرادة الحياة، ولكن كم من الناس كانوا يفهمون معنى الإرادة.. أصبحت قمصانا يرسمون فوقها شعارات

وصورا تمتد من المطرقة إلى الشفاه الحمراء.. ثم أعلاما مختلفة ومتضاربة وترمز إلى عصور شتى.. بينما العدو يتفرج ويضحك هازئا لأن عامة الناس، وخاصة العمال والمثقفين يفضلون تصديق العدو وجديته وصرامته للحفاظ على هيئاتهم ورواتبهم بينما الجنود يشهرون بنادقهم في مواجهة الناس بدعوى حمايتهم.. ولكن ممن.. العكس هو صحيح.. من أجل حماية الذين يدبرون مكيدة قاتلة لتلك الثورة من عامة الناس..(عادت ساندرا مساء إلى بيت أهلها بعد نهار طويل من الصياح وسط المسيرات.. كانت طنجة قد بدأت تتحرك بعد أن امتلأت شوارع الرباط بالمتظاهرين المطالبين بالحرية والديمقراطية استجابة لما حدث في كل من تونس ومصر وليبيا. عادت خائبة ومنكسرة الخاطر.. لم تلمس الحماس الذي كان يحرك الآخرين في بقية العواصم العربية.. وبما أنها عاشت عاما كاملا في أثينا. فهي أيضا لم تلمس ذلك الوعي الذي كان يحرك المتظاهرين في أثينا.. وحين سألتها أمها عن سبب انكسارها، قالت لها:

- الناس لا يفهموننا..

ورد أبوها الذي كان مندمجا مع أخبار محطة ميدي 1:

- أنتم لم تفهموا الناس. هذا أكثر صوابا يا ساندرا.

احتدم النقاش بين ساندرا ووالدها في ذلك المساء إلى حد جعل الأم تتدخل لتنهي ما كان يمكن أن يسبب في شرخ عاطفي بين ابنتها وزوجها.. ثم أدركت ساندرا بسرعة أن المسألة لا توجد فقط في الشوارع، بل هي موجودة في كل بيت.. بدءا من بيت أهلها).

ما رواه الأستاذ بلانتيرو حدث مع طالبته ساندرا سلطاني.

وكان يريد أن يقول لزملائه آنذاك أن الناس العاديين أصحاب المصلحة الكبرى في الثورة كانوا لا يفهمون شيئا عن تلك الثورة، بل كانوا كمن يحدسون بمخيالهم الثقافي وجهازهم العصبي أن ما يحدث ليس ثورة..

ولكن طنجة لا تختلف هنا عن «بويرتا ديل سول» الإسبانية. فطلاب قسم العلوم السياسية والذين هم عادة طلاب متسيسون للغاية وقد قرأوا ماركس ولينين وتروتسكي، عادوا هم أيضا من الشوارع بعد ثلاثة أيام من المسيرات خائبين. وقد علقوا: بأن الناس ما كانوا يفهمونهم، بل رفضوا شعاراتهم وقالوا لهم: أنتم لستم منا..

وحسب الأستاذ بلانتيرو، رغم أن خيبة طلاب طنجة وطلاب «بويرتا ديل سول» واحدة ومتشابهة إلا أن الحياة الاجتماعية لما يسمى بالناس العاديين في كل من المغرب وإسبانيا ليست متشابهة.. هنا نلاحظ أن هناك تشققات في هوية المتظاهرين.. هم يريدون ربما نفس الهدف، ولكن المواجهة مع العدو تتطلب أولا مواجهة التناقضات الداخلية.. نخلص إلى القول: أن القيادة مفقودة في الجانبين والهدف ضبابي.. والحساسيات عالية.. وقوة التأثير الإعلامي بلا شفقة.

كان إسماعيل داي يستمع جيدا لما كان يقوله البروفسور بلانتيرو من خلال شهادات لطلابه في المغرب وإسبانيا. وقد تذكر في تلك اللحظة ما دار بينه وبين ابنه مروان حين انطلقت مظاهرات الجزائر العاصمة في منتصف العام 2011. قال، أن ابنه مروان هو الابن الأكبر. وهو مهندس حديث التخرج.. وقد خرج

إلى الشارع أكثر من مرة للمشاركة في المظاهرات فلم يكن ليفهم شيئا مما يحدث. لا أحد في الشارع كان ليستمع إلى الآخر.. كما أن كل واحد كان يعيش ثورة بمفرده.. وحين عاد إلى مصنع الكابلات الذي يعمل به، وجد أن العمال يريدون الذهاب إلى أعمالهم.. مجموعة صغيرة كانت تصرخ: خونة.. خونة. ولكن غالبية العمال، رغم أن مركزية النقابة قد أعلنت عن إضراب مفتوح، أصروا على مباشرة أعمالهم.. وقد كان واضحا أن الذين يريدون الإضراب أقلية إلى درجة أن مروان ابني قال لي:

- أعتقد أن النقابة قد وقع شراؤها من جهة ما ليعلنوا الإضراب.. والأكثر وضوحا أن العمال لم يعودوا يثقون في نقابتهم..

وسألته عما يقصده بأن النقابة قد وقع شراؤها، فأجابني:

- ثمة نقابات فرعية ومحلية تعمل لحسابها. تتصل بأصحاب المعامل وتهددهم بالإضراب. ثم يدخلون في مفاوضات. وأثناء ذلك تحدث الصفقة.. يحصلون على أموال وهدايا ثم يذهبون إلى مصنع آخر أو معمل آخر لتعطيل العمل فيه لصالح معمل آخر..

لم يكن لدي الكثير مما أقوله لابني. وكنت أخاف عليه أن يفقد حماسه لأي عمل اجتماعي أو سياسي، بينما هو ما كان ليصدق أن النقابات قد تفعل مثل تلك الأشياء المشينة.. وقد حاولت أن أفهمه أن النقابات رجعية بطبعها لأنها تتمعش من مآسي العمال وأموال الأغنياء. فهم محتالون وكسالى بطبعهم. يصعدون على ظهور العمال لكي يصلوا إلى جيوب الرأسماليين.. ولكن هذا ما كان ليرضيني قوله.. وهنا تصدى نجيب سليمان للمسألة:

- المهم في كل هذا العرض الدموي الذي عرفه العرب.. وهو

عرض لا يزال متواصلا بأشكال أخرى أكثر عنفا، أن السياسة ليست شيئا على مزاجنا، كما هي ليست دائما من صنع الذين نراهم يخرجون إلى الشوارع ويعرضون صدورهم للرصاص.. إنها لعبة فظيعة.. لقد أصبحت شيئا آخر في عالم اليوم.لم تعد مجرد مصطلحات نعرفها نحن المثقفون ونتفنن في شرحها. الذين يخرجون إلى الشوارع لا يحبون هذه المصطلحات وبالتالي لا يحبون الذين يستخدمونها.. ومن ناحيتي أعتقد أن ذلك ما يحمل ثورة إلى الفشل.. ها نحن مهزومون للمرة الثانية.. وكذلك جزء كبير من أبنائنا.. الهزيمة هنا تعني شيئا واحدا: ما يعتقده الناس أو ما يرونه - شيئا منطقيا - يختلف عما نراه نحن.. الثوريون هم الذين بإمكانهم تحويل - الفهم العام - باتجاه التغيير.. وبما أن الثوريين العرب لم ينجحوا في ذلك، فقد تركوا المهمة بيد الذين لا يريدون التغيير..

ثم تابع يقول:

أنا أيضا التقيت ذات مرة في شارع ماسبيرو بمجموعة من الطلاب وكان من بينهم الشابة نادية وهاب التي قال عنها الإعلام، أنها أطاحت بحسني مبارك. وقد لمست أن جميعهم ضد الفساد وضد الرأسماليين والباشوات الجدد وحتى ضد الملتحين والإخوان المسلمين، ولكن ما كان ينقصهم هو وحدة الهدف ووحدة الخطاب والقدرة على تحويل الناس إلى وجهتهم.. كانوا يتكلمون كثيرا.. عن الحركات النسوية وتحرر المرأة والدولة العلمانية والمثلية.. وقد قالوا لي جميعهم أن التيار المحافظ قوي جدا.. وأننا نبدو صغيري الحجم. بل هم يتلاعبون بنا يوميا.. وسألتهم:

- من هم هؤلاء الذين يتلاعبون بكم؟..

أجابتني نادية وهاب بنفسها:

- الرموز التقليدية للنظام القديم. إنهم مسرورون جدا لأنهم كسبوا الجيش إلى جانبهم.. هؤلاء من كل صنف.. وجوههم كثيرة.. يظهرون في كل مكان.. يحملون نقاشاتنا إلى أماكن أخرى مجهولة.. إذا كنا راديكاليين كانوا أكثر راديكالية.. وإذا تحدثنا عن تسليح الشعب لحماية نفسه أعلنوا عن موافقتهم.. ولم ندرك أن هؤلاء هم خصومنا إلا حين أصبحنا مجموعة صغيرة جدا.. وتكاد تكون منعزلة ومنبوذة!.

علق خوسيه بلانتيرو:

- لأنهم لم يدركوا ما يمكن أن يجمع أغلبية الناس.. فقد دخلوا في متاهات الهوية والعلمانية والدين.. وكل ما يمكن أن يغرق الناس.. لم يخرجوا بالقنابل أو البنادق إلى الشوارع، ولكن شعارات الهوية والمناداة بالشريعة والمطالبة بحقوق المثليين كانت هي أصابع الديناميت..

كان البروفسور خوسيه بلانتيرو يرى في ذلك كله ما يجعل ثورة حمراء وفاشلة.. وقد ضرب مثالا آخر عن رجل أصلع وصغير الحجم عرف كيف يسير وراءه الروس. كان قائد مجموعة صغيرة، لكن مجموعته الصغيرة ظلت تكبر. وهو عكس ما حصل في القاهرة أو في غيرها. (قال أيضا - أن التونسيين حين رفعوا شعار - خبز وماء وبن علي لا - استطاعوا أن يطردوا دكتاتورا كان يقبض على أجساد وأرواح الناس. ولكن حين دخلوا في متاهات الهوية

والدين فقدوا كل ما يمكن أن يجعل من ثورتهم تغييرا منتظرا)..
تابع بلانتيرو سياقه قائلا:

- ما فهمه لينين ذلك الأصلع العبقري في بداية القرن العشرين، لم يفهمه ثوار العرب في بداية القرن الواحد والعشرين رغم أن كثيرا منهم قد قرأوا ما كتبه لينين.. بعد سقوط نظام القياصرة في روسيا نطق بمقولة بسيطة جدا للروس.. جميع الروس: «الخبز والسلام». هذان الشيئان كانا يلخصان طلب الجميع. أي انتهاء الحرب ثم الحق في الطعام.. كان الروس قد غرقوا في حروب طويلة وخاسرة فقدوا خلالها حريتهم وخبزهم وكرامتهم، ولأنهم كانوا قد ملوا من الحرب ومن الجوع، فقد قالوا لا بد أن ما يقوله هذا الأصلع صحيح.. كانوا يساريين ويمينيين ولم يختلفوا في تصديق هذا الرجل الصغير الحجم والعائد من المنفى.. لم يحدثهم عن الجدلية المادية ولا عن صراع الطبقات ولا عن العنف الثوري المسلح، ولا عن الديمقراطية المركزية، ولا حتى عن أهمية العمال أو أهمية الشغيلة أو دكتاتورية البروليتاريا.. كل ذلك أسقطه لينين من أجل مجابهة الحقيقة الثورية.. ومن أجل تجميع الناس حول هدف واحد.. وهذا ما يسمى بتحويل المنطق العام إلى قضية عامة!.. إنه واحد من أهم الدروس..

كانت السيدة زينب مرتضى قد بدأت تشعر بالألم لأنها لم تشارك في هذه المناقشة. وكانت رغبتها في الحديث عارمة، ولكن الرجال، حتى عندما يكونوا أساتذة كبار، لا يفسحون المجال للمرأة لكي تتكلم إلا إذا ارتدت بدلة واقية من الحياء. قالت السيدة زينب:

- ما حدث في العراق جعل كل الناس يكفرون بالتغيير.. لم يعد هناك في العراق شخص يتكلم مع شخص آخر.. تبدو الأمور كما لو أن برج بابل سقط مرة أخرى وبعدها تفرق الناس في اتجاهات عديدة وهم يتكلمون بلغات جديدة.. مشكلتي هي أنني لم أفهم لماذا كان الناس يريدون التغيير ثم أصبحوا يكرهون التغيير.. ثم لماذا لم يتعلم العرب مما حدث في العراق.. حين ألقت زينب مرتضى بسؤالها لم يعد أحد يرغب في الكلام، لاعتقادهم أن ما من أحد يتعلم من الآخر في هذا العالم العربي لأن العناد يسيطر على الجميع. والعناد هو أصل العمى. وعلق إسماعيل داي قائلا:

- لو أن البقر يتعلم من البقر الآخر، لما انتهى جميع البقر إلى المسلخ..

ضحك الجميع على نحو يليق بمركزهم كأساتذة ومفكرين.. ولكن زينب مرتضى أرادت أن تقول ذلك على نحو أكاديمي:

- إن محاولة تغيير المجتمع من خلال محاكاة التاريخ أو تقليد الرموز، أو استحضار الدين أو استعادة الماضي أمر سخيف. لا يمكن تكرار ما حدث في الماضي. والعرب الذين لا زالوا يحنون إلى الماضي هم أكثر بكثير من العرب الذين يقطعون مع الماضي.. وكما لو أنها أرادت أن تسفّه مثال لينين وقصة الخبز والسلام قالت أيضا:

- إن لم يكن ما يحدث متصل مع ما يشعر ويفكر به الناس، يصبح الأمر مجرد تكرار على شكل مهزلة لانتصار تراجيدي قادم من الماضي.

*** *** ***

ما لا يعرفه كل من إسماعيل داي ونجيب سليمان وزينب مرتضى، أن خوسيه دي بلانتيرو رسام كبير في إسبانيا. وهو شهير برسومات البورتريهات الملطخة.. وبخبرته التي اكتسبها كجوال في المدن الإسبانية وكذلك في طنجة. أصبح يدرك أن الناس يكرهون الكاميرا وباتوا يميلون إلى تخليد صورهم عن طريق الرسم الحيّ. كما هو اكتسب خبرة أخرى في فهم تفاصيل الوجوه.. وتصنيفها.. فكان يميل إلى الوجوه البريئة ويتحاشى الوجوه الجامدة أو الشريرة. ولمدة سنوات طويلة قضاها على الأرصفة، تعلم أيضا أن يقدم نفسه كفنان حقيقي لا كرسام متسول. ففي اعتقاده تفوق على النزعة التسولية التي يتميز بها زملاؤه على أرصفة المدن الأوروبية.. لقد تفوق أيضا على الكاميرا لأنه يعرف كيف يملأ لوحته بالانفعالات والأحاسيس والبهجة.. ولكنه حين أصبح أستاذا محاضرا قرر أن لا يعود إلى الأرصفة ويلتزم بالرسم في منزله.. في فصل الصيف عادة ما يأتي إلى طنجة. فهو يملك بيتا عتيقا يقع على ربوة باتجاه البحر والرياح الأربعة.. فطنجة بالنسبة له نقطة تقاطع بين الشرق والغرب وبين أوروبا وإفريقيا.. استطاع أن يصبح أستاذا زائرا في جامعتها خلال فصلي الشتاء والربيع. أما في الصيف، فإنه يتحول إلى متسكع من متسكعيها.. لكنه كان دائما يحظى بلقب «المتسكع الأنيق».

في تلك الليلة تذكر طالبته ساندرا سلطاني مرتين. في الأولى حين أورد اسمها في المناقشة حول سيرورات الثورة في إحدى زوايا صالون فندق ألبير الأول.. وفي الثانية حين صعد إلى

غرفته ورأى بورتريه «ماريا لوبوكينا» للرسام الروسي فلادمير بوروفيكوفسكي.. تأمل فيها كثيرا وراهن نفسه على أنها نسخة، وإلا فإنه سيسرقها مهما كلفه الثمن، لأن ثمنها يزيد عن عشرين مليون دولار. أعجبه ذلك الحزام الأزرق المقلم بالذهبي والذي ربطه على خصرها نحو الأعلى ليبرز صدرها أكثر.. انتهى الحزام من الجهة اليمنى بتقريطة نافرة ومثيرة فيما كان رداؤها الحريري ينسحب إلى الخلف ليتداعى على ذراعها. أما ذراعها الأيسر فقد كان يستند إلى كتاب وضع فوق المصطبة.. والأكثر مدعاة للتأمل بشراهة، تلك النظرات الحالمة لماريا لوبوكينا.. إنها نظرات ساندرا سلطاني.. ها أنا عرفت الآن لماذا رسمت ساندرا مرتين بنفس الوضعية. لم يكن بإمكاني أن أفعل غير ذلك حتى أحتفظ بأحد أجمل رسوماتي.. إن ما يعذب رسام البورتريه أنه يرسم وجوهه تحت الطلب. وهذا يعني ما إن يفرغ من رسمه حتى يفقده.. حتى أن الإنجاز الوحيد لرسام البورتريه هو فقدان روحه رويدا رويدا مع اللوحات التي يفرغ من رسمها.. في هذه الحال يشبه المومس، تمارس الجنس تحت الطلب. إذا أعجبها رجل فإنها لن تلتقي به مرة أخرى حتى لا تفقد سلطتها.. أما إذا حبلت فإنها ترمي بابنها في دار الأيتام ولا تعود تراه!.. أو حتى تتذكر أين وضعته..

مع ساندرا، أصر آنذاك بلانتيرو أن يحتفظ بالبورتريه الأول ويعطيها الثاني.. وساومها جيدا بأن الرسم الأول سيكون له. ثم قال لها:

لا أريدك ان تخبري أي أحد من زملائك، لأنني لا أقوم البتة برسم طلابي..

بعد برهة من الصمت أرادت خلالها ساندرا أن تنطق ببعض الكلمات لكي تسجل بعض الاعتراضات حتى لا تبدو مستسلمة أو غبية أو سهلة الانقياد، أضاف دي بلانتيرو يقول:

- إنسي لحظة بأنني رسام فقط.. أنا أولا إنسان. قد أعدم موهبتي أحيانا ولكنني لن أعدم إنسانيتي.. واقترب منها كما لو أنه يريد أن يشمّها قبل أن يبدأ في رسمها. ثم قال بصوت خفيف:

- أعرف أن الهوس بصورتنا قد يشكل فجاجة بالنسبة للبعض.. من الصعب أن نفلت من تلك النظرات المحقرة لنا.. ولكن الإنسان لا يستطيع أن يفلت من الاهتمام بنفسه والاهتمام بذاته على رأي فوكو حتى وهو في الشيخوخة. هذه الشيخوخة، تلك اللحظة الفارغة من الداخل.. القلقة والمدركة إنها ذاهبة بصاحبها نحو الحتف.. لم يرد فوكو على أرسطو وتركه يهذي أمام طلابه، لكنه فاجأه بالقول ذات مرة:

- المعلم أرسطو.. لقد كنت تهذي قبل حين وأنت تتحدث عن الشيخوخة.. هل عرفت رسامي أثينا الذين يقومون بتخليد العشاق.. الم تقرأ عن الفراعنة كيف كانوا يحتفلون بالشيخوخة استعدادا للموت؟..

- ولكن يا سيد فوكو، أنت تعرف أن الشيخوخة ليست الموت العفيف.. إنها التدرج نحو الموت..

- نعم أعرف، أعرف أن شيشرون قد ألف كتابا في معنى الشيخوخة. وصاغ كتابه في شكل محاورات. وقد رأى فيه معاصروه قدرة عجيبة على فن التفلسف. الشيخوخة هي فعلا ما تبقى من

العمر لكي نصل إلى الموت، هي ما تبقى من الوجود.. جميعنا نتمنى بلوغ الشيخوخة ولكن ما إن نبلغها حتى نتذمر منها.. تصبح عنوان إهمال الوجود. يصبح العالم كله لا يعيرك ذلك الاهتمام.. في الشيخوخة نفتقد مصادر الوجود.. ولكن إذا عرضت نفسك على رسام ذات مرة، فإنك ستشعر وأنت في الشيخوخة أنك لا زلت موجودا.. إن بورتريه ماريا لوبوكينا لا زال يجعلنا على قدر كبير من الفتنة، وهي قد رحلت عن الحياة منذ أكثر من قرن. هاهي تبدو كشابة قوقازية بالنسبة لسائح قادم من تركيا أو من بلاد آسيا الوسطى.. وهي كذلك تبدو كسيدة أمازيغية بالنسبة لمواطن من المغرب العربي.. بل هي تبدو كما لو أنها من طنجة، لو رأتها ساندرا..

قلت لساندرا بعد أن عقدنا الصفقة:

- سأرسمك لا لكي أجعلك حاضرة في غرفتي، ولكن لأجعلك شابة في كل العصور..

ردت عليّ بابتسامة ثم قالت:

- سيد دي بلانتيرو: وأنا لن أدعك للشيخوخة..

الفصل الثالث

أمضت مهى أكثر من ربع ساعة وهي تربط وتشدّ من خيوط نعلها البني.. ذلك النعل الجلدي المسطح الذي اشترته من لشبونة والذي ما إن تضعه في قدميها حتى تصبح كبدوية.. أو كراعية إغريقية تجوب وديان وجبال أثينا القديمة، وقد تحولت إلى أرصفة ومدن وموانئ وهي تعج بالمقاهي والمطاعم والبارات.. فيما مضى اهتم الأثينيون بالفلسفة ولم يهتموا بالعمل.. والآن ها هم يهتمون بالرقص والموسيقى والأكل والمظاهرات ولا يهتمون كعادتهم بالعمل.. إنهم شعب شرقي وضعوه غصبا عنه داخل الرحى الغربية، فطحنته طحنا.

استعجلها برنار.. ثم علّق قائلا وهو ينظر إلى قدميها:

- عبقرية الرأسمالية أنها تعيد لنا العصور القديمة في أشكال مزركشة.. يا إلهي، أحذية الرعاة أصبحت موضة في عصر غوغل.. حقا أن غوغل جعل منا جميعا أمما من البدو الجدد..

وفي اللحظة التي رفعت فيها رأسها وقد أكملت من شد خيوط نعلها الذي صنع من جلد الإبل، تلقت إشارة من «أيفونها» بوصول رسالة.. فتحت الشاشة بسرعة فرأت أن النص طويل هذه المرة.. وهي رسالة من مراد عباس الذي تركته في تونس هائما بها بعد لقاء

لعبت فيه الصدفة، لم يستغرق أكثر من نصف ساعة.. كتب مراد عباس في ذلك الصباح كما لو كان يحدس أن مهى تتهيأ لجولة في أثينا التي وصلتها البارحة من البرتغال.. (صباحات الليلك مهى.. منذ يومين.. منذ أن حكيت لي عن سفرك إلى اليونان وحبك للموسيقى اليونانية، وأنا لا أستمع إلا إلى الموسيقى اليونانية.. أصبحت مدمنا. وجدت فيها الملاذ والصبر والقوة والأصالة. تأكدت مرة أخرى أن أثينا عاصمة الشرق. وروما عاصمة الغرب.. في الموسيقى اليونانية تستمع إلى النغمات والإيقاعات القادمة من الهند وتركيا وأرمينيا وإيران وبلاد العرب. ليست مجرد نقل أو تقليد وإنما هي تقاطعات أحلام وآلام وملاحم الشعوب، قال الإسكندر المقدوني: ذات مرة ذهبت إلى الشرق لأعلمهم الديمقراطية فعلموني الانضباط والموسيقى. الفلسفة والموسيقى يا مهى هي خلاصة العقل والتجريد.. لذلك سيبقى اليونانيون دائما معلقين بين الشرق والغرب)..

بسرعة نقرت مهى بعض الكلمات إلى مراد عباس فكتبت:

- وجدت غبطة نادرة في رسالتك. أقبلك على أشد من مهل وسوف أعود إليك. نهارك جميل..

لم يسألها برنار إلى من تكتب. فهو لا يريد أن يزعج نفسه، ولا أن يبدو كرجل غيور. ولربما تساءلت عن عدم اهتمامه خاصة وأنها كانت تعض على شفتيها وهي تقرأ رسالة مراد عباس. ثم رأى أصابعها ترتعش وهي ترد على رسالته. وقد يكون أحس بأن هناك شيئا ما قد حرك الدولاب الداخلي لمهى. وعوض أن يتكلم بفجاجة، جذبها من ذراعها بقوة ودعاها إلى الخروج..

جاءت مهى من البرتغال مباشرة وبالتحديد من لشبونة. قضت ليلة في لشبونة وليلتين في مدينة كومبيرا في فندق فخم وعريق اسمه «كنتاداس لاغريماس».. سكن في هذا الفندق رجال عظماء منذ القرن التاسع عشر. سياسيون وفنانون وكتاب.. أما أشهر حادثة وقعت بهذا الفندق فهي زيارة الجنرال سالازار لهذا الفندق في أربعينيات القرن الماضي.. ففي اليوم الذي نزل فيه سالازار وقعت جريمة قتل. أحد جنرالات الأمن الذين سبقوا سالازار بيومين إلى الفندق قام بقتل عشيقته وتركها ممدة على الفراش في جناح قريب من جناح سالازار.. أخبروا سالازار بذلك لكنه لم يغير جناحه. أصرّ على أن يبيت ليلته في الجناح نفسه كما أصرّ أن تبقى جثة تلك السيدة القتيلة في مكانها.. في الصباح ألقى عليها التحية وأوصى لها بالرحمة من الرب.. ثم غادر..

- أتخيله شبيها بالفندق الذي نزلت فيه مؤخرا بطنجة.. قال برنار الذي وصل قبل يومين من المغرب.. ثم أضاف:

- هذا الفندق قديم جدا وعريق جدا.. نزل به فرانكو وروزفلت وتشرشل وهمجنواي. ثم جاء إليه بابلو كويلهو ولاكوست وبورخيس.. أحسست أنه حين يكون المرء مع الذين لا يعرفهم إلا عبر الكتب يزداد فطنة وغبطة ووضوحا، فيما تصبح الأرض أكثر طراوة تحت قدميه..

قال لها مراد عباس حين كانت في لشبونة: «عانقي الكاندرائيات العملاقة وتذكري أن لك صديقا ينتظرك في بلاد لم تنهض بعد من صدمتها».. وها هو برنار يسألها عن ميعاد السفر إلى باريس.

فقالت: بعد يومين.. وهناك سنفترق.. أنت ستعود إلى كندا.. وأنا سأذهب إلى تونس.. أمي مريضة.. لا بد أن أكون إلى جانبها..

خيم الحزن على مهى بضعة ثواني حين تذكرت أمها ثم قالت لبرنار:

- أريد أن أحضر حفلا راقصا الليلة في أثينا.. حفلا في الهواء الطلق.. وسأرقص كما يرقص اليونانيون. أريدك فقط أن تلتقط لي كثيرا من الصور حين أدخل إلى الحلبة.. لا بل سأفاجئك بأغنية يونانية..

كان برنار يحب موسيقى الروك الصاخبة. فقد تربى عليها منذ كان صغيرا. ولكنه كان أيضا يحب الموسيقى الرومنسية التي تثير بداخله القلق والشغف.. أما الموسيقى اليونانية التي تثير مشاعر صديقته مهى، فهي لا تصلح للتأمل مثل كلاسيكيات بتهوفن وسترافنسكي وباخ ولا الغضب مثل الروك ولا الحماس والشعور بالمجد مثل مايكوفسكي ولا بالانشراح والانسياب مثل التانغو والفالس. إنها موسيقى جبلية يعزفها جوالون دائمون حتى لتبدو له كموسيقى جبلية، أصوات وإيقاعات قادمة من قمم الجبال.. وآنذاك فهم لماذا اختارت مهى أن تضع في قدميها نعلين مسطحين من الجلد، في ذلك اليوم.. ورغم التعارض في ذوق مهى وبرنار، فقد اعترف كل منهما للآخر أنه استمتع كما لو يستمتع أي مساء بالموسيقى..

قال برنار، وهو يدفع مهى إلى المصعد نحو جناحهما:

- الليلة فقط أدركت أنني على حافة الانهيار.. إنك فعلا مغنية وراقصة جيدة. لم أصدق أبدا مدى ولعك باليونان إلا في هذه

الليلة.. لم يتركها تردِ. فقد عانقها ودس رأسها تحت إبطه لكي تشتم روائح الجسد المحترق.. إنه ابنوس أملس ومعطر ومخلوط بعود القرنفل.. فبرنار ليس إلا مزيجا لقصة حب بين رجل من بلاد الغال وامرأة من غابات الأمازون!..

أما مهى، عصارة جزيرة جربة التونسية بكل أطيافها، فقد كتبت في الصباح إلى مراد عباس تقول:

- هل تعرف يا مراد.. البارحة رقصت وغنيت كعربيدة. ذهبت إلى مطعم على حافة البحر.. كان مليئا بالرواد. يحتوي على ساحة كبيرة للرقص وتحيط بها الطاولات.. لا زال اليونانيون يحبون الرقص في الساحات. عدت إلى مراهقتي حين شاهدت فيلم زوربا.. سافر اليونانيون إلى كل بقاع الدنيا لا ليجلبوا البهارات والأفاوية وإنما ليجلبوا الإيقاعات والموسيقى. إن الرقص هو دراما الإغريق في أعنف وأبهى تجلياتها.. ويتجلى ذلك من خلال المسرح حتى أن الأوبرا الأوروبية الحديثة ليست إلا استرجاعا للدراما الإغريقية.. يقال أن أثينا القديمة اشترطت على مواطنيها لكي يدخلوا إلى الجندية أو يتمتعوا بفضائل الديمقراطية، أن يتعلموا الموسيقى والرقص. فالفن والجمال والفضيلة هي أعمدة الديمقراطية الناجحة (أتمنى أن يتعلم ديمقراطيو تونس الجدد ذلك) أو أليست أثينا هي المعلمة الأولى لجميع الشعوب!..

جاء ردِ مراد عباس سريعا، فكما لو أنه لم ينم أبدا البارحة أو أنه كان ينتظر مهى خلف الباب..

- شكرا عزيزتي.. لقد أيقظت بداخلي أثينا القديمة.. شهوة التعليم لازالت عارمة لدي..

- هل تعرف يا مراد، أمي هي التي علمتني الموسيقى.. ومعك لن أكون متعسفة.. سأسلك معك مسلك المتعة حتى تكون مطواعا.

توقف مراد عن الكتابة. فأحاسيسه لم تعد تتناسب مع حركة أصابعه. ثم أن الكلمات الصامتة تزيد من عذابه وشغفه.. طلب منها أن يتحدث إلها بالهاتف حتى يشعر بنغمات صوتها ولكنها أرجأت ذلك إلى وقت آخر..

- مراد، سوف أطلبك أنا على الفايبر.. لا تقلق.

كان برنار لا يزال تحت الفراش في ذلك الصباح. لم يكن هناك ما يشغله لأنه يوم عطلة. ولم أشأ أن أوقظه. فلعله كان مستغرقا في حلم.. من عادتي ألا أزعج من ينام إلى جانبي، ولكني كنت أنتظر منه أن يستيقظ ويدخل إلى الحمام لأجد فرصة التحدث مع مراد. لقد عزّ علي انتظاره.. بين برنار ومراد مساحة كبيرة.. وأعتقد أن البعد أكثر شغفا من القرب.. كان مراد هو أيضا قد دخل وخرج من الحمام بسرعة حتى يتمكن من الردِ على الهاتف بسرعة.. ولكن برنار تأخر إلى حدٍ قررت فيه مهى أن تذهب إليه وتوقظه.. طبعت قبلة ساخنة على فمه ثم قالت:

- لا أظن أنك لازلت تتفرج على مهى وهي ترقص.. قم انتهى الرقص..

ثم سألته وهي تدفع به خارج الفراش:

- قل لي ما رأيك في اليونانيين وفي حبهم للموسيقى؟

- يقال أن الأفارقة يملكون الإيقاع تحت جلودهم. يمكن أن يكون ذلك صحيحا انتروبولوجيا، لكن اليونان جعل من تلك الفطرة ثقافة..

حين قفز برنار إلى الحمام، فتحت أيفونها ثم كتبت:

- هاي مراد. هل يمكنني أن أكلمك..

فجأة ظهر مراد على الشاشة:

- هاي مهى.. ماذا تفعلين؟ لازالت أثينا تأسرك؟ متى سأراك في تونس؟

- بودي أن أكون هناك. لا زال أمامي حوالي أربعة أيام. سأكلمك بعد غد من باريس. وسوف أتحرر تماما من كل عمل. لا بد أن أراك.

- أنت تقومين بقتلي بالتقسيط.. من كومبيرا إلى لشبونة ومن أثينا إلى باريس. تحاضرين، تتجولين، ترقصين وتتبخترين.. هذا ما يدهشني فيك. هل هذه مواهب أم حظوظ؟ لقد أيقظت بداخلي أشياء جميلة..

- كل شيء يبدأ في بطن الأم. أمي هي التي علمتني حب اللغات وحب الموسيقى.. في السيارة، كانت تطيل الرحلة من المدرسة إلى المنزل حتى تنتهي الأغنية التي تستمع إليها. كانت تفعل ذلك كما لو أنها كانت تصلي.. لا يجوز أبدا أن نقطع عنها لذة الاستمتاع.. فيما بعد عرفت أن الطفل يبدأون بتعليمه الأغاني والموسيقى قبل الدروس الأخرى. ربما كان ذلك أفضل درس للدفاع عن الهوية.. هذا ما يجعل اليونان لم تندمج مع الاتحاد الأوروبي كما يجب.. اليوناني عنيد وحبور ومتميز ومعتز بنفسه.. عندما أزور بعض الساحات العامة في المساء، أجد الأطفال يرقصون مع الكبار.. هذا لا يجوز حسب مقاييس أوروبا وكندا.. بينما هو تعبير متميز عن الاختلاط بين الأجيال.. كل شيء يدور هنا حول الموسيقى.. فالموسيقى هي التي صنعت جزءا من الهوية والدولة لدى الإغريق..

- إني أحسدك على هذه السياحة في المدن.. وأعشق قدراتك على الاختراق..

- ليس كما تعتقد يا مراد. ها أنا أعود لأتكلم معك «عربية كنت أفتقدها من زمان.. لم أكن متأكدة أنها ستجعلني قادرة على الاختراق كما تقول».. (استبدلت كلمة تعبير بكلمة اختراق)

أنهيت مكالمتي مع مراد بضحكة فيها كمية كبيرة من الدلع والخجل ثم ذهبت إلى بيت الحمام لأتأكد ما إذا كان برنار يسمعني أم لا .. بعد ذلك.. وكان برنار يرتدي ملابسه كتبت إلى مراد التالي: «فعلا أصبحت أكثر سعادة منذ أن عدت إلى الكتابة بالعربية.. ربما لا تستطيع أن تحب وتحزن وتبكي كما يجب إلا بلغتنا الأم.. (تساءلت بينها وبين نفسها ما إذا كانت تمثل وهي مع برنار).. هل أعترف لك يا مراد.. لم أتوقف عن الكلام الصامت وأنا أتذوق كلمة «اختراق». كان لها وقع خاص علي.. ستظل في أذني كجرس طوال هذا اليوم. سأجوب شوارع أثينا وأنا أردد كلمة «اختراق». أعطتني طاقة إضافية لتذوق هذا النهار.

*** *** ***

كما ثمة مفاهيم كثيرة قد شوهت والتبست بالكذب، ثمة كذلك ألفاظ لم تعد حاملة لمعانيها النابضة والمكتنزة مثل: «كيف حالك؟». أو «صباح الخير». أو «إن شاء الله». هذه عبارات أصبحت روبافيكا اللغة اليومية.. كل الناس ينطقون بها ويرمونها يمينا وشمالا ولا يعنون بها شيئا إلا التعويض عن حالة رثة، حالة من الحزن والهشاشة يعيشها الناس في الشوارع.. يحدث

ذلك يوميا فلا نعود نتثبت من الخطأ والحماقة والكذب والتزلق والتملق والكياسة.. ونظن مع الوقت أن تلك العبارات جزء من الحوار أو الانفتاح على الآخر بينما هي في حقيقة الأمر، استغلاق داخل الآخر الحائر. فهي عبارات لا تباع لأنها بلا قيمة.. ولو كان لها قيمة لما كانت منتشرة في كل شوارع الدنيا. وفي باريس أشعر بالإختناق لكثرة هذه العبارات المليئة بالنفاق.. أو هكذا أتخيل..

أنهيت عملي مبكرا اليوم. كان اجتماع مكثف وقصير قد نظمته جامعة كندا الملكية بالتعاون مع إحدى الجمعيات الدولية لحقوق الأقليات.. اتفقنا على عدة ندوات سنقوم بها في أكثر من بلد مثل تركيا والبرازيل والمغرب وجنوب إفريقيا.. اخترت أن تكون مشاركتي في صميم اختصاصي: فن التواصل. لذلك اقترحت أن أقدم محاضرة في المغرب بعنوان: «خطاب التواصل المتعدد بين الأقليات».. وها أنا أنزل من الفندق لشراء تذكرة الدخول إلى المسرح.. انتابتني لهفة خلتها زالت للمسرح. انقطعت عن زيارة باريس لمدة سنتين. وحين عدت لها وجدت نفسي متلهفة للمسرح.. كنت أتوقف أثناء رحلاتي في أغلب الأحيان بمطار شارل ديغول ولكن ما كنت أجد الرغبة في اقتحام باريس.. هذه المرة أشعر بسعادة لعودتي إلى باريس وكذلك لرغبتي في حضور إحدى المسرحيات. اشتريت الباريسكوب ثم جلست بمقهى في «بلاص مادلين» لأحتمي من المطر وأتصفح الباريسكوب. كان هناك الكثير من السياح قد هجموا على المقهى حين داهمهم المطر. ورغم كوني سائحة، فأنا أكره السياح.. أفضل دائما أن أكون السائحة الوحيدة أو مع البعض ممن أحب.. البعض الذي يدرك

جمال الأمكنة والأشياء. أعرف أنها أنانية مفرطة ولكن السياح فصيلة مزعجة ومملة.. الكل يتشابه.. أغلبهم لا يتكلم إلا لغة بلده.. يلبسون نفس الثياب ونفس القبعات والأحذية ويزورون نفس الأماكن كالقطعان ويلتقطون نفس الصور في نفس الأمكنة.. لا أريد أن أجهر بهذا الكلام ولكنها خواطر لا أستطيع الإفلات منها.. وها أنني أظنني قد عثرت على ما سوف أشاهده على مسرح شاتليه. في العادة لا يذهب الناس إلى المسرح فرادى (ولكن بما أن برنار قد ذهب لزيارة أمه في ستراسبوغ، فقد اتصلت بصديقة لي لتصاحبني إلى المسرح غير أنني لم أعثر عليها.. في كل مرة يقول لي الديسك: اترك رسالة). إنها مسرحية «العشاء» (le souper) وهي تروي ما تم بين تاليران وفوشيه بعد هزيمة واترلو.. كنت قد حضرتها في شكلها السينمائي - يوم خاص جدا - الذي أخرجه ايتور سكولا (سيقول لي مراد عباس أنه شاهد نسخة أخرى من فيلم «يوم خاص جدا» بإخراج ادوارد مولينارو. وقد قام فيه ميشال بيكوليه بدور تاليران، كما سيعبر لي عن عشقه لتاليران رجل كل العصور وفنان الدبلوماسية الفذ وكذلك عن عشقه لنابليون بونابرت رغم هزائمه)..

كتب لي مراد عباس في تلك الليلة ايضا:

«لا تنسي أن تتبختري قليلا بين سان جرمان وسان ميشال.. وتوقفي قليلا عند مقهى «لودي ماغو» (les deux magots) لترشفي قهوة على نخب من كان يجلس هناك وهو يحاكي خيالات سارتر بغيلونه الإفريقي والبير كامو بسيقارته الجيتان وكونديرا بقبعته المقلمة.. ثم انحني قليلا باتجاه مونبارناس.. فهناك رميت

بأحلى سنوات عمري على مقاهي أرصفتها، وأنا أناحي أطروحات دولوز وغيتاري وغي ديبور حول الفلسفة الجديدة لمجتمعات الاستهلاك.. قبل قليل عدت لأتصفح ألبومك. رأيتك فاتنة ومشرقة تشبهين مدام بوفاري وهي تطل من شباك شقتها في انتظار عشيقها.. أو لأقل تشبهين مدام كلينتون حين كانت شابة وهي تخرج من الطائرة الرئاسية بصحبة زوجها الرئيس. أرفعي كاسي على نخب باريس التي لم أكن لأنام قبل أن تنام».

- لن أنسى.. أعدك بذلك.. ابتسمت كثيرا لأنك لم تطلع على ألبومي إلا الليلة.. أنا لا أتذكر جيدا ما يحتويه من صور.. لا بد أن أشكر أصدقائي إن كنت مشرقة كما تقول.. وسأرفع كأسي وكأسك غدا على نخب باريس.. سنتحدث عن تاليران ونابليون حين آت إلى تونس..

قرأ مراد عباس ما كتبته مهى بسرعة ولهفة ثم أعاد القراءة، فلعله نسي بعض الكلمات.. راودته فكرة التواصل أكثر، لكنه خشي أن يبدو سخيفا وفجا.. فاكتفى بالقول:

- أهلا بك في بلدك.. قلوب كثيرة تهفو للقائك.. وأولها قلبي.. أنا في انتظار صوتك العذب.. ألف قبلة. أولها على عجل وآخرها على مهل..

*** *** ***

حسب مراد عباس، فإن تونس تعيش حاليا أكثر سنواتها رداءة وابتذالا.. فباسم الثورة والتحرر فتحت كل المجارير الأسنة والأفواه النتنة ودكاكين الروبافيكا. نبتت أعشاب ثم تيبست بعدما مضى عليها أكثر من صيف فوق أسطح الإدارات وفي شقوق الجدران..

لم ينتبه التونسيون أن بلادهم الذين أرادوا أن ينظفوها من الفساد قد أصبحت مزبلة.. يسافرون إلى بلدان كثيرة ويتمتعون بالحدائق والخدمات وحين يعودون إلى بلادهم يغمضون عيونهم عن كل شيء. من المطار إلى بيته يفتح التونسي العائد من باريس أو جنيف أو إسطمبول، شباك التاكسي ويرمي كل ما لم يستطع أن يتخلص منه في بلدان أخرى: علبة دخان فارغة، علبة بيرة، أوراق وبلاستيك لم يعد في حاجة إليها.. إنه يفعل ذلك بانتشاء في بلد الحرية!. يشعل سيجارة ثم يطلب من السائق السماح له بالتدخين.. لا يمانع السائق في ذلك ثم بمد يده إلى الخلف ليناوله سيجارة.. لا يتقيأ المرء عادة ولا يتبول إلا في التواليت.. وبما أن تونس أصبحت تواليت، فإن حتى السياح الأكثر انضباطا والتزاما حتى ولو كانوا يابانيين فإنهم يفعلون ما يفعله التونسيون..

وكما في الشوارع، كذلك في بلاتوهات التلفزيون.. يتسابق الناس في المساء نحو بيوتهم لحضور نقاشات غاية في الإسفاف والسطحية عن الميراث والمثلية وحقوق الأقليات وزيادة الرواتب وأسعار الطماطم والفلفل والتهريب والفساد والمصالحة الوطنية ونكاح الجهاد.. وبعد ذلك يرتمون في أحضان مسلسلات حريم السلطان وأولاد مفيدة وقلوب الرمان، في انتظار يوم آخر لربما يكون أكثر رداءة.. «أقل عملا.. أكثر كسلا»..

لكن هذا كله لا يعرفه العالم الآخر.. حتى التونسيين القادمين من العالم الآخر لا يدركونه إلا مع الوقت.. فقد غطت الجوائز الدولية التي نالها التونسيون خلال هذه السنوات على عجزهم المستفحل في ابتكار نمط حياة جديد يلتزم بكل شروط المواطن

الكريم.. كما غطى المديح العالمي لثورتهم على حقائقها المزيفة.. حتى كان العناق نوعا من الخناق.. فقد كان التونسيون مهيأين جيدا للدخول إلى عصر الثورة من باب الرداءة.. لم يكن يوجد من هو ثوري فعلا، حين هرب الدكتاتور.. وظلت الثورة مكدسة في الشوارع تحت حراسة جنرال آخر ولم يتقدم أحد لالتقاطها، حتى جاء حفارو القبور والمقاولون ورجال العصر القديم وتجار الروبافيكا واللحم الفاسد ليجعلوا منها سلطانا وصولجانا.. أصبحت الشريعة أهم من القرآن. وصلاة الجمعة أهم العبادات ومراسيم الدفن أهم من الميت وعقود الزواج أهم من الحب.. والحجاب أهم من الجسد، والجوائز أهم من الإنجازات والمال أهم من الكرامة والتهريب أهم من الزراعة. والإضراب أهم من العمل.. كل ذلك كان يحدث ولا يزال كما لو أنهم في لعبة لا تنتهي إلا بالموت.. دون أن يدروا أنه بعد نهاية تلك اللعبة، سيوضع الملك والحصان والجندي في صندوق واحد.

في البداية خرج الناس بعفوية، مؤيدين للثورة وصارخين برحيل الدكتاتور. رفعوا علمهم الأحمر بعنفوان وبسالة وتصدوا للرصاص. في معظم المدن التونسية.. لم تكن هناك لا أحزاب ولا معارضات.. كانوا لا يزالون في الخارج.. ومن كان في الداخل شارك بعضهم باحتشام في مظاهرات الرحيل الأخيرة ويعضهم الآخر راح يتفاوض من أجل منصب بسيط. شعر التونسيون بالقوة والكرامة وهم يتابعون رحلة رئيسهم نحو المجهول. وحين حط بأرض الحجاز، لم يكن هناك من يأسف على رحيله إذا صدقنا الوجوه والعيون. سيطر التسامح والانفتاح على التونسيين لمدة

أسبوع وبدوا كما لو أنهم شعب آخر، ثم بدأ الخلاف.. لم يكن هناك من يطالب بنصب المشانق أو المقاصل، ولا حتى بإقامة محاكم ثورية.. ومن يوم إلى آخر، راح الإحباط يتسلل لهم.. لم يخرج لينين آخر.. ولا دانتون آخر، ولا رويسيسيو آخر ولا شافيز آخر.. وإنما ظهر رجال آخرون منعدمو الضمير ومعبأون بالإثم لكي يتصدوا لكل ما هو ثوري.. فتحت المساجد على مصراعيها وارتدت أغلب النسوة الحجاب وبعضهن النقاب. وانبرت خطب حماسية هنا وهناك تدعو إلى الفضيلة.. ثم تدفقت الأموال والوفود والحقائب من كل صوب.. استخدم مقاولو الثورات الخوف القادم من طرابلس أحسن استخدام. وتغافل الناس كما يحدث في الكواليس، حتى تم ترتيب كل شيء بأفكار قديمة ورجال خردة.. وفيما ظهر روبسيبير قبل قرنين ونيف يطالب بالموت للأرستقراطيين، خدم الملك وسبب قهر الفرنسيين، ظهر في تونس رجل مسن كان رمز النظام السابق يخطب ود الثورة ويمجد أعمالها.. قبل أربعة وعشرين ساعة فقط، كان هو رئيس مجلس النواب ونائب الرئيس الهارب دستوريا.. ألقى عدة خطب تحدث فيها عن الثورة المجيدة وكذلك عن كرامة الشعب وطيبة قلوب الناس حتى قال ذات مرة: «سأحافظ على هذه الثورة ما دمت موجودا في هذا الموقع». كانت الخطب تكتب له ويطلب منه أن يقرأها دون زيادة أو نقصان.. وليس من حقه أن يتساءل عن هذا الوزير أو ذلك الوزير ومن أتى به أو دفع به.. وعليه أن يختار بين أن يفعل ذلك بلا ضجيج أو يذهب إلى السجن حتى تهدأ النفوس.. اختار ذلك العجوز الذي تربع على كل الوزارات لمدة خمسين عاما

حتى وصل إلى كرسي الرئاسة كأول رئيس بعد الثورة.. أن يفعل ما يأمرون به.. طلب فقط أن يظل في مبنى رئاسة الحكومة ولا ينتقل إلى القصر الرئاسي لأن من يدخله لا يخرج إلا بائسا ومطرودا.. هكذا كان يعتقد وقد دلل على منطقه لأحد أصدقائه بمصير آخر البايات وبورقيبة وبن علي، لكن صديقه شجعه على الانتقال إلى القصر قائلا له:

- إذا أنت قبلت أن تكون رئيسا بلا شروط. فعليك أن تستجيب لكل الشروط..

بعد أربعة أيام ذهب إلى القصر الرئاسي متكاسلا ومترددا وخائفا.. وخرج إلى الشعب بخطاب ممجد للثورة والشهداء والفضيلة والديمقراطية.. ثم دخل إلى النسيان ما إن ظهر رجل آخر لا يقل عنه عمرا، كان أحد زملائه لأكثر من ثلاثة أرباع قرن.. فقد دخلا معا للوزارة في الستينات. وها هما يدخلان مغامرة أخرى، مغامرة ما بعد الثورة معا.. حتى روبسيبير أصبح يتحدث عن الرب بسخاء بعد أن هاجم الكنيسة والمسيحية الثقيلة. كان يحمل على رأسه قبعة مزركشة بالريش وباقات من الورود ويتقدم إلى العروس الواقفة مع عريسها على باب الكنيسة ليبارك زواجهما. ولا بد أن هناك من كان يراه سخيفا ومتملقا بعد أن ساق المئات والآلاف إلى المقصلة. دانتون هو الآخر تقاعد عن الوجبة اليومية لقطع الرؤوس وأصبح داعيا إلى الرحمة والمحبة.. واصطاده روبسيبير فقال: «فقط المجرمون يطلبون الرحمة للمجرمين» فقطع رأسه.. تحقق لروبسيبير انتصاره الكبير ولكنه كان انتصارا أخيرا. فبعد خطبة قال فيها: أن الإعدامات بالكاد

قد بدأت وأن الرذيلة لازالت منتصرة في البلاد وأن أعداء الحرية يتكاثرون.. كان غاضبا جدا.. لكن في ذلك اليوم لم يصفق له أحد. أو كان التصفيق متواضعا. رأى في ذلك أن الجموع قد سيطر عليها اليأس. وبعد أيام قطعت رأس روبسيبير. كان روبسيبير لا يتردد أبدا في إعدام أعداء الثورة حتى سموه بقاهر الأرستقراطية. حتى الملك لويس السادس عشر تم إعدامه في عهده وكذلك الملكة ماري انطوانيت بتهمة أنه استقوى بالأجانب على شعبه. غضبت كل أوروبا، لكن الفرنسيين وقفوا للدفاع عن ثورتهم.. أعطى ذلك الدفق من التأكيد طاقة للثوريين فيما كان عهد «الإرهاب الثوري» يشتد.. أثناء ذلك حوكم النبلاء وقتل أعداء الثورة وتحققت المساواة أمام القانون وتوزعت أملاك الكنيسة والطبقة الحاكمة على الفلاحين الذين تحرروا من العبودية الإقطاعية.. بعد فترة تم إلغاء محكمة الثورة ونظفت شوارع باريس من الزبالة والدماء ثم انتقلت السلطة إلى مجلس خماسي. وتبنت كل من بلجيكا وسويسرا بعض مبادئ وإصلاحات تلك الثورة.. ولكن ما من أحد كان يعلم أن هناك جنديا بسيطا قادما من أحدى الجزر البعيدة التي خضعت فيما مضى لحكم الإيطاليين والعرب، سيظهر ذات يوم أنه أقوى وأمضى من كل الثورة الفرنسية!.

*** *** ***

قال مراد عباس لنفسه قبل أن يرحل الدكتاتور وهو ينظم إلى مظاهرات الرحيل: أن من يصدق الجموع، لا بد أن يكون مصيره مصير روبسيبير. وبعد عدة أيام رأى نفس الجموع في ساحة القصبة وهي تطالب برحيل رجال الدكتاتور.. خرج لهم جنرال في

بدلته العسكرية. رأى الناس يقتربون منه ويحيونه برفق.. وعدهم بالأمل وقال لهم: «كل شيء سيتم حسب القواعد.. لا تخافوا على ثورتكم». صفق كل الحاضرين، إلا مراد عباس أخذه غضب شديد وهو يقول لزميله: بالتأكيد هذا ليس تروتسكي قائد الجيش الأحمر ولا هو نابليون.. إنه بينوشيه آخر في آخر طبعة أمريكية»..

يستطيع مراد عباس أن يخفي غضبه. ويستطيع أن يقول أشياء عادية كما يفعل رفاقه. بل كان يستطيع الذهاب إلى الجنرال ويصافحه، ولكنه لم يفعل ذلك لأنه بلغ من العمر ما يجعله صادقا مع نفسه.. ما يجعله ليس في حاجة إلى الكذب.. كان يقول دائما لرفاقه: حين نبلغ الأربعين لا نعود في حاجة إلى الكذب.. إلا إذا كانت النذالة من طبعنا.. رأى الشعارات التي تروج لنجاح الثورة خادعة وهي التي ستقضي على الثورة. ومنذ أن استسلم الرفاق إلى النوم تحت الخيام في حراسة الشرطة والجيش، أدرك أن الثورة قد وقع بيعها كما تباع الأغذية.. بدأت المآكل والبطاطين والأموال وحتى علب البيرة تأتي من كل صوب.. ثم بدأت علاقات الحب تنبثق هنا وهناك تحت الخيام والأغطية. ثم طالت الاعتصامات كل الفضاءات.. أصبحت نمطا جديدا تتبناه الجمعيات والأحزاب والنقابات ويموله المقاولون وتحرسه الشرطة والمصفحات.. هناك من اخترع مصطلح ثورة الشعب والجيش، آخرون سموها بثورة الياسمين الهادئة.. صحفيون مبتدئون أطلقوا عليها الثورة الذكية لشعب ذكي.. ففي زمن الاستهلاك، تصبح حتى الثورة نمط حياة جديد لكل الكسالى والبوليس والعملاء ومسألة ترفيهية مثل لعبة البلاي ستايشن للحصول على متعة أكثر سخاء

وأكثر امتدادا وسعادة مما نفعل عادة.. ففي زمن الاستهلاك أيضا يقول الرفيق لرفيقه: لا التزام مع خط الجماهير، لأن الجماهير لا تدرك الثورة إلا بما تقدمه لها من أموال ومساعدات وإنجازات.. ويقول الحبيب لحبيبته: لا التزام نحوك ما دامت هناك زواجات مدبرة تقوم بها شركات معروفة. وتقول الشركات لزبائنها: أين هي بوليصة التأمين.. كذلك في الجنس، توجد اللذة فقط للمتصل. أما مع الحب فيصبح الاتصال هو اللذة أو الاستمتاع باللذة.. الحب في زمن الثورة يصبح إعادة ابتكار للحياة.. أما في زمن الاستبداد فهو تأبيد للاستبداد عن طريق الاستغراق في إعادة تكرار الغباء.. أصبحنا نذهب إلى الحب كما نذهب لملاعب كرة القدم أو حفلات البيرة.. ليس ثمة ما يثير البهجة إلا استفراغ الكميات الإضافية من الإحباط. وهكذا مع الأيام أصبحنا نذهب إلى الاعتصامات كما لو أننا ذاهبون إلى التواليت للتخلص من كميات الجعة التي أثقلت مثانتنا. كان مراد عباس قد أدرك أن الناس بدأوا يخلطون بين الثورة والسياسة.. فالذي لا يريد الثورة يقال له متعجرف لا يفقه في السياسة، والذي يريد أن يصبح سياسيا يجد نفسه مرتهنا لدى رأس المال الجوال.. لقد هجم رجال الأعمال على الثوريين لا ليركبوا الثورة كما كان يقال أو للاحتماء من الثورة، ولكن ليقتحموا بهم عالما يريدون إعادة السيطرة عليه وهندسته حسب شهواتهم ومصالحهم.. وبالنسبة لمراد عباس، فإن ما تبقى من عمره وهو يقترب من الستين لا بد أن يضعه بدقة في ميزان الزمن.. فالشيخوخة هي جوهر سياسة الزمن. علينا أن نحسب جيدا لأن المستقبل أصبح يتقلص بداخلنا. أما الماضي فهو ما انفك

يتمدد.. والحاضر ليس إلا برهة ذاهبة نحو النهاية.. ما يتقلص فينا في زمن الشيخوخة ليس الجيد فقط، بل الوظائف والعلاقات وحتى الطموح وروح المجازفة.. وهنا تبرز نقطة الخلود لدى أولئك الذين يملكون بداخلهم حساسية الزمن.. يصبح الهاجس إذن هو البحث عن معركة تصبو إلى الخلود حتى وإن كانت خاسرة.. معركة تحتفظ ببعد المستقبل قدر الإمكان.. تؤجل نعب الحياة. تعيد للقلب نبضه القوي.. تستفيد من امتحانات الماضي، تلتحم مع آلام الناس، تصنع وجودا آخر ما بعد الوجود.. هذا ما أدركه مثلا الباجي قايد السبسي.. ولكن بحسه الانتهازي لا بحسه الثوري. لقد ودع حياته المرئية قبل الثورة بعدة سنوات.. كتب مذكراته ورفع منديل الوداع. قرر أن يترك العالم قبل أن يتركه، ولكن ما إن انفتحت باب السماء على تونس وأنعمت عليها بثورة هادئة وناعمة ومحروسة من الشياطين حتى استيقظ الباجي من غفوته وطرد الشيخوخة من ذهنه وقام يترجل باحثا عن بقية من عمره. كانت قدماه تصطكان أحيانا وتمتنعان عن المشي، ولكن الطموح الذي لم يمت بداخله وحاجته إلى الخلود دفعته واقفا.. قال لنفسه: من المستحيل أن اذهب إلى الأذى إذا لم أذهب إلى الحياة مرة أخرى.. لم يمانع طويلا حين اقترحوا عليه ذلك المنصب الفاخر، رئيسا لحكومة الثورة.. قال فقط: سأحكم حسب الباجي لا حسب الآخرين.. وبدفعة واحدة ظهر واقفا يخطب.. وبدفعة واحدة منح كل السلطات التي لم يتمتع بها حتى الرئيس الهارب.. فمن يحكم بالمراسيم لا يقف أمامه حتى الجنرالات!.. آنذاك كان مراد عباس يحتسي قهوة بفندق الكونكورد الذي تحول إلى غرفة

عمليات متعددة الاختصاصات.. يديرها صحفيون وجواسيس ومستشارون دوليون ومستثمرون في الثورات ولاعبو بورصة ودبلوماسيون سابقون وتجار ومهربون وجنرالات متقاعدون وممثلون عن المجتمع المدني والأحزاب وليبيون قذافيون وآخرون أطلسيون.. تساءل مرة بينه وبين نفسه: ماذا لو دخلت مجموعة ثورية مسلحة وألقيت القبض على كل هؤلاء؟ هل يمكن تغيير مسار الثورة؟ هل يمكن بهكذا عملية، استرجاع الثورة؟ تلك الفكرة سرعان ما أسقطها من ذهنه لأنها لا تساوي شيئا في عالم اليوم.. ثم لنفترض أنها حصلت. فهي لن تفعل أي شيء مفيد.. ربما وقعت مذبحة ولكن لن تكون هناك أية فائدة. فهذه الثورة لو لم تكن في الأصل مركبة في الخارج قطعة قطعة، فإن لا أحد كان سيقدر على تفكيكها بهذه السهولة. فالذين قاموا بها هم الذين يقودونها إلى حيث يشاءون.. إلى حتفها.

*** *** ***

لا يمكنني أن أحاكم نفسي على أنني إنسان عاطفي. كما لا يمكنني أن أخجل من كوني إنسان عاطفي.. فالأحرى أن نمجد الشخص العاطفي حتى لو كان لديه فائض من العواطف الجياشة. فهي في الأصل قيم مخزنة لدى الجميع في أعماق الإحساس البشري. ولا شك أن قيمة كهذه يمكن للإنسان أن يفخر بها.. سار العرب على هذا النحو منذ أن تغنى شعراؤهم بقيم الفروسية والوفاء والحب.. أصبح الحب لدى عامة الناس وحتى لدى الأمراء شيئا يمكن أن يفتخر به المرء دون أن يخجل، لا بل حتى نساء العرب ما كن ليخجلن إذا وقعن في الحب.. ليس ثمة من احتل

ذاكرة العرب مثل قيس وعنترة وأمير حلب أبو فراس الحمداني وهارون الرشيد.. وليس ثمة من استقرت في أفئدة نساء العرب أكثر من ليلى وعبلة وبثينة.. على هذه الخلفية العاطفية تم تأسيس القانون في أوروبا. وقبل القانون قامت الثورات. ولو لم يعشق نابليون بونابرت جوزفين ما كان لينتصر في معارك كثيرة.. لذلك أجدني حائرا ومتسائلا عن الحب المفقود في الثورات العربية. لا توجد أية قصة حب حتى لو كانت جافة أو فظة.. ما من زعيم يتكلم عن الحب، كما لو أنه فاجعة.. وكيف لثورة أن تنجح دون قصص الحب؟ ولو كان زعماؤها يعرفون الحب، لتمكنوا من قيادة الثورة.. سيطر رجال مدججون بالكراهية ونساء مدججات بالسواد، وهم يتبجحون باستقامتهم وتقواهم كما لو أنهم ذاهبون إلى جنازة.. ولو كانوا يعلمون أن الثورات تحب الحب لنزعوا جلابيبهم ولحافهم وأحجبتهم وحلقوا لحيهم وخففوا ما يجب تخفيفه لكي يسترجع الجسد فضاءه وانعتاقه!..

كنت دائما أعتقد ولازلت: إذا كانت روح المرء منعمة بالحب، فإنه يكون قادرا على فعل الشيء الطيب. فأنا أفكر مثل القديس أغسطين الذي لا يختلف عن الرسول في نظرتهما إلى المحبة.. فالمحب أو المحبوب لا يكون إلا طيبا وخيرا.. وهو يكون على حق حتى حين يخطأ أو ينحرف قليلا.. ولكن ما كان يزعجني فعلا أنني لم أكن أجد أناسا طيبين في القصبة أو في شارع بورقيبة.. فقد رفعت تلك الطيبة منذ الأسبوع الثاني للثورة.. ولم يكن ثمة شيئ من ذلك الحب الذي عرفه ميدان التحرير منذ أن ذهبت الثورة إلى الانتخابات متبعة خط سير الجنرالات.. وليس

مهما الآن أن تعرف من الذي بدأ بإطلاق النار في ليبيا أو سوريا، ولكن ما نعرفه أن لا أحد من أولئك الثوار قد ألهمهم الحب حكمة أو شعلة توقدها أيادي كثيرة لإضاءة الطريق!!.. إن غوغل لا يعلم الحب إنما هو يعلم الدِّجل، لذلك خرج من تحت الأرض وكذلك نزلوا من السماء دجالون كبار يسعون إلى الإيقاع بكل ما كان يتفاخر به ويتماسك به المرء الذكي.. أطاحوا بالذكاء والحكمة والحب كما أطاحوا بالأنظمة بدافع الكراهية من أجل الاستحواذ والسطو.. كنت أراقبهم وأتناقش معهم وكانوا يبدون حرصا شديدا على مسار الثورة ثم أجدهم فيما بعد يبررون الأخطاء والحماقات.. كانوا يقولون: لا تقلق، سوف نضرب هذا.. وسوف نؤدب ذلك.. أما ذلك فهو ساقط بطبعه.. وهذا قد تاب وأصبح من صف الثورة.. وكان يعجبني أن أسمع ذلك لأنه لم تكن لدي حيلة أخرى سوى أن أصدق ما يقال لي.. ومع الأيام، أصبحت أصدق، بل أردد للآخرين ما سمعته وأضيف عليه شيئا من البهارات لكي أبدو أكثر إقناعا وأكثر صدقية.. ولكن في قرارة نفسي.. في تلك القاع الخالية من الاقتناع، كنت حزينا لأن مستوى العاطفة قد راح ينخفض إلى أن بات حوضه جافا كأي بحيرة يصلها الجفاف.. تماما مثل بحر الأورال..

أجل، كان رأي كونديرا الروائي متطابقا مع رأي المؤرخ هوبسباوم: لقد كانت دائما كل من روسيا وفرنسا ملهمتان للثورة والعواطف المتدفقة، وكذلك للمسيحية الروحانية. وبتلك الخلفية ربما أعطت كل من فرنسا وروسيا ثورتين عظيمتين.. كانت فرنسا الكاتوليكية قد تعبت من سجون ملوكها واحتقارهم

للشعب فانتفضت ونجحت في فرض جاذبيتها التاريخية.. كذلك فعلت روسيا الأرتودكسية فأعطت ثورة متميزة.. ولكن لا تنسوا مقدار الحب في هاتين الثورتين.. انسوا الدم الذي سال في الشوارع وتذكروا ما أضافت هذه الثورات إلى البشرية. حين احتل الألمان كل من فرنسا وروسيا، قالت النساء للجنود الغزاة «قد تكونوا قد أشبعتم رغباتكم الجنسية، ولكن روحكم لن تشبع».. تماما.. هذا ما يجب أن يقوله رجل سوداني أو عراقي أو ليبي لابنة الزعيم الجديد. اجلسي حيث تشائين.. إذا لم تجدي مكانا، فاجلسي بين فردتي حذائي.. فهنا كان يجلس الجنرال جعفر النميري والجنرال بن علي.

هكذا لم نتعلم من أوروبا شيئا.. لا العقل ولا العاطفة.. وحين جاءت الثورة إلى العرب التي انتظروها طويلا تحولت إلى وباء ودماء.. حوالي نصف دزينة من الثورات لم تنجح واحدة منها.. فلو لعبت في الكازينو على ستة أرقام، فإني سأراهن أنني سأجني أرباحا كثيرة.. ولكن.. وها هي الدموع تلمع في عيني، أقول معترفا: لأننا لم نتعلم الحب، فإننا لن نصنع أبدا ثورات!..

أنا مراد عباس العاطفي جدا..

الفصل الرابع

لو اتخذ مراد عباس قبل أسبوعين عدة إجراءات صغيرة لتحسين صورته لدى زوجته لأنقذ زواجه قبل أن ينهار.. كان يمكن أن يثير بهجتها بمجرد أن يعترف لزوجته بمغامراته الأخيرة مع إحدى زميلاتها. كانت ستيفاني نيكولاس التي تخلت عن لقبها وحتى عن دينها المسيحي منذ عشر سنوات وأصبحت تسمى بستيفاني عباس مستعدة لنسيان ما حدث. ولكن مراد أصر على أن ينهار ذلك الزواج.. فرغم غيابها الطويل عن البيت بسبب عملها كمراسلة صحفية لإحدى الوكالات الأجنبية، إلا أن مراد لم يكن ليشكو من أي نقص.. هناك خادمة ناشطة ومتفهمة.. وهناك سائق يوصل ابنه طارق إلى المدرسة يوميا.. ثم أنه لم يكن يشعر بأي ضغط من ناحية حريته الشخصية. وأكثر ما كان يفتخر به أمام نفسه، أن ستيفاني امرأة وفية ومحبة وعلى غاية من الجمال.. وطيبة مع أهله وأصدقائه. الرباط الذي كان يوحدهما كان شفافا جدا.. تحدث عنه بوذا وسماه بالسعادة القصوى أو النيرفانا..

اشتكت ستيفاني لإحدى زميلاتها أثناء تغطيتها لذكرى انتحار محمد البوعزيزي الثانية.. من ألمها وهي ترى زواجها ينهار دون أن يكون بإمكانها أن تفعل شيئا.. قالت:

- كان يمكن إنقاذه ولكن لا أحد تقدم إلى تلك المهمة. لا أحد من عائلته أو من أصدقائه. اليوم هذه الذكرى تبدو لي وكأنها إنذار بأن الحريق سيطال بيتي. وروت بعيون دامعة: منذ مدة وأنا أراقب زوجي وهو يتحول إلى إنسان آخر.. لا أعرف ما إذا كان ذلك بسبب تأثيرات الثورة.. انفعالاته أصبحت لا تطاق. إنه يبتعد عني كل يوم بمسافة.. لقد تغير.. لم يعد هو مراد الذي أعرفه. وحين أعود من عملي أراه غير مهتم وغارق في صمت مريب.. وحين أحدثه إما انه يرد بصوت خافت غاية في اللؤم.. أو أنه يضحك كما لو أنه يريد أن يطرد الكلمات من فمه.. وبما أن مزاج كل واحد منا يعتمد على الآخر، فقد أصبحت أقل استجابة وحبورا.. لقد أصابني بالضمور. هذا أمر لم أعرفه من قبل.. إنه الإهمال.. الذي هو أفظع من الفراق..

كانت ستيفاني تتحدث بشيء من المرارة مع زميلتها سلمى قرب عربة بقال متجول،حين قالت لها:

- هذا يشبه البوعزيزي. ما رأيك لو أجريت معه حوارا قصيرا.. ثم اقتربت منه.. رشقها بنظرات حادة كادت أن توقف الدم في دماغها ثم استفاقت وطلبت منه أن يزن لها كيلو من الموز.. أثناء ذلك سألته قائلة:

- هل تعرف البوعزيزي قبل أن يحترق؟!

قال لها دون أن يرف له جفن:

- هذه عربته.. لقد ورثتها.. بالأحرى لقد اشتريتها..

- ممن اشتريتها؟

- من البلدية..

- كيف؟

- صادرتها منه البلدية قبل أن ينتحر.. وحين توفي عرضتها للبيع في مزاد علني..

أضاف هذا البائع يقول (وظننته إما أنه كان يمزح أو كان يتفاخر):

- لقد فزت بشرائها أنا مع أنني لم أدفع إلا نصف ثمنها نقدا..

- ومن دفع النصف الثاني؟

- استظهرت للبلدية بورقة ممضاة بيني وبين محمد البوعزيزي تفيد أنني أقرضته مبلغا من المال قبل نحو عام.. تدارك قليلا ثم قال:

- لا.. لا.. أعطيته سلعة في ذلك الوقت. وقد اتفقنا على أنها تساوي قدرا معينا من المال.

- هل هو قريبك؟

- كلنا أقرباء في هذه القرية الكبيرة التي قلبت العالم العربي رأسا على عقب..

- هل تعرف أن اليوم يصادف ذكرى احتراقه الثانية..

- وما الجدوى من ذلك؟ قال بائع الخضار المتجول ثم رفع من صوته ليحتج على هذه الأعمال التي وصفها بالفلكلور.. قلب الميزان على قفاه، ففهمت أنه أوقف عملية البيع حتى يكمل كلامه. وسمعته يقول:

- أنتم الصحفيون، تأتون هنا لتسألوا عن البوعزيزي وتفاصيل البوعزيزي. وما إذا كان شخصا حقيقيا أو شخصا افتراضيا صنعته الميديا.. ثم تذهبون لتصوير بيته وأهله.. وها أنتم اليوم عثرتم على عربته وعرفتم من اشتراها ومن يعمل عليها.. وهذا كله لا يصنع لا لقريته ولا لأهله أي شيء مفيد.. غير الضجة.. هدأ قليلا ثم أضاف:

- أنت الآن تصنعين مني حدثا لتبيعينه بالأموال إلى المتلهفين لمثل هذه الصور. وها أني قد أمضيت معك ربع ساعة دون أن أبيع رطلا من البرتقال أو الموز.. فهل بإمكاني أن أطلب منك استحقاقاتي..

آنذاك شعرت أنني دخلت إلى منطقة حرجة.. منطقة شائكة لم أتعود عليها ولم أتعلم الخلاص منها ولكن الحشود التي بدأت تلتف حولنا أنقذت الموقف. وتدخل أحد المارة ببعض الكلمات:

- عيب.. عيب ما تقول.

تلقف البقال كلمة عيب ثم أعاد رميها إلى ذلك الرجل:

- العيب في بيتك.. يا صاحب العيب..

ولولا تدخل بعض الجنود الواقفين بالقرب منا مع مصفحتهم، لربما حدثت عملية انتحار أخرى لبقال آخر هو وريث عربة البوعزيزي.. تركته يشتم ويسّب الترويكا ويصفها بأقذر الأوصاف ثم سمعته يقول: أتركونا في حالنا لو كان خير في هذه الثورة لما التحقت أم البوعزيزي إلى حيث يقيم قاتل البوعزيزي.

كتبت تلك «الستوري» بأسلوب ساخر حتى لا أثير غضب أحد من الأهالي.. وقد أعجب بها رئيس التحرير فعمل على بثها بشكل

جيد. حتى بلغت أرجاء العالم.. وكان الأمر مثيرا من خلال التعاليق التي قرأتها على صفحتي الخاصة في الفياسبوك. أحد المعلقين كتب يقول: «البوعزيزي يظهر حيا».. وعلقت سيدة أخرى فقالت: «عربة البوعزيزي تعود إلى الأسواق دون البوعزيزي»..

حين كانت ستيفاني تتصفح مثل هذه التعليقات داهمتها نوبة ضحك، فسألها زوجها مراد وكان على الأريكة بالقرب منها:

- لا بد أن أهالي سيدي بوزيد قد شبعوا فيك وفي زوجك سبّا وشتما.. ثم أضاف:

- هذا ما أتوقعه.. أليس الأمر هكذا.. ألم أصبح عندهم غبيا وذا قرنين وسفيها. وأنت ألم تقرأي بأنك عاهرة، جاسوسة وعميلة..

- نعم كل ذلك. ولكن هؤلاء الذين يشتمون أقلية. الأغلبية تمتدحني وتصفني بالمبدعة والشجاعة..

- ألم يقولوا عنك أنك ساذجة؟

هزتني كلمة ساذجة.. فعلا لقد رأيت نفسي ساذجة. أحيانا نشعر بالخفة ونتساءل ما معنى أن يكون المرء ساذجا. أليست طريقة للحياة.. أليس من يصفوننا بالسذاجة هم السذج.. وما عكس السذاجة؟ هل هو الذكاء؟ هل هو الإدراك؟ هل هو الوعي؟ وما ينفع كل ذلك في سوق خضار أو في الأسواق الشعبية أو أمام جزار أو حتى في مطعم شيك؟ إنك لن تفعل بذكائك إلا التعب. سوف تشتري لحما فاسدا دون أن تدرك ذلك. وستأكل أكلا بائتا وقع تسخينه على الميكرواند دون أن يكون بإمكانك أن تحتج.. وسوف تدفع ما يطلب منك دون أية مناقشة.. وإذا أردت أن

تكون ذكيا، فسوف يجعلون منك ساذجا أمام الجميع.. ولذلك فالأحرى أن تكون ساذجا متعايشا مع سذاجتك.. متفاعلا معها.. ومتيقنا دائما من حضورها.

*** *** ***

حين حلت الذكرى الثالثة لانتحار البوعزيزي. كان قد مضى على طلاق ستيفاني ومراد حوالي نصف سنة.. لم تمتلك بعد ستيفاني امرأة الأربعين، الشجاعة لاتخاذ صديق أو عشيق.. وجه جميل شهواني، حين تنزع الكاسكيت. وساقان منحوتتان نحتا بإتقان، وصدر ناهد ومتيقظ ومؤخرة في غاية الاكتناز.. وبهذا الجسد لا بد أنها مشتهاة ويتمنى كل رجل في هذه البلاد أن يصحبها إلى مطعم أو مقهى ليعرض قدراته على إغواء النساء الفاتنات.. عروض الصداقة والزواج كثيرة.. رجال كبار وأقوياء يعرضون خدماتهم عليها، لكن جسدها منذ أن قرر مراد الطلاق لم يعد مطيعا لها.. لم يعد ملك عقلها أو أحاسيسها.. في السابق كان ملك مراد.. والآن لا يزال كما لو أنه من ملكية مراد الخاصة.. هكذا تخضع المرأة جسدها لرجل ما.. وحين يغادرها ذلك الرجل، ينتفض الجسد ولا يعود مطواعا فيقال، امرأة خانها جسدها كما يخونها زوجها.. فعلا يحدث ذلك حين تتعرض المرأة للخيانة.. تصبح شغوفة أكثر بأشياء أخرى. تذهب إلى التمارين الرياضية، تكثر من أكل السلطات، تستغرق في الموسيقى.. كل ذلك من أجل أن تسترجع جسدها أو تسترجع سلطتها على جسدها.. إنها لا تريد العودة إلى مراد. فهو رجل قد بالغ في إهانتها قبل الطلاق.. وبدا متغطرسا ومتوترا كما لو أنه مشدود بخيط كهربائي، ولكنها تريد

التخلص منه حتى تحرر جسدها تحريرا كاملا.. فكرت أن تكون فكرة التحرر الجسدي التي تراودها خاطئة ولا تعدو أن تكون وهما، لأن المسألة قد تكون مرتبطة بما يسمى بالروح، أي أن روحها لا زالت ملتصقة بروحه، غير أنها وجدت في ذلك التفكير نوعا من العودة إلى الأفكار المسيحية.. ادخرت ذكائها لأشياء أخرى وأقنعت نفسها بنفسها أن الحب الذي لاتزال تكنه لمراد ما هو إلا رغبة للاندماج مع شخص آخر لتحرير جسدها من مراد.. وهذا ما سوف يملأ حياتها من جديد بالمعنى..

تخلت في البداية عن لقب زوجها عباس.. وعادت إلى لقب عائلتها نيكولاس.. وارتأت أن ذلك قد يكون خطوة نحو استرداد جسدها وروحها من هيمنة مراد.. ولكن الهيمنة تستمر حتى عندما نغير من أسمائنا وأشكالنا لأنها مغروسة فينا.. وفي أحيان كثيرة تزيدنا تقلبات الشريك العاطفية تعلقا بالذي قد مضى بأكثر من الذي قد يأتي.. فقد يكون من المحزن في الحب أن الأفضل لنا يصبح هو الأسوأ.. قال شكسبير ذات مرة: الحب جحيم لا يطاق.. أما الحياة بلا حب فهي نعيم لا يطاق.. وختم: لذلك هو أعمى وسيظل أعمى..

أصبح مراد في مكان آخر لا أعرفه. لا أراه إلا نادرا حين يأتي ليزور ابنه.. لم يعد يهمني ما إذا كان قد دخل في علاقة أخرى.. لا أعرف كذلك ما إذا كان سعيدا أو بائسا كأغلب المطلقين.. لقد ظل على وفائه وحبه لابنه، ولكنه لا يبذل مجهودا خاصا للعناية به.. أصبحت المسؤولية كلها على عاتقي.. ولذلك خفضت من تنقلاتي وسفراتي.. وحين كان مراد يريد أن يزور ابنه كان يهاتفني

ويسأل ما إذا كان الولد يحتاج إلى شيء ما.. لم أكن متأكدة من أن مراد يفعل ذلك لسعادتي أو لمخاتلتي أو فقط وكما كان يجب أن افهم: أنه حريص على إسعاد طفله لا أكثر ولا أقل! كنت أسعى إلى ملاطفته في بعض الزيارات حين يكون مزاجي رائقا.. غير أنه لم يكن يبادلني أية كلمات واضحة.. وفي إحدى الزيارات قررت أن أكون كما أنا: لا لطيفة ولا متعجرفة.. ألتزم الصمت وأرد على أسئلته إذا ما سألني بمعيار دقيق. ثم قلت لنفسي:«إذا أردت أن تغيري الأسلوب الذي يعاملك به الآخرون، عليك أولا تغيير الأسلوب الذي تعاملين به نفسك. فما لم تتعلمي كيف تحبين نفسك حبا شاملا، فليست ثمة وسيلة يمكن أن يحبك بها الآخرون. حتى ولو كان زوجك أو عشيقك».. كانت هذه من وصايا أحد الصوفيين. وهي قاعدة لدى المسيحيين الأوائل كما هي لدى الصوفيين المسلمين.. وأردت أن أجرب ذلك، ولكنني وقفت عاجزة عن تطبيق هذه الوصية.. فما إن يحضر مراد حتى اشعر أن قدرتي على التحكم في نفسي قد بدأت تفلت مني.. صحيح أن مراد يجعلني أتذكر بعض الرجال الذين عاشرتهم وأنا عزباء (وهذا لم يحدث معي إلا بعد طلاقنا).. ولكن ولا مرة فكرت في اغتصابه أو إغوائه وهو يزور طفله..

*** *** ***

كنت أبتعد يوميا عن ستيفاني. وحتى حينما كنت أحضر لزيارة ابني طارق كنت أقاوم بأن لا أعود إليها أو تعود إلي. كنت كمن كان متزوجا من عاهرة. ما إن تتخلص منها حتى تهرب بعيدا.. تنفض

ثيابك وتلمس قلبك ثم تنطلق من جديد كأنك رجل جديد!.. هذا كلام غير جدير. بل هو منحط ولا ينطق به إلا منحط. فالمرأة التي غيرت دينها من أجل أن تندمج في عائلتك ومحيطك ليست منحطة مثلك يا مراد. قلت ذلك لنفسي التي رأيتها تنهار وهي لا تعرف أين تستقر.. وكنت قد أصبحت تقريبا رجلا سوداويا، حتى «مهى زعفراني» لم أعد أرغب في رؤيتها. افتعلت أن لا أراها حين جاءت لتونس.. هي نفسها لم تمض أكثر من أربع وعشرين ساعة. فسرعان ما عادت إلى باريس لتأتي بالدواء إلى أمها.. قلت لها: أنني اضطررت إلى السفر فجأة إلى الجزائر. أبدت لي بعض الأسف وكانت منشغلة بمرض أمها أكثر من انشغالها بي.. خفت أن تكون تتحاشى اللقاءات المباشرة مثلي. فحين نكون قد استغرقنا وقتا طويلا على صفحات الماسنجر، نصبح خائفين من اللقاءات المباشرة. إن الافتراضي غالبا ما يطرد المادي، يجعله بلا روح ولا رغبة. فهو طاقة انجذابية لا تتطلب أي استعداد مادي. يمكنك أن تكون جيدا.. وأن لا تكون أنت، وتتكلم لغة راقية.. وصاحب خيال شاسع ورقة رومنسية.. ولكن الواقع أحيانا يخذلك. وللهروب من ذلك الخذلان تفتعل كل الأعذار لكي لا تخرج من الافتراضي..

وإذن ها أنا لا أفعل إلا أن أهرب.. هربت من ستيفاني بدون أي سبب مادي أو أخلاقي أو جمالي.. ثم ها أنا أهرب من «مهى» ولا أقوى على لقائها.. بدا لي اللقاء الأول كافيا.. وزعمت أن قصة الحب التي تشغل كاهلي لو تماديت معها من الأفضل أن أعيشها معها في الافتراضي.. وحين عادت مهى إلى السفر وبالتحديد إلى

اليونان لاستكمال أبحاثها تنفست الصعداء. ظهرت إلى الوجود واعتذرت لها حتى صدقتني.. ثم اندمجت معي لتسألني عن سبب زيارتي إلى الجزائر فجأة..

- ذهبت إلى الجزائر لحضور ندوة الإرهاب في منطقة المغرب العربي ودول الساحل والصحراء.. (لم أكن أكذب. فقد حضرت تلك الندوة في وقت سابق وألقيت مداخلة عن الإرهاب والترهيب والتهريب.. وقد التقيت بمثقفين من الجزائر والمغرب ومالي وبوركينافاسو والنيجر.. وتأكدت مرة أخرى أن النخب الإفريقية أكثر عمقا وجدية من النخب العربية.. البروفسور المالي أحمدو موديبو كيتا، كان نجم تلك الندوة.. وقد أهداني كتابه الأخير تحت عنوان: «دول الإرهاب الافتراضية».. والذي عالج فيه ظاهرة الدولة داخل الدولة.. وقد حذر من إنه يمكن أن تتغلب الدولة الافتراضية على الدولة الفيزيائية. وضرب مثالين عن ذلك، داعش في المشرق العربي ودامس في بلاد الساحل والصحراء). كل هذا لم أذكره ولم أتحدث عنه لمهى، لأنها لا تحب المواضيع السياسية وتجدها ثقيلة وصعبة الهضم ومليئة بالمؤامرات والسيناريوهات الغربية. لذلك أحلتها مباشرة إلى عالم آخر أكثر خفة. تحدثنا عن جمالية المعمار الكولونيالي في الجزائر. وعن جمال الطبيعة الجزائرية.. وطمأنتها بأن الربيع العربي قد تيبس على عتبات الجزائر. وأن الجزائريين يحبون رئيسهم حتى وإن كان مقعدا. لكنهم خائفون من اليوم الذي قد يختفي فيه.. كذلك عن رواية كويلهو الأخيرة عن بوتفليقة التي تحولت إلى «بست سللر» لدى الجزائريين. ثم ختمت قائلا:

- حذار أن يذهب في بالك أنني سافرت إلى الجزائر من أجل امرأة أخرى..

- هههههه.. ولكن لم تخبرني أن قصتك مع بائعة المجوهرات قد انتهت..

- تلك قصة أخرى، أصبحت قديمة.. لقد تزوجت وأصبحت تسكن في قسطنطينية. سنتحدث في الليل أكثر يا مهى.. أن يجد المرء نفسه في الجزائر ولا ينظر إلى عيون الجزائريات فتلك حماقة. ولكن صدقيني ما كنت لأتجرأ أن افعل أكثر من ذلك..

في الحقيقة أيقظت بداخلي مهى بسؤالها عن بائعة المجوهرات إحساسا دفينا بأنني رجل يستطيع أن يوقع الكثير من السيدات، لكنه لا يستطيع أن يتابع قصصه معهن.. وفي هذه اللحظة.. أي في تلك اللحظة التي ذكرتني مهى بتلك المرأة، تذكرت أيضا ستيفاني، زوجتي التي لم تعد زوجتي والتي خرجت من حياتي ثم لم يتوقف تفكيري فيها منذ نحو ثلاثة أيام. لقد عاد لي طيفها.. أصبحت على نحو ما متوترا حين أفكر في جمالها وسذاجتها وطيبتها.. أحيانا أجد نفسي أحمق لأنني لن أجد لا أفضل ولا أجمل من ستيفاني.. كنت أعشق كل شيء في ستيفاني ولم يكن هناك ما يشوش حياتي.. شيء وحيد كان يقلقني هو أن جماعنا طويل جدا. وهو أمر أصبح يرهقني لأنه يكاد لا ينتهي.. كان ذلك يبهجني في السنوات الأولى، ثم تحول إلى كابوس. فأنا لا أستطيع أن أتركها دون أن ترتوي وتبلغ نشوتها.. في المداعبات الأولى تبدو متلهفة ونشوانة أكثر مني، ولكنها لا تبلغ ذروتها إلا بعد جهد كبير، حتى في

ليالي الشتاء، كان العرق ينصبب من جسدينا كما لو أننا سنلقط أنفاسنا الأخيرة.. وقبل أن تنهار قواي، كنت أحاول أن أدفعها إلى الذروة بكلمات بذيئة أو بقصص قصيرة ومفتعلة مع غانيات أو سيدات أخريات، غير أن ذلك لم يعد كافيا.. فقد تعودت على قصصي وكلامي البذيء، حتى أنني لم أعد أذكر متى انفجر فيضانها آخر مرة.. وذات يوم قلت لنفسي: حين تدخل السياسة إلى الحب تفسده.. فأنا وستيفاني كائنان سياسيان لم يعد بإمكانهما أن ينتجا الحب.. أو ربما عاشقان أفسدتهما السياسة!.

الفصل الخامس

باتت كلمة «يسار» ممجوجة في سنوات الربيع العربي. لقد حولها التكفيريون إلى شتيمة. ثم تحالف كثير ممن كانوا يساريين مع هؤلاء التكفيريين على أن يجعلوا منها عنوانا للانتهازية والتلون وعدم الثبات والاستغراق في الايديولوجيا.. المفارقة أن الذين يسكنون في بيوت الماضي الكئيبة والبائسة هم الذين يتهمون اليسار بالايديولوجيا والديماغوجيا.. وكما أرادنا الخصوم أن نكون، كنّا بأكثر مما يريدوننا أن نكون. صغيرو الحجم. نتحدث بلغة متعالية ومنتفخة. لا نعرف الواقع.. ولا نعرف الناس. أقليات تختبئ خلف رموز أجنبية تقليدية.. تكرر ما جاء في أدبيات اليسار الأوروبي.. مختلون عقليا.. ونحن مسرورون بذلك.. لا نقدر إلا على تنظيم الإضرابات تلو الإضرابات. نحب الكسل وشرب الجعة والتسكع بين البارات والكلام البذيء وتوجيه الاتهامات ثم إطلاق الوعود الجميلة والإلحاح على استمرار المنهج الثوري!. دون أن يكون لنا أي تأثير.. فبينما كان الآخرون، أولئك الذين نعتبرهم دراويش وباعة دين وأوهام وتجار تعويذات وشعارات، يهندسون ويخترقون الطريق، كان اليسار إما يكتفي

برفع الشعارات أو برفع صور الثوريين العظام للقرن العشرين!. مرت الانتخابات تلو الانتخابات ولم يحصل اليسار على نتائج مبهرة كما حصل الآخرون.. حتى أولئك الذين دخلوا متأخرين للانتخابات على أحصنة النظام القديم حصلوا على نتائج أفضل من نتائج اليسار.. ما من أحد قام بنقده الذاتي. ما من أحد تواضع وتصرف على قدر نتائجه. ما من احد أقنع حتى نفسه بأنه إذا كان لا يسير في الطريق الخطأ، فعلى الأقل يجب أن يعترض سبيل من يدفع بالشعب إلى طريق الماضي!. لم ندرك أبدا أن العدو كان يهزأ بنا.. كما لم ندرك أبدا لماذا نحن متحاسدون ومتخاصمون ومتناقضون رغم أننا نحمل بذرة جيدة في داخلنا.. قرأنا الماركسية وامتلأنا بمساواة الاشتراكية. ودافعنا عن الوطنية والسيادة والأمة العربية وثرواتها.. ثم ها أننا لم نجن شيئا لا من عطف الشارع ولا من صندوق الانتخابات.. إذا تحدثنا عن إصلاح الأرض ضحكوا علينا. وإذا تكلمنا عن التأميم ومحاكمة المجرمين وعدم الإفلات من العقاب، طمأنونا ببضعة كلمات ثم صفعونا بركلات عدة على مؤخراتنا.. إذا تكلمنا عن إعادة توزيع الثروات أسكتونا بتهديد إعادة العمل بالشريعة.. أما إذا تكلمنا عن عودة قبضة البوليس، أوعزوا لمجرمين أن يقوموا بعمليات إرهابية.. وفي الأخير، بات كل يساري متهما في وطنيته إذا لم يتحالف مع الأمن والبوليس ولا يطالب بإعادة قوانين الإرهاب وتثبيتها.. فعلا سيذكرنا التاريخ كمثال ساطع عن غباء نخبة كانت تتكلم لغات أجنبية، أغلبها متخرج من مدارس الغرب وعاشت عديد التجارب وحلمت كثيرا بالثورة، ولكن حين جاءت الثورة، لم

تدرك أبدا أن الثورات تأتي وتمضي في سبيل حالها إذا لم تجد من يحتضنها ويمتشقها كفرصة لا تظهر إلا مرة خلال كل قرن.

قال «أميلكار كابرال»، ذلك الثوري الجيد كما وصفه كاسترو ذات يوم، «الثورة لا علاقة بها، إن كنا نحن الثوريين على صواب وعلى حق أو لم نكن».. الثورة تحب القوة والفتوة والاختراق.. الثورة هي أن نهزم خصومنا قبل أن يعلنوا الهجوم.. وها هي الثورة تأتي دون أن يشعر أولئك الثوريين أنها أتت.. ثم ها هي تتيبس على قارعة الطريق حتى جاء المهاجرون، والتكفيريون ودعاة الشريعة واليمين ورجال البترودولار ليستولوا عليها.. كنا، وأنا من هؤلاء، ربما على حق، ولكن لم نعرف ذلك في اللحظة المناسبة.. أي بمعنى ما، لم نكن على صواب.. ونتيجة لذلك علينا أن نتحمل ركلات التاريخ.. فإذا وصفنا البعض بمجموعات من الخونة والمهووسين، فلأننا قد خنا الأمانة وخذلنا الشعب.. استبدلنا كل شيء بالضجيج وذهبنا إلى أعالي البحار والسماء نبحث عن المصطلحات وأدوات التحليل بينما الأمر كان واضحا جدا.. جدا.. حين كانت الثورة الفرنسية، كان عمر نابليون بالكاد لا يزيد عن العشرين.. طفل كورسيكي من أصول إيطالية، قصير وبدين إلى حد ما وشره في النظرات كما في الأكل.. أصر والده المحامي أن يرسله إلى العسكرية وهو في سن العاشرة. ولأنه كان فقيرا، فقد وجد في الشكنة ملاذا: «كنت ألعب مع أقراني وأظل قابعا في زاوية من المدرسة وأنا أحلم بما يرضي قلبي.. ولكن لا أحد كان يجرأ على الاستيلاء على زاويتي. كنت أدافع عنها بكل ما أملك».. في الواقع لم يكن نابليون شيئا. فهو صغير

السن والحجم، ولكنه كان يملك إرادة.. وقد عرف مبكرا أن تلك الإرادة كافية للانتصار على الآخرين.. كانت لنابليون ذاكرة رائعة، قال عنها «جون دورمسون»، «أنها كانت خزان بسعة قارة كاملة». بعد ست سنوات أصبح ذلك الكورسيكي الصغير ملازما ثانيا.. سمي بالعريف الصغير في البداية بسبب قامته القصيرة. كان يقرأ كل شيء يعثر عليه. وحين انفجرت الثورة، كانت كورسيكا تريد أن تتخلص من الاستعمار الفرنسي.. أما أن تستقل بذاتها أو تنظم إلى إيطاليا.. عاد نابليون إلى جزيرته ليقاتل الفرنسيين. فالثورة حررت كل شيء ولم يعد هناك ما يرغم كورسيكا على الخضوع، غير أن سفرة صغيرة إلى باريس غيرت من رأيه ومن اتجاهه دفعة واحدة: لقد رأى الحق ورأى الصواب معا. واستنتج «أن هذه الثورة من أجل الشعب لا من أجل جزيرته كورسيكا.. وأنه انطلاقا من باريس يمكن أن نفعل الكثير.. أما في كورسيكا، فإننا لن نفعل أكثر من دفن الثورة»..

ها هو نابليون يندمج في محاربة أعداء الثورة.. لم يبتعد بعيدا ليجلس فوق ربوة ويعطي نصائحه.. بل انظم إلى الجيش المقاتل إلى جانب الثورة.. وكما في كل المعارك لا بد أن تدفع الثمن.. وحين سقطت حكومة روبسبيير كان على نابليون ابن الخامسة والعشرين أن يدفع الثمن. فقبض عليه وأودع السجن ثم جرد من رتبه وأطرد من الجيش.. عاد إليه الفقر وبدا المستقبل أمامه مظلما.. ولكن فيما كان الشباب ينظمون مسيرة للإطاحة بالمجلس الثوري الذي شكل بعد روبسبيير، نودي عليه وأوكل مهمة تدمير تلك المسيرة. فاز نابليون في مهمته واستعمل الرصاص لتفريق المسيرة فأصبح

جنرالا.. ومن ثم أرسل به إلى إيطاليا لينشر أفكار الثورة.. أصبح نابليون لا يذهب إلى أية مهمة إلا لكي ينتصر. احتل شمال إيطاليا ثم التف على النمسا وفرض شروطه عليها.. وحين أرادت فرنسا أن تتوجه إلى بريطانيا التي تريد الإطاحة بثورتها. قام نابليون بالاختراق الكبير.. اتجه إلى مصر ليقطع عن بريطانيا طريق الهند والثروات.. وفي مصر لم يتردد، إذ قال للناس: «جئتكم لكي أدافع عنكم لقد بعثني رسولكم. إن هذا لمذكور في قرآنكم»، حمد فقهاء الأزهر، الرب ثم نودي عليه كقائد جديد أصبح يحمل اسم «أبونا أبو تراب». من مصر عاد إلى باريس قبل أن يتحطم جيشه بشكل نهائي على يدي الضابط البريطاني نيلسون، معلنا الانتصار.. ثم ما لبث أن قام بحصار الحكومة التي لم تعد تعرف طريق الصواب.. وبدفع من الشارع أخرج نابليون نواب الشعب وأطردهم ثم تولى القيادة معلنا نفسه قنصلا عاما على طريقة أجداده الرومان.. كان الشعب التونسي قد خرج على بكرة أبية من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال. قدر الخبراء الأمنيون والإعلاميون أن جنازة شكري بلعيد قد فاقت المليون.. احتلت الجماهير الغاضبة المباني والشوارع والمقابر. وبات البرلمان فارغا ومهجورا لا يملك أي صلاحية.. ومع ذلك لم يتقدم أحد نحو البرلمان.. لقد سارع الجميع نحو المقبرة.. وحين اقترح البعض أن تتجه الجنازة إلى البرلمان لاحتلاله وإعلان الثورة الجديدة.. لم يجد إلا من يسخر عليه. حتى أولئك الذين كانوا يحملون النعش، لم يفكروا إلا في الصور التي ستلتقط لهم!.. لم يكن لدينا آنذاك لا نابليون ولا تروتسكي.. الجنرال الذي ظهر للعالم وكأنه حامي

الشعب والثورة، غادر إلى النسيان وهو يقول: «هذه البلاد إذا كانت واقفة على قدميها حتى الآن، فذلك يعود إلى بركة أوليائها الصالحين».. والذين انتسبوا طويلا إلى نسل لينين وتروتسكي أمعنوا طويلا في الحديث عن الفلفل والطماطم، حتى أصبحوا أضحوكة مرة وأرجوحة لعودة النظام القديم في مرات عدة.. تزوج نابليون من ابنة الإمبراطور الهابسبورغي فرانسيس غصبا عنه وأنجب منها طفلا سماه نابليون وأعطاه لقب ملك إيطاليا. بات نابليون أكبر من شارلماني.. وقد أعطى لأقاربه ممالك كثيرة. وزع معظم بلاد أوروبا على عائلته ولكنه لم يكن متساهلا معهم. بل كان فظا وعنيدا.. كتب ذات مرة لأخيه ملك ويستفاليا: لقد اطلعت على أحد أوامرك الأخيرة.. أعتقد أنك مجنون وغبي. أليس لك صديق يرشدك على ما هو أحسن؟ أنت ملك وشقيق الإمبراطور ولكن تلك الألقاب لا قيمة لها إذا لم تكن جنديا تنام في العراء في مقدمة جيوشك، تجلس على حصانك ليلا نهارا. وتسير دائما في المقدمة».. وهكذا لأول مرة يصبح الغازي صديق الشعوب المغزوة. فعل ذلك في الشرق. وها هم الألمان تسيطر عليهم الرغبة في التحرر على يدي غريب. ها هم الطلبة والشعراء والفلاحون وحتى النبلاء في مواجهة حكوماتهم للتحرر.. آنذاك رأى هيغل نهاية حقبة من التاريخ، وحين شاهد حصان نابليون أمام القصر الملكي، لم يقترب منه كثيرا ولكنه رغب أن يأكل بعض الألمان من روثه حتى يستيقظ الألمان على القوة والعقل.. ربما لم يكن هيغل يعرف أن حصان نابليون من فصيلة عربية وإلا لما نطق بذلك. ولكن الشاعر الكبير غوته هو أيضا اتجه إلى الحصان وقال له:

«فلتحرك ذيلك كما تشاء.. فصاحبك أعظم من أن يهزم».. أجاب الروس عن ذلك بفترة قصيرة.. تحالف الجوع مع البرد مع الروس، فعاد نابليون من آخر رحلاته خائبا، لكنه ظل أسطورة لدى شعبه.. أكل الثورة، قال البعض. البعض الآخر رأى أنه جعل منها مدفعا وبارجة.. والتاريخ قال: إذا لم نصنع من الثورة مجدا وصولجانا، فإنها تصنع من الشعب يتامى وحزانى..

خلع نابليون خلعا ثم ارسل إلى جزيرة صغيرة في المحيط الأطلسي. بعد ذلك اجتمع الأوروبيون ليتقاسموا أوروبا على يد النمساوي الداهية ميترنيخ، إستاذ كسينجر.. ثم انطفأت الثورة وصعد شقيق الملك لويس السادس عشر إلى العرش باسم لويس الثامن عشر وعاد البذخ والفساد ونسي الشعب الثورة.. وكانت ال 26 عاما من الثورة كما لو أنها لم تحدث أبدا..

سألت أم الإسكندر مرة أبنها: ما طموحك يا بني.. قال: أن أحكم مقدونيا. وبعد ذلك ما تفعل؟ قال:سأحكم الأغريق. وسألته أمه. وبعد أن تحكم الإغريق، ماذا ستفعل؟ قال: سأحكم آسيا. وبعد ذلك؟ سألته أمه.. بعد ذلك أعود لأموت بالقرب منك في مقدونيا. تنهّدت أم الإسكندر ثم قالت:

- ها أنت بالقرب مني.. إجلس هنا وستموت في مقدونيا.. إلى جانبي.

حكاية أم الإسكندر كان على أم نابليون أن ترويها لإبنها حين قرر الذهاب من كورسيكا إلى باريس، لكنها لم تفعل ذلك لأنها لا تعرفها أو أنها تعرف عناد إبنها..

*** *** ***

بعد أقل من عامين كان إحساسي أن الثورة قد انطفأت شعلتها.. أدركت كذلك أن طاقتها ضعيفة ومحركها يوشك على التوقف.. كتبت لمهى وأنا على قدر كبير من الإحباط:

- إن الإحباط يقتلني يا مهى.. ألا أجد عندك ملاذا؟..

-إنك تجعلني مندفعة جدا؟؟ أفضل أن أحتفظ برأسي باردة.. عندما يأتي هذا الطلب من رجل مثلك اشعر بالاضطراب..

- أعرف أن رأسك باردة، ولكن يقينا أن قلبك ساخن.

- إلى حد ما. أحاول أن تكون رأسي باردة.

- وبالنسبة للقلب؟

- لدينا سلطات ضعيفة على القلب. عادة ما يحب المديح..

- كلنا خاسرون أمام معارك القلب. وغالبا ما لا نتعلم.

- صحيح. هذا ليس عيبا ولا ضعفا.. ما دام ينبض بالحياة.

- هل تعرفين يا مهى.. عندي قلب نفاث.. منذ أن رأيتك، وقد مضى الآن أكثر من شهر، وهو ينبض بسرعة فائقة، ولا أعرف كيف ابعث له الهدوء.

- هذا ما لا يجعلني محايدة أو باردة الأعصاب.. ها أنت تعود إلى تغذيتي بالمديح. أتركك في رعاية الله. . أحب أن تظل ذاكرتك طازجة.. إلى لقاء قريب مراد!..

(في المساء نصبح أكثر غضبا حين نتعرض لوجبة من الإحباط.. وحين يلاحظ الآخرون غيابنا، يثيرنا انتباههم أو احتفالهم بحضور

الآخرين.. أن تفقد مكانك في هذه الحياة هو أن تفقد مكانتك فورا. فحين علمت :ماري لويز» نبأ موت الإمبراطور من الجريدة، كانت قد التقت مع المستشار النمساوي ميترينخ وهو الذي رتب زواجها من عشيقها «الكونت نيبرغ» حين أصبح نابليون منفيا في «سانت هيلين». سمعت بالنبأ فحزنت قليلا ولكن في اليوم الثاني وضعت مولودا جديدا من زوجها الجديد. بكى ايفلون ابن نابليون من «ماري لويز» وقد كان في العاشرة من عمره، وفاة والده بصمت.. ولم يشأ أن يرى أخاه الجديد من أمه لمدة ثلاثة أسابيع. لا أحد صدق موت نابليون، إلاّ التاج البريطاني. وابن نابليون ايفلون. التاج البريطاني لأنه تورط في تسميم الإمبراطور بمادة الزرنيخ.. والابن ايفلون لأنه حلم بأن والده يرمي له منديلا في البحر!.. الآخرون، حتى الملك الفرنسي لم يصدقوا النبأ. قد يكون الخبر مؤامرة.. الإشاعات تتكرر منذ عدة سنوات، فلماذا لا بد أن نصدق هذه الأخيرة!.. مات مقتولا بالرصاص، محترقا، مخنوقا، مختنقا بغاز الكربون قرب موقده، قذف بنفسه من أعلى صخرة، هرب من الجزيرة فغرق في البحر.. لا ربما هو موجود في أمريكا.. أو في المكسيك بصدد تنظيم جيش لمقاتلة الملكيين.. في إحدى المرات أعلن عن وجوده في صومعة في القاهرة.. فلاحون أكدوا مشاهدته.. آخرون قالوا أنه مر عليهم ممتطيا جواده بلباس الرهبان.. في روما لم تصدق أم نابليون الشرسة والقوية النبأ ثم واجهت الحقيقة بجأش كبير. كتبت إلى اللورد كاستل ريغ طالبة جثمان ابنها، إلا أنه لم يجبها.. كتمت صراخها إلى أجل بعيد كما فعلت صفية أرملة القذافي وقبلها ساجدة أرملة صدام حسين

وقبلها سهى أرملة عرفات! ليس لنقص في الشجاعة أو الحزن أو الغضب، ولكن للاحتفاظ بما تبقى من الكرامة.. وللاحتفاظ ببقية كرامتي لم اعد إلى مهى، إلا حين رن مؤشر الماسنجر بكثير من العذوبة..

- هاي، مراد، أفتقدك هذا المساء..

- ولكني أنا افتقدك في كل مساء..

- لم أكن أعرف أن حضوري إلى مكتبك ذات صباح سيكون بمثل هذا التأثير.

- لأني قد رأيت في نظراتك الوعد بشيء ما. لأقل الوعد بالسعادة..

- لديك عيون حادة.. خارقة.. تذهب باتجاه الأعماق.. وذلك ما يسمى بصدمة الأوزان التي كثيرا ما تحدث غرغرة في البطن..

- ولكني لم أر ما أقرأ الآن!..نعم، كان الكلام يقفز من عينيك لا من فمك، كالشظايا حين كنت تتحدث. ولم أر ولها خاصا..

- سترين ذلك حين نلتقي.. فمهما كانت اتجاهات الرياح، فإن الشمس ستذهب إلى حيث يجب أن تذهب..

- أحب تعابيرك.. إذن علينا أن نتبع الشمس.. هل تسمح لي أن أقول لك شيئا صغيرا. لقد لاحظت استعمالك للفواصل بكثرة وأنت تكتب لي.. اما أنا فأكثر من نقاط التعجب.. علاش هذا؟

- ربما هو الغرور.. الغرور شيء غبي لا يجعلنا نقول ما نريد أو نبوح بما نفكر فيه.. لذلك نكثر من النقاط المتتابعة. أما نقاط

التعجب فهي أسلوب للتأكد من وجود الآخر.. نوع من البحث عن التأييد والتأكيد.. تردد في القبول بما نقول أو نكتب.

- أحيانا أراك تكثر من نقاط التعجب مثلي..

- لأن لا أحد يعرف أين يوجد مقعد النجاح أو النجاة.. ما هو أكيد علينا أن لا ننتظر القطار القادم بحجة البحث عن المقعد الوثير.. ما من قطار قادم يؤمن لك ذلك!..

- أحب إجاباتك الأنيقة.. إنك لا تبدو لي محبطا كما تقول.. كيف ترى وضع البلاد بعد الذي حدث البارحة!..

- لا تحزني.. كثير من العمليات الإرهابية تبدو لي غير مفهومة كما يجب.. مضخمة جدا في أحيان كثيرة أو في أغلب الأحيان.. قبل يومين ظهر الرئيس في أبهى حالاته.. أعتقد انه وصل إلى كرسي الرئاسة لكي يستريح.. لكي يضيف إلى شيخوخته سنوات أخرى أكثر بهجة وأقل عزلة. في بلاد العرب يمنحنا كرسي السلطة القدرة على النظر من فوق.. ولكن من تحت لا نعرف حتى مدى متانة أرجل الكرسي!.. شيء مؤلم أن نستقيل من الحياة، ونظل داخل الحياة!..

- تتكلم عن سياسيينا.. أنت على حق!..

- والمؤلم حقا أن المتطرفين من كل ضفة سيحاولون استعمال هذه المأساة لكي يقسموا التونسيين، لاعبين عن الخوف. الخوف هو سيد اللعبة.. في هذه البلاد لكي تعيش، عليك أن تخاف أو تخيف!.. قد يبدأ موسم دموي كبير.. ولكن لنبقى متحدين.

- أنا كذلك على اعتقاد راسخ أن كل مأساة من شأنها أن توحد بيننا.. ولكن كم يجب من الوقت؟ وكم يجب أن يكون حجم المأساة.. أعتقد أن هناك عجزا ما!..

- هذه الكلمة تبدو ساكنة في صدر الرئيس لكنه لم ينطق بها ولن يستطيع أن ينطق بها.. يريد أن يكون متفائلا إلى أبعد الحدود. عجيب أن نجد رجلا في مثل سنه وفي حجم مسؤوليته وهو على هذا القدر من التفاؤل..ولكن حذار.. ذات يوم إذا لم يقل الحقيقة، فسيقول عنه الناس، أنه مات.

- لا أريدك أن تتركني عند تقاطع التشاؤم يا مراد..

- لست متشائما.. أنا محبط.. التشاؤم هو ما يجعلنا متيقظين للأسوأ.. هو ما يجعل إرادتنا صلبة.. أما الإحباط، فهو قد يتحول إلى استسلام..

- لنترك هذا إلى وقت آخر.. لا أريد أن أسقط فيما تسميه بالإحباط.. أريد أن أعرف ما الذي يحدث بالضبط.. (كنت دائما على قناعة بأن ما عرفته وأنا في العشرين هو ما أعرفه حاليا وأنا أقترب من الستين.. أقل أو أكثر بقليل لا يهم.. ولكن طيلة أربعين عاما وأنا أدقق وأجرب وأمحص وأقلب ما عرفته لكي أصير أعرف أكثر.. ولكن أعرف فقط أنني لا أعرف حتى ما يجب أن يقال.. هذا ما قاله أرسطو منذ زمن بعيد.. قلت ذلك مرة لأحد أصدقائي الشعراء فريد ريكوبي.. فرد قائلا: اترك الكلام جانبا على قارعة الطريق.. سوف يتحول إلى عشب أو سوف ينتفخ كمنطاد ثم يصعد إلى السماء).. عدلت من مزاجي قليلا بعدما أخذت جرعة

من التفاؤل ثم كتبت إلى مهى التالي:

- ما عرفته في سن العشرين هو ما أعرفه حاليا وأنا أقترب من الستين. أنا أغبطك على وجودك في باريس مرة أخرى في أقل من أسبوع. لا شك أن قطرات المطر غير المتوحش تنكسر فوق سياجات الحديد والمعادن ورؤوس النساء الراكضات إلى مواعيد مؤجلة وغير محققة.. إنها فضاعة الجاذبية العاطفية، حين تصطك الأسنان من فرط السرعة.. من فرط الخوف أو من فقدان الدهشة.. ثم تنساب الشمس البيضاء عبر الضباب والسحاب فينتشر الضوء بريقه كقميص شفاف فوق جسد من رخام!.. تلك هي باريس كما أتخيلها. لازالت، تقول لنا جميعا لا يوجد حب دون قليل أو كثير من باريس أو من العنف كما قال كونراد لورونزو. ولكن ما المعنى في ذلك؟ أعرف فقط كيف يجب أن أخلط بين الحب والعنف بمقادير دقيقة حتى تكون الوجبة أكثر سحرا وفتنة..

- لا أظنك مخطئا.. لو كنت إلى جانبي لارتديت لك قميصا شفافا وأبيض.. ولعرفت منك أشياء كثيرة كسرّ الخلطة بين الحب والعنف أو عما عرفته وأنت في العشرين. فأنا أيضا أعتقد أن كل ما عرفته قد عرفته في العشرين..

(لم أشأ أن أتمادى معها في إثارة التهيجات. كانت تبدو لي مستعدة لذلك وإلا ما كانت لتشير إلى قميصها الأبيض الشفاف.. أعرف أن المرأة حين تقترب من الأربعين تصل إلى مرحلة ناضجة مع عواطفها بحيث لا تشتهي وجبة الجنس إلا إذا كانت ذات بهارات جديدة أو سبقتها مقبلات شهية.. صحيح أنها تصبح أكثر

جرأة. تصبح قادرة على رفض مضاجعة الديكة.. بل ترغب دائما في أسلوب الحمامة الوديعة ذات الشاعرية. يصبح الشاعر في الرجل هو المنتصر أو المرغوب. وحين تفتقد ذلك في زوجها، تبحث عنه خارج الزواج).. لذلك تركتها دون إشباع حين انتصف الليل.. ولكن في الصباح كتبت لها:

- استيقظت هذا الصباح باكرا على وقع خطوات بعيدة وهي تقترب مني وكأني على رصيف حلم فوضوي. ألقيت نظرة متكاسلة من الشباك فرأيت ربيعا غاضبا. فجأة رأيت شجرة الرمان قد استعادت خضرتها في غفلة مني، فعرفت أن الفصول تتصارع بالألوان والريشة لترسم العالم على طريقتها. تسألينني ماذا أريد من باريس؟ لا شيء يا صديقتي لأن كل شيء يخرج من باريس يفقد معناه.. أريد فقط أن أتحرر من المكان لكي أصل إليك.. حين تجلسين لشرب قهوة الصباح، أغمضي عينيك قليلا وتنشقي جيدا، سوف تصلك رائحة الحقيقة. نعم للحقيقة روائح لا يشتمّها إلا أصحاب الهامات والقامات العالية ذات الكبرياء..

بعد حوالي ساعة.. جاءتني المفاجأة. كتبت مهى تقول:

- ها أنا في طريقي إلى المطار.. انتهت جولتي في باريس. اشتممت بعض الروائح المفقودة.. أنا مثلك ينطفئ داخلي بريق الأشياء عندما تقطف من مكانها. أنا لا أحب حتى التقاط الصور التذكارية. يكفيني ما يبقى في الذاكرة.. ولقد رفعت كؤوسا عديدة في غيابك علها تقترب من الحقيقة. سأهاتفك حين أصل إلى تونس.. قبلاتي..

(واجتاحني فرح عارم ملأ قلبي وأدخل علي نوعا من الاضطراب. لم أتوقع أبدا أنها ستأتي اليوم إلى تونس.. وبعد قليل من الوقت رأيت أن أكتب لها ما سوف تقرأه حين تصل إلى تونس..)

- غجريتي النبيلة.. يصحو الغجر عادة قبل الديكة.. يستحمون في النهر ثم يشقون طرقاتهم نحو الغناء والتجوال. ثمة دافع كبير لدى الغجر لهذا الترحال الكبير والمستمر هو الحاجة إلى التحرر من المكان والزمان. أما أنت فلا أعرف ما الذي يجعلك تركضين من مطار إلى مطار. هل هو الشغف بالحياة؟ هل هو الهروب من الواجبات اليومية؟ أم هو البحث عن ملاذ يتسع لكل أحلامك؟ أعتقد جازما أنك امرأة من موسيقى لا تعترف لا بالحدود ولا حتى بالإيقاعات النمطية.. موسيقى فوضوية منسابة متدفقة إلى ما داخل الحدود وما تحت الجلود.. سأسعى حين أراك إلى معرفة اتجاهات الشغف لديك لأعرف اتجاهات بوصلتي التي ما عادت تدق إلا على دقات ساعتك ووقع قدميك وجرجرة حقائبك ومواعيد سفرك.. أكيد حين تصلين ستجدين قلبي قد وصل إلى حيث أنت.. كلمة أخيرة: قد تجدين رجلا في الركن الخلفي للتاكسي ينتظرك، قبليه ولا تسألي عن اسمه.. إنه الرجل الذي يكتب إليك الآن من خلف الزجاج في مقهى شبه مهجور.

*** *** ***

حتى شاعر الإنسانية الكبير الحاصل على جائزة نوبل، التشيلي بابلو نيرودا صديق الزعيم سلفادور ألندي ضحية الامبريالية ، المدافع الأول عن حقوق البشرية المعذّبة، كانت له هفوات تضاهي

الفضيحة.. فخلال الحرب الإسبانية تخلى عن ابنته الوحيدة في السنة الثانية من عمرها.. وأنكرها بلا رحمة وقال فيها كلاما سفيها لا ينطق به إلا أب سفيه لا لسبب إلا لكونها مصابة بمرض «استسقاء الرأس» الذي يعطل الدماغ ومن ثم يشل أي نمو طبيعي.. إن صديقي فريد ريكوبي الذي يجب أن نناديه «بفريدريكو لوركا»، هو أيضا ربما أكثر انحطاطا من بابلو نيرودا.. فزوجته زليخة ما انفكت تشهر به في كل مكان.. أعلنت أنها ستفضح سفالاته ونذالاته إلى أن ترغمه على الانتحار.. ادعت أنها ألقت عليه القبض وهو يضاجع أختها. وأنه حمل ابنه الصغير إلى إحدى الجمعيات بدعوى أن أمه قد اختفت وأصبحت من مجاهدات النكاح في سوريا. وأنه يعاشر المثليين ويقوم باصطحابهم إلى البيت.. ادعت أشياء أكثر إسفافا، لكن لا أحد صدقها. ففريد ركابي والذي عرف بفريد ريكوبي بعد أن استبدل الألف بالواو ليحصل على لقب فريدريكو شاعر ملتزم ويكتب أشعارا غاية في الرومانسية الثورية.. ويتخذ من فريدريكو لوركا مثالا له.. وهو صديق لشعراء عرب كبار مثل سعدي يوسف وأدونيس وشوقي بزيع ومريد البرغوثي وحتى سعاد الصباح.. وله صور في ألبومه على صفحته في الفايسبوك مع عبد القادر الجنابي ومحمود درويش وأولاد أحمد.. إلى جانب ذلك، فهو عضو ناشط في إحدى التنظيمات التروتسكية.. وما تقوله زليخة ربما يصلح كخلفية عامة لرواية أبطالها شعراء مهووسون أو شعراء منطوون، أو شعراء معقدون.. فهو يشبه تماما ما ورد في رواية «مالفا» للهولندية «هاغار بيترز» عن فضيحة «بابلو نيرودا» مع ابنته المريضة

«مالفا». والحقيقة أن «مالفا» كانت ضحية أبويها بابلو وزوجته الاندونيسية الهولندية ماريا انطونيا.. أما فريد ريكوبي، فقد كان ضحية زوجته منذ عدة سنوات.. كانت زليخة، بائعة البيرة في إحدى البارات بضواحي العاصمة تونس تخفي عمرها عن فريد منذ أن رآها في الليل.. داعبها قليلا بجمل شعرية غامضة وكان تقريبا لا يرى إلا خيالها.. كانت أصغر منه ببضعة سنوات.. وهذا يعني أنها كانت فوق الأربعين. ولكنها كانت تجيد التخفي لتخفيض عشر سنوات على الأقل من عمرها.. بعد لقاءين في البار، انتظرها ذات ليلة حتى تكمل عملها ثم اصطحبها إلى بيت صديقه. تمخضت تلك الخلوة عن اتصال جنسي عابر، اعتبره فريد فعلا بسيطا في ليلة نحسة.! لكن الأفعال البسيطة والعابرة لا تبقى بسيطة أو عابرة أبدا.. التقطته بعد شهرين في إحدى البارات لتقول له: «لا تهرب.. أنا حبلى.. قل ما هو عنوانك لآتي لك بابنك حين أضعه».. ثم اختفت لتظهر بعد نحو عام.

ذات يوم دقت بابه تلك المرأة مع ابنها.. وقبل أن تجلس على الكرسي الوحيد الذي يجلس هو عليه أحيانا لكتابة قصيدة أو رسالة.. قالت: هذا هو ابنك.. انظر إليه جيدا.. ألا يشبهك؟..

(حين تقول الأم للأب.. أنظر إليه ألا يشبهك.. ندخل فورا فيما يسمى بعهد الأبوة.. كلنا نحب أن نصير أبوات..أحيانا لا نبذل جهدا.. وأحيانا نبذل جهدا مضاعفا..) أصغى فريد جيدا لما تقوله تلك السيدة التي بدت تكبره بسنوات عديدة لم يعرف تحديدها.. ثم قال:

- إذن هكذا الأحداث العابرة تتحول إلى أقدار.. (قال ذلك

بطريقة أخرى لنفسه: هكذا تنفجر فينا الألغام ولو بعد عامين من مرورنا على حقل أو بار».. لم يقرأ أبدا ان ما يشبه هذا قد حدث مع فريدريكو لوركا ذاته الذي يتشبه به.. ها قد مرت حوالي ثمانين عاما على موته، ولكن لا أحد قال «أن فريدريكو قد ترك أبناء على صدور أمهاتهم ينتظرون آباهم الذي اتهموه بالمثلية ثم أطلقوا عليه «النار في خربة». عاش عاشقا ومطاردا للنساء ولكن ما من امرأة ادعت أبوته لهذا الطفل أو لذاك الطفل! قال لنفسه: ربّما تهمة اللواط أنقذته من إهانات النساء ثم فكر مباشرة في مغامرات كازانوفا، فقال لنفسه أيضا: لا أعتقد أن كازانوفا ترك كتيبة من الأيتام.. أطاح كازانوفا بمئات النساء فأدخلهن إلى التاريخ. نمن في فراش التاريخ إلى الأبد. أما أنا فبالكاد بدات اخطو خطواتي الأولى في عالم كازانوفا حتى وجدت من يركض ورائي بفضيحة..

كانت العدوانية واضحة في وجه تلك السيدة التي قالت لي أن اسمها «زليخة» مع أني غير متأكد حتى من اسمها إلى الآن. لطالما تباهى أمام أصدقائه، أنه عاش بلا منغصات. أما الآن فإنه لن يعيش يوما بدون منغصات. لم يعد فريد يتذكر متى امتطى تلك السيدة. فهو إلى وقت قريب كان ينام عند أصدقائه.. وما كاد يصرخ كأي رجل، يريد أن يهرب من الفضيحة في وجه «زليخة» حتى أخذت الطفل من صدره ثم وضعته على الكانابيه. وضعت بيبرون في فمه ثم فتحت الحقيبة وقالت:

- هذه الحقيبة تحتوي على الحليب وبعض الحفاضات ومنشفة، يمكن لك أن تستفيد منها حتى تتدبر أمرك.. ثم قامت فأسرعت إلى الباب.

أصيب فريد بدوار كبير في الحين. وداهمته مرحلة من الخرس الفجائي إذ كان يحتاج ألى أكثر من بيرة لكي يستعيد نشاطه، فظل صامتا معلقا بين الاستعارات. كان سيشرع في كتابة قصيدة راودته أثناء جلسة مع أصدقائه البارحة، لكنه ظل جامدا بلا حركة..

*** *** ***

حكى فريد حكايته إلى مراد عباس. ثم ختم يقول:

- عاش هتلر مع ايفا براون عدة سنوات ولم تحبل منه. وعاش موسوليني مع كلارا بيتاشي عدة سنوات ولم تحبل منه. أما أنا فقد أصبح لي ولدا بسبب مغامرة واحدة لم أعد أتذكر ما حدث أثناءها أبدا.. قل لي يا مراد: هل أنا أكثر فحولة من هذين الدكتاتورين؟..

ضحك مراد.. وكان يصعب على أي رسام أن يلتقط ضحكته لأن الرسامين عادة يميلون إلى الوجوه العابسة. ولو حضر رسام معهما لشرع في رسم بورتريه لفريد ريكوبي فورا. كان الأذى باديا عليه، شفتاه ارتخيتا وبدا كما لو أنه تقدم به العمر لمدة سنوات.. لم يبق بداخله أية ومضة فرح أو حتى وعد بفرح ما.. ارتكب خطأ أو خطيئة حياته. وتلك الخطيئة هي التي جعلته ينضم إلى طابور المعذبين. وانتظر فريد أن يتكلم مراد، لكن هذا زاد في ضحكاته ظنا منه أن فريد كان يمزح، لكن فريد ضرب على الطاولة بقوة وراح يهذي بكلمات بذيئة: سأنكح أبو أبوها.. هذه العاهرة التي تدعي أنني والد ابنها..

تذكر مراد قصته مع ستيفاني. عبر بذهنه ذلك الشريط الأول بخفة.. ستيفاني أيضا حبلت بطارق قبل الزواج، ولكن ذلك تم

باتفاق بيننا. لم تخف شيئا عني، لكنها أرادت أن تضع أمها أمام الأمر الواقع.. أمها كانت مسيحية متغطرسة ولكنها لم تقف ضد زواجنا فيما بعد. أما أبوها فكان متسامحا وقد بارك علاقتنا حتى قبل الزواج.. كانت ستيفاني قد جاءت إلى تونس لتدرس اللغة العربية في «بورقيبة سكول». وأمام المعهد تصيدتها كوحش كاسر.. ولم تمضي ثلاثة أسابيع حتى استسلمت.. أعميت كل حواسها وأصبحت مغرمة لا تعرف ما إذا كان الفصل ربيعا أو شتاء. وما إذا كانت تعيش في باريس أو في تونس. أو إذا ما كانت تعيش حلما أو واقعا.. باختصار لقد سحقت كل ما لديها من أسلحة للمقاومة.. ابني طارق لم يأت إلى الحياة لأنني كنت أريده، ولكن لأن ستيفاني كانت تريده.. بالأحرى لأن الوضع العام كان يريده.. بعد ما مرت تلك السحابة البيضاء فوق رأس مراد، سأل فريد:

- وهل أنت تريد هذا الطفل أم لا تريده؟

- يا حبيبي مراد. أنت تطرح عليّ سؤالا فلسفيا، وأنا أطرح عليك مسألة أخلاقية. من الذي يدعي أنه ولد بإرادة أهله؟. أغلبنا جئنا إلى هذه الحياة بدون إرادة وكذلك بدون خيارات.. وقبل كل شيء.. وحتى لو كنت أريد هذا الطفل، أليس من الواجب أولا أن اعرف.. أن أتأكد ما إذا كان ابني الحقيقي.. ابن خصيتي وكروموزماتي أولا.. ستقول لي ثمة اختبار جيني علي أن أمر به ولكن لماذا كل هذه الفضائح.. الناس سيقولون أنني ناكر لابني وأبوتي.. هذه العاهرة دمرتني دفعة واحدة.. وما لم تقدر عليه دولة البوليس أن تفعله، فعلته العاهرة زليخة!..

كان مراد يعد جوابا لفريد، لكنه لم يعد يعرف كيف يهدئ من روعه في البداية.. فالجواب الذي يفكر فيه عليه أن يكون بمثابة جرعة دواء.. بدا له فريد إما معتوها أو مريضا.. وفي الحالتين لا بد أن يحتال عليه لكي يجعله يبتلع دواءه دون تذمر أو جزع، ثم سأله لكي يصل معه إلى نتيجة موضوعية:

- أنت تخاف من أية فضيحة.. فضيحة أنك هارب عن ابنك أو فضيحة أنك رزقت بولد من نادلة تعمل في البارات، أو من فضيحة أن هذه السيدة عجوز وقبيحة كما تقول؟..

- من جميعها.. حيثما التفت وجدت فضيحة..

- لنفترض أن الولد كان من نتاج خصيتيك حسب الاختبار الجيني.. كيف ستهرب من الفضيحتين الأخريين؟

- أنت تفرض علي أن أقوم بقتلها وبقتل الولد!..

- أنا أعرض عليك أن تتزوجها ثم تطلقها بعد حين كما يفعل من هم في مثل حالتك..

ثم أضاف متسائلا:

- وما هو الزواج أو الطلاق يا غبي!.. ألا تعرف أن كلاهما ضد الحب لأنهما ينضحان بالفضيحة والخساسة!..

الفصل السادس

حين انتصف خطابه الذي ألقاه في جامعة القاهرة منتقلا إلى ما يسميه المحللون «بالهجوم المبطن»، دافع الرئيس أوباما بكلتا يديه عن وجهه حتى لا تخربشه ذبابة بدت له وكأنها طائرة أباتشي.. لا شك أنه لم يفكر أبدا أن تكون تلك الذبابة قد وقع الزج بها لكي تشوش أفكاره كما يفكر عادة الحكام العرب.. وآنذاك تحمس الرئيس مبارك بأن يتكلم أمام وزرائه:

- وهل يظن نفسه، هذا الزنجي الصغير أنه سيهزمنا.. ألا يرى أن حتى ذباب مصر يدافع عنا؟!

كان القذافي حين ينصب طاولته البلاستيك أمام خيمته استعدادا لاستقبال زواره من الأجانب، لا ينسى أبدا أن يحمل معه «لفة» من سعف النخيل لكي يدفع بالذباب بعيدا إذا حطّ على كتف أو وجه أولئك الزوار.. همّ بإبعاد الذباب عن كتف طوني بلير الذي أجلسه أمامه في عمق الصحراء كتلميذ يتهجي الحكمة ويشرب الشاي المنعنع، عدة مرات، فلم يتمكن من طرد ذبابة كبيرة كانت تحط من حين إلى آخر على أنفه.. وحين قاوم بلير جاهدا لطردها لم يفلح. غضب القذافي، فأمسك «بلفة السعف» وضرب وجه بلير بقوة.. ثم أطلق ضحكة خبيثة قائلا:

- ها أنا أريحك منها.. ضربة قوية واحدة أفضل من عشرين ضربة صغيرة.. أضاف..

- أو أنكم تعتبرون حتى الذباب من ضحايا القذافي.! لا أعرف إن كان الذباب وقع تصنيفه من فئة الإنسان أو الحيوان لكي يتمتع بحقوق الحياة والرفق!!..

ابتسم بلير كما يبتسم أغلب الإنكليز ثم تابع حديثه.. وتذكر في نفس اللحظة كل من القذافي وبلير، ما حدث للجزائر في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، حين استعمل داي الجزائر مروحته اليدوية بطريقة غير لائقة أمام السفير الفرنسي الذي أكثر من المماطلات في دفع مستحقات الجزائر ثمنا للقمح الذي كانت تستورده لجيشها الجائع العائد من الجبهات البعيدة مكسورا ومهزوما. وسواء كان القذافي مازحا أو كان داي الجزائر جادا، فإن الإنكليز والفرنسيين قرروا أن يضربوا بقوة.. احتلت الجزائر في العام 1830 ثم أعيد احتلال ليبيا في 2011. ولو استمع الرئيس مبارك إلى خطاب ذلك الزنجي السخيف والطويل، جيدا، ما كان ليسقط في أقل من ثلاثة أسابيع..

قرب فندق «هيلتون النيل» الذي أغلق أبوابه وتم إخضاعه لحملة تجديد وتحديث بعدما اشتراه المستثمر القطري مصعب الصراف.. وفي كافيتيريا صغيرة كانت لاتزال تحتفظ ببريقها وزبائنها وأغلبهم من الشباب ذوي الميول اليسارية ومتذوقي موسيقى الروك أندر رول الصاخبة، ظهرت ميرفت في ذلك المساء المكفهر بروائح البارود والأكريموجان، بلباس غير محتشم وشعر

متطاير وهي تصرخ باحثة عن صديقها خالد..

- خالد.. خالد.. أينك.. الليلة أو غدا سننتهي من هذه البهذلة.

جاءها خالد لابسا مريولا رياضيا مبرزا عضلات يديه، دافعا بصدره الثقيل، واضعا على رأسه قبعة رياضية كتب عليها شعار البيبسي كولا..

- ما الجديد يا ميرفت.. لماذا أنت مضطربة..؟

وبعد أن طبع قبلتين على خديها.. همس لها:

- حذار.. الكافيتيريا امتلأت بالبوليس السري منذ ثلاثة أيام.

- هل تعرف يا خالد.. مرسي انتهى.. ذلك المحشو بالكلام حشوا.. انتهى.. لقد أخبرني بذلك صديقنا الضابط بهجت السيناوي.. وبعد أن التقطت أنفاسها عادت لتقول:

- بهجت لديه معلومات جديدة.. أنت تعرفه.. وتعرف ما الذي قاله لنا عن الرئيس المخلوع.. (قال أن نائب الرئيس سيقع اغتياله أو إبعاده أو اقتلاعه أو إقالته.. وأن الجيش أعد خطة محكمة للتخلص من عبء الرئيس المريض.. والمسألة لا تقدر أن تكون مسألة وقت..)

تذكر خالد أمين ذلك جيدا.. والتفت وراءه على نحو ثابت ليراقب جيدا ما يدور حوله ثم قال:

- هذا الأمر.. قد يتم.. ولكن هذه المرة لن يتم إلا بمذبحة..

ارتعبت ميرفت عبد الرحيم التي كانت لاتزال طالبة بكلية الفنون الجميلة.. من كلمة مذبحة، لكنها ردت كما لو كانت قد

استعارت لغة أستاذها في مادة تاريخ الفنون..

- ألا ترى معي، أن فكرة السيطرة على مجرى الحياة بالعقلانية أو بالحوار، فكرة سخيفة في أحيان كثيرة.

- قد أوافقك يا ميرفت ولكن أخاف من التوقعات التي تلد الخيبات.. نادين وهاب صديقتك صاحبة الأفكار المجنحة، أين هي الآن؟ وتلك التي كانت تزغرد لقدوم الربيع نادية خطاب أين اختفت؟ إن نحافة التفكير ليست بالضرورة أناقة أو رهافة!.. الثورات الحقيقية ليست ريجيم أو إكسسوارات. هؤلاء عصابة قوية ومترابطة.. جيل وراء جيل.. وزعيم وراء زعيم.. أمّا نحن فلا زعيم لدينا.. لا زلنا نعتقد أن غيفارا هو قائدنا بينما نغني جميعا: «غيفارا مات»، منذ نصف قرن..

- غدا قد يغني آخرون: مرسي مات..

- لا أحد يموت في هذه البلاد. حتى الفراعنة لا زالوا أحياء.. سيذهبون إلى التقاعد والراحة ليجلسوا يتفرجون على عذاباتنا وويلاتنا.. فحين نصدق الشيطان، لا يعود الرب يزورنا..

في ذلك المساء بدا خالد أمين متأرجحا بين قناعاته ورغباته.. رأيته سوداويا إلى حد ما على غير عادته. لم يعد يثق فيما يجري أصلا. فالذي أطلق عليه الجميع اسم ثورة، هو انقلاب دولي. مجرد انقلاب عالمي بأساليب حديثة. لعبة فيديو ضخمة يتحكم فيها من هم يسيطرون على العالم. صدقنا الكذبة الأولى فكان علينا أن نتابع المسلسل بشغف.. وها هو المسلسل يوشك على النهاية دون أن نفهم ما الذي حدث بالضبط.. أو ما الذي يجري إعداده لمصر

والعرب.. شهداء كثيرون ودعناهم بحرقة ونحن نعدهم بالجنة والانتصار.. ولكن كل شيء لايزال يبدو بعيدا.. وبعيدا جدا..

تساءلت ميرفت بينها وبين نفسها (لماذا حين يتعرض الرجال لأول خيبة، يعودون إلى العقل والحكمة..). إن أستاذها في تاريخ الفنون والعمارة نجيب سليمان هو أيضا غير مقتنع البتة بأن ما يحدث ثورة.. لأن مستوى الإثارة قد هبط ثم تحولت إلى مهرجان من الهبل والسذاجة والانحطاط لا ينتهي.. فقبل يومين عاد نجيب سليمان من زيارة للجزائر، فوجد أن الجزائريين مبهورين بما يحدث في مصر وتونس، ولكنهم رأوا أن ينتظروا نهاية الشريط حتى يقرروا ما سوف يفعلونه.. تلك الطريقة اليقينية التي يمتلكها نجيب سليمان للتعبير عن أرائه تبدو لي وكذلك لأغلب زملائي جبانة وتتسم بالمخاتلة بيد أن ما يقوله الآن خالد أمين يتناسب إلى حد بعيد مع رأي نجيب سليمان!..

كان رأي البروفسور سليمان منذ خلع الرئيس واضحا. وقد عبر عنه أحيانا بوضوح ومباشرة. قال: «إن ثورة تذهب منذ يومها الثاني إلى الانتخابات لا يمكن أن يكون لها أفق أو رؤية.. فمن سيخلف الديناصورات القديمة هم ديناصورات جديدة، أغلبها تعود إلى ما قبل التاريخ.. ففي بلد يزيد عدد سكانه كل عام بنحو خمسة مليون لا شك أنه بلد مرهق ومحكوم عليه بالفشل!.. أكثر من 70 ٪ هم من الشباب المحبطين والغاضبين. وذلك هو الجيش الجديد الذي سيقع به غزو مصر. إن السلطة توجد دائما في مكان آخر غير صندوق الانتخابات. وبما أن هذه الثورة لم تر أين تقع السلطة، فإن من يملك المال والسلاح قد فرض على هؤلاء

المساكين الذهاب إلى الانتخابات.. لن ينفع الندم غدا إذا فشلت الانتخابات ووقع تزويرها أو حملت ديناصورات جديدة إلى مكان السلطة.. فذلك كله جزء ضروري جدا للمرور إلى نهاية المسرحية. فما لم تعد الدبابات إلى ثكناتها، فإن لا شيء يمنعنا من الاتحاد مع القوة العسكرية.. فبعد كل حطام وخراب.. ثمة هناك مخلص»..

وبالرغم من أن نجيب سليمان يبدو متشددا في خطابه ويميل نحو الانضباط والقوة ولا يجد صدى كبيرا داخل الطلبة إلا أنه يظل رجلا محترما لأنه دفع ما يجب دفعه من أجل التغيير. فقد دخل إلى السجن ثلاث مرات. مرتان في عهد عبد الناصر وهو لايزال طالبا طريا ومرة ثالثة في أواخر عهد السادات. كان شيوعيا متصلبا.. كان يسير بمحاذاة الثورة دون حسابات كثيرة للربح والخسارة كأي رجل أعمى قد تعود على الأرصفة المزدحمة بالناس لتحاشي السيارات إلى العا م 1990. في ذلك العام أوشك على الخمسين من عمره ورأى العراق قد أصبح حطاما بسبب عناد رئيسها وجبن رفاقه من الزعماء العرب.. ثم رأى حائط برلين ينهار ثم ينهار من بعده الاتحاد السوفياتي.. لم يخطئ التقدير آنذاك.. قال لزملائه آنذاك: أعداؤنا ليسوا نائمين.. إنهم قادمون.. انتهى القرن العشرون أسوأ نهاية.. يجب أن لا نحلم بعد الآن بأية ثورة.. أو تغيير. معركة المساواة والعدالة انتهت.. الآن ستبدأ حرب الحريات.. وكما خسرنا الأولى، قد نخسر الثانية..

– صديقتي ميرفت.. أنا وأنت لا نستطيع أن نكون شيطانين.

قام خالد مرتين من مقعده الطابوريه المرتفع جدا. أراد أن يعدله على مستوى ساقيه لكي لا تظلا متأرجحتين ثم عاد يقول:

- الذين يتقنون لغة الشيطان غالبا ما يرفعون رؤوسهم نحو السماء ويواظبون على الصلاة، لكي يجعلوا الله حليفا لهم.. أما نحن فلا حلفاء لدينا.. فالضابط الذي قال لك أن مرسي انتهى، سيكلف غدا بتنظيف ميدان التحرير وشوارع القاهرة كلها من أمثالنا.. ستكتشفين غدا عدد النصابين والمحتالين والانتهازيين الذين يحيطون بنا.. ستكتشفين أن منحرفين ومساجين وعاهرات وحشاشين كثيرين قد رمى بهم البوليس إلى ميدان التحرير.. هؤلاء هم الذين سيخرجون لتحية القايد المخلص. وهؤلاء هم حثالة الثورات العربية..

بعد قليل اقترب من وجه ميرفت حتى كاد يقبلها ثم قال:

- لا تحزني.. احزني فقط على الذين وعدوا أنفسهم بالجنة.. أغلبهم دفنوا في قبور غامضة وعلى وجه السرعة ودون تراتيب.. إننا نعيش حياة من الوهم، ولكن نصر دائما أن لا نخرج من الوهم..

كان الحزن قد بدأ يبسط جناحيه على ميرفت.. تعكر مزاجها وهي التي جاءت ترقص وتكاد تطير من فوق الأرض.. وها هي توشك على مغادرة خالد وهي تكاد أن تبكي.. تذكرت حبيبها وخطيبها الموعود وهو يسقط أمامها صريعا في شارع ماسبيرو جراء طلقة لم يعرف مصدرها حتى الآن.. لقد أحبت ميرفت حبيبها علاء بدون عناء وبلا أسئلة.. الطريقة التي التقيا بها كانت شبه غامضة. وربما ذلك ما جمع بينهما.. هدير الجماهير هو الذي جعلهما متحدين ثم عاشقين.. لقد أيقظت الثورة بداخلها رغبات كثيرة، بل أطلقت عنانها للتخلص من ثقلها البورجوازي.. رأت

في علاء رجلا شهما يسير دائما في مقدمة المتظاهرين، وخطيبا قويا حين يرفع على الأعناق. فأحبته دون أن تهتم بأصوله الريفية ولا حتى بسمرته الداكنة.. ولا بدينه أو قريته.. قدمته إلى أهلها منذ البداية، ثم باتا مدمنين على بعضهما بعضا إلى أن حدثت اللعنة.. إنها لا تعرف لا قبره ولا حتى أهله لكي تسأل عنه. اسمه موجود على شاهدة القبر ولكنها متأكدة أن علاء مدفون في مكان آخر.. وربما وقع التخلص من جثته بطرق أخرى.. لم تجد الشجاعة لكي تذهب إلى أهله في الجنوب في أبنود.. ورغم أنها أصبحت متأكدة الآن أنه من أبنود وأن خاله الشاعر الكبير عبد الرحمان الأبنودي، إلا أنها لم تفعل شيئا لكي لا تتألم من جديد.. كان علاء يقسم لها بكل المقدسات أنه أحبها بعمق، وأنه لن يدعها تقص شعرها الطويل، وأنه لن يتزوج غيرها.. وحين سقط صريعا أمامها، اجتازت الصدمة ثم عادت لتنتقم لحبيبها. أصبحت الثورة لديها بمثابة تصفية حساب مع الذين حرموها متعة اللقاءات مع علاء.. ولذلك كله لم تعد تحسب الخسارة والربح في حياتها.. عادت إلى الميدان بوقاحة وبشهية وكذلك برغبة في الانتقام، لكن صديقها خالد بدا لها أنه عاد إلى التقاعس.. كل يوم كان يبدو أكثر تقاعسا.. وحين همت بالمغادرة لم تنسى أن تقول لخالد بإصرار:

- يجب أن نمد أيدينا للآخرين.. مصر في حاجة إلى الأمل..

*** *** ***

قبل أن تذهب ستيفاني إلى القاهرة لتغطية الاعتصامات الكبرى ضد الرئيس مرسي. تركت تونس تغلي مثل مرجل. لقد كره التونسيون والمصريون في وقت واحد «حكامهم الجدد» من الإخوان

في أقل من سنة. قالوا أنهم جلبوا لهم الفيضانات والعار والأمراض والدراويش والإرهاب وكل ما يمكن أن يصنع الانحطاط.. وبدأ الرهان حول من سيسقط الأول. في السباق الأول فاز التونسيون بإسقاطهم لبن علي. وفي السباق الثاني فاز المصريون فأسقطوا رئيسهم مرسي.. صعد ذلك الرئيس المنتخب إلى أعلى الشجرة.. لم يعرف كيف ينزل. ولم يعرف متى يجب أن ينزل. ظل معلقا كطائر مذعور فقد القدرة على الطيران.. ولأن لا أحد ساعده على الحركة. فقد سحب أحد الضباط سلاحه ثم صوب باتجاهه..

وحين رأى حكام تونس ما حدث في القاهرة أصابهم الرعب ثم تماثلوا للانسحاب. لم يكن الله في عونهم كما يدعي عادة الإخوان. فعندما يتخذون من الله عكازا لتعبهم وفشلهم.. أو خشبة إنقاذ من الغرق، وعندما يريدون تحويله إلى إله للضعفاء والفاشلين ويجردونه من النخوة والسيادة والحكم، عادة ما لا يكون الله خاطئا كما يريدون أن يكون..

قال لها زوجها مراد عباس، إذا سقط حكام تونس فسوف يتبعهم حكام مصر. وإذا حدث العكس، فإن النتيجة ستكون نفسها.. لم يعد لهؤلاء من مكان. لقد خربوا كل شيء في زمن قصير.. فعلوا ما لم يفعله الدكتاتوريون في ثلاثين أو أربعين عاما.. إن أفضل إنجازاتهم هي تخريب معنى الثورة..

بتلك الخلفية دخلت ستيفاني إلى القاهرة.. كتبت تقريرها الأول من فندق شيراتون الجزيرة.. لا زالت تتهجى المشهد المعقد.. حتى زملائها من الجزيرة أو من فرانس 24 لم يمدوها بالكثير من

الاستخلاصات.. اعتمدت على حسها وكذلك على الأنترنت. كانت تبحث عن «سكوب» يجعلها في صدارة زملائها.. اتجهت في اليوم الثالث من وصولها مباشرة إلى السفارة الإسرائيلية.. تمكنت من اختراق الحصار الأمني الأول فالثاني ثم وقفت أمام البوابة الإلكترونية طالبة موعدا مع السفير. رأت أن مقابلة مع السفير الإسرائيلي ربما تفك بعض الألغاز.. فزملاؤها الذين رأتهم خلال اليومين الماضيين كانوا لا يكفون عن مناقشة الموقف الإسرائيلي من الإطاحة بمرسي. ولا شك أن معرفة الموقف الإسرائيلي من تلك المسألة ستساهم في فك اللغز..

- لماذا تريدين مقابلة السفير؟ سألها ضابط الحراسات من خلال شباك صغير لغرفة الكترونية محصنة جدا..

- لأحاوره لحساب وكالة البو.بي.أي.. وكذلك لصحيفة - لموند - الفرنسية.. أنا صحفية، مراسلة متجولة في بلدان الشرق الأوسط.. انظر هذه بطاقتي..

- انتظري قليلا.. لا أعرف، ربما السفير غير موجود..

-أنا أريد موعدا معه.. أعرف أن انشغالاته كثيرة..

كانت لاتزال واقفة، حين قرعت الإنذارات بقوة.. فكرت أن يكون موكب السفير قد حل.. وحين التقطت أنفاسها رأت سياجا كبيرا قد ارتفع من ورائها لتصبح داخل المبنى.. قال لها الضابط.

- لن يغفر لي الرب، لو تركتك للخطر..

كانت هناك جموع بدأت تحتشد وتتجمع وهي تهدد باقتحام السفارة. ولم يكن أمام الحرس الإسرائيلي إلا أن يعزز الحراسات

واليقظة لحماية سفارته.. رأت ستيفاني في الساحة الداخلية من خلال شباك صغير عشرات من الجنود الإسرائيليين المدنيين والحاملين لأسلحتهم.. استنتجت بسرعة أن إسرائيل أرسلت بتعزيزات من الرجال والسلاح تحسبا لكل طارئ.. وما هي إلا لحظات حتى حضر إلى المقصورة الداخلية، رجل بدين وسريع الكلام والخطوات ليقودها إلى الطابق الثاني عبر المدرج الخلفي. تعلمت ستيفاني خلال عملها الصحفي أن السياسيين لا يستسلمون إلى الصحفيين إلا إذا كانوا يريدون إيصال رسالة ما.. كما تعلمت أن تغلق فمها حين يبدأ رجل السياسة في الكلام، ثم تغلق عينيها عن أي شيء يحدث خارج سياق الاستقامة. فالاستقامة قد تكون جديرة بالإعجاب، لكنها لا تساوي شيئا لدى دبلوماسي قد يكون خريج أجهزة المخابرات مثل بنجمان عموس سفير إسرائيل في القاهرة.. جمعت معلومات كثيرة عنه قبل أن تذهب لمقابلته.. وأهم ما عرفته عنه أنه ضابط سابق في الموساد. وقد عمل في العراق جيدا إبان الغزو الأمريكي. وهو من أصول اسكندرانية.. يتكلم العربية جيدا وله مؤلفات في «استراتيجيات الحكم».. إلى جانب ذلك فهو يحب الأحصنة وله مزرعة في النقب لتربية الأحصنة.. وقد جمع ثروة كبيرة من تجارة الأحصنة بين مصر وإسرائيل..

تحدث بنجمان عموس عن الثورة المصرية كما لو أنه أحد جنودها. أبدى إعجابه بالشعب المصري وكذلك بالشباب المصري الذي لم يتعب ولم يكل حتى هذه اللحظة.. إنه يريد الآن الإطاحة بمرسي كما أطاح بمبارك.. لا أعرف إن كانوا صائبين

هذه المرة.. لأنهم يبحثون عن الرجل النقي؟.. ولكن أين يوجد ذلك الرجل النقي؟ نحن أيضا نبحث عنه في إسرائيل، ولكن قد يعيق طريقك ذلك الرجل النقي حين تجده.. قد يقوم الناس حين يكونوا متحمسين بأعمال جيدة.. ولكن هناك دائما من لا تعجبه تلك الأعمال الجيدة.. كل هؤلاء الشباب سيختفون بعد أسبوع أو اثنين أو ثلاثة.. وبعدها سيكتشفون أن الخارطة تغيرت..

سألته ستيفاني مفترضة:

- هل الخارطة والأرض تتطابقان معا في هذه اللحظة؟

ابتلع السفير عاموس السؤال دفعة واحدة ثم أجاب على طريقته:

- حين نغمض عيوننا، ليس بالضرورة أن يأتي النوم.. أو السلام..

وهي تحاول تفكيك ما نطق به السفير عاموس خلال تحرير تقريرها، عثرت ستيفاني على كلمتين فقط تكررتا كثيرا خلال اللقاء وهما: «الرجل النقي».. و»السلام».. استخلصت أن إسرائيل لا تريد الإطاحة بمرسي وتريد السلام مع مصر.. ولكن ذلك لا يجب أن تعتد به.. وبعد أن أرسلت تقريرها عرفت من خلال شاشة التلفزيون أن ذلك الشباب الذي مدحه السفير الإسرائيلي قد اقتحم سفارته..

*** *** ***

أن تكون دبلوماسيا جيدا هو أن تعرف كيف تتظاهر. فأي شيء لا يؤذي بلادك هو عمل نبيل. وقد كان عاموس يتفنن في التظاهر.. هذا ما احتفظت به ستيفاني في رأسها بعد أن كتبت تقريرها.. عليها الآن أن تستعد لعشاء رسمي قد يكون خارج

الفندق. لقد قبلت الدعوة من زميل لها في قناة الجزيرة كانت قد ساعدته لإجراء حوارات مع مسؤولين تونسيين. جلست في زاوية من الصالون الكبير تنتظر إسماعيل السمان، وهو صحفي سوري عمل مراسلا لقناة الجزيرة في أكثر من بلد.. وبما أنها لم تأكل إلا سندويتش خفيف خلال النهار كله، فقد كانت تشعر بالجوع وتتشتهي عشاء دسما. فتحت مجلة «التايم» الأمريكية لكي تتصفحها بسرعة وتختار المقالات التي عليها أن تقرأها فيما بعد، عثرت على مقابلة صحفية مع أمير قطر يتحدث فيها عن «الربيع العربي» وعن أهمية مصر وضرورة التخلص من حاكم سوريا الذي لم يعد له مكانا في سوريا.. في أقل من ربع ساعة حضر إسماعيل ثم طرح عليها الذهاب إلى عشاء جماعي في بيت السفير القطري.. لم تمانع، بل أحست نفسها محظوظة لأنها تكون قد اتقت بسفيرين في نفس اليوم. سفيرا أهم دولتين يتحركان على الساحة العربية وهما يصنعان جزءا من تاريخها. وهما: إسرائيل وقطر.. أشعرها إسماعيل أن العشاء سيحضره صحفيون مصريون وعرب، وكذلك ناشطون سياسيون.. لم يذكر لها أي اسم، لكنه قال لها: العشاء قد لا يكون مهما.. ولكن اللقاء مع هؤلاء في حد ذاته حدث كبير بالنسبة إلينا نحن الصحفيين!..

حين جاءنا السائق ليقلنا إلى بيت السفير بمنطقة المعادي، ركبت أنا وإسماعيل في المقعد الخلفي كعاشقين.. انطلقت السيارة الدبلوماسية تشق شوارع القاهرة. تخطت الجسر بسرعة ثم اتجهت نحو اليمين صعودا في طريقنا إلى المعادي. كنت ألتفت إلى الوراء من حين إلى آخر كما لو أن هناك من كان يتعقبنا.. رآني إسماعيل

قلقة، فعلق قائلا على شوارع القاهرة- ما أحلى شوارع القاهرة دون ازدحام، وخاصة في الليل.. آنذاك تذكرت ما قاله لي زوجي مراد قبل أن أسافر إلى القاهرة: سوف تجعلك القاهرة كئيبة من شدة الزحام.. لا أعرف كيف ستتحملين ذلك..

بعدما اكتمل السلام والحضور قام إسماعيل ليعرف الضيوف ببعضهم. آنذاك عرفت أن إسماعيل هو الذي اقترح على السفير ذلك العشاء وهو الذي اختار لائحة الحضور.. وها هو يعرف بنا الواحد تول الآخر. وباختصار كان هناك قطريان الأوّل وهو السفير الذي لم أعد أذكر إسمه الآن. والثاني يدعى مصعب الصراف. قال لنا إسماعيل أنه رجل أعمال يمتلك منتجعات سياحية في إسطمبول وأغادير في المغرب وبانياس في سوريا وشرم الشيخ في مصر. وهناك ثلاثة مصريين، أحدهم يعمل بصحيفة الأهرام ويدعى عبد الوهاب يحي والثاني محامي وناشط سياسي. والثالث طيار متقاعد عمل طويلا في الخطوط المصرية ثم في الخطوط القطرية.. وهناك صحفية لبنانية تدعى سمر تعمل مراسلة لقناة «الحرة» الأمريكية ثم هناك رجل سوري في الأربعينات قال عن نفسه: أنه معارض.. واسمه أبو منذر.

على مائدة العشاء، دلني أحد الخدم، وهو من أصول آسيوية على مكان جلوسي.. للتوضيح طلب منه أن يجلسني بين رجل الأعمال مصعب الصراف وإسماعيل السمان. كانت الطاولة مستديرة، لذلك كنا نرى بعضنا جيدا.. لم أكن مهتمة بالحديث كما ينبغي لأنني كنت جدا جائعة.. دائما نحن النساء ما نقع تحت العيون.. كنت أعرف أنهم سيراقبون طريقة أكلي والكمية التي سآكلها

والأطباق التي أتمتع بها، ليحكموا في النهاية ما إذا كنت نهمة أو أنيقة في طريقتي واختياراتي.. ما إذا كنت حريصة على وزني ومظهري أم لا.. كل ذلك لم يعد يهمني إلى أن أخذت قسطا وفيرا من الأكل لمغالبة الوهن الذي أصابني من شدة الجوع.. آنذاك سمعت إسماعيل يقول:

- شيخ مصعب.. ستيفاني التقت بالسفير الإسرائيلي اليوم.

- عال.. هذا سبق يا ستيفاني..

ردت ستيفاني مبتسمة..

- وها أنا في حضرة سعادة السفير القطري أيضا.. لكن لم أفطر ولم أتغدى معه..

- صحتين مدام ستيفاني.. الأكل حلال عند اليهود كما المسلمين.. يختلفون في كل شيء إلا في الأكل الحلال..

قال الشيخ مصعب مستدركا:

- نسيت أن مدام ستيفاني غير مسلمة!..

هنا ردت ستيفاني مدافعة عن دينها الذي جاهدت من أجل أن تختاره. لم تقل أنها حاربت أهلها من أجل أن تصبح مسلمة، ولكنها قالت:

- أنا مسلمة وأم لولد مسلم وزوجة لرجل مسلم..

(...يخشى بعض الناس كل ما هو غير مألوف لديهم، لذلك وجد الشيخ مصعب صعوبة في الرد. ثم قال موجها كلامه إلى سعادة السفير كما لو أنه يعتذر عن خطأ ارتكبه حين تكلم عن الدين في عشاء دبلوماسي:)

- هل ثمة أمل لنجاة الرئيس يا سعادة السفير؟

تلقف السفير السؤال ثم رماه إلى عبد الوهاب يحي ، الصحفي بيومية الأهرام. وظل ينتظر الجواب حتى يفرغ فم يحي من الأكل..

*** *** ***

استمر الحديث ثقيلا. كل واحد كان يتلمس كلماته بعناية ويميل إلى أكثر التعابير غموضا أو استغراقا في العمومية.. ولو سئلت الآن كيف كان ذلك العشاء لقلت كانت تنقصه البهجة وتغلب عليه الصرامة المفتعلة. إن سفيرا واحدا من سفراء العرب لقادر على إفساد مئات الأمزجة.. لم أعثر على أي تحليل جيد أو إشارة ذكية.. والشيء الوحيد الذي يمكن أن أدركه ذات يوم هو أن الشيخ مصعب، قد حاول احتوائي وظل يتبعني بنظراته الحادة إلى لحظة الوداع. وقد دس تحت صحني بطاقته الشخصية ثم حاول أن يستدرجني إلى قصص شخصية أثناء استراحتنا في صالون الوداع.. وحين شعر بالإرهاق، استخدم حيلة لكي يبدو لطيفا وقريبا.. نادى على إسماعيل إلى حيث كان يجلس ثم بدأ يحدثه عن نيته في إنشاء قناة تلفزيونية في تونس.. سأله عدة أسئلة عن قوانين البث والتكاليف ووضعية الصحفيين. وطلب منه أن يعد له ورقة بيانات تقديرية. ثم طلب منه أن يستعين بي. وآنذاك أشار لي إسماعيل بأن ألتحق بكرسي إلى جانب مصعب، فكرر مصعب ما كان يقوله لإسماعيل طالبا مني أن أساعده على ذلك حالما أعود إلى تونس.

في طريق عودتي إلى الفندق، سألت إسماعيل ما إذا كان صديقه

مصعب جادا في مشروعه. فقال لي:

بالتأكيد لأنه مكلف بذلك على ما أعتقد.. ما كان ليتكلم في الموضوع في بيت السفير لو لم يكن مكلفا بذلك. أضاف إسماعيل بعد أن نزلنا من السيارة..

- في بلداننا العربية، أحيانا يكون السائق أقوى من السفير.. أظن أن الشيخ مصعب هو الذي يأمر السفير وليس العكس.. ثم ختم أقواله:

- على العموم لنفترض أنه جاد.. وقبل عودتك إلى تونس، سوف نتفق على كيفية التنسيق والاستفادة.. ربما أتيتك إلى تونس بعد نحو أسبوعين..

وقبل أن استسلم للنوم كتبت ما جال في خاطري من انطباعات عن ذلك اليوم الطويل جدا.. في مصر يبدو القطريون والإسرائيليون متفقون على ضرورة بقاء الرئيس مرسي.. في الثورات العظيمة، يحضر الأوغاد حين يغيب الأبطال.. وفي عالم السياسة، يصبح مصاصو الدماء في منتصف الليل رجالا شرفاء.. والثوريون غرباء ونذلاء.. وفي مصر بالذات تيقنت أن العرب بلا بوصلة لأنهم سلموا مفاتيح بيوتهم لرجال صغار وعديمي الضمائر..

كنت سأسافر بعد يومين، ولكن انفجار الأحداث بتلك الطريقة جعلتني أتريث. كنا كصحفيين نراهن على الاستقالة والإذعان لمطالب الشعب أو الذهاب إلى مذبحة كبرى تنهي اللعبة كلها.. واقترب الموعد الذي ضربه الجيش لبدء الحوار. لم يعد يفصلنا عنه إلا ليلة.. وفي الصباح قال لي إسماعيل: إن الجيش

المصري لا يمكن أن يتراجع.. خطته واضحة والشعب لايزال معه.. ثمة أكثر من أربعة ملايين ينادون برحيل مرسي.. أكثر بخمس مرات من الذين كانوا ينادون برحيل مبارك.. اليوم قد يكون أطول يوم على مصر.. إنه شبيه بيوم مقتل السادات.. وأظن أن المعركة بين الجنرال والمرشد التي هي مستمرة منذ حوالي قرن، ستضع قواعدها الجديدة في هذا اليوم..

قلت له بعفوية..

- إذن ليس ثمة اعتبار لأية شرعية.. كان يمكن أن يدعو الجيش إلى استفتاء على الأقل.

أجابني إسماعيل بخبرته في متابعة إدارة الحكم في بلاد العرب:

- الشرعية توجد على أفواه البنادق كما يقول ماوتسي تونغ.

جادلته لسبب وحيد هو أن أعرف اتجاهات عواطفه..

- ولكن قد يكون الحاكم جيدا أو سيئا هذا موضوع.. وأن يكون شرعيا هذا موضوع آخر..

- ثمة العديد من الشرعيات في عالم السياسة، قال إسماعيل ثم راح يعدد بعضها.

- ثمة شرعية ثورية.. وأخرى انتخابية.. وأخرى تاريخية.. وأخرى شعبية.. ثم أن تنازع الشرعيات ليس هو الموضوع الأهم عند الشعب المصري.. الجيش لا يستطيع أن ينتظر حتى تحترق القاهرة.. أليست هذه أيضا شرعية يمكن أن نطلق عليها شرعية الإنقاذ أو الخلاص..

كنت أخدع نفسي بإبداء الموافقة على كلامه.. رأيته قد زاد حماسه رغم أنه يشتغل مع تلفزيون قطري وصديق كبير وموثوق فيه لدى القطريين الذين لا يريدون أن يسقط مرسي.. لقد راهنوا عليه وعلى الإخوان كثيرا ووضعوا في خزينة الدولة المصرية حوالي عشر مليارات من الدولا رات.. ثم أرسلوه إلى موسكو للاتفاق على صفقة سلاح.. بعد ذلك رأيت أن أقول له:

- ولكن هذا يتعارض مع سياسة قطر.. أن الحزن الكبير سيكون في الدوحة.

نظر إلي إسماعيل بعين لا تخدع أحدا بلمعانها الذي يفضح مدى حماسه لانقلاب عسكري، ثم قال:

- مصر لا يحكمها إلا العسكر.. هل تظنين أن الجيش المصري الذي يحكم هذه البلاد منذ قرنين ونيف سينهزم مرة واحدة أمام جماعة الإخوان.. أو سيصمت مجاملة في قطر . سنكون ساذجين لو صدقنا ذلك.. لقد تبخر الآن حماس الثورة وعاد الجيش إلى الانضباط.. إلى حالته الطبيعية.. يجب أن تعرفي أن لولا الجيش لما سقط مبارك.. الجيش هو الذي يرسم الخرائط.. قد تلعب قطر وإسرائيل.. ولكن الجيش هو الذي سيربح في آخر المطاف..

وجدت في كلام إسماعيل تبريرا للدم. بدا لي كلامه تفاهة أمام الألم الذي سيلحق بأناس كثيرين.. إن فكرة تدمير الهيكل على الجميع فكرة شيطانية أشاعها الرهبان والقساوسة لمحاربة فكرة التقدم. إن الدم هو أسوأ شاهد على الحقيقة كما يقول نيتشه. فالدم يسمم أنقى المشاعر والتعاليم ويحولها إلى جنون وحقد يعمران

القلوب إلى الأبد.. كان ذلك ما يخالج قلبي وعقلي، حين سمعنا صراخا في ردهات الفندق ما لبث أن تحول إلى حفل لرحيل مرسي.. لقد تم إسقاطه واقتيد إلى السجن مع كل رجاله.. وآنذاك رأيت كيف أن الغرب يشيخون ويهدهم التعب حين يريدون أن يتقدموا.. رأيت كذلك بأم عيني كيف أن إسماعيل قد نسي نفسه كصحفي وانطلق لينظم إلى ذلك الحفل الباذخ في إسفافه وطغيانه!.

الفصل السابع

زار كاتب الروايات البوليسية الشهير «جان لوكاريه» بيروت عدة مرات في سبعينات القرن الماضي. وذات مرة طلب أن يلتقي بعرفات. سأله عرفات وهو لايزال في عز مجده:

لماذا جئت إلى هنا؟ أجابه لوكاريه:

- جئت أبحث عن قلب الفلسطينيين.

أمسك عرفات بيد «جان لوكاريه» ووضعها على قلبه، ثم قال له:

- هذا هو قلب الفلسطينيين..

قال «جان لوكاريه» فيما بعد: لقد أدهشني بإجابته. شعرت في الحين أنه لا بد أن يكون للفلسطينيين وطن..

وحين التقى لوكاريه في التسعينات برجل الكاجي.بي «بريماكوف»، سأله هذا الأخير باستفزاز:

- هل تستطيع أن تقول لي كيف يتحول جواسيس بريطانيا إلى روائيين كبار من سومرسيت إلى غراهام غرين إلى جون لوكاريه.؟

قال لوكاريه أجبته أنا أيضا بما يمكن أن يوجع القلب، أي بلغة لا يفهمها إلا الجواسيس..

- سيد بريماكوف.. الجاسوس رجل يتلصص على الأعداء. أما الروائي فهو رجل يتلصص على الأعداء والأصدقاء.

ثم أضاف:

الجاسوس يعيش حياة قد لا تروى بينما الروائي يروي قصصا قد لا تعاش!!..

إنه عذاب اللغة وعذاب الحقيقة معا.. قال لي «مثنّى عبد الفتاح» على طريقته، الذي دعاني على فنجان قهوة قرب الروشة في بيروت. وجدته قد أصبح تقريبا شيخا. وروى لي كيف أنه عاد إلى العراق، لكنه لم يتآلف مع المجازر والكذب فعاد إلى بيروت.. قال لي أيضا: العراقيون منقسمون أولا إلى شعراء وإرهابيين. ثم هم منقسمون بين شيعة وسنة ثم هم منقسمون بين عرب وأكراد. ثم هم منقسمون بين أمريكا وإيران.. ثم هم منقسمون بين علمانيين وتكفيريين. ثمة نخبة في العراق مركبة من كل شيء. وكعادتهم لا زالوا متخمين بالشعر حتى أنهم يعانون من عذاب اللغة.. يبلغ العراقي سن السابعة عشر، فإن لم يتحول إلى شاعر، يذهب إلى الجندية أو الحسينية.. أو إلى مجموعة إرهابية.. قال لي أيضا.. أن قصائد العراق كلها من المتنبي إلى مظفر النواب لا تساوي ثمن سيارة وليس لها مفعول سيارة مفخخة واحدة تجعل الأجساد البشرية مفحمة كعجلات المطاط.. ثم ختم مرارته: أني لا أفهم كيف تلد الأم العراقية شقيقين.. واحد يصبح شاعرا والثاني يصبح انتحاريا!؟

مازحته فقلت له:

- قد يوجد السبب الأول في الإنسان الأول.. السومريون والبابليون هم الذين علموا البشرية اللغة والشعر وكذلك الحرب والغزو..

وسمعته يقول:

- كانت القصائد مهمة لأن الناس كانوا يقرأونها ويفهمونها ويحاربوا بها أحيانا الاستبداد.. أجابني مثني. ثم أضاف:

أما الآن فهي لا تقرأ وإن قرأت، فهي لا تفهم. فيما الشعراء يزدادون توغلا في الغموض، حتى بات الشعر كما لو أنه إعلانات لسيارات مفخخة. هل تستطيع أن تقول لي ما هي السعادة التي يريد أن يبثها أي شاعر اليوم في العراق. هل تستطيع قصيدته أن تكون سلاحا اعتراضيا لصاروخ أو حتى كلب حراسة لسيارة مفخخة.. أو تحذيرا للمارة من موت قادم لهم!؟؟

وسألته:

- وأنت هل لازلت تكتب الشعر؟

أجابني بسرعة:

- أكتب أحيانا لأنني لست سعيدا البتة.. كنت أكتب في الماضي لأنني أشعر بالسعادة. أما الآن، فالبكاد أرتدي نعالي دون أن يداهمني السعال أو الرعاش من فرط الرداءة.

(تذكرت في الحين ما كتبه هنري ميللر عن الشيخوخة.. فإن كنت قد بلغت الثمانين وأنت لست مشلولا أو مختلا أو معتلا.. إن كنت لاتزال بصحة جيدة وتستمتع برياضة المشي وبواجباتك

اليومية. إن كنت تستطيع النوم دون حبوب منومة، فأنت شخص محظوظ ومن الأفضل لك أن تسجد شاكرا للطف الرب).. عاش هنري ميللر حياة مليئة بالمغامرات حتى ملأ الدنيا بأخباره وفضاعات كتاباته الإيروسية. كان فضائحيا بشكل لا يطاق.. وقد تبارى مع الإيطالي ألبرتو مورافيا، فكان هو الأكثر فضائحية في الكتابة كما في الحياة. خانا زوجتيهما وعاشرا بنات صغيرات وافتخر كل منهما بقضيبه.. ولم يبلغ مجدهما إلا الرسام بابلو بيكاسو. كان صديقي مثني بالكاد قد تجاوز الستين من عمره. وهو لايزال يتمتع بقسط كبير من الصحة والقوة.. قلت له:

- بيكاسو يقول دائما، في الستين يشعر المرء بالشباب، حين يكون الوقت قد فات.

رد علي:

- هذا الكلام يتناسب أكثر مع المرأة، فحين تبلغ الأربعين تعود إلى مراهقتها..

أكمل كلامه، فرّن هاتفه.. تحدث بسرعة وسمعته يذكر اسم المقهى الذي كنا نجلس به ثم عاد ليقول:

- صديقتي ستأتي بعد حين.. إنها تحب ما تقوله.. يا يحي إنها أربعينية ولكنها عائدة بقوة إلى سنوات المراهقة.. امرأة موغلة في القدم وفي الحياة.. أعطاني مثني بسطة صغيرة عن صديقته. قال، أن اسمها سمنتا أيوب، مسيحية سيريانية، كاتبة سيناريوهات سينمائية. مطلقة من ثلاث رجال.. أوبوها وغد كبير في عالم الأعمال. لها أخت تكرهني جدا لأنني تجرأت عليها ذات مساء.

سمنتا هي الأجمل ولكن الرغبة في مضاجعة أخت العشيقة رغبة موجودة في قلب كل شاعر. ثم أوصاني التالي:

- كن حذرا.. هذا الكلام لك أنت فقط.. ثم حذرني:

- لا تطيل النظر كثيرا في عينيها أو في مؤخرتها. لها عيون زاخرة بالتواطؤ. أما مؤخرتها فذات حساسية عالية لكل من يحدق فيها.. إنها مؤخرةسخية. وهذا ما يرغب فيه أي عراقي!..

بعد ذلك أفرغ كأس الجعة في بطنه ثم اقترب مني ليسألني:

- وأنت يا يحي.. احك لي ماذا فعل بكم الشيخ الغنوشي؟..

ثم اضاف:

- لا تقل لي أنه رجل معتدل.. لا يوجد بوذا في الإسلام. ولا يوجد غاندي في بلاد العرب ولا حتى طاغور في الأدب العربي. أقلهم يضرب بالسيف أو السكين.. خريجو بريطانيا وأمريكا يفخخون السيارات، خريجو موسكو كانوا يضربون شعوبهم بالغاز.. أما خريجو كابول فيذبحون بالسكاكين أمام الكاميرا كما لو أنهم يمثلون في استوديوهات هيوليوود.

*** *** ***

حين وصلت «سمنتا»، طبعت قبلتين على وجه مثني ثم صافحتني وظلت واقفة. قدمني لها مثني على طريقته قال:

- هذا صديقي منذ عهد طويل. منذ ثلاثة عقود لم أره. كان شابا ولايزال. أعتقد أن من يعرف كيف يعيش لا يشيخ أبدا.. بعد ذلك أضاف..

- قبل الطوفان، كان المرء يعيش أكثر من 200 عاما ويظل شابا إلى ان يبلغ 150عاما. وبعد الطوفان، انخفض عمر بني آدم ليصبح أقل من 100عاما، إذا كان من سكان الجبال.. هذا ما تقوله لنا الأساطير السومرية..

كانت سمنتا لاتزال واقفة ثم اقترحت علينا أن ننتقل إلى مكان آخر. قالت:

- سنركب السيارة ونذهب إلى منطقة عين المرسية.. لقد تركت سيارتي على حافة الطريق الخارجية.. لم أجد لها مكانا لكي أركنها.. ثم أن هذا المقهى لا يعجبني.. ليست به أية حميمية..

استسلمنا للاقتراح وقام مثني ليدفع الفاتورة.. وتشاغلت أنا بالهاتف كي أتفادى التحديق في عيون سمنتا (إحدى تحذيرات مثني..) وجاء مثني فاتجهنا نحو السيارة (كنت أسير في المقدمة حتى ألتزم بتحذير مثني الثاني ولا أجد نفسي محدقا في مؤخرة صديقته).

حين وصلنا إلى المقهى، أحسست أن عهودا طويلة قد قطعناها رغم أن المسافة لا تزيد عن كيلومترين لو ذهبنا إليها في خط مستقيم.. فقد انتقلنا من مقهى اسمه «ليالي الشرق» إلى مقهى آخر اسمه «اينشتاين». قلت في نفسي: (يا إلهي.. كيف يتفق العرب على أسماء المقاهي ولا يتفقون على أن إسرائيل عدوهم.. تركت تونس تمتلئ يوميا بهذا الجيل الجديد من المقاهي.. فهم قد أصبحوا يزخرفونها بأكثر مما يزخرفون مساجدهم ويختارون لها أسماء مثيرة مثل اينشتاين وهنري ميللر وهمنجواي وشوبنهاور

و«عند فرويد» و«الفرسان الثلاثة» و«عند سارتر».. ويستجلبون زبائن في غاية من الدلال والدلع. وحين أخذنا مكاننا على إحدى الشرفات، قلت لسمنتا:

- يذكرني هذا المقهى بمقهى كنت من جلاسه.. أحببته في البداية لشيئين، قربه من بيتي ثم اسمه همنجواي.. بعد فترة غادرته لشيئين: ضجيجه الكثير وزبائنه الذين لا يعرفون همنجواي رغم أنهم يتصدون للتغيير في بلدانهم سواء كانوا تونسيين أو ليبيين!..

ضحك مثني ثم علق قائلا:

- مساكين العرب.. منذ أن أصبح زعماؤهم يسمون أسامة بن لادن وأيمن الظواهري وأبو بكر البغدادي، اتجهوا إلى تسمية مقاهيهم بأسماء أعلام وفلاسفة غربيين. ثم قال:

- في القاهرة، فتحوا مؤخرا مقهى اسمه «أوباما غولدن». وقد أخذني بعض الأصدقاء إلى مطاعم ومقاهي مثل «فكتوريا رويال» و«فولتير» و«دوتسوفسكي» و«سارة برنار» وتشرشل.. ولم أر أي مقهى يسمى بأحمد شوقي أو طه حسين!.. لا تتعب نفسك إنهم يبحثون عن الحقيقة التي لا يريدون امتلاكها أبدا..

التقطت سمنتا كلمة «حقيقة» ثم رمتها بطريقتها إلى صديقها مثني:

- أليست هي الحقيقة التي تعذبك يا مثني.؟

ثم اتجهت نحوي وقالت لي:

- لطالما عذبني صديقك بشكواه من اللغة التي فقدت معناها وسط القذائف. وكذلك من الحقيقة التي تناثرت كمرآة سقطت من السماء..

كدت أن أقول لها: (ها أنك اقتربت من مفهوم محي الدين بن عربي للحقيقة). وبما أننا جالسون في مقهى اينشتاين، فقد أردت أن أدخل إلى عالم اينشتاين.. قلت:

- حين زار طاغور بيت اينشتاين بالقرب من برلين في العام 1930، كان زلزال كبير قد وقع في الهند لكن لا أحد منهما، لا اينشتاين ولا طاغور كان يعلم بذلك. ولأنهما لم يعلما بحقيقة حدوث ذلك الزلزال، فقد دخلا في نقاش آخر عن الحقيقة.. (بالتأكيد لو علم أينشتاين بالزلزال لأرجعه إلى تفاعلات جيولوجية وربما لأخبر طاغور ، بأنه، أي اينشتاين سيصبح بعد عشر سنوات فقط قادرا على صنع الزلا زل.. ربما أيضا دعاه طاغور إلى الالتزام بنوع من الأخلاق تحفظ النوع البشري والحيواني من الدمار..)

- وما الذي دار بينهما من حديث إذن يا يحي؟ سألني مثني. علقت «سمنتا» حين سمعت اسمي فقالت:

- اسم جميل..اسم قديم وثري بالإيحاءات. الدينية.. قلت ذلك بسرعة ثم عدت للإجابة عن سؤال مثني..

- طاغور بشعره الأبيض ولحيته المسترسلة كاد أن يهيمن على اينشتاين. قال له: إننا نتشابه في المظهر يا ألبير لو تركت لحيتك تنمو، لقال عنا الناس أننا أشقّاء.. كانت تلك دعابة لا بد أن يبدأ بها حكماء الشرق حديثهم عادة.. ثم أضاف جادا..

- حين كنت أحاضر في هذا البلد عن عالم الحقيقة، العالم الأبدي للإنسان.. كنت أنت يا ألبير مشغولا بمطارة كيانين

عتيقين هما المكان والزمان مستخدما الرياضيات لفهمها..

رد اينشتاين:

- وهل وجدتها تلك الحقيقة يا سيد رابندرنات؟

- الحقيقة تدرك بواسطة البشر، قال طاغور، لكن اينشتاين قال:

- أنا أؤمن بالحجة الفيثاغورية رغم أنني لا أستطيع برهنتها.. أؤمن أن الحقيقة مستقلة عن البشر. أنها مشكلة منطق الديمومة..

- الحقيقة هي ما نمتلكه من وعي للإدراك.. قال طاغور ثم ضرب مثالا على ذلك فقال:

الطاولة هنا هي الشيء القابل للإدراك بواسطة الوعي الذي يمتلكه البشر نتيجة تناسق عقلاني وتوافق على تسمية الأشياء.

قال اينشتاين بحبور عظيم..

- ها أنني أقترب من إقناعك. ستظل الطاولة هنا في المنزل هذا، حتى لو لم يكن أحد في المنزل.. إذن وجودها كحقيقة مستقل عن البشر. لا أستطيع أن أثبت لك ذلك رياضيا، ولكن بالإيمان الذي قد نشترك فيه جميعا..

ثم أطلق ضحكة عالية (في الحقيقة لم يعد قادرا على الضحك العالي، لأن الغليون قد هده هدا)..

وقال على نحو منخفض:

- إذن ألا ترى أن اينشتاين أكثر تدينا منك يا سيد طاغور؟

وختم يحي روايته قائلا ومعلّقا.. (أظن أن طاغور غضب قليلا

وقال لاينشتاين.. لست أكثر أو أقل تدينا.. لكنك تريد أن تكون إلها جديدا)..

بعد ذلك عادت بي «سمنتا» إلى حيث توقف بي مثني حين كنت معه في مقهى «ليالي الشرق» وسألتني:

- أخبرني عن تونس هل صحيح أن ثورتكم هي الوحيدة التي نجحت؟

قلت لها بنوع من التأسف:

- نجحت!.. لا أدري. ربما لأنها أبقت كل شيء في مكانه.. إذا أراد صاحب هذا المقهى أن يبيع مقهاه لشخص آخر، فإن المقهى سيستمر في العمل.. بالطبع ستحدث بعض الضوضاء من العمال.. سيتساءل البعض عن صاحب المقهى الجديد.. سيحاول صاحب المقهى أن يغير بعض الديكورات، كأن ينزع صورة المالك القديم ويعلق في مكانها صورته ثم تستمر في العمل..

- أراك متشائما جدا.. ألم تطردوا دكتاتورا بأقل الأثمان..

- أطرد نفسه بنفسه. هو الذي اختار أن يرحل.. لربما كان أكثر حكمة من الجميع. الجبن في أحيان كثيرة يمنحنا الحكمة!..

تطور تأسفي إلى أن أصبح غضبا واكتشفت أن بداخلي غضب لا ينضب، كما لو أنني أريد العنف لكي أبرر وجود الفساد. وقلت لنفسي، الفساد موجود وسيظل موجودا، ولكن لماذا العنف لتبريره.. ثم تساءلت: لو أنني انضممت إلى الجوقة لما كنت بمثل هذه الحالة من التبرّم والتشاوم.. بعد ذلك هدأت وقلت:

- اثنان فقط ربحا من هذه الثورة.. واحد جاء من بعيد كما لو أنه وصل على معراج إلى قصر قرطاج. والثاني جاء من خلف الموت متخفيا، كما لو أنه خيال لرجل قديم جدا..

قال لي مثني:

- هل تقصد المرزوقي والباجي؟

- نعم، لا غيرهما.. الأول شرع في بيع قصور الرئاسة كما لو أنها من ممتلكات أبيه ثم نصب مزادا علنيا لبيع سيارات بن علي وكيلوتات وأحذية وفساتين ليلى بن علي كما لو أنها من ممتلكات زوجته.. والثاني ها هو يستعد لبيع الموانئ والشركات الوطنية والقواعد والطرقات..

قالت «سمنتا» بسذاجة النساء..

- ربما يحتاجان للأموال. لقد سرق الرئيس السابق كل شيء..

قلت لها وقد ارغمتني سذاجتها أن أدافع عن الرئيس السابق..

- سرق كثيرا ربما.. ولكنه ترك كثيرا أيضا.. لقد أنفقوه بسرعة وبتهور. ثم أضفت..

- يا عزيزتي لنفترض أن المرزوقي باع تلك القصور، وهي ليست إلا فيلات متواضعة تسمى تجاوزا بالقصور، فإنه لن يجمع أكثر من عشرين مليون دولا ر في أحسن الحالات. وهذا المبلغ لا يكفي لشرب القهوة ليوم واحد لشعب يزيد عدد سكانه عن 12 مليون.. اكتفى ببيع الكلاسين وبعض السيارات والأحذية.. ثم وزع بقية السيارات على الشرطة الرئاسية وكذلك على مجموعة من المعارضين

يدعون أنهم معرّضون للاغتيال.. وختمت قائلا:

- هذه هي الرداءة التي لا اسم آخر لها غير الخساسة.. هذا هو الابتذال الذي لا أجد له اسما آخر غير النذالة!.. تصوري: معارضون يساريون يركبون سيارات مرسيدس وب.م ورونج روفر رباعية الدفع كانت من أملاك الرئيس السابق.. هكذا ببلاش.. لكن الحقيقة ليست ببلاش.. فقد كان ذلك من أجل أن يصمتوا.. استبدلوا الثورة بسيارات فارهة، لكنها قديمة!! أليست هذه هي الرداءة يا سمنتا!.. لا تصدقي شيئا. إنهم تجار روبافيكا وخريجو سجون ومقاولو جهاد في بيشاور ومعهم تجار خضروات بالجملة في بروكسيل واصحاب مسالخ لحم حلال في بريطانيا ومنظمات دولية عتيدة أصبحت تشتغل لصالح الموساد والسي.اي.اي. وتجار عملة ومهربون وحجاج وأيمة أميّون..

كان مثني منشرحا لما كنت أقوله. وهو يستطيع أن يقول أكثر على ما يحدث في العراق، لكنه اكتفى بالتالي: في الخمسينات جاءنا ضباط صغار في العراق وسوريا ومصر. كانوا صادقين إلى حد السذاجة.. ولكنهم لم يبيعوا شيئا لا من قصور الملك عبد الإله ولا من قصور الملك فاروق. بل أمموا الأراضي والنفط وحاولوا أن يبنوا أوطانا فسيحة.. وحينما اتحدت سوريا مع مصر، أضاف الملك فاروق إلى بطاقته الشخصية وقد كان لاجئا طوعيا في روما، لقبا جديدا: «الملك فاروق، ملك مصر وسوريا»..

ضحكنا ثلاثتنا وقدرنا جميعا شهامة الملك فاروق وكذلك شهامة أولئك الضباط الصغار.. ثم اقترحت عليهم أن يضعوني

أمام الفندق (فقد اقترب موعدي مع صديقي الفلسطيني توفيق السراج)..

*** *** ***

وصل توفيق السراج إلى فندق «الغولدن توليب» متأخرا بحوالي ساعة.. قال أنه تأخر بسبب الازدحام. فهو يسكن في الضاحية الجنوبية.. ويصعب على المرء أن يقدر الوقت الذي يستغرقه للذهاب إلى الحمراء.. كنت قد رأيت توفيق قبل يومين، واتفقنا أن نذهب معا إلى «عباس فرشخاي»، تاجر السجاد الإيراني الذي التقينا به معا في تونس قبل نحو ثلاثة أشهر. تركت مهمة ترتيب الموعد لدى توفيق. ثم هاتفني في الصباح بأن السيد عباس ينتظرنا في إحدى محلاته لبيع السجاد في منطقة رياض الصلح.. ركبنا سيارة أجرة ثم اتجهنا نحو العنوان الذي سجله توفيق على ورقة صغيرة.. حين اقتربنا من ساحة النجمة قال لي توفيق:

- قد يدعونا صديقنا عباس إلى العشاء.. هل لديك مانع؟

أجبته على نحو مبهم:

- لنرى ذلك.. نقرر مع بعض.

- أعرفه جيدا.. لن يتركنا.. عباس رجل شهم..

آنذاك فكرت لو أن عباس فرشخاي رجل شهم وغني كما يعتقد توفيق فلماذا لم يرسل لنا سيارة بسائقها، ولكني أبعدت ذلك السؤال حتى لا يفسد مزاجي وأقنعت نفسي بأنه رجل لا يريد أن يترك أثرا لأي عمل يقوم به.. شيء من الفذلكة السوداء لا أفهم مصدرها أحيانا وهي غالبا ما تفسد التواصل.. ذلك التواصل

الذي يتطلب من الذين يسعون إليه كثيرا من الصبر والتواطؤ والاستسلام!..

استقبلتنا سيدة في الأربعين أو اقل بكثير، بابتسامات رقيقة.. كان واضحا أن السيد عباس، إما أنه لم يصل بعد. وإما أنه موجود في جناح ما في هذه المغازة الضخمة والفسيحة. وأشارت إلينا بأن نسير وراءها. اخترقنا رفوفا طويلة وعالية من السجاد الفارسي الفاخر جدا.. قدرت المسافة بنحو 50 مترا حتى نصل إلى المصعد الذي سيرفعنا إلى جناح السيد عباس فرشخاي.. وحين انفتح المصعد في الدور الثاني، ظهر عباس مبتسما وحاضنا كل منا بدفء وحنان. كان يرتدي بدلة إفرنجية وقميصا ماو بدون كرافته، ككل النخب الإيرانية في عهد الملالي. كانت إيران قبل نحو أربعين عاما من أكثر بلدان الشرق التي وقع غربنتها أو تغريبها، إراد الشاه ، أن يفعل ما فعله كمال أتاتورك في تركيا، ولكن الثورة أزاحت كل شيء وعادت لتنزع عن كاهلها الغرب الخارجي وترتدي الغرب الجواني. ففي أعمق أعماق هذه البلاد توجد نزعة آسيوية عريقة وأصيلة!.. في إسلامهم ولغتهم وجغرافيتهم. ربما هم قريبون من العرب، ولكن في أصالتهم وانضباطهم وفلسفتهم قريبون من عالم الهند. حتى عقيدتهم الإيمانية هي عقيدة وجودية.. بما يعني أنها مركزية تاريخية!..

دخلنا إلى جناحه فوجدنا رجلين آخرين، أحدهما كان يرتدي عباءة سوداء. قدمنا إلى ضيفيه ثم قدم ضيفيه لنا. ثم طلب منا أن نجلس وهو لا يزال مرحبا ومبتسما.. قال:

- هذه هي بيروت.. إنها مكان جيد للقاء العرب والعجم كما

يقول فقهاء العرب!.

أحسست أنه لا يحب كلمة عجم التي يطلقها العرب على الذين لا يتحدثون العربية، ويقصدون بها في الغالب الفرس.. ورغم أن علماء الفرس قد أعطوا الكثير إلى المسلمين والعرب، فإنهم ظلوا عجما في نظر من لا زالوا بدوا. الإسلام انطلق بدويا، ولكن أهل الشام وأهل الفرس هم الذين جعلوا منه دينا مدنيا ومدينيا.. أنا نفسي لا أحب أن يطلق على أي شعب كلمة عجم.. لذلك ضحكت وقلت له:

- كل غريب في نظر البدو. أعجمي.. لا عليك..

فهمني عباس فرشخاي جيدا وفهم أنني فهمت قصده.. والتفت إلى ذلك الرجل الذي يرتدي عباءة سوداء والذي كان يدعى حسين رستم وقال:

- أغلب العرب لا يعرفون أن الذين يرتدون عباءات سوداء في إيران يحملون جينات عربية. نحن أبناء وأحفاد الرسول. وإذن نحن أحفاد وأبناء قريش..

قال عباس معلقا على ذلك.. إنه يمزح.. ولكي ينقل المحادثة إلى مكان آخر، قال:

- ما رأيكم أن نذهب إلى العشاء؟

كان متوجها إلي، فأحسست كما لو أنه يقصدني لوحدي.. فقلت:

- من ناحيتي ليس لدي مانع.. بعد ذلك التفت إلى توفيق وسألته:

- هل لديك مانع؟..

- أبدا.. لنتوكل على الله يا عباس بك.

في المطعم فقط، عرفت أن دعوة العشاء كانت موجهة لي ولتوفيق فقط.. السيد حسين رستم وكذلك الرجل الآخر الذي كان معه والذي يدعى على ما أذكر «سلمان» لم يلتحقا بنا إلى المطعم..

أن تكون ضيفا لعباس فرشخاي، فهذا كرم كبير. وأن تكون جليسا إلى جانبه على طاولته، فهذا فخر لك. هكذا شعرت . ما من أحد مر بجانب الطاولة ولم يسلم ولو بإشارة خفيفة. ذهب في ظني أنه صاحب المطعم.. وكدت أسأل صديقي توفيق ولكني لم أفعل، وحين بدأ النادل يسجل طلباتنا تأكدت أنه مجرد زبون خاص جدا. سأله النادل عن سبب غيابه الطويل. قال له: لم نرك منذ حوالي شهر.. لقد سألوني عنك كثيرا.. حتى السيد أبو علي غفار، صاحب المطعم سألني عنك قبل يومين..

وسأله عباس:

- كيف هي أحواله.. هل هو موجود الآن..

- لو كان موجودا لخرج لاستقبالك.. أظن أنه سافر إلى طهران..

تركنا السيد عباس يختار بنفسه الصحون التي سيقدمها لنا النادل. فالمطعم متخصص في الوجبات الفارسية والهندية.. لذلك أوكلنا المهمة إلى السيد عباس. قلت له فقط:

- لا أريد أن أكثر من الأكل. أعرف أن أطباقكم شهية. وشخصيا أحب مذاقها ونوعية بهاراتها، ولكني لا أحب أن أصبح

متخما. فهذا يعطل حواسي الأخرى. ضحك توفيق وعباس ثم تركاني أرد على مكالمة هاتفية. ابتعدت عن الطاولة وكذلك عن الضجيج، خرجت إلى باحة المطعم، ثم كبست على زر الرد.. كان المتحدث من تونس، صديقي مراد عباس، أحببنا بعضنا منذ أول لقاء لتشابه الأسماء. فأنا يحي مراد علوان وهو مراد عباس. بسرعة قال مراد..

- ألا تعرف ما الذي حدث هذا المساء.. قبل نحو ساعة فقط..؟

أجبته بصوت عال لشعوري أنه بعيد جدا..

- لا أعرف.. قل لي ما الذي حدث..

- لقد فجروا سيارة «ميني باص» كانت مليئة بالحرس الرئاسي.. وقع ذلك بالقرب من مبنى الداخلية. خذ بالك الحكومة قد تسقط.. الباجي نفسه قد يرحل.. إنها حرب البوليس في موجتها العالية.. (كنت أعتقد أنه سيخبرني بموت الغنوشي أو الباجي.. رأيت أن الأمر لا يدعو إلى كل هذا الاضطراب العاطفي الذي اصاب مراد) فقلت له:

- مراد.. مهما كان عدد الضحايا، سوف تمر تلك الحادثة تحت عنوان الإرهاب.. سوف ينساها الناس بسرعة. أما الرئيس فلا تخف عليه.. لن يذهب إلا بمقادير إلهية أخرى..

عدت إلى الطاولة على نحو مهموم. ففي الحقيقة شوشني ذلك الخبر وأحالني إلى ما كان يفكر فيه مراد، إذ ماذا لو انسحب الرئيس، وترك الفراغ السحيق لمجموعة من الذئاب والثعالب؟ لم أكن أعتقد بذلك البتة ولكن من طبعي أن أضع أمامي كل

الاحتمالات حتى أكثرها سذاجة أو اقلها توقعا. ولا شك أن عباس قد شعر بأن مزاجي قد تغير، فسألني برفق:

- لا تقل لي أن هاتفك بريء. لقد رن عدة مرات وكان مصرا أن ترد.. هل أنت متزوج يا يحي؟ هل العائلة بخير؟

- نعم متزوج، لكن الهاتف ليس من زوجتي. إنه صديق لي من تونس، أخبرني أن عملية إرهابية من الحجم الكبير قد حدثت في تونس قبل نحو ساعة.. سيارة «ميني باص» اقتحمها رجل انتحاري، فقتل عددا كبيرا من رجال الحرس الرئاسي..

بدأت الأطباق تتوالى علينا بسرعة وكأنها تنزل من السماء.. وبدأنا ثلاثتنا نلتقط بشوكاتنا ما طاب لنا.. فكنا أحيانا لا نكاد نلتقط أنفاسنا من أجل أن نلتقط أطراف الحديث.. كلام كثير قلناه قد ذهب أدراج قرقعة السكاكين والصحون.. وحين شفينا شيئا ما من نهمنا، رآني عباس أتلمس جيوبي فقال لي:

- يمكنك أن تدخن.. هذا الركن مخصص للمدخنين.. ثم سألني.

- هل زرت طهران يا يحي..

- نعم أكثر من مرة.. أول مرة بعد سقوط الشاه مباشرة.. وبعد عودة آية الله الخميني بيومين من باريس.. كنت هنا في بيروت آنذاك.. وكنت أعرف الكثير من رجال مجاهدي خلق، ثم زرتها أثناء انتخابات خاتمي.. وأخيرا زرتها بمناسبة أعياد الثورة في العام 2014.

- وهل تفكر في زيارة أخرى؟

- إذا كان صديقي توفيق معي، فسوف نكون سعداء.

وسمعت توفيق مرحبا وقائلا:

- سنكون أكثر سعادة لو كنت معنا يا سيد عباس.

- ثمة دائما من يكون في خدمتكم بأفضل من عباس..

سألت نفسي، كم يعرف عني هذا الرجل؟ وهل ثمة ما يجعله يدعوني إلى زيارة طهران؟ وهل يكون تاجر سجاد كبير.. أم رجل جهاز كبير؟ أردت أن أقول له أنني أرغب في اللقاء بشخصيات نافذة هذه المرة، لكنه سبقني إلى القول:

- ستلتقون برجالات مهمة خلال هذه الزيارة.. اتركوا لي مسألة التنظيم. وسوف أخبركم..

بطريقته الخاصة، حسم عباس النقاش وترك المسألة لوقت مناسب.. ثم عاد يسألني:

- هل تعتقد أن الذي حدث قبل حين في تونس عمل داخلي أم خارجي؟

قلت له دون عناء الدقة باعتباري بعيد عن تونس منذ نحو أسبوعين.

- لا شيء يحدث اليوم في هذا العالم ولا يكون متشابكا ومتداخلا بين الداخل والخارج.

ثم تابعت:

- إذا كان الضحايا من الحرس الرئاسي، فالمستهدف هو الرئيس..

ورغم ذلك فإن الرئيس سيفهم الرسالة جيدا لكنه لن يستسلم.. فهو لن يرحل. أعتقد سيعلن حالة الطوارئ كالعادة ثم يتجه إلى تنظيف جهاز البوليس. فالإرهاب في تونس حرب بوليس مختلطة مع مراكز أخرى للسلطة تعمل بين الداخل والخارج..

بعدما أكملت حديثي، لاحظت أن معظم الكلام دار بيني وبين عباس فرشخاي.. لقد تكلم توفيق القليل حتى بدا لي وكأن دوره مرسوما بعناية.. كان يوافقني على ما أقول في أغلب الأحيان.. وكذلك يفعل مع عباس.. وحين بات كل منا ينتظر في الآخر متى ينطق أو يعبر عن رغبته بالانصراف، صمتنا ثلاثتنا دفعة واحدة.. ثم سمعت السيد عباس:

- على العموم.. أنا أشعر بسعادة بالغة وأنا أتحدث إليك يا سيد يحي. يجب أن أشكر صديقنا توفيق..

لم أكثر من رد الكلام الجميل والأنيق ولكني حرصت على ألا أكون جافا، فأبديت كل الإعجاب بالسيد عباس. وبطبيعة الحال لم أنس أن أمدح المطعم الفارسي والثقافة الفارسية.. تواصل بيننا حديث بروتوكولي في الطريق.. حرص عباس بك على أن يضعني أمام الفندق.. نزلنا ثلاثتنا من السيارة، وبعد أن تبادلنا السلام تابعاني (عباس وتوفيق) إلى أن بلغت بهو الفندق.

*** *** ***

في السبعينات من القرن العشرين لم تكن تهمة «الإرهابي» حين تطلق على شخص أو زعيم سياسي مشينة أو شتيمة. كانت

تعتبر وساما لحاملها. فهو مناضل كبير ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية واليمين الرأسمالي.. كانت كلمة «إرهابي» أو انتحاري أكثر تداولا وأكثر تعبيرا عن قناعة ذلك المناضل الراديكالية. فهي عنوان للراديكالية والتغيير الجذري.. وحتى وإن وجدت جماعات إسلامية في تلك السنوات، فإنها كانت إلى حد ما متمسكة بالدعوة والنصيحة وطريق الرشاد.. إن كلمة «شهيد» أو «استشهادي» لم تصبح طاغية على الفعل السياسي الراديكالي، إلا حين بات اليساريون أيتاما فألصقت بهم تهم «الإرهاب» من كل جانب.. لقد عوضت أفغانستان بيروت في التوجهات والاهتمامات وكذلك المصطلحات.. فمن كان يقاتل الإمبريالية والصهيونية في بيروت أو في روما أصبح إرهابيا. ومن كان يقاتل موسكو والشيوعيين في كابول أصبح شهيدا أو استشهاديا. أما الآن فقد اختلط الحابل بالنابل.. إذ يمكن لجنرال أمريكي أن يسمّي إرهابيا انتحاريا يهجم بسيارته المفخخة على جامعة أو سوق خضار أو حتى مستشفى «بمناضل حريات»، فيما يطلق أي ضابط إسرائيلي على أي طفل فلسطيني يحمل في حقيبته مقصا صغيرا كلمة إرهابي.. احتارت الأمم المتحدة في توصيف وتصنيف وتعريف «الإرهابي» وفي النهاية قال بوش لكوفي عنان:

- اسمع أيها الرجل.. كل من ليس معنا، فهو إرهابي لأنه ضدنا..

صمت كوفي عنان ولم يناقش الأمر. فهو يدرك أن أمريكا قادرة على تصنيفه كإرهابي متعاون مع إيران أو الفلسطينيين أو صدام حسين يستحق الطرد ثم المحاكمة!.. وهكذا لايزال خريجو جبال أفغانستان هم مناضلو الحرية حسب التصنيف الأمريكي،

إلا قلة منهم، أولئك الذين تمردوا عليهم أو خانوهم أو تعبوا من الخدمة تحت الإيجار وذهبوا إلى مناطق أخرى وبلدان أخرى لفتح ورشات قتالية تعمل لحسابهم أو لحساب من يختلف أو يتعارض مع أمريكا..

لم يكن الإيرانيون قد تورطوا لا كمواطنين ولا كحكومة في حروب أفغانستان الوسخة.. ولكنهم بالتأكيد قد استفادوا من «الورطة السوفياتية» لإنجاح ثورتهم ثم استفادوا من «الورطة الأمريكية» لتثبيت أركان نظامهم. وحين جاء الأمريكان إلى العراق بدا أن الطوق قد أحكم على آيات الله، لكن هؤلاء تفننوا منذ البداية في إدخال الوحش الأمريكي إلى زريبة العراق حتى يتمكنوا من القبض عليه أو إرهاقه وإدمائه والانتقام منه..

هكذا كان توفيق السراج يخمن. وكنت أجده على صواب خاصة بعد أن اعترفت أمريكا بإيران كقوة إقليمية يمكن، التعاون معها والاعتماد عليها في بعض المهمات. ولكن ما كان يشغلني دائما هو مدى قناعتي بأن ما تقوم به إيران هو في مصلحة العرب أم لا.. لقد تعلمت أن ما من دولة تخدم كأجير لدى دولة أخرى إلا إذا كانت لا تمتلك قوت شعبها لمدة ثلاثة أيام.. ورغم أنه من الصعب أن نعثر على تهاون ما في السياسة الإيرانية في دعمها للفلسطينيين والمقاومين اللبنانيين، إلا أننا لا نستطيع أن نعطي لأية دولة صكا على بياض لحسن سيرتها. فالازدواجية الإيرانية واضحة هي أيضا: إنها تقف مع الذين يؤيدون واشنطن في بغداد، ثم تقف مع الذين يحاربون إسرائيل وأمريكا في لبنان وسوريا وفلسطين.. وهي تتعارض مع إسطمبول في سوريا وتتفق

معها في محاربتها لأي كيان كردي. فمناضلو الأكراد خارج القبة الأمريكية هم إرهابيون بالنسبة لكل من إيران وتركيا..

- فأين أجد الحقيقة؟

تساءل صديقي توفيق السراج وقبله تساءل نيتشه.. أجاب نيتشه: الحقيقة كما يفهمها كل نبي وكل طائفي وكل مفكر وحتى كل اشتراكي وكل رجل دين، أن لا بلوغ إليها مهما كانت صغيرة أو متناهية الصغر.. أما صديقي توفيق السراج فقد أجابني ونحن ذاهبان لزيارة الفاكهاني، قال:

- ها نحن في الفاكهاني مرة أخرى. ذات يوم كانت هذه المنطقة تسمى «بجمهورية الفاكهاني العربية». بعضهم كان يسميها «بالكومونة العالمية الأولى». وقد تواجدت فيها الجامعة العربية ومكاتب الثورة الفلسطينية بجميع فصائلها ومناضلو الثورة الإيرانية قبل هروب الشاه ومناضلو الجبهة الساندينية في نيكاراغوا والزائريون وجميع المعارضات العربية من منظمة «إلى الأمام المغربية» إلى «الحزب الشيوعي» العراقي بشقيه وثوار المؤتمر الإفريقي وكارلوس وبعض مناضلي الأولوية الحمراء والتوبوماروس ومنظمة «العمل المباشر» ومناضلو الأكراد بكل فصائلهم ومناضلو الجزيرة العربية».. فهي تمتد من مبنى اليونيسكو حتى مخيم صبرا وشاتيلا وتمر بالجسر حيث الغجر ثم تتسع حتى تنفتح من حدود مسجد عبد الناصر والبربير وشارع المزرعة لتصل إلى العصفورية، مستشفى المجانين والملعب الرياضي الكبير.. هنا في هذا المربع الأخير للثورة العربية، كانت جميع الأفكار تتقاتل وتتفاعل وتتعايش مع جميع الأسلحة.. تباهى عرفات بذلك أمام العالم وقال: هذه ديمقراطية البندقية

الفلسطينية!.. طلب جميع حكام العرب وده وتفهمه وراهنوا على كل شيء حتى على طيبته الشخصية أو اغتياله.. ثم تمنى أغلبهم أن يقتل في الغزو الإسرائيلي.. فاوض العرب والروس وأوروبا بتلك الجمهورية الصغيرة. ومن هناك كان يهددهم فيتسابقون إلى إرضائه حتى هجمت إسرائيل.. في تلك الجمهورية لم يكن أحد محصنا من النقد أو الشتيمة.. عرفات نفسه كان يوصف «بزعيم الخط الاستلامي» في أدبيات اليسار الراديكالي.. وكان يبتسم ويقول لرجاله: هؤلاء يحبونني وأنا أحب أن ينتقدوني. غدا سيعرفون من هو زعيم الخط الاستلامي!. ملك المغرب كان يستمع إليه جيدا رغم أنه كان يدعم اليسار المغربي. كذلك كاسترو وبريجنيف وميتران.. فالثورة الفلسطينية تملك سحرا خاصا. فحتى من كان يعارضها أو لا يحب أساليبها كان لا يفصح عن ذلك، لأن الفاكهاني تعج بمعارضيه.. من لم يكن يتحدث إليك في «مقهى أم نبيل» أو مقهى «أبو علي» قرب دار الآداب ومكتبة الطليعة ولا يحمل بين يديه كتابا وفي خصره مسدسا أو مدقة صينية، فهو إما لا يؤمن بأفكاره أو لا يؤمن بالثورة.. كان السلاح هو الدليل على الإيمان بالأفكار الراديكالية.. وكان أولئك الثوريين قد عرفوا كيف يتعايشون مع سراويل الشارليستان والقمصان المزركشة وكتب لينين وويلهام رايش وتروتسكي والأشعار النثرية والنصوص الإباحية.. وكذلك البندقية، عنوان العنف الثوري.

فحين نكون في العشرينات من أعمارنا، تكون أجسادنا تغلي بطاقة ألف ميغاواط، بالأحاسيس الأكثر قدرة على توليد العنف!. ما كان يجب أن نعرفه فيما بعد أن الأفكار أقوى من الأجساد. ضع

فكرة جبارة في رأسك وسوف ترى: إما أن تصبح سجينا لها أو تجعل منك خليطا من المولوتوف. قرأنا لماركس وأنجلز أن العنف هو القابلة الضرورية للتاريخ. وشرح لنا ذلك لينين في مساجلاته وويلهام رايش في مداخلاته بأن ذلك العنف الثوري نبيل لأنه يطمح إلى التغيير. بعد ذلك تأكدنا في الميدان أن الفكرة حتى وإن كانت خاطئة، هي طاقة ساحقة وموجهة. وبالتالي فهي أيضا نوع من أنواع العنف. قدمني صديقي توفيق السراج في تلك الأيام إلى إحدى الفصائل الفلسطينية. ورغم أن توفيق يعرفني جيدا منذ درسنا معا لمدة سنة في جامعة بغداد، إلا أنني أخضعت لاختبارات عسيرة حتى لا أكون مندسا أو عميلا أو متسللا حسب لغة تلك الأيام. ثم شيئا فشيئا أصبحت أحظى بثقة لم أكن أتوقعها لدى قادة ذلك الفصيل.. وبعد تدريب بسيط على السلاح في الجنوب، كلفت بالإشراف على التوعية السياسية برتبة «مفوض سياسي»، بينما أشرف توفيق على التدريب العسكري بلقب «مفوض عسكري»، (إذ تلقى دورتين قبل أن أتعرف عليه واحدة في بغداد وأخرى في موسكو)، وذلك لفريق من الشباب الصغار تتراوح أعمارهم بين 18 و20 عاما. في البداية لم أكن عارفا بأصول تلك المهمة الصعبة وكان يكفي أن تكون متكلما جيدا وجامعا لبعض المصطلحات الراديكالية وقارئا لبعض الكتب الثورية حتى تصبح قادرا على تعبئة رؤوس وأفئدة ذلك الشباب بالحماس والأفكار التي لم تكن تعرف مدى قدرتها على التدمير والتدمير الذاتي!

كنا في شقة كبيرة تطل على الملعب والمارستان (العصفورية). اليوم يبدو لي من الصعب أن اشرح ما كان يدور بيني وبين أولئك

الشباب إذ كان أغلبهم قريبا مني في السن.. ولكن شيئا فشيئا بدأوا يستسلمون إلى لساني ويثقون في قدراتي البلاغية.. كذلك علي أن اعترف اليوم أنه في البداية لم أكن أعرف أنني أقوم بتهيئتهم لعمل انتحاري.. أي للموت المحقق، ولكن فيما بعد عرفت أن ذلك الفريق يجب أن نختار منهم نخبة لا تزيد عن 12 فردا.. ثم يطلب منا أن نرشح 6 أفراد من بين الاثني عشر للقيام بعمل بطولي داخل خطوط العدو الإسرائيلي (كومندوس).. والآن لو أنني تحدثت عن شروط اختيار أفراد ذلك الكوموندوس البطولي فإنني سأشعر بالخجل، ولكن علي أن أكون شجاعا وأذكر بعضها، وهي على أية حال مملاة من القادة الكبار: أن يكونوا الأقل ذكاء والأكثر عزلة عاطفية والأقل ارتباطا بعائلاتهم والأكثر اندفاعا ثم أولئك الذين ينحدرون من بلدان بعيدة أو أوساط هامشية. بحيث لا يمكن لأحد من عائلاتهم أن يسأل عنهم. كانت شروط قاسية ومهينة وجارحة للكبرياء، ولكن بما أن فعل الثورة يبرر كل شيء، فقد كنت أقول لنفسي وكذلك لتوفيق:

- بما أن هذا الهامشي والغبي والمندفع والمتهور ستتاح له فرصة بأن يكون بطلا وتعلق صورته على الجدران والواجهات، فهذه مكافأة كبيرة له!..

كان علينا أن نختار 12 فردا من أصل 18 أو عشرين ثم نختار 6 من أصل 12 فردا. كانوا يأكلون جيدا ويتمتعون بكل شيء كأن يقيموا حفلات رقص وغناء أو يلعبوا الشطرنج.. وقبل انتقالهم إلى الجنوب استعدادا للتدريب الميداني والحي واطلاعهم على نوع العملية التي سيقومون بها، كانوا يمارسون بعض رغباتهم

الإنسانية!.. لا أحد منا كان يعرف ما نوع المهمة البطولية وأين ستقع ومتى ستقع، لا أنا ولا الأبطال ولا حتى توفيق المفوض العسكري.. ففي الجنوب سيترك كل شيء لتقدير القيادة. التوقيت، الظروف الدولية، الظروف الأمنية وكذلك الأهداف والرسائل.. وحين يبدأ الأبطال في تسجيل شهاداتهم ووصاياهم بالصوت والصورة (عرفت فيما بعد أن تلك التسجيلات تؤخذ لبعض العواصم العربية للحصول على المال والدعم) غالبا ما تتوقف العملية قبل انطلاقها، لأن أحد الأبطال قرر أن يختار الحياة على الموت. بعضهم يطلق النار على رجله من الأسفل بدعوى الخطأ أو يرمي بنفسه في حفرة ليصاب بكسر.. أو يخترع أية حيلة ليختفي.. ولكن فشل عملية لا يوقف مسارا أو نهجا ثوريا.. وهكذا تبدأ القيادة في استقطاب مجموعة جديدة من الشباب!..

قال لي توفيق ونحن نتخطى أزقة الفاكهاني نحو شارع المزرعة العريض:

- ربما أخطأنا في الدفع بهؤلاء الصغار إلى الموت باسم الشهادة البطولية.. ولكن ليس من حق نيتشه أن يندد بكل نوع من الشهادة..

- ربما كان نيتشه على خطأ مثلنا وربما كان على حق حين قال: أن الشهداء، أولئك اللذين يضحون بحياتهم من أجل حقيقة لا يملكونها، هم كارثة كبرى في تاريخ البشرية.

- مع ذلك لاتزال الشهادة تمثل إغواء كبيرا في هذا الشرق الملبد بالطلاسم منذ عيسى ابن مريم. قال توفيق ثم واصل يقول:

- نيتشه أظنه كان يتحدث عن المسيح حين دفع حياته ثمنا لنبوءة لم يعش لا مخاضاتها العسيرة ولا حروبها الحقيقية!..

وافقته على نصف ما قال في المسيح، لكنني عارضته فيما كنت واثقا من أنه يعتقده، وهو أن «العمليات الاستشهادية» (التي يستخدمها الجميع، الأبطال والخونة والعملاء الآن) لاتزال ذات جدوى في يومنا هذا..

ثم قلت له:

- هل تعتقد أن قيمة قضية أو عظمة ثورة تحررية يمكن أن تختصر في سيارة مفخخة أو في اختطاف طائرة؟.. ثم أضفت:

- حين تتحول الجريمة إلى شيء مجيد وممجد، نكون قد أجهزنا على جوهر القضية.. هذا ما لم يدركه العرب منذ اختطاف أول طائرة وإنزالها في مطار عمان حتى آخر عملية قام بها داعش!

كنا نتحدث طوال الطريق رغم أزير محركات السيارات ومنبهات كلاكسون التاكسيات العالية.. ليس ثمة من يستعمل كلاكسون سيارته في العالم أكثر من تاكسي السرفيس في لبنان. فكما لو أنه يسبّح بالضغط على الكلاكسون. ثمة هوس بالكلاكسون حتى لو كان الطريق مفتوحا.. حتى لو لم يكن هناك من يترجل على الطريق.. يبدو الأمر كما لو أن كل سرفيس يعرض خدماته عن طريق منبهه، لذلك فإن المنبهات متعددة الأصوات والنغمات كما الايفونات.. ثمة من يدفع أموالا إضافية لمنبه سيارته وكذلك لرقمها المتميز وكذلك لنغمة أيفونه!!.. والحقيقة هذا ما عاد من اختصاص اللبناني فقط، بل بات ثقافة لدى العرب من محيطهم

إلى خليجهم.. ذهبت بنا خطواتنا وأحاديثنا إلى أن بلغنا منطقة «فردان» الفارهة فقررنا أن ندخل إلى إحدى المجمعات التجارية لنأكل بعض السندويتشات وننعش عيوننا بجمال فتيات الجيل الرابع الجديد!..

*** *** ***

ودعت توفيق في فردان، قرب فندق البريستول، تركته ينتظر تاكسي، أما أنا فقد تمشيت عبر نزلة السارولا باتجاه «الغولدن توليب». كنت راغبا في قيلولة استعدادا لسهرية مع مثني. وجدت تحت باب الغرفة رسالة كنت أظن إنها تذكير من إدارة الفندق بدفع الحساب، غير أنها كانت تحمل لي مفاجأة أخرى: «أنا سما عبد الصمد. هذا رقم هاتفي.. أقبلك وإلى اللقاء». تضاربت الأسماء في ذهني لمدة عدة دقائق. عدلت حبال ذاكرتي كما يعدل أي فنان حبال صوته أو إيقاعات عوده.. وفجأة رحت أتساءل: كيف عرفت تلك السيدة أنني موجود هنا.. لقد تركتها في القاهرة. وقالت لي أنها ذاهبة إلى شرم الشيخ مع صديقتها «سمر» التي تعمل كمراسلة لقناة «الحرة».. توصلت في الحين إلى استنتاج مفاده: سمر عبد الوهاب هي التي دلتها على عنوان إقامتي، وإسماعيل السمان هو الذي أخبر سمر. ومن المحتمل أن تكون ستيفاني هي التي أخبرت إسماعيل، فهي الوحيدة التي تعلم بوجودي في بيروت من خلال زوجها مراد عباس.. الآن وقد عرفت السلسلة لم يعد جسمي يطلب قيلولة. عدت إلى النشاط بعد الدوش. ثم طلبت الرقم بحذر شديد من فرط المفاجأة..

- ألو.. أنا يحي يا سما..

- وأنا سما يا يحي..

لعدة ثوان انهال علينا ضحك غزير.. ثم قالت..

- حتى لو كان اسمي سما، فإن الأرض التي يوجد عليها يحي، ليست بعيدة..

- خاصة إذا كانت هذه الأرض، هي أرض أجدادك.. هكذا علقت ثم قلت لها:

- لن أسألك كيف عثرت علي.. ولكني خمنت أن صديقتنا سمر عبد الوهاب قد ساعدتك..

قالت:

- حتى لو لم تساعدني، فقد كنت سأعرف.. ألا تعرف أنني أعمل في شركة غوغل.. في الحقيقة تركت لك بطاقتي مع سمر، ولكنك سافرت فجأة دون أن تراها..(آنذاك لاح لي خيال سما عبد الصمد وهي واقفة في مكتب الجزيرة بالقاهرة مع ستيفاني واسماعيل السمان.. صورتها لا تزال طازجة ومثبته في منطقة ما من جهازي العصبي).

حين أكملنا المكالمة وتواعدنا أن نلتقي في المساء، جاءتني أسئلة أخرى: مثل ماذا تريد مني هذه السيدة؟ وهل يمكن أن أصنف لقاءنا الأول بالصدفة التي تتحول إلى تجربة؟ وهل هي تريدني لمهمة ما أم هي سيدة معجبة تتحول أحيانا إلى «صيادة»؟. تحدث يوميا ملايين الصدف في العالم.. ونظرية الصدفة والضرورة جزء من النظرية الماركسية.. ثلثا العالم تم اكتشافه عن طريق الصدفة.. ثلاثة أرباع الزواجات تحدث بالصدفة.. أكبر الاختراعات تمت

عن طريق الصدفة.. ولكن أشك أن يكون لقائي بها مع ستيفاني عباس وسمر عبد الوهاب وإسماعيل السمان في مكتب الجزيرة بالقاهرة لمدة ربع ساعة كان محض صدفة. صحيح تبادلنا بعض النكات والأخبار، ولكن ذلك ما كان يثير إعجابها إلى الحد الذي «تطاردني» فيه إلى بيروت.. عرفت آنذاك أنها لبنانية وأنها عازمة على الذهاب إلى شرم الشيخ.. وأنها تملك شركة اتصالات، مقرها في قبرص. صحيح أيضا أنها أعجبتني في كل تفاصيلها، خاصة في ضحكتها ثم وقفتها ذات الدلال والتجبر. ولكن لم أهتم أبدا بها إلا كصدفة جمالية أو شاعرية أضفت على مكتب الجزيرة الكئيب شيئا من البهجة لمغالبة الأخبار السيئة!..

لا أستطيع بطبعي الماكر أو بحسي الجدلي أن أصدق أن الصدفة خالية من الضرورة أو غير محكومة بحساب الاحتمالات.. أو حتى غير مجهزة بردار الحساسية والتوقع.. طردت كل ذلك من راسي حين نزلت أتمشى في شارع الحمراء في انتظار موعدي مع «سما». تركت ساعة ونصف بين موعدي معها وموعدي مع مثني.. ورأيت أن ذلك كافيا لكي أفهم ما يجب أن افهمه من هذه السيدة.

تمشيت بضعة خطوات فقط على رصيف الحمراء باتجاه شارع السادات. وفجأة يظهر أمامي الشاعر بول شاوول.. يمشي الهويناء رافعا رأسه إلى السماء كالعادة رغم سنه التي أصبحت متقدمة!.. كان لايزال يمشي، تركته يمشي في هذا الشارع منذ ما يزيد عن ثلاثين عاما.. يكتب المقالات عن المسرح حين يجلس في المقهى.. أما الشعر فهو يكتبه واقفا أو سائرا كما لو انه يستعيره من الجدران والإعلانات وكذلك من وجوه الناس ودخان السيارات ومؤخرات

النساء. قال عنه صديقي الشاعر محمد العبد الله الذي لم أحضر جنازته رغم وجودي في بيروت.. بول شاوول يكتب الشعر كما لو أنه طفل يبول.. فكل قصائده طويلة عموديا ذات كلمة أو كلمتين في السطر الواحد.. إنه الطفل الذي لايزال يتبول على كل الذين باعوا الوطن بالمال وأقنعوا الشباب بالانتحار للتحرير.. قلت له حين استوقفته:

- بول.. قبل ثلاثين عاما كنت تشبه اينشتاين.. الآن إنك تشبه «بيرتراند راسل».. أيهما أقرب إليك؟

- آه.. هو أنت.. أينك يا رجل.. ما الذي حدث في بلادكم الجميلة.. هل ذهبت مع الريح!

بعد عناق طويل وتربيت، أحسست أنه لايزال شابا.. صوته لم يتغير، فمه لا يزال يحترق بالسجائر والسجائر لا زالت تستريح على شفاهه بلا تعب ولا كلل. ثم سمعته يقول..

- أحب راسل.. هذا الذي ذكرته.. اينشتاين لو عاش الآن لقبض عليه كمجرم حرب.

ثم كرر:

- أحب راسل الذي عاش شغوفا بالحب، مولعا بالمعرفة ومعانقا لمعاناة البشر..

لم ألب رغبته في شرب فنجان قهوة معه، لكني وعدته بلقاء في صباح الغد.. كنت على جناح من قلق. فموعدي مع سما عبد الصمد وهو يقترب لم يجعلني هادئا أو راغبا في الحديث مع أي أحد آخر..

في غالب الأحيان، نظن أن المغامرات الجنسية ستقودنا إلى حقيقة أن نعرف أنفسنا. أحيانا نقول لأنفسنا أن امرأة واحدة قد تغير حياتنا رأسا على عقب بأكثر مما تستطيع أن تفعله سلطة غاشمة أو دولة استبدادية فاشلة! أحيانا أخرى يذهب في بالنا أننا سنعيش من الآن فصاعدا حياة جذابة، سحرية وغنية بحيث لا نعود نبحث عن نساء أخريات.. بكل تلك التوهمات والرغبات نستجيب لمواعيد مع نساء عادة ما لا نعرف اتجاهات أحاسيسهن أو أسباب ولعهن بنا..

تبدى لي أن الوقت لا يمضي. أو أنني أصبحت مهووسا بالموعد أكثر مما يجب. نعم لا أبالغ أبدا. هذا يحدث معي حين يكون موعدي مع امرأة جديدة.. ولكونها هذه المرة جديدة وغريبة وفاتنة، فقد ازداد تمطط الوقت. بل لعلي أنا الذي لا أريده أن يتقدم لأنني لا زلت أعتقد أن سقف توقعاتي قد يكون عاليا جدا. وقد لا يعدو أن يكون الأمر مجرد ترحاب تقوم به سيدة تشتغل في عالم التواصل والاتصالات، من أجل بناء ما يسمى بالعوالم المفتوحة بين الناس. تذكرت نساء كثيرات ربطتني بهن الصدفة. عثرت على اثنتين فقط قد احتفظت بهما ذاكرتي.. واحدة التقيت بها في طائرة وأنا قادم من الدوحة إلى القاهرة.. كانت ذاهبة إلى الإسكندرية مع طفليها وخادمتها لقضاء عطلتها. زوجها سوف يلتحق بها بعد أسبوع كما قالت لي.. اقترحت علي أن أنزل في الإسكندرية معها.. ولكني لم أفعل ذلك، لأن حقيبتي كانت مسجلة بمطار القاهرة.. في اليوم الثاني، توجهت إلى الإسكندرية. قالت لي أنها حجزت لي جناحا في الهيلتون.. وحالما اصل ستأتي إلي.. كانت أكثر من جريئة منذ أن

رايتها في الطائرة.. فقبل أن تأخذ مقعدها في الدرجة الأولى بدأت في نزع عباءتها لتظهر جمالها.. حدقت فيها طويلا وأنا اتباطأ في السير نحو مقعدي في الدرجة الثانية. وعندما أصبحت الطائرة في الجو، جاءت لتطلب مني بكل جرأة أن أغير مقعدي وأذهب إلى جانبها في المقعد الخالي.. بدا علي بعض الاستغراب مع أني كنت متأكدا من دعوتها وحتى من رغبتها.. ثم قلت لها..

- ها أنا أيضا أجلس لوحدي.. اجلسي هنا.. خلف الطائرة أفضل من مقدمتها..

تلك السيدة الخليجية لا يمكن أن أنساها إلى يوم مماتي. وحتى عندما رويت الحكاية لزوجتي لم تغضب. بل هنأتني على ما فعلت وفرحت جدا لأن زوجها فحل وصادق.. ولكنني كما لا يمكن أن أنساها، فإنه لا أتوقع أن أراها إلى الأبد.. ثلاثة أيام قضيناها معا في الإسكندرية ثم تقطعت بنا السبل. لقد غيرت كل أرقامها.. كانت دكتورة في طب الأطفال.. وإلى يومنا هذا كلما رأيت طبية سألتها إن كانت طبيبة أطفال أم لا.. كانت تدعى سمية.. وقد ظل ذلك الاسم يسكنني إلى هذه اللحظة.

المرأة الثانية التي لاتزال طازجة في ذاكرتي تدعى سمارين.. هذه كانت رسامة فوتوغرافية. التقيت بها في معرضها الخاص في إحدى الغاليريهات الفاخرة جدا بالدار البيضاء. كنت بصحبة صديق مغربي. وقفت مذهولا أمام صورة فوتوغرافية لفتاة تنظر في المرآة متراخية بغنج حاد، وهي تمد يدها إلى ثديها كما لو أنها تريد أن تعصره.. كانت ترتدي قميصا شفافا مفتوحا إلى ما تحت الصدر..

توقفت طويلا عند تلك الصورة بالأبيض والأسود.. وبعد أن قمت بجولة داخل الغاليري، عدت لأقف أمام صورة الفتاة.. ورأيت فتاة تشبهها إلى حد ما أو هكذا تخيلت، تقف بجانبي تقول لي:

- هل أعجبتك هذه الصورة؟

- لم تعجبني فقط.. بل دمرت كل حواسي دفعة واحدة.. لا أستطيع أن أغادرها..

بعد ذلك سألتها:

- ألست أنت التي في الصورة؟

ضحكت سمارين. وقالت لي: أنت الوحيد الذي عرفت ذلك..

- إذن لست أنت التي التقطت هذه الصورة..

أجابتني واثقة:

- أنا المصورة.. وأنا الصورة.. أما كيف فسوف أقول لك فيما بعد..

فيما بعد، ذلك الخليط بين المتوقع والملغز وغير المتوقع، زاد من اضطرابي. أدركت أن المرأة يمكن أن تختفي وراء صورتها. ويمكن أن تظهر من خلال صورتها. كما يمكن ألا تنفصل أبدا عن صورتها ويمكن أيضا أن تكون هي صورتها أو خارج صورتها!..

وها هو موعدي مع سما عبد الصمد قد اقترب. حثثت خطاي لأصل إلى الفندق قبلها وأنا أتساءل ما إذا كانت سما داخل صورتها أو منفصلة عن صورتها!..

الفصل الثامن

حين احتاج بوش الابن إلى وصف يطلقه على أبو مازن، بعد لقائهما في العقبة قال: «إنه رجل لا يكذب.. ولا يعرف كيف يكذب».. علق صحفي من «هارتس» عن ذلك: «أي أنه رجل لا يصلح للحكم». وحين ذهبت ستيفاني نيكولاس لتغطية المسيرة الكبرى لشارع الجمهورية في باريس تنديدا بالإرهاب بعد الهجوم المسلح على صحيفة «شارلي هبدو» رأت أبو مازن يقف في الصف الأول مع نيتنياهو وفرانسوا هولاند والباجي قايد السبسي وآخرين من بينهم ساركوزي الذي كان بصحبة كلارا وهو يحاول أن يظهر في الصف الأول بكل الطرق.. تجاوز البرتوكول وظهر في الصف الأول فبدا كما لو أن هولاند قد تخلى عن دوره كرئيس. وكتبت ستيفاني آنذاك: «ها هم يظهرون منددين بالإرهاب كما لو أنهم أنبياء من عصر قديم.. لا أحد كان يظهر على وجهه شناعة ما حدث لا في باريس، ولا في الموصل.. هجم الإرهابيون في باريس ليقتلوا الصحافة. وهجموا في الموصل ليقتلوا التاريخ مرة أخرى.. أما هؤلاء الذين يسيرون في شارع الجمهورية، فهم قادة كبار في التضليل والتمويه والأكاذيب..».

امتلأت صفحات الفايسبوك بالتعليقات الساخرة: كتب أحدهم: «إرهابيون ينددون بإرهابيين»؛ وجاء في صفحة أحد الناشطين الفلسطينيين: «نتنياهو كتفا إلى كتف مع أبو مازن.. ضدِّ الإرهاب!».. أما مراد عباس، فقد كتب على صفحته التالي: «سياسيون وإرهابيون وكذابون، يتبادلون التعازي ويذرفون دموع التماسيح».. ثم ختم متسائلا: «لو سألنا اليوم الرئيس بوش: هل وجدت سلاحا نوويا أو إرهابيين من تنظيم القاعدة حين دخلتم إلى بغداد؟ لقال: لم نطلب من الناس أن يصدقوننا. كنا نكذب بكل بساطة، ولكن ما العيب في ذلك. السياسة هي معالجة الأكاذيب القبيحة بالأكاذيب الجميلة!.. أما لو سألت وزير دفاع بوش السيد رامسفليد الآن عن أصل كذبة الجيش الرابع في العالم؟ لقال لك: نعم كنا نضخم الحقائق وإلا كيف يمكن لنا أن نصنع نصرا كبيرا، إذا ما جعلنا من عدونا شيئا بسيطا!»..

هكذا أعتقد كل العالم، أي العالمين بلغة القرآن.. الحقيقي والافتراضي بلغة غوغل، أن الأخوين «كوليباو» سيحتلان فرنسا ويجتاحان أوروبا كلها، ثم يأمران بذبح رهبانها وأيمتها وحاخاماتها وعلمائها وجنرالاتها وفلاسفتها، وربع نسائها الفاسقات..

ثمة تواطؤ بين الناس والحكام على ارتكاب الدناءات حسب ميكيافللي. فالناس لكي ينعموا بالأمن والسلام عليهم أن يصدقوا أكاذيب حكامهم. والحكام لكي ينعموا بالسلطة والمال عليهم أن يحسنوا من منتوج أكاذيبهم.. تلك الغواية المدنسة لم تنته ولن تنته أبدا. استمرت عبر كل العصور.. وأصبح من حكم الضروري أن يستغل الحاكم غباء شعبه وأخطاء الناس الساذجين لكي

يبسط نفوذه وسلطته.. ولكن مهما أتقن الكذابون أساليبهم، فإن قدرا بسيطا من الذكاء البشري قادرا على كشف أكبر كذبة.. تتشابه الأكاذيب في حبكتها ومنطقها وكذلك في غبائها.. ويتشابه السياسيون ومعهم المثقفون في أكاذيبهم وتتشابه طواحينهم، لكن أهم أكاذيبهم صلابة لا تصمد إلا قليلا من الوقت..

يا لهول هذه الشعوب المسكينة التي أصبحت رهينة للأكاذيب.. كان على العرب أن يصدقوا أن الحلف الأطلسي يزرع الربيع وينشر السعادة والديمقراطية.. وكان عليهم أيضا أن يصدقوا أن أمريكا قوة خيرية اعتمدها الرب لزراعة الخير في بلاد العرب وإصلاح دينهم.. صدقوا كذلك أن أوباما قد يكون من نسل بلال مؤذن رسولهم.. وهو ليس إلا مسلما متخفيا، كان يحب موسيقى الجاز ويصلي مع جدته حين كان طفلا.. ولكن الحقيقة التي سيسجلها التاريخ ستقول ذات يوم: لم يقتل من العرب والمسلمين في أي يوم من الأيام مثلما تم قتلهم وإبادتهم وتشويههم في عهد أوباما حفيد بلال. ولم يصبح العرب رهائن ولاجئين وإرهابيين مثلما أصبحوا في عهد باراك حسين أوباما!..

انتظر لحظة، وستكتشف بنفسك أيها القارئ أن العرب يكتبون قصصا ولا يكتبون تاريخا. ما أريد معرفته، كتب مراد عباس، لمهى زعفراني على المسنجر، هو كيف يؤكد لنا المؤرخون أن ما حدث بين الإغريق وطروادة تاريخا أو قصصا! وأن قصائد هوميروس كانت أناشيد حماسية أم كانت تأريخا لما حدث.. لما زعم مؤرخو الإغريق أنه حدث! ردت مهى:

- يمكنك أن تعرف ذلك إن كان ذلك حقيقة أو توهمات من خلال ما يحدث الآن.

صحيح أن كؤوس الشراب كانت موجودة، والأسلحة كانت بديعة والسفن كانت رائعة وكذلك الأحصنة والأمراء والرعاة الذين تحولوا إلى محاربين وموسيقيين.. ولكن لا نعلم أبدا ما إذا كان حصان طروادة الضخم حقيقة أم اختراعا.. وسوف لن يضطرب المؤرخون مثلما اضطربوا قبل عدة سنوات حين كشف الجيولوجيون والأركيليجيون عن مدينة طروادة المطمورة تحت الأرض.. ولكن ماذا وجدوا؟. وجدوا خاتما لم يكن من صنع هذه المدينة. نقشت عليه أحرف باللغة الهيروغليقية، لغة الفراعنة، وهذه الأحرف تبين أنها لملك فرعوني، كان سلفا للملك اخناتون، هل يعني هذا أن الفراعنة هم الذين ذهبوا إلى طروادة وليس الإغريق؟.. هل سرق الإغريق بطولات غيرهم؟ هل استعمل الإغريق مرتزقة من جنود الفراعنة للاستيلاء على طروادة؟..

استمرت تلك القصص تنمو حتى وصلت إلى القرن الواحد والعشرين.. أطلق الحلف الأطلسي اسما على حربه على ليبيا، «أوديسا»، أي «ملحمة هوميروس».. سجل التاريخ أن رجلا يشبه الخرافة يقتل شعبه، وأن العالم قرر أن يخلص ما بقي من شعبه من الهلاك، ثم نسجت خرافة فوق خرافة حتى اقتنع الجميع في بضعة سنوات قادمة، أن الأمر لم يكن خرافة.. كانت الأكاذيب الكبرى فيما مضى من الأزمان الغابرة إما أن تصنف كأسطورة أو كخرافة .. اليوم يطلقون عليها سياسة أو مهمات إنسانية أو ما شابه!.. ها هم الآن يصنعون خرافة أخرى تسمى بالبند العريض

«إرهابا». وتصنف هنا بداعش، وهناك بدامس وهنالك بالقاعدة!.. لم تكن هناك قاعدة في العراق أو في ليبيا. ولكن حين جاء الأمريكان، جاءت معهم القاعدة.. بعد حين خرجت داعش.. ثم فتحت الدول خزائنها لتنفقها على محاربة هذه الخرافات!..

ولأن هذه الدول في واقع الحال مجموع مركب من الأجهزة والعصابات ورجال المافيا، فها هو كريم كروان، ذلك الآزميري الشره، قد أصبح من أكبر تجار تجنيد الشباب والأطفال في العالم للزج بهم في حروب تدر عليه عشرات الملايين من الدولارات.. كذلك مصعب الصراف.. ما كان ليصبح هذا القطري الصغير أهم رجال السياحة في العالم العربي في أقل من ثلاث سنوات.. ها هو ينتقل من بلاد إلى أخرى وهو ينسق ويرعى رجاله ومستخدميه كما لو أنه مكلف بمهمة إلاهية..

تقاسمت الأجهزة ورجال الأعمال المغامرين المهمات والأموال لزرع الإرهاب وهم يرفعون شعارات محاربة الإرهاب. ولو أن الإرهاب انتهى من العالم، فإن هذه الأجهزة سوف تتفنن في صنع أي إرهاب آخر.. وما رأيكم في الدولة التي تنفق عشرين مليون دولارا أو أكثر على قتل شخص واحد.. بالتأكيد ليس هذا الشخص هرقل أو دراكولا؟ ثم هل يمكن أن يعرف السادة النواب، نواب الشعب، كم تنفق دولتهم على محاربة الإرهاب؟.. ثمة عمل بسيط لإنفاق المزيد من الأموال دون رقيب أو حسيب، هو أن يقوم جهاز أمني بعملية تفجير هنا أو هناك ثم تعطى الإشارة لكي يخرج تنظيم جهادي يتبنى تلك العملية.. في الحقيقة لا وجود لمثل ذلك التنظيم على الأرض.. إنه مجرد بيان يكتب على جدار

صفحة افتراضية لا يعرف صاحبها.. فهل يعقل أن يكون ذلك التنظيم الإرهابي قوة عظمى بحجم الاتحاد السوفياتي سابقا؟ هل يعقل أن يضرب في باريس والهمالايا ومدريد وسوسة وبروكسيل واسطمبول في نفس الوقت؟..

لا تنتظر أية لحظة لكي تعرف.. أكذب فقط لكي تحصل على الأموال.. هكذا صاغ رجال الأمن ومعهم رجال المافيا في جميع بلدان العالم شعارهم الجديد.. فحين تدفع أكبر دولة في العالم فدية ب 25 مليون دولار لكل من يقبض أو يدل رجال الأمن على مخبأ لأحد رجال القاعدة، فمعنى ذلك أن هذه الدولة تريد أن تزرع حروبا أهلية في كل مكان.. ولكن كيف نترك تلك الفدية لكي يحصل عليها مساكين من المتطوعة؟ فأجهزة الدولة هي الأولى بها.. وبتلك الطريقة راحت معظم أجهزة الدولة المحلية تعمل بالتوازي مع المافيات والمهربين وبعض المغامرين ثم مع الدولة العالمية في واشنطن..

ما كانت ستيفاني نيكولاس (عباس سابقا) تعرف أن زميلها إسماعيل السمان يعرف السيدة شاهي شهبار إلا حين وصلت إلى إسطمبول. عثرت على مصعب الصراف صدفة في بهو الفندق كما لو أنه كان ينتظرها.. لم تتعرف عليه إلا حين اقترب منها وسلم عليها بثقة كبيرة في النفس.. آخر مرة رأته، كانت في بيت السفير القطري بالقاهرة.. لم تكن هناك بينهما لا مواعيد ولا معرفة ذات حميمية حتى تنسكب عواطفهما على رخام البهو.. ولكن كان هناك ما يكفي للفخر لدى مصعب لأنه عثر عليها.. وما يكفي لستيفاني من التعجب: كيف عثر عليها؟..

قال مصعب:

- وصلت قبل يومين. وغدا سأسافر، لكني مستعد لتأجيل سفري يوما آخر..

فأجابت بارتباك:

- هذه صدفة استثنائية سيد مصعب. لم أكن أعرف أنني قادرة على تشويش مواعيدك..

- على أية حال لا يذهب في بالك أنني ألاحقك أو أطاردك أو ما شابه.. وإذا سألتني كيف وجدتني، فإن الله وحده يعرف الإجابة..

ضحكت ستيفاني بأناقة شديدة.. ثم قالت:

- لا تقل لي أن إسماعيل السمان لم يخبرك بوصولي اليوم إلى هنا..

أقسم مصعب، أنه لم يتصل بإسماعيل منذ يومين. وأنه الآن فقط تذكر أن عليه أن يتصل به من أجل بعض الأعمال..

- وهل ستقول له أنك التقيت بستيفاني؟..

ارتبك مصعب للسؤال. بل ارتبك من نوع الإجابة التي سينطق بها.. بحث عن كلمات مناسبة ومغطاة بالثقة..ثم قال:

- كما تريدين..

- لا مانع لدي، قالت ستيفاني ثم أردفت..

- لنفترض أنه علم بلقائنا.. ألا يذهب في باله أننا كنا على موعد مرتب..

أعجبته كلمة موعد.. وأوحت له بأن ستيفاني ربما وقعت في

خطأ لن تقدر نتائجه إلا بعد فترة.. ولكن مصعب الصراف، الذي كان يفكر قبل حين كرجل أعمال، سرعان ما أصبح يفكر كدنجوان. عاد يتأمل في تقاسيم وجه ستيفاني بشراهة ثم أنزل بؤرة عينيه إلى صدرها ثم إلى ما تحت صدرها.. وقال وفمه قد أصبح أكثر رطوبة:

- لن أخبره من جهتي..

ثم سألها:

- ألديك وقت عند الظهيرة.. سوف أعرفك بسيدة مهمة في هذه البلاد..

*** *** ***

شاهي شهبار هو الاسم الجديد الذي دخلت به شاهيناز عطاس إلى عالم إسطمبول. عملت صحفية في إحدى المحطات التلفزيونية في دبي. وقد اشتهرت ببرنامجها «فاشيون21» أكثر مما اشتهرت ببرنامجها السياسي في محطة بيروتية أخرى.. ربما لم تتعايش مع عالم السياسيين الذين يحاولون جميعا أن يصلوا إلى مخدعها خاصة حين يعرفون أن زوجها ميشال، موجود في قبرص أغلب الأوقات.. فرجال السياسة يثرثرون أمام بعضهم ويوحي كل واحد منهم، حتى لو كان شيخا مقوسا، أنه امتطى مؤخرة شاهي، وأن شاهي تحب الرجال المشاهير حتى وإن كانوا مسنين.. عانت كثيرا من تلك الإشاعات التي تحول بعضها إلى معارك مع زوجها أو معارك بين بعض السياسيين وعشيقاتهم الأخريات.. بات بعضهم لا يريد الحضور معها على الشاشة.. ثم ذات يوم دخلت إلى مدير البرامج وقدمت له استقالتها..

سألها آنذاك مدير البرامج أنطوان لحد (ليس ذلك الذي خان وطنه وأصبح عميلا لإسرائيل كما يعتقد حزب الله على الأقل) عن السبب، فاكتفت بالقول: «كرهت السياسة وزهقت من شيوخ الطوائف الذين يرتدون الجينز ويركضون وراء المؤخرات ويحترمونَ الدستور!». وبالرغم من أن أنطوان يملك خبرة عالية في فهم أولئك الصحفيين الذين يرمون باستقالتهم بعدما تكون برامجهم قد أصبحت ذات جدوى إشهارية، إلا أنه هذه المرة عجز عن فهم شاهيناز عطاس، ما إذا كانت تريد مرتبا أعلى أو أنها حصلت على فرصة أفضل لدى تلفزيون آخر.. أو أنها فعلا كانت جادة وتريد أن تخرج من هذا الذي سمته «بماخور السياسيين».. (قالت فيما بعد لصديقتها مرام الحلبية: يأتي بعضهم إلى الأستوديو ببدلة غير مناسبة، فنعيره بدلة مع كرافاته مناسبة، نشذب من شنباته وحواجبه الكثيفة.. نطلي وجهه بالبودرا لكي نجعله ورديا، نرش بعض المواد اللامعة على شعره فنجعله أقل بياضا.. ثم نساعده على الصعود إلى كرسيه وندله على الكاميرات الموجهة له.. وبعد ذلك نجده قد أصبح يريد أن أذهب معه إلى الفراش!..)

- وماذا بإمكاني أن أفعل؟ أولئك هم سياسيو بلادك.. تساءل أنطوان ثم أضاف:

- اتركيهم يحترقون..

وما كاد ينهي كلامه حتى فكرت أن اللياقة هي التي منعتها من قول الحقيقة!.. ثم قالت ما كانت تفكر فيه:

- اسمع يا أنطوان.. أنا لم أعد قادرة على العيش تحت التهديدات..

ولما ألحت على الاستقالة، قال لها:

- عالم التلفزيون نصفه خيال ونصفه دجل ونفاق.. لو ذهبت إلى المريخ ستجدين دائما من يهتم بمؤخرتك أكثر مما يهتم بأفكارك! ثم سألها:

- هل حدث معك شيء عنيف؟..

- سأقول لك كل شيء ذات يوم.. الآن ليس لدي ما أقوله يا أنطوان..

اقتربت من البكاء ولكنها لم تبك.. ولأن أنطوان يعرف مدى عنادها، فقد وضعها أمام قرارها.. ولكن مدير برامج في أي تلفزيون لا بد أنه يعرف تفاصيل كل صحفي وكل صحفية يعملان معه.. فشاهيناز ليست بالمرأة المحافظة ولا بالزوجة الوفية ولا هي بالصحفية الشريفة! ورغم كونها غير متشيعة لأي حزب وغير محسوبة على حصة طائفية ما.. وتعرف كيف تسحب الستارة بخفة بينها وبين أي رجل لا يعجبها أو لا يدخل إلى قلبها، إلا أنها أيضا متقلبة ومتوترة أحيانا.. وقد أعمتها الشهرة وباتت تحدق نحو عالم آخر أكثر رحابة وربما أكثر شهرة وأموالا..

بعد نحو شهر سيكتشف «أنطوان لحد» أن شاهي أصبحت تقدم برنامجا عن الموضة والجمال والأناقة تحت اسم «فاشيون21» في إحدى محطات دبي الكبرى!.. قال لنفسه: هذا هو مكانها.. رجال السياسة يلزمهم عجوز أو رجل أصلع.. إذ ماذا يعني أن نسأل نائبا عراقيا أو لبنانيا عن رأيه في داعش وهو ممثل لطائفة شيعية أو درزية أو إيزيدية!.. وبماذا يمكن أن يجيب مفكر أو باحث

استراتيجي حين يسأل عن الفرق بين أمينة فاخت وصابر الرباعي؟ لو سأله مقدم البرنامج: هل تفضل أن تنام ليلة مع انجلينا جولي أو تجلس ليلة واحدة على كرسي السلطة في بلادك، لكان السؤال ممتعا وشيقا لأن ما من مفكر استراتيجي ذكي سيفضل ليلة يتيمة من السلطة على ليلة سخية مع انجلينا جولي..

لو أن شاهي أخذت الحياة على أنها مجرد وظيفة أو مهنة، لظلت مدرسة في إحدى الثانويات ببيروت. كانت منذ البداية مدركة أن الحياة شيء آخر غير الوظيفة. هي لغز كبير، واسع وعميق.. مملكة واسعة تتواجد فيها لتأمين الحياة وسط الحياة وكذلك للتفوق على الحياة باكتساب معاني أخرى للحياة.. ربما يبدأ الاعتقاد بالتفوق في امتحان.. أو القبول في وظيفة ما.. أو الزواج من رجل ما.. ولكن الحياة بالنسبة لشاهي شهبار هي أكبر من ذلك.. هي للفقراء والأغنياء.. الأذكياء والأغبياء.. هي الدناءة والرفعة.. هي أيضا الصراع بين الجماعات وبين الأجناس وبين الأمم.. هي أيضا الولع والطموح والقلق والغيرة والاكتئاب والفشل والسقوط ومعاودة النهوض!

- ما معنى أن تكون غبيا ومتعلما وتحمل أوسمة وشهادات ويظل عقلك على مر الأيام باهتا وضجرا وغبيا؟

طرحت شاهي ذات مرة هذا السؤال على مصمم الموضة العالمي إيلي صعب.. فأجاب ببساطة:

- ذلك هو حال الإنسان غير الذكي والخائف.. إذا كنا نعيش في خوف دائم، فإننا نفقد ذكاءنا.. وإذا فقدنا ذكاءنا فقدنا معنى اللذة!..

نزع الخوف، ترجمته الوحيدة: الحرية.. وإذن الحرية هي الأم الحقيقية للذكاء.. هكذا لخصت شاهي ما قاله إيلي صعب.. والحقيقة أن ما تعلمته شاهي من تلك الجملة التي نطق بها مصمم الأزياء تعادل كل ما تعلمته خلال سنتين من جميع السياسيين الذين استدعتهم إلى برنامجها السياسي.. حقا إن السياسيين يشبهون الفيلة.. لحمهم لا يؤكل، أعمارهم طويلة وأوزانهم ثقيلة.. وأفكارهم سوداء.. بعضهم فقط، وهم نادرون يتميزون بالخفة الذكاء والأمل وروح الهجوم.. هذا الصنف إما أن ليس لديه ما يخسر أو أنه لا يسعى فعلا إلى الربح!.. قال ترامب مؤخرا عن منافسته هيلاري كلينتون.. «يا إلهي كم هي ضجرة ومملة.. تريد أن ترضي الشعب الأمريكي كله، وهي غير قادرة حتى على إرضاء زوجها..» ألم تسمعوا أن كلينتون حين كان رئيسا لم يكن يجد الوقت الكافي لغلق بنطلونه!.. أضاف ترامب: «لا أتكلم هنا عن هيلاري كلينتون كامرأة.. فأنتم تعرفون أنني محب للنساء.. إنني أتكلم عن فيلة تتخذ من الحمار شعارا لها»..

- يتمازج رجال السياسة في أمريكا بلا حدود. يخترقون حجرات النوم ويتكلمون كما لو أنهم ينظرون في المرايا، قالت ستيفاني حين سمعت ما قاله مصعب الصراف وهو يتحدث عن الانتخابات الأمريكية..

سألها مصعب مباشرة:

- ما رأيك في السيد ترامب..

- رجل من الغرب.. رجل بعيد جدا.. إنه النقيض الحاد والصادم لأوباما..

ابتهج مصعب لذلك الرأي.. فهو بطبعه لا يحب أوباما. فهو رجل ضعيف ولين جدا ولم يعرف كيف يرضي أي طرف في معادلة الحكم.. يريد أن يخرج نظيفا بأي ثمن، وهو لا يعرف أن ثمن تلك النظافة قد كلفت العالم غاليا.. قال:

- أوباما حكم ثماني سنوات. هل أمريكا لم تستيقظ بعد من السكرة يا ستيفاني؟

- لو استيقظت من سكرتها على يدي ترامب، فإننا قد نذهب جميعا إلى المحرقة.. ترامب رجل يلعب بكرة من النار.. قد نصدق جزءا من جبنه، ولكننا لا يجب أن نصدق أبدا أي جزء من نبله..

كان مصعب قد تواعد مع ستيفاني في البار. دعاها إلى كأس. في الحين طلب سيكارا فاخرا من صنف «كوهيبا». أحضره له النادل على صينية خاصة ثم راح يمرره على شفتيه ويلعقه من حين إلى آخر بلسانه لكي يصبح طريا.. وقبل أن يستعد لقص رأس السيكار وصلت شاهي إلى البار.. شاهي تعرف جيدا بار «اراغون» في فندق الشيراتون. وتعرف أيضا حتى الركن الذي يرتاح فيه مصعب الصراف. لأنه يقع بمحاذاة الواجهة البلورية الكبرى المطلة على الحديقة والنافورة البديعة التي يقال إنها بنيت في عهد السلطان عبد الحميد الأول.. (لاحظت ستيفاني أن هذا الفندق شبيه بفندق (ماريوت) في القاهرة. كلاهما كان قصرا للسلطان. هذا للسلطان عبد الحميد.. والآخر للخديوي إسماعيل.. يا لجمال الهندسة!)..

وإذ بات مصعب الصراف محاطا بسيدتين من أجمل السيدات، فلا شك أنه يشعر بالفخر، ولكن رجلا مثل مصعب حتى لو

كان عربيا وأصوله بدوية وحار الجسد والنبض، تعود كيف يمسك برأسه باردة ويشرب الماء، إذا كان النبيذ أو الوسكي سيرفع من حرارته..

استقرت شاهي في الزاوية الأخرى من الكنابيه الطويل، بعد أن تبادلت ثلاث قبلات مع مصعب وثلاث أخرى مع ستيفاني. ثم وضعت ساقا على ساق برفق ودلال والتفتت مبتسمة إلى ستيفاني:

- مرحبا بك في إسطمبول يا ستيفاني.. كنت فيما مضى زميلة.. قال لي مصعب، أنك صحفية جوالة..ثم أضافت:

- يا لها من مهنة شاقة ومتعبة.. أفضل شيء فيها أنها ليست مملة ومتجددة باستمرار..

بدت ستيفاني كما لو أنها خجلى أو خجولة بالنسبة لشاهي.. أن تكون خجولة، فذلك حجاب لا ينزع بسهولة. فهو التحذير المتواصل من جميع ما نشتهي حتى نقتل جميع رغباتنا. أما أن تكون خجلي، فذلك أسلوب قد يخفي شغفا كبيرا بالحياة، لكنه يحتاج إلى مناخات خاصة لكي يتفتح ذلك الشغف.. طلبت شاهي من النادل أن يأتي لها بكاس من النبيذ، ودون أن تجهد ذاكرتها.. اختارت في الحين كأسا من «دون كيخوت». ثم اقترحت على ستيفاني أن تجرب معها هذا النبيذ الإسباني. قالت:

- إنه رائع.. سوف تطلبي كأسا أخرى.. أراهنك..

كانت شاهي مصرة على أن تكسر حاجز الخجل لدى ستيفاني.. وقد يكون ذكاء الحياة قد أوصلها بسرعة إلى أن ستيفاني ستكون أروع لو خرجت من خجلها.. وكما لو أن ستيفاني أرادت أن تعبر

عن ارتياحها لشاهي، وافقت على كأس من «الدونكيخوت».. كما وافقت على الرهان!.. أكان مصعب هو الذي طلب من شاهي أن تلعب دور «كسارة الحواجز».. أم أن شاهي هي التي أرادت أن تكون «مؤلفة قلوب» حتى يكون مصعب منشرحا!.. ذلك السؤال لم تجب عليه ستيفاني حتى بعد شهر، حين أعادت طرحه على نفسها وهي تستعيد شريط تلك الليلة..

*** *** ***

كان يمكن لشاهي شهبار أن تخمِن ان ستيفاني إحدى عشيقات مصعب الصراف بما أنها تنزل في نفس الفندق الذي ينزل فيه.. كما كان لستيفاني أن تخمِن أيضا أن شاهي شهبار هي إحدى عشيقات مصعب الصراف في إسطمبول، الجاهزة دوما لاستقباله. ولكن ذلك لم يفسد لا مزاج ستيفاني ولا مزاج شاهي.. ولم يحرك بداخلهما لا الغيرة ولا التباهي. كان مصعب منهمكا في مص سيكاره كأنه أمير بين محظيتين. وكان الدخان يغطي المساحات الفارغة بينهم.. ثم فجأة انتبهت كل من ستيفاني وشاهي أنهما يرتديان نفس اللون.. ستيفاني كانت تضع على كتفيها شالا أصفر فاقعا وكذلك كان لون حذائها.. فيما كانت شاهي قد ارتدت قميصا أصفر مع تنورة سوداء وحذاء أصفر.. ولو لاحظ أحد الجالسين في ذلك البار تشابه الأحذية لقال: إنهما سيدتان من عارضات الأزياء قد عادتا للتو من عرض خاص للأحذية.. أو لفكر في أنهما يستعدان للذهاب إلى حفل راقص. وفي حالات قصوى كان سيقول أنهما يتسابقان من أجل رجل يعشق اللون الأصفر، أو أنهما سيدتان قد حطت عليهما حمى الغيرة.

ولكن مصعب لا يحب اللون الأصفر.. وربما لم ينتبه إلى ذلك إلا حين قالت شاهي:

- حذاؤك جميل يا ستيفاني.. أنت أيضا تحبين اللون الأصفر..

ردت ستيفاني، وهي ترفع قليلا من ساقها اليمنى:

- اشتريته قبل يومين من باريس. لأول مرة أرتديه.. إنه جميل.. أليس كذلك؟

(كان مصعب يستمع إلى تلك الحكايات النسائية الصغيرة.. وقال لنفسه: أظن أن النبيذ قد نزع الخجل عن ستيفاني. هل تراها ستتغلب على ذلك الخجل. وكم يكفيها من كاس حتى لا تفقد وعيها أو تنقلب فجأة إلى امرأة عنيفة وانفعالية) ولكن ستيفاني فاجأته بالقول:

- ما الذي تشربه يا مصعب؟

- كوكتيل مارتينيكي.. ممزوج بقليل من الكامباري..

- لماذا لا تجرب هذا النبيذ.. إنه جيد.. ثم أضافت:

الدونكيخوتا الإسباني شبيه بنبيذ «الجورا» الفرنسي.. يصنع من صنف معين من الكروم البيضاء، ويحتفظ به لمدة ست سنوات على الأقل في براميل خشبية من السنديان..

- سأجرب الدونكيخوتا فيما بعد على العشاء..

آنذاك سقط شال ستيفاني أو لنقل انزاح عن كتفها، فبات في مستوى خصرها، وجذبته قليلا لا إلى فوق، ولكن إلى مستوى حجرها وتركت جزءا منه يتأرجح بين ساقيها.. فتحت له فجوة لتدخله بين ساقيها ثم أطبقت عليه كما لو أنها تريد أن تقبض

على شيء ما. هكذا لاحظت شاهي. أما مصعب فقال لنفسه: ها هو مجد الأصفر يسقط.. أراد أن يصرخ.. كما لو أن علم حزب الله قد سقط أمام عينيه، ولكنه كان لايزال واعيا..

قال لشاهي بصوت منخفض:

- منذ أن وضعت شالها بين فخذيها، وأنا أشعر بنشوة غير عادية..

التقطت ستيفاني ما قاله مصعب وهو يدس كلماته في أذن شاهي مباشرة.. لكنها لم تعلق.. حركت ساقيها لكي تعدل في جلستها ثم أعادت وضع الشال في مكانه.. أي بين فخذيها.. أي إلى ما فوق الركبة.. (كان ذلك بالنسبة لمصعب كأنه مسلسل ملحمي، ذلك أن الأصفر جعله مندفعا وقد يجعله متهورا.. فلأول مرة يكشف أن الرجال لا يحركهم اللون الأحمر مثل الثيران.. وإنما يحركهم اللون الأصفر لأنه مشع كالشمس ويزيد من الطاقة والمرح بالرغم من أنه لا يحبّه..)

لكن شاهي شهبار تعرف جيدا ما الذي يفعله اللون الأصفر بالرجال. فهي متخصصة في الأزياء وتعاشر عارضات الأزياء وكذلك مصمميها وبائعيها. فهو لون الشمس التي هي ثروة الأرض وطاقتها.. لذلك فإن جسد المرأة الذي يكون مغطى بالأصفر، هو قطعة مركزة من الشمس مخبوءة في الأرض سرعان ما تتحول إلى طاقة لدى الرجل.. أو بريق يدله إلى حيث الترف والسعادة والحرارة.. لم يكن من الصعب على شاهي أن تلاحظ أن ستيفاني ما انفكت تدل مصعب على خط الحرارة أو طريق الجوهرة.. ولكن من أين لمصعب أن يفهم كل ذلك؟ أما ستيفاني فربما لم تتعلم ذلك من

عالم الأزياء، ولكن من عالم مارسيل بروست باعتبارها فرنسية. لقد انبهر بروست بإحدى لوحات «فيرمير» التي لطخها بالأصفر الفاقع ثم أخرج منها سيدة تتبرج وعلى كتفها شال أصفر.. وكان يكفي بضع زهرات من عباد الشمس الصفراء ليضع «فان غوغ» لوحة بديعة قبل أن يصاب بجروح على إثر سقوطه في حقل من القمح، وهو يبتعد قليلا عن لوحته ليرى مدى تناسقها.. لم ينتبه إلى الحفرة التي كانت وراءه، وهو لايزال يبتعد إلى الخلف حتى سقط مغشيا عليه.. وإذن هو أيضا لون ملعون وذلك منذ العصر الوسيط. فإذا كان من لون الترف والذهب، فهو من لون الكبريت.. ثم هو لون يهودا واليهود عندما كانوا هؤلاء منبوذين وملعونين وبعد إجبارهم على ارتداء النجمة الصفراء.. بعد ذلك أصبح رمزا للرجال الذين تخونهم زوجاتهم، ثم شعارا لمكسري الإضرابات وخونة النضال العمالي..

فسّر مصعب الصراف كل ذلك العرض الساحر بالأصفر، على أنه دعوة غير متوقعة لأداء جسدي جيد وغير متوقع. ورأى فيه تحديا عليه ألا يخسره. وهو تحد يشبه تحديات الصفقات التجارية الصعبة التي غالبا ما يجيدها.. ولأنه لايزال يثق في قدراته ومواهبه ونضجه، فقد راهن على أن يفوز بهما معا.. أي بستيفاني وشاهي وبدفعة واحدة قال:

- سنصعد للعشاء الآن.. ولكن ليكن في جناحي..

*** *** ***

كل ما تذكره الآن ستيفاني عن تلك الليلة، أنها استيقظت في

الصباح فوجدت نفسها في فراش مصعب الصراف لكنها لم تجد مصعب إلى جانبها.. كان الضوء قد بدأ يتسرب من خلف الستائر حين فتحت عينيها وهي تحاول أن تدرك المكان الذي توجد فيه.. تأكدت في أقل من ثانيتين أنها في جناح مصعب. وقامت بسرعة لتتفقد بقية الجناح فلم تعثر لا على مصعب ولا على شاهي.. لا في الصالون ولا في الغرفة الأخرى.. دخلت إلى الدوش وحين خرجت وجدت مصعب جالسا في الصالون الصغير.. كانت لاتزال ملتفة بروب الحمام، قالت له بدهشة:

- أين كنت.. لقد كنت أفتش عنك.. لقد أرعبتني..

فكر للحظة أن يخاتلها ويقول لها: لقد تركتك تنامين لوحدك حين أكثرت من شرب النبيذ، ولكن خاف أن تكون آثار المعركة الجنسية التي خاضها بجدارة لاتزال شاهدة عليه.. كذلك خاف أن تكون ستيفاني لاتزال تتذكر كل ما حدث.. فهو يعرف أن النبيذ قد يزيد من التهييج ويرخي الأعصاب وكذلك أعضاء الجسم، ولكنه لا يذهب بالذاكرة.. قال ضاحكا:

- تعودت القيام مبكرا جدا.. نزلت إلى الكافيتيريا لشرب قهوة.. لا أستطيع أن أستعيد نشاطي إلا إذا تناولت قدحين من القهوة..

قالت في الحين:

- أنا أيضا أريد قهوة..

- ستشربين قهوة من إعدادي يا ستيفاني في هذا الصباح..

قال مصعب ذلك ثم قام باتجاه الكيتشينات الصغيرة حيث توجد كل المواد والمعدات لإحضار القهوة والشاي.. بعد حوالي

خمس دقائق عاد حاملا صينية صغيرة فوقها فنجانان كبيران من «النيس كافيه». كانت لا تزال تسرح شعرها أمام المرآة.. وبعد أن لفت شالها الأصفر على نصف جسمها التحتي بداية من السرة، وقد اكتفت إلى ما فوق السرة بقميصها الأبيض، جاءت لتجلس إلى جانب مصعب لترشف قهوتها..

- هذا «نيس كافيه» رائع.. إنه برائحة الهيل وماء الورد. هكذا علقت ستيفاني بعد أول رشفة.

- الأتراك غالبا ما يضيفون مسحتهم الشرقية على كل ما هو أمريكي.. حتى لو كان الأمر يتعلق بدبابة..

قال مصعب، وهو يحاول أن يتذكر الروائح التي انبعثت من جسد ستيفاني البارحة.. فحين بدأ ماؤها يتدفق على فمه، أصبح بطعم الفانيليا.. لقد تبلل الفراش إلى حد أرغمه على الذهاب إلى الصالون ليكمل نومه فوق الكانابيه.. أخيرا فقد عثر على امرأة تنعش حنينه إلى الزعتر والنعناع وترسله مباشرة إلى «سيدة سمرقند» التي تعرف عليها خلال رحلة إلى أوزيكستان، وتساءل بينه وبين نفسه: لماذا لا ينهمر هذا الماء المعطر والمنعنع إلا من نساء أجنبيات. فستيفاني فرنسية الأصول، وناتانيا الأوزبكية قد تكون روسية الأصول! رائحة الزعتر التي لا زال يتذوق عذوبتها ويشمها بأنفه الكبير تشبه خشب الصنوبر والصندل والكافور الأبيض الذي كان ينهمر مع ماء ناتانيا.. تحسس أنفه كما لو أنه في حوار صامت معه.. ثم قال:

- ستيفاني.. هل أضعتك ذات يوم في جبال آسيا الوسطى أو

غابات الأمازون حتى أعود فألقاك أخيرا في إسطمبول؟

فهمت ستيفاني أن مصعب قد عبر عن سعادته بطريقة ذكية.. وهذا ما يستوجب عليها أن تجيبه بطريقة بارعة.. أرادت أن تسأله عن شاهي، لكنها تمادت في تجاهلها إلى حين. ثم قالت:

- كل شيء لدي لا بد أن يتم بشكل جيد ورائع لأن كل شيء هو مشروع وإنجاز (في ذهنها الجنس إنجاز رائع لا يختلف عن أي إنجاز فني.. فهي دائما تريد أن تكون خليطا بين العاطفة والرومانسية والجنون.. حين تكون في عملها تحرص جيدا على مقاومة أي نوع من الغواية.. ولكنها حين تتفرغ لأحاسيسها تمتع شريكها بإبداعات عظيمة في التدفق العاطفي..) ثم سألت:

- ولكن لم تقل لي أين هي شاهي.. هل ذهبت إلى بيتها.. لم أعد أتذكر كيف ودعتها.. لا زلت أسمعها تعرض علي كأسا من الشمبانيا هنا في هذا الجناح ثم ما عدت أتذكر شيئا..

- شاهي لا بد أنها لا زالت نائمة في بيتها.. لأنها لا تنهض إلا مع منتصف النهار.. تركتنا على حافة النشوة ثم انسحبت إلى بيتها.. هكذا صاغ مصعب إجابته، فردت ستيفاني متسائلة:

- لا تقل لي أنها انسحبت غاضبة!..

- لا أبدا. شاهي ليست عشيقتي.. بيننا أعمال تجارية ليس أكثر.. مررنا بمغامرة أو مغامرتين ثم أصبحنا أصدقاء.. لا أعتقد أنها غيورة.. إنها امرأة ذات قلب مصنوع من الأوراق النقدية.. قلبها نباتي من خشب الأرز اللبناني..

(لا يزال مصعب بين الحين والآخر يتحسس أنفه.. هل تراه لا يزال يتذكر الروائح التي تدفقت مع مياه الشهوة العارمة.. أو هو يريد أن يقود ستيفاني إلى غواية جديدة.. أم أنه يداعب أنفه كما لو أنه يباركه على الكنز الذي عثر عليه.. عموما فإن أهل الخليج مولعون بأنوفهم ويكثرون من التفاخر بأنوفهم.. وحتى طريقة سلامهم توحي بأن للأنف مكانة رفيعة.. فالشيوخ أو الأمراء الأكثر رفعة يسلمون بأنوفهم، ولا بد لرأس الأنف أن ينقر أو يلامس أنف الآخر.. وإذا الضيف من عامة الناس فإنه يكتفي باليد أو بوضع رأسه على كتف مضيفه. وبطبيعة الحال تعلم أهل الخليج استعمال أنوفهم أكثر من غيرهم. ثم طوروا من أداء الأنف، وأصبح ذلك الجهاز الصغير دليلا على صحة الرجل وكذلك على آداء واجباته الجنسية.. ويعتقد أغلب سكان الخليج، وخاصة النساء أن أنف المرأة بمقدار طوله وعرض قاعدته يدل على مقدار طول ذكر الرجل وعرض خصيتيه.. وكذلك يعتقد الرجال أن أنف المرأة يعكس جهازها التناسلي.. وغالبا ما ترغب النساء في تجميل وتصغير أنفها حتى توحي للرجال بأن عضوها صغير وجذاب.. آخرون من شعوب أخرى يرون في الأصابع انعكاس للأجهزة الجنسية.. فمن كانت أصابعه طويلة وغليظة يكون حاملا لعضو طويل وغليظ. ومن كانت أصابعها نحيفة وقصيرة من جهة الكف لها جهاز صغير وممتع!.. أصبح ذلك اعتقاد راسخ في ذهن مصعب.. ومع التجربة بات متيقنا بأن الأنف هو الأداة الرئيسية في أية عملية جنسية. لا يقتصر دوره على الشم والإحساس والتهيج والتهيؤ، بل هو غالبا ما يتولى إشارة كل الحواس لكي تشتغل كما يجب. فهو الذي يبعث

اللسان على النشاط والشفط وهو الذي يرسل إشارات أكيدة للقضيب لكي يكون أكثر استعدادا.. ثم هو الذي ينشط الذاكرة ويحرضها على استحضار التاريخ الجنسي لأي جسد.. وأخيرا فهو الذي يدفع بالمخ إلى التخلي تلقائيا عن أي عزوف..)

باختصار، فإن القرار الذي سيتخذه مصعب في ذلك الصباح بشأن ستيفاني، هو قرار صادر من أنفه.. إنه قرار الوقوع تحت غواية الأنف!..

*** *** ***

لا يمكن لستيفاني أن تفهم ما الذي حدث أو ما الذي دفعها إلى الشروع في العناية بتلك العلاقة مع مصعب الصراف. كما لا يمكن لها أن تخترق قلب مصعب الصراف لتعثر على جواب مريح ما إذا كان فعلا قد أحبها.. أو هو سيهتم بها لبضعة أسابيع.. أو لبضعة أشهر ثم يمضي لغيرها.. في نظرها، يتحدى نيتشه كل الأحاسيس الرومانسية التي يسميها الناس حبا، ويقول: أن الحب هو الأنانية في أكثر صورها سذاجة. فهو أي الحب شديد الصلة بالجشع والاستحواذ والتملك والاحتواء.. وهذه صفات كل رجل أعمال وكل رجل سياسة. بل هي صفات مميزة لدى مصعب الصراف.. ولكن كلمة «احتواء» تجعلها ضعيفة حين تسمعها. فامرأة الأربعين، وخاصة وعندما تكون مطلقة هي أكثر النساء اللاتي يبحثن عن الاحتواء..

ولا شك أن ما قاله برنارد شو وبيكاسو فيما بعد «أن الحياة الحقيقية تبدأ في الستين» لا تعدو أن تكون دعابة. ربما تكون صحيحة بالنسبة له شخصيا، كذلك صحيحة لكثير من الفلاسفة

والمفكرين. أما للناس العاديين وخاصة بالنسبة للمرأة، فإن الحياة بحبها ومتعتها ورحيقها وكذلك بقلقها وأراجيحها تبدأ في الأربعين.. في هذه السن تصبح المرأة أكثر جرأة ونضجا عاطفيا.. فهي تنتقل من وضعية الحمامة إلى وضعية النمرة. تصبح أكثر إلحاحا في المطالبة بحقها في ترويض الرجل ونزع إرادته وشهامته أمامها.. كذلك بحقها في الكلام المنمق والمعبأ بكلمات الغرام وأحيانا المليء بالبذاءة.. بل قد تصبح مشاكسة ومتطلبة وقادرة على المطاردة.. ولكن رغم تلك الثورة العاطفية والجسدية فإنها تظل دائما خائفة من الزمن ومن عدم التوفيق في العثور على عشير أو عشيق مناسب.. في أحيان كثيرة، قد يكون حدث الحب الجديد، جرس إنذار، بأن الحب القديم قد مات أو هو يحتاج إلى الإيقاظ.. أحيانا يأتي الآخر، فتصبح العلاقة مثلثة، وهنا يصبح حدث الحب تحديا وإشباعا ونهما. ذلك الشخص الثالث، رجلا كان أو امرأة إما أن يكون محرضا على استمرارية الزواج أو مدمرا لعش الزوجية.. في الغالب ترتضي المرأة بأن تستمر بين الزوج والعشيق. أما الرجل فلا يقدر على ذلك لأنه استحواذي..

يميل الرجال غالبا نحو الغريزة. ويعتقد أغلبهم أن الإخلاص أو التفاني أو الوفاء ليست من أخلاق الرجال. أما المرأة فهي تؤمن بكثير من الإخلاص والحب وتعتنقه مثل عقيدة سماوية حسب نيتشه. تفعل ذلك برباطة جأش إلى أن يأتي رجل آخر فيحطم دفاعاتها أو تدخل امرأة أخرى إلى مخدعها فتحطم كل بسالتها.. إن الرجل الذي يحب بتفاني على طريقة النساء يصبح عبدا، بينما المرأة التي تحب على طريقة الرجال هي امرأة ناقصة!.. عثر مايوكوفسكي

عن ذلك الفرق حين قرر أن ينتحر تاركا عشيقته «ليلي» في شوارع موسكو بلا ملامح وبلا بوصلة.. قبيل الثورة البولشيفية بعامين، وقع فلاديمير مايوكوفسكي في حب «ليلي» التي كانت متزوجة، بطريقة جنونية. التقى بها عند مخرج المسرح ودعاه زوجها بعد ذلك إلى بيته من فرط الإعجاب به.. ثم باتت تسكن مسرحياته وأشعاره وترحاله من جورجيا إلى موسكو.. لم يعشق مايكوفسكي «ليلي بريك» الفاتنة والفاجرة فقط، بل عاش علاقات متفجرة آلت إلى الفشل مع عازفة البيانو كاتيانا باكلوفليكا التي هجرته إلى حضن أحد النبلاء والممثلة بولونسكايا التي آخر من ودعته حين ذهب إلى الانتحار في الغابة القريبة من بيته. أطلق النار على نفسه وكان موته إعلانا على حب لم يعد حبا وإيذانا بقدوم الثورة كما يقول لينين، وهو يرد على إحدى رسائل عشيقته «اناس ارمان». كتبت «اناس» في ذلك اليوم الداكن: «عزيزي فلاديمير. نحن بعيدان الواحد عن الآخر وهذا يؤلمني جدا.. أنت في ضواحي مدينة كراكوني ببولونيا وأنا في لندن.. أنت تعد للثورة وتنتظر سقوط القيصر.. وأنا أعد نفسي وأنتظر أن أراك»..

ها هي ستيفاني تكشف قصتها مع مصعب لصديقها إسماعيل. لقد عرف إسماعيل بلقائهما في إسطمبول وكذلك في دبي ثم في باريس.. وهي إذن لا تستطيع أن تخفي ذلك لأنها لا تريد أن تكون كاذبة أو ممثلة.. قالت له كما لو أنها تضع عليه المسؤولية بعد أن أفصحت عن حب منطقي تجاه مصعب.

- أنت السبب يا إسماعيل.. أنت الذي قدمتني إليه.. وأنت الذي عزمتني على بيت السفير القطري.. ثم أنت الذي أخبرته بأنني في

إسطمبول حين حدث ما حدث..

بالنسبة لإسماعيل الذي لم يفكر أبدا في ستيفاني كمشروع رغبة جنسية أو مغامرة عاطفية، فإن ما حدث لم يشعره بأي نوع من الغيرة أو الحسد أو حتى الشهوة.. لذلك قال ببرودة أعصاب:

- لا يمكنني إلا أن أبارك علاقتكما..

انتظرت ستيفاني أن يقول شيئا آخر، كأن ينصحها أو يفتح لها دفتر مصعب مع النساء، لكنه لم يتكلم.. فقالت:

- لا شيء لديك لتقوله لي..

- لا شيء.. أعتقد أن مصعب رجل ذكي جدا.. وأنت أيضا امرأة ذكية جدا.. سوف تتحابان بأكثر مما تتصوران أو تفترقان بأسرع مما تتصوران!..

- ألا يجب أن أكون معه ممثلة.. أقصد ألا تعتقد أن مصعب ممثل بارع..

اكتفى إسماعيل بالصمت.. كان بالأحرى يفكر فيما سيقوله لأنه ما طرحته ستيفاني قد يفوق قدراته التحليلية.. صحيح أن كل مشروع جديد يحتاج إلى نوع من التمثيل وخاصة الحب الذي أحيانا قد يبدأ بالهزل لأنه ينطوي على قدر كبير من المسرح ولكن للرد على ذلك السؤال، كان لا بد لإسماعيل أن يحتاج إلى نوع من التمثيل لأنه لا يستطيع أن يغامر بكلام قد يكون خاطئا وقد يكون مع الأيام تهمة له أو قدحا، لذلك قرر اللعب في مساحة معينة فقال:

- حين تصبح المرأة، كل مرأة في متناول من يدعي أنه يحبها، يفقد المحب اهتمامه بها.. هذا ما أعرفه.. وهذا ما افترضه باستمرار. التسليم بعدم وجود الحب أكثر راحة.. وهذا ما يحبه الرجال لدى

النساء فيزدادون انجذابا..

بدا إليها إسماعيل واقعيا وحكيما.. لم ينزلق إلى متاهات أو صغائر أخرى.. وآنذاك رأت أن تسأله أخطر سؤال. سؤال ما انفك يعذبها منذ عدة أسابيع..

- هل ترى من الصحيح أن أخبر زوجي السابق مراد عباس بهذه القصة؟ ثم أردفت قائلة:

- على العموم، أخبرته بأنك هنا في تونس.. ويريد أن يتعرف عليك..

قال إسماعيل بسرعة:

- إذا كان الأمر سيبعدني من التهمة.. فهذا جيد.. أما إذا كان الأمر لكي تنتقمي منه، فهذا شيء سيء جدا!.. أنا أقول لا داعي لذلك.. ليس الآن..

*** *** ***

تنتمي ستيفاني إلى طبقة من النساء المتحررات والمتمردات على التقاليد. وقد خاضت حروبا صغيرة ضد عائلتها لكي تتزوج من رجل مسلم. ثم أرادت أن تجبر كل الذين عارضوها بالاعتراف بتحديها وتمردها فأصبحت مسلمة.. ولأنها خليط بين مسيحية متزمتة عاشتها مع عائلتها الصغيرة في دريست وإسلام مشوش وفولكلوري عاشته في تونس مع زوجها مراد، فقد ظلت دائما تشعر وكأنها معلقة بين ديانتين وثقافتين ولغتين وكذلك بين شعورين.. ما إن تبلغ سعادتها حتى يقع النكوص نحو الألم.. وهذا ما حدث معها منذ الليلة الأولى مع مصعب الصراف. فهذه العلاقة تبدو لها في نفس الوقت كورطة وكحاجة ضرورية، لم تسع إليها. وحين

جاءت لم تقاوم لردها.. انساقت باندفاع وكذلك بإهمال أو ربما بتحدي أمام شاهي شهبار.. أصبحت تلك الليلة ذكرى تتعلق بأمنية كانت في صدرها لكنها غير واضحة لديها,, لكنها ذكرى تعيش معها وهي تجذبها نحو المستقبل.. وما إن تفكر فيها حتى تصبح نوعا من الألم.. ألم مستوطن بداخلها لكنه حامل لوعد بالسعادة. إنها من جهة تبدو كما لو أنها تنتظر أو هي فعلا تنتظر أن يذهب الألم. ومن جهة أخرى فإنها مستمرة في توقع قدوم أو عودة الألم.. ثمة إذن عود على بدء في تناوب اللذة والألم.. فاللذة أو السعادة التي تبحث عنها ستيفاني هي من ذلك النوع الذي يتناوب مع الألم. سمته أحيانا بعصا الذنب التي راحت تنهال عليها بين الحين والآخر.. ثم أدركت أنها امرأة لا تعير كثيرا من الاهتمام لما يسمى بالذنب.. وكان عليها أن تختار إما الاستمتاع والتمتع بالمتعة دون التفكير فيما سوف يعقبها أو ينتج عنها. وإما التفكير والوعي بتلك المتعة وهو ما سوف يجعلها فارغة من أي شهوانية.. ويزيد من حدة الألم.. نعم، إلى تلك الدرجة أصبحت المتعة أشد إيلاما وألما لدى ستيفاني حين تحاول التفكير في علاقتها بمصعب الصراف.. بل هذا ما يجعلها مشوشة الذهن، قلقة، ومتوترة ومشدودة كالقوس الذي ينتظر السهم..

في المساء، حين اصطحبت معي إسماعيل إلى حيث يجلس مراد عباس، أي زوجي السابق، وهو ينتظرنا على شرفة فندق «ضفاف البحيرة»، أعدت عليه ما إذا كان يوافقني على الإفصاح له عن علاقتي بمصعب الصراف.. قلت له:

– لدي إحساس أن هذه العلاقة ستكبر.. ولا أحب أن يسمع بها

مراد من أناس آخرين..

هبّ إسماعيل قائلا:

- احذري.. لا تكوني مجنونة.. لا تفعلي هذا أمامي.. حين تذهبين إليه لوحدك تصرفي كما تشائين.. ثم أضاف كما لو أنه يهزأ..

- فلتأخذي الأمر ببساطة.. لماذا لا تنظري إليها على أنها ضربة ياناصيب.. مصعب رجل تحلم به كل نساء العرب ونصف نساء أوروبا.. رجل غني ووسيم وقوي..

زاد ما قاله إسماعيل في توتر ستيفاني وقالت لنفسها، (لأنه غني وقوي ووسيم فأنا أتعذب.. إني لا أعرف متى سيدير لي ظهره).. ثم قالت لإسماعيل:

- صدقني يا إسماعيل لأول مرة يحدث لي هذا الشيء.. فمنذ أن طلقت مراد قبل نحو سنتين لم أعاشر أي رجل..

ثم ضحكت وأكملت:

- بصراحة، حتى لو كنت متزوجة، فإنني ما كنت لأضمن لنفسي النجاة منه!..

وحين اقتربت من طاولة مراد سارعت إلى تقبيله.. ثم التفتت إلى إسماعيل وهي تقول:

- هذا زميلي إسماعيل السمان. إنه هنا في تونس منذ يومين.. لدينا عمل وثائقي سننجزه معا ما بين تونس والمغرب..

بعد أن استقرت على الكانابيه المقابلة لمراد واستقر إسماعيل إلى جانبه الأيسر على كنابيه مستقلة.. استمرت في الحديث عن رحلتها إلى القاهرة وباريس وإسطمبول.. سألها مراد ما إذا زارت

أهلها. فقالت بسرعة:

- لم أجد وقتا لذلك. حضرت المظاهرة العالمية ضد الإرهاب.. ولم يكن بإمكاني أن أذهب إلى دريست.. وعدت أمي بفرصة أخرى.. شعرت بها وكأنها منشرحة لنبأ طلاقي.. وهنا قال مراد..

- ألهذا الحد تكرهني أمك؟

أجابت ستيفاني:

- في دريست لازالوا يشبهون القبائل الجرمانية الأولى.. إنهم يقتلون أبناءهم ذكورا وإناثا إذا خرجوا عن عادات أهلهم.. ثم ضحكت فضحك مراد وإسماعيل وهو يعلق..

- إذن هؤلاء صعايدة.. وليسوا أوروبيين!..

أطردت ستيفاني من تلك الجلسة كل ما من شأنه أن يعكر مزاج مراد. والحقيقة لقد جاهدت من أجل أن تبعد عنها أي شبهة في علاقتها بإسماعيل. ومع أن مراد متأكد أن ستيفاني لا تخلط بين العمل والعاطفة.. إلا أنه كان يحاول أن يقبض على أي خيط يمكن أن يقوده إلى أية شبهة من خلال أسئلته الصغيرة وتعليقاته الحادة والاهتمام بالتفاصيل وحتى بمخارج الكلمات وحركات الأيدي.. وبعد عدة اختبارات لا طائل من وراءها، سأل مراد إسماعيل:

- وما رأي المصريين في الشيخ الغنوشي بعد أن ذهب مرسي؟..

أجاب إسماعيل بخفة:

- لو رأى المصريون الغنوشي يدخل إلى حانة لما صدقوه!

المصريون ضاقوا ذرعا بتجار الدين!.. عليهم أن ينتظروا قرنا حتى يعود مرسي..

- وهل تعرف ماذا يقول جماعة الغنوشي، سأل مراد ثم أجاب..

- كانوا يقولون مسألة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع.. والآن يقولون مسألة سنتين أو ثلاث سنوات.

أما ستيفاني فقد علقت على ذلك الحديث السياسي الذي دار بيني وبين زوجها السابق بطريقتها الخاصة قائلة ونحن نستعد للخروج:

- كم هي عظيمة تلك الشجاعة التي نملكها لكي نقوم من السرير كل صباح لمواجهة الأشياء نفسها مرارا وتكرارا.. ولكن نحن الصحفيون، كم نحن سخفاء أحيانا..

«لما قالت هذا الكلام، كانت ستيفاني تحلم بمضاجعة أخرى مع مصعب».. هذا ما استنتجه إسماعيل لعدم تناسقها مع مجرى الحديث.. أما مراد الذي ودعنا أمام باب الفندق، فلا بد انه أحس كذلك بعدم التناسق في كلامها، لكنه لم ولن يتخيل أبدا أن ستيفاني التي أحبته لأنه يتكلم الفرنسية بطلاقة يمكن أن تحب مصعب الذي لا يتكلم إلا العربية مع بعض الكلمات الإنكليزية..

الفصل التاسع

قبل أن يتزوج أرسطو أوناسيس، جاكلين، أرملة الرئيس كنيدي، دعاها إلى طنجة. أوقف يخته في المكان الذي أرست فيه باخرة روزفلت خلال الحرب العالمية الثانية.. ثم صعد إلى سطح الطابق العلوي وصرخ: «ها هنا من حيث عبر روزفلت إلى السلام نحو يالطا للقاء بستالين.. ومن حيث انطلق كريستوف كولومبس إلى العالم الجديد، أعلن للعالم زواجي من السيدة جاكلين كينيدي».. لم يكن أوناسيس ثملا أو سكرانا، ولكنه كان رجلا يعرف كيف يربح التحديات ويظل واقفا.. كانت مارلين مونرو قد التقت بأوناسيس في إحدى السهرات، وحصلت بعد ذلك اللقاء، مداعبات وربما مغامرات بينهما، لكن جون بشبابه ومجده الرئاسي استطاع أن يخطف مارلين مونرو من أحضان أوناسيس.. وكأي إغريقي له طبع الجبال والبحار، لم يغفر لكينيدي ذلك الخطأ.. فقد تمكن خلال عام واحد أن يسرق قلب زوجته جاكلين.. ثم سرق القدر أو المافيا جسدي مارلين مونرو وجون كينيدي حين تم اغتيالهما.. وبعد عامين، أو أكثر بقليل تزوج أوناسيس من الأرملة جاكلين.. قال أوناسيس فيما بعد لمجلة «لايف» «حين نلعب جيدا، يكون القدر حليفنا.. لقد كنت دائما ألعب بطريقة جيدة»..

لم يكن ثمة ما يزعجني ذلك المساء. لقد استعدت نشاطي بعد فترة من الكآبة بسبب فسخ خطوبتي مع مروان. قال لي أبي آنذاك:

- لن تستطيعي العيش في الجزائر.. مروان شاب أنيق وابن عائلة كبيرة.. ولكنه لا يستطيع أن يعيش إلا في بلده.. أبوه رجل عالم وسليل دايات ومروان وحيد والده ولا أعتقد انه سيأتي إلى طنجة ويترك أراضي والده للآخرين..

ثم أضاف..

- الجزائريون يحبون المغرب، لكنهم يحبون بلدهم أكثر.. ليسوا مضطرين الآن أن ينتقلوا للعيش في تونس أو المغرب كما كان الحال زمن الاستعمار..

مثل ذلك الكلام لم يقنع ساندرا سلطاني بأن تفسخ خطوبتها مع مروان داي، ابن البروفسور إسماعيل داي. في الحقيقة من أقنع ساندرا بذلك هو الرسام والباحث في الحضارات خوسيه بلانتيرو.. قال بلانتيرو لساندرا ذات مساء وهو يدربها على مزج الألوان بداره المطلة على المضيق:

- جاءني مروان إلى غرناطة.. أرسله أبوه إلى عندي.. وخرجنا معا.. اتخذته صديقا. وجدته شابا رائعا في البداية.. ثم عرفت أنه مدخن للحشيش.. ومعاشر للصبيان..

كان كلام بلانتيرو بمثابة الصدمة.. لم تنتظر منه أن يكون فجا بتلك الطريقة. أحست بانقباض شديد ثم راحت تسعل بقوة.. لم تدخل في جدال مع بلانتيرو، فقررت الانسحاب والعودة إلى بيتها. ومنذ ذلك المساء لم تخرج ساندرا من غرفتها إلى أن دعاها بلانتيرو على عشاء جماعي.. كان مروان ربما حلم حياتها،

ولكن ها هو يتبخر من ذهنها دونما أسف كبير!.. لقد نسفه بلانتيرو نسفا وبات الآن ربما بديلا لمروان، حتى وإن كان الأمر بلا غبطة كبيرة.. فبلانتيرو يعرف جيدا أن الرجل متى أخرج رجلا من قلب امرأة، أخذ مكانه، ذلك أن المرأة سرعان ما تحب ذلك الرجل الثاني باعتباره منقذا لها!..

قال لي أن صديقه الياهو دانيال سيقيم عشاء على شرف أحد رجال الأعمال الخليجيين.. وأنه يود أن اكون حاضرة معه.. ثم أضاف..

- أريد أن أخرجك من هذه الكآبة يا ساندرا.. انطلقي إلى الحياة. لازلت شابة نظرة وذكية..

لم أمانع. وجدت في كلامه شحنات إيجابية، فأبديت استعدادي، وفي مساء اليوم نفسه كنت كأميرة في انتظار فارسها.. غالبا ما كانت تلك النزعة الرومانسية التي أحتضنها بداخلي تأخذني على أجنحة سريعة إلى الأماكن التي أحب أن أذهب إليها. وقد كان من الممكن أن أتخيل ذلك العشاء قبل أن أذهب إلى بيت الياهو دانيال، ولكني ما كنت أود إفساد المتعة حين حدوثها، أو قتل الدهشة بداخلي.. إن ما تفتقده مبكرا حين ندخل إلى عالم الكبار هو الدهشة، بينما الفلاسفة الكبار يصرون على البحث عن الدهشة حتى في الأشياء البسيطة..

اخترت أحلى فساتيني لذلك العشاء. قليلا ما أرتدي القفاطين أو الفساتين، ولكن هذه المرة أردت أن أكون في شكل سيدة لا في شكل فتاة طائشة من فتيات الفايسبوك.. إن الفساتين تمنحنا

الأنوثة والدلال وتجعلنا أكثر حضورا ورغبة لدى الرجال.. ما من رجل قوي لا يحب أن يقف ويتكلم ويسلم على سيدة ترتدي فستانا.. كنت ألاحظ كيف يقبل الرجل يد المرأة إذا كانت ترتدي فستانا، وكيف يكتفي بمد يده من بعيد على امرأة أخرى ترتدي بنطلونا.. الفستان هو الوعد المؤجل بالنسبة للرجل. أما البنطلون فهو الرفض المبطن وغير الواعي لإمكانية حدوث أي انفتاح.. هكذا يفهم أغلب الرجال. وهكذا يتصرفون. فطبقا لما تبديه المرأة من خلال فستانها يتحول الرجل إلى كائن بشري عار وشفاف..

كان هناك تنوع كبير من المدعوين، تنوع في الأسماء والجنسيات والأديان واللغات وكذلك في الألوان.. لأبدأ أولا بتلك السيدة الزنجية التي ترتدي زيا إفريقيا والتي تدعى إيزابيلا غوبيتا، وهي سفيرة سابقة لبلادها بورندي في المغرب.. كانت تشبه السيدة ويني مانديلا في ضحكتها وتحديها وشموخها.. (رفعت هذه المرأة من شموخ المرأة الإفريقية. ظلت متمسكة بالنضال الطبقي إلى أن دخلت في صراع مع أرستقراطية حزب المؤتمر.. قال هؤلاء الذين يغيرون منها.. لمانديلا وهو في السجن، أنها تخونه مع الشباب.. لم يكن متأكدا. ولما خرج من السجن، قام بطلاقها ثم تزوج من أرملة صديقه سامورا ماشيل الموزمبيقية.. إن قصة ويني ونيلسون هي قصة الحب الجريح في جنوب إفريقيا تماما مثل قصة الثورة المخدوعة!..)

صاحب الدعوة الياهو دانيال هو الضابط السابق في الجيش الإسرائيلي والذي يملك حاليا منتجعا كبيرا لليخوت في طنجة وآخر في إسبانيا (على ساحل ماربيا) إلى جانب كازينو في جزر

الكناري، وذلك حسب ما عرفته من خوسيه بلانتيرو والذي قال أيضا: أن الياهو من يهود إسبانيا السافارديم. فما إن فكر في عالم الأعمال حتى عاد إلى إسبانيا.. الياهو دانيال هذا كان رجل خمسينيا، لكنه اصغر من عمره بكثير..

أشار لي بلانتيرو قائلا:

- هل رأيت تلك السيدة التي تقف إلى جانب الياهو التي سلمنا عليها عند دخولنا؟

كنت أحاول أن ألتفت إلى حيث يشير بلانتيرو ولكنني لم افعل ذلك إلا بعد أن سمعته يقول:

- تلك المرأة ليست زوجته.. إنها سيدة شهيرة في عالم الأزياء، تسمى شاهي شهبار.. قدمت من إسطمبول واعتقد أنها عشيقة له..

في تلك اللحظة وأنا التفت بحذر لأراها جيدا، رأيتها تتقدم نحو رجل خليجي، ثم وقفت قبالته وراحت تتحدث إليه كما لو أنها تمازحه.. آنذاك قال لي بلانتيرو:

- ذلك الرجل خليجي،اسمه مصعب وأعتقد أنه من قطر. وهو شريك الياهو في كثير من الأعمال. فهو أيضا يملك منتجعات سياحية كثيرة في طنجة وكذلك في شرم الشيخ..

- لا تقل لي أنه شريكه أيضا في تلك السيدة. فهي تبدو ولهانة بالسيد الخليجي!؟

أكمل بلانتيرو حديثه باتجاه آخر فقال لي:

- انظري ذلك الرجل الذي يرتدي شورتا مقلما.. ربما أمر غير مألوف أن نرى هذا في حفل عشاء أو حفل شاي.. ولكن لا

بد أن يكون صاحب حظوة. سأقول لك من هو. انتظري. انتحى جانبا باتجاه رجل كان يحاول أن يلتقط صورة سلفي مع إحدى الحاضرات.. وشوش معه بعض الكلمات ثم عاد ليقول لي..

- إنه الحارس الشخصي لشاهي شهبار.

فهمت أنه قد يكون العشيق الخفي لها.. فقلت له:

- الحارس الشخصي لماذا هو هنا وسط الضيوف.. لعله أحد العشاق..

-لا اعتقد.. انظري إنه يرتدي مع الشورت قميصا شفافا يكاد يلتصق بجسده.. ثم أضاف..

- إنه «غي».. صديقي ساباتو الذي سألته أوحى لي بذلك. يعرفه جيدا، والياهو دانيال رجل شرقي وغيور..

باختصار، كان عدد المدعوين يفوق العشرة أشخاص. وربما كان هناك ما يثير الفضول، ولكني شخصيا لم أجد ما أثار فضولي أو إعجابي.. تحدثت مع أغلبهم وحاول معظم الرجال أن يكونوا مرحين معي وقد أكثروا من مديح بلانتيرو لأنه يصطحب معه امرأة شابة وجميلة. ودون مبالغة، فإن أكثر ما شد انتباهي هو حضور تلك السيدة التي قدمت نفسها على أنها صحفية وتدعى ستيفاني نيكولاس.. أعجبني حضورها وأناقتها وكذلك لكنتها حين تتكلم بالعربية (وهي دارجة خليط بين التونسية والمصرية) ثم ثقافتها.. كان ذلك الرجل الخليجي الذي يدعى مصعب لم يفارقها إلا قليلا. وحين كنت أتحدث إليها كان لا يكف عن التحديق بي كما لو أن لديه ما سوف يقوله لي دون أن تعرف ستيفاني. تعمدت

الانسحاب بدعوى أنني أريد أن أغير كاسي، فأسرع مناديا على النادل.. اختار لي كأسا من الوسكي، فاعتذرت وقلت له:

- لا أشرب الوسكي.. اكتفيت بكأس من النبيذ وسوف أضيف كأسا أخرى لا أكثر..

ذهب ذلك النادل ثم جاء نادل آخر يحمل قنينة من النبيذ الإسباني.. أمسك مصعب الكأس ليصب النادل. ثم ناولني قائلا:

- هذا على نخب ستيفاني يا ساندرا ناطحا كأسه بكأسي.. ثم سألني:

- هل سمعت من قبل برجل اسمه مصعب الصراف؟..

*** *** ***

تبلغ الثقة بالنفس في بعض الرجال أحيانا حتى لنتخيل فعلا أنهم اباطرة غير متوجين أو أخوة أشقاء لرجال عظام مثل ايمانويل كانط أو المهاتما غاندي. عاش ومات كانط دون أن يتزوج. فكر مرتين في الزواج لكنه لم يقدر على الزواج.. الفتاة التي أحبها كانط كانت ثرية لكنه قال لها: لن أتزوجك إلا إذا كنت قادرا على أعباء وتكاليف الزواج.. في النهاية مات أعزب وهو في الثمانين.. أما المهاتما غاندي فقد كان يحكم إمبراطوريتين وأمتين عظيمتين.. البريطانية التي وضع لها حدودا جديدة وجعلها متواضعة، والهندية التي بنى أعمدتها وأطلقها لتجربة الوجود.. ومع ذلك التقى بسيدة صغيرة من الكشمير طالبة الزواج قال لها:

- إذا كان بإمكانك أن تكوني رقيقة مع عنزتي، فإني سأتزوجك..

أما ذلك الرجل الذي اسمه مصعب الصراف لا شك أنه لايزال

غير قادر كيف يكون هو نفسه دون أن يحتاج أن يكون رجلا آخر. هكذا قلت لخوسيه بلانتيرو، حين غادرنا ذلك الحفل.. ففجأة قررت الانسحاب وطلبت من بلانتيرو أن نعتذر وننسحب، وإلا فإنني سأفعل ذلك لوحدي.. قلت له بنوع من النرفزة..

- خوسيه.. مزاجي تعكر.. هذا ليس مكاني.. أنا سأذهب. هل ستذهب معي أم لا ؟

في الطريق هدأ خوسيه من روعي ودعاني إلى مطعم متواضع.. وقال لي كأنه يعتذر..

- أنا نفسي لم أكن مرتاحا.. عالم آخر من الادعاء والتشبه.. كنت أحسبه حفل عشاء. فإذ به حفل شرب.. أضاف خوسيه..

- في هذا العالم.. كثيرون من الحثالات يريدون أن يصبحوا نبلاء. ولكي تظهر نبيلا عليك أن تكون مرغما على التظاهر. وحتى تفعل ذلك لا بد أن تكون قادرا على التظاهر ومحكوما عليك بالبذخ والرفاهية والسخاء إلى حدِ العجرفة (كان الأرستقراطيون ولا زالوا يتفوقون على الطبقات الأخرى بالإنفاق والكرم حتى حين لا يكون في مقدورهم.. ذلك ما ميزهم على الأدنى منهم اجتماعيا مثل الفلاحين.. ولكن حديثي النعمة والأغنياء الجدد يفعلون نفس الشيء.. يكثرون من البهرج والإنفاق والبذخ حتى يعتقد الأكثر منهم رفعة أنهم صاروا مثلهم يمتلكون أخلاق النبلاء!.. وفي النهاية النبيل يصرف كل ما لديه بانشراح لأنه يريد أن يحافظ على نبالته.. وحديث النعمة ينفق كثيرا بتذمر لأنه يريد أن يكون نبيلا لكنه يبقى خسيسا..)

كانت ساندرا وهي تتحدث مرحة إلى ابعد الحدود. كادت

أن تفقد انشراحها في بيت الياهو دانيال لفقدانها المرجعيات الصحيحة لذلك الحضور.. وحين غادرنا عاد إليها ذكاؤها ومرحها.. سمعتها تقول كما لو أنها فيلسوفة ساخرة:

- إننا نعيش في عالم من التشبه والشبهات.. الجميع أصبح يفتري على الواقع حتى لا يكشف حقيقته.. الرجال الذين يسمون بالأقوياء أو الناجحين هم في الغالب نماذج مموهة داخل فضاء من الشبهات.

بعد ذلك ضربت مثالا:

- خذ مثلا ذلك الذي اسمه الياهو دانيال.. لا شك أنه قتل عشرات الفلسطينيين الفقراء وزرع الوباء والمبيدات في مزارع اللبنانيين.. وبعد حياة من الفضاعة والترهيب، ها هو يعيش حياة أخرى من البذخ، لا أعتقد أن رجلا مثل الياهو يقرأ القصائد أو يحب الرسم.. نفس الشيء بالنسبة لذلك الخليجي الذي اسمه مصعب الصراف.. متى يمكن لذلك الرجل أن يكون غنيا.. إنه يحتاج إلى عقدين آخرين من الخبرة والعمل والتجريب حتى يكون غنيا.. ذلك الرجل يبدو قويا ومتماسكا ولاعبا بالنساء لأن اسمه رجل أعمال خليجي فقط.. هكذا تعقد الحواجب وتتمطط الشفاه وتتأوه القلوب وتتعقد الألسن ويحتار حتى المنجمون حين يلتقي رجل أعمال يهودي مع رجل أعمال خليجي في بلاد اسمه المغرب.. لن يكون لذلك إلا تفسير واحد، هو أننا نعيش ما أخبرنا به الحسن الثاني قبل أكثر من عقدين.. (العبقرية اليهودية مع مال العرب من شأنهما أن يصنعا المعجزة..). وهل ثمة من معجزة بعد خراب البصرة!..

قلت لخوسيه أيضا، أن هذا المثل كثيرا ما يردده والدي. وقد انتظرنا طويلا حتى خربت البصرة ولم تأت المعجزة..

ردِ خوسيه عليّ بشيء من الاعتداد بالنفس باعتباره أستاذ متخصص في فن العمارة عبر الحضارات.. قال لي:

- أولا يا ساندرا أريدك أن تكوني متعايشة مع هذا العالم من الشبهات.. كل الأوساط بداخلها «أوساط غير نظيفة» ثمة من يتقن التخفي والإخفاء وثمة من لا يتقن ذلك.. إن العالم الجديد يرى نفسه في الصورة التي يرسمها لنفسه. علينا أن نقبل بأولئك الناس بصورهم لا بجوهرهم.. وأما المثل الذي يكثر من ذكره والدك فهو يضرب للذي ينجز عملا بعد فوات الأوان.. لقد صادف أن اشتعلت ثورة في البصرة عرفت بثورة الزنج وأخرى في منطقة محاذية بإيران.. وكان رأي القائد العسكري أن يذهب إلى إيران لإخماد الثورة هناك، فحدث أن خربت البصرة.. وبعدما انتصر القائد في إيران، عاد لينتصر في البصرة.. ولما عاد إلى بغداد قال له الخليفة: نصرك مهم.. ولكن جاء بعد خراب البصرة!..

التقطت ساندرا من الحكاية عبارة «بعد فوات الأوان» ثم أرادت أن تتفلسف فقالت:

- بعد فوات الأوان . قبل فوات الأوان.. ألا ترى معي أن هذه العبارات لا تعني شيئا بالنسبة للزمن.. ما هو الأوان؟ ومن يضع الأوان أو يحدد الأوان. إذا كنا قد خرجنا من هذا الحفل. فهل نحن خرجنا قبل الأوان أو بعد الأوان.. أو في الأوان نفسه.. ثم إذا سقط هذا الجسر الذي أمامنا وكنا نعبر فوقه.. هل كنا عبرنا بعد

الأوان أو قبله أو في الأوان نفسه.. أي لحظة سقوطه بما يعني لحظة هلاكنا. ربما لو لم يتغلب ذلك القائد على التمرد الذي حدث في إيران ما كان ليتغلب على تمرد البصرة.. وإذا كان ذلك صحيحا. فإن ما حدث قد حدث في الأوان نفسه، أي في لحظة ناضجة وحبلى باحتمالات النجاح.. من أدرانا أن تمرد إيران لو تركه ذلك القائد جانبا ولم يعتبره أولوية إستراتيجية سوف لن يتسع ويلتحم مع تمرد البصرة.. ثم لا يعود ممكنا الصمود أمام تمرد كبير ومفتوح!.. ثم ختمت قائلة:

- اسمع يا خوسيه.. لو أن جون كينيدي قد مر موكبه بدقيقة قبل او بعد لما كان ليموت على الأقل في تلك اللحظة.. نعم حدث ذلك مع الجنرال ديغول، لكن هذا الجنرال انحنى ليضع باقة ورد تحت قوس النصر، فمرت الرصاصات من فوق رأسه، فلم يقل احد فات الأوان بل قال الجميع: لم يأت الأوان بعد..

استمع خوسيه جيدا لما تقوله ساندرا. كان على قدر من التناسق.. ولكنه لم يكن مستعدا أن يدخل معها في نقاشات مطولة أو جدية.. كان يريد أن ينتقل بها إلى عوالم أخرى أكثر رومانسية وحميمية.. قال لها فجأة:

- هل لازال مروان على تواصل معك؟

لم تتوقع ساندرا أبدا مثل هذا السؤال من خوسيه، وكاد أن يضعها مع الإحباط مباشرة لو لم يستدرك قائلا:

- دعينا نذهب إلى بيتي ساندرا.. أليس أكثر راحة من أي مطعم!..

(كانت مارلين تسأل أمها باستمرار: كيف ترين السيد مونرو.

وكانت أمها تكتفي في كل مرة بأن له وجه رائع مثل وجه راهب مشرق.. وكان مورو كثيرا ما يطلب منه صديقه رأيه في مارلين، فكان يكتفي بالقول.. إنها رائعة لها وجه أمريكا المشرقة والمرحة)، لذلك أرادت أن تخبره بشيء مماثل، وقد أبدت موافقتها على الذهاب معه إلى بيته. قالت له:

- خوسيه سأخبرك بشيء.. هل تعلم أن أمي كثيرا ما تسألني عنك.. آخر مرة حين ارتديت هذا الفستان قالت لي مداعبة.. هذا الفستان لخوسيه أو لرجل آخر.. ضحكنا بتخابث الأم والبنت دون أن أجيبها.. هل تعرف.. أنها تود أن تراك.. لتتأكد من انك الرسام الذي رسمتني.. لقد قالت لي في الحين حين رأت اللوحة أن هذا الرجل يحبك.. هل أنت تحبني يا خوسيه؟ كانت غالا في البداية غاوية وملهمة للشاعر بول ايلوار. وحين رسمها سلفادور دالي تركت ايلوار وعشيقها ماكس ايرنست وارتمت في أحضان دالي.. غالا كانت من روسيا. وكذلك أولغا فعلت نفس الشيء مع بيكاسو. هذا الخنزير كما تسميه أحيانا أولغا لا يرسم امرأة إلا إذا أحبته.. لقد حطم قلوب نساء كثيرات.. أولغا ايضا كانت روسية.. ولأن الأمر بات مختلطا على ساندرا. فقد ألقت ذلك السؤال على خوسيه بلا مقدمات كثيرة. كانت تفكر فقط ما إذا كان خوسيه مثل دالي أو مثل بيكاسو. دالي كان يفتك بالنساء والغلمان. أما بيكاسو فكان مكتفيا بمغامراته النسائية.. ولم تفكر قط في شيء آخر.. إلا في أن يقول لها مثلا: أنا أحببتك لذلك فقد رسمتك.. أو أنا رسمتك لأنني قد أحببتك..

اختار خوسيه طريقة أخرى للتعبير ثم نطق..

- المهم أن لا تخبري أمك أن عمري تجاوز الستين..

*** *** ***

حين مات الكوديو فرانكو، دخل خوسيه إلى جامعة مدريد. وقبل أن يصعد فرانكو إلى الحكم بحوالي سنتين، ولد أب خوسيه وهو ثالث إخوته ويدعى خوليو بلانتيرو. وبعد أن صعد فرانكو إلى الحكم بأقل من سنة ولدت أم خوسيه وتدعى ماريا مارتيناز، لذلك فإن الإسم الكامل لخوسيه هو كالتالي: سان خوسيه ماريا مارتيناز بلانتيرو. يمكن القول أن أب وأم خوسيه قد ولدا قبل ثلاث سنوات من الحرب الأهلية التي قتلت أكثر من نصف مليون إسباني من أصل عشرة ملايين. في ذلك الوقت هب الجنرال فرانكو للدفاع عن الملكية ضد الجمهوريين ثم وضع الملك على الرف وامسك بأمعاء إسبانيا بتحالف ودعم من هتلر وموسليني.. اعتمد على حزبه الكتائب وكذلك على جماعات القمصان السوداء التي أرسلها الدوتشي كذلك على الشبيبة النازية للفوهور هتلر.. ورغم ذلك ما كان لينتصر لولا جيش المتطوعة المغاربة الذي بلغ عدده نحو 50 ألف من سكان الريف بقيادة الضابط محمد أمزيان الذي رقي إلى رتبة ضابط ثم أصبح صديقا شخصيا وحارسا أمينا لفرانكو إلى ساعة مماته.. في ذلك العام 1975 أي حين مات فرانكو، كان خوسيه طالبا في كلية الفنون الجميلة.. وقد أصبح منتميا لليسار العالمي بكل جوارحه. استيقظ وعيه على سقوط الزعيم الشيلي سلفادور ألندي وعلى كفاح منظمة الإيتا الباسكية والتحولات الديمقراطية التي طبعت علاقة بلاده بمحيطها الأوروبي وعلاقة الدولة بالمجتمع

وكذلك علاقة إسبانيا بمستعمراتها الإفريقية.. انقطع عن دراسته في كلية الفنون الجميلة ثم سافر إلى المكسيك ليتعرف على تجربة التياباس الثورية. ومن هناك ذهب إلى أمريكا لينتمي إلى جامعة كولومبيا حيث نال شهادة في فنون العمارة.. بعد ذلك اتجه إلى إيطاليا ليتخصص في تاريخ العمارة الرومانية. ومن إيطاليا ذهب إلى القاهرة مقتفيا تاريخ العمارة الفرعونية.. زار بعد ذلك بغداد ودمشق واليمن وتعلم قدرا كبيرا من اللهجات العربية ثم عاد لينظم إلى هيئة التدريس في جامعة غرناطة.. أطروحته الثانية كانت حول فن الحدائق في المدينة الأندلسية.. وهنا مزج حسه الفني كطالب فنون جميلة وكرسام وزاده العلمي فيما يتعلق بفضاءات والمساحات في المدينة الأندلسية.. تزوج من كارمن خوليو، إحدى طالباته في جامعة غرناطة لمدة ثلاث سنوات، وحين طلقها قال لأمه ماريا مارتيناز: «اللعنة.. لم أكن اعرف أن اسمها هو اسم زوجة فرانكو كارمن بولو.. «(كانت كارمن بولو تظهر غالبا على الشرفة إلى جانب الجنرال حين كان يخطب في الجماهير المحتشدة التي تصرخ: كوديو، كوديو.. أنت الكوديو..»). لا يتذكر خوسيه الكثير من عهد فرانكو، ولكنه لا يستطيع أن ينسى حملات الفالانج القمعية والمداهمات الجامعية وإعلانات حالة الطوارئ المستمرة.. وكذلك مرض الجنرال الطويل.. لم يصدق الإسبان أن جنرالهم مات إلا حين اطل الملك الشاب الذي احتفظ به الجنرال كولي للعهد وكخليفة له وهو يقول للشعب بكثير من الشحوب: «أنا خوان كارلوس.. أنا ملك إسبانيا.. لقد مات الجنرال».. لقد ظهر كما لو كان يؤبن والده.. هكذا أحس معظم الإسبان.. فهذا

الشاب الذي فصله أو نزعه الجنرال عن والده، وجعله وليا لعهده واشرف على تربيته لم يكن قادرا على إخفاء تأثره برحيل فرانكو الذي اغتصب عرش أبيه! ابنة الجنرال الوحيدة ماريا كارمن والتي تبلغ حاليا نحو 82 عاما ذكرت لخوسيه حين جاءت لتروي ذكرياتها مع أبيها لطلاب التاريخ في جامعة غرناطة: أن والدها قد تكون ونضج في المغرب. وأن صداقاته لبعض رجال المغرب هي التي جعلته ينتصر في الحرب.. ومن هذه الجملة بالذات بدأ خوسيه يفكر في الذهاب إلى المغرب.. وها هو بعد خمس سنوات يصبح خوسيه شبه مهووس بالمغرب.. وحين طلق زوجته قال لأصدقائه: لن أتزوج إلا مغربية بعد الآن..

كان خوسيه إلى جانب اختصاصاته الفنية متأثرا جدا بأندريه مالرو الذي قرأ له أغلب إنتاجاته مثل رواية «الأمل» و«المذكرات المضادة» و«سقوط السنديان» ثم مساجلاته مع الجنرال ديغول.. لنقل أن - ومضة مالرو - هي التي ظهرت في عيون خوسيه وساندرا منذ أن التقيا. ساندرا هي أيضا مغرمة بمالرو بشكل ساحر وجذاب. فهي تعشق أدبه وكذلك تعشق شخصه.. لم تتعرف عليه أبدا. فقد مات قبل أن تولد ساندرا بنحو عشرين عاما. ولكن منذ أن قرأت مذكراته راحت تفتش على بعض فيديوهات له. عثرت على مساجلات حامية له وقد اقترب من السبعين. مع ذلك ظل عنيفا وذكيا ومتوترا ولاعبا بالعبارة والسيكارة معا.. الحشرجة أو البحة التي كانت تضرب حبال صوته تجعله أكثر طغيانا وفحولة.. أما عيونه فكانت تخترق كل من يتفرج إلى أصابعه المرتعشة وعباراته النارية والطازجة.. أما شكله، فهو لا يختلف كثيرا عن شكل

خوسيه.. خوسيه الذي يقف الآن أمامها على رصيف البحر، وهو يشد شاله الأحمر بكلتا يديه حتى لا يطير مع الريح.. قالت له:

- ماذا تفعل حين تقع في أسر كاتب أو فيلسوف. وهو ميت منذ زمن طويل..

أجابها خوسيه بعفوية:

- لو كان أندريه مالرو حيا لأجابك عن سؤالك..

- ماذا قلت مالرو.. هو ذا.. هو ذا العبقري المجنون..

- وقد يكون دجالا ومحتالا أيضا وربما مختلا عقليا..

أجاب خوسيه ثم انهمر الكلام بلا توقف:

- كثيرون وكثيرات وقعوا في أسر هذا المجنون.. لا أتحدث عن طلاب صغار. بل حتى عن مفكرين وكتاب مشهورين في عهده.. وكذلك زعماء ورهبان ونسّاك وسياسيين وصحفيين سليطو اللسان وحتى جنرالات. في شبابه كان يبدو لهم كمعجزة.. اخترق الحرب الأهلية في إسبانيا ثم قفز إلى الهند الصينية ثم إلى الصين.. وفي كهولته، أصبح بطلا ونموذجا للمثقف المحارب والجوال. وفي شيخوخته صار نبيهم.. لقد سحر به حتى الجنرال ديغول والزعيم تروتسكي وماوتسي تونغ.!!

- ولكن ثمة مثقف وفيلسوف وحيد ملأ الدنيا بأفكاره حين بدأت شمس مالرو رحلتها نحو المغيب. لم يجد في مالرو ما وجده أندريه جيد مثلا.. هذا المثقف هو سارتر قال عنه: «سعيت جاهدا لأكمل احد كتبه، لكنني أجد أسلوبه مملا إلى درجة لا تصدق.. إنه ينقصه الكثير»..

- اتركي سارتر جانبا.. لم يكن يحب إلا زوجته فرانسواز ساغان.. أعتقد أنه كان يغار منه. تصارعا حول الجنرال.. مالرو كان يحب الجنرال وسارتر كان يحترم الجنرال فقط..

ومن كان يحب الجنرال؟ سألت ساندرا..

- الجنرال أيضا كان يحب نفسه. ثم زوجته ايفون.. ثم مالرو.. وكان يحترم سارتر..

ديغول ومالرو، كان كل منهما يحب الآخر ولكن الحقيقة كان كل منهما يحب نفسه فقط!..

بعد ذلك سألها خوسيه:

- هل تعرفين قصته مع همنجواي؟ ثم بدأ يروي لها كما لو أنه قرأها البارحة من سيرة مالرو للكاتب الأمريكي «كورتيس كيت»: بعد تحرير باريس عام 1944 من النازيين بوقت قصير، علم مالرو بأن همنجواي قد وصل مع الفرقة الأمريكية الرابعة للمشاة، وأنه أشرف شخصيا على تحرير فندق الريتز الشهير باندفاع وحماس حيث توجد غرفة للعمليات تابعة لهتلر.. هذا النصر لم يتحمله مالرو لأنه ما كان ليتقبل بأن يسرق منه صاحب «لمن تقرع الأجراس» البطولة في عاصمة بلاده. توجه إلى ساحة الفاندوم مجتازا حدائق التريلري نحو الفندق الذي يسكن فيه همنجواي. كان هذا الأخير في غرفته قد خلع حذاءه العسكري الضخم وانهمك في تنظيف سلاحه صحبة جنوده، عندما أطل مالرو بقامته المديدة والنحيفة. وكان مالرو أيضا قد حضر بزيه العسكري وعلى كتيفه شارات رتبة عقيد. قال همنجواي بأكثر ما

يمكن من اللطف بالنسبة لرجل عنيد وصلب ومتقلب كأمواج البحر..

- بونجور سيد أندريه

فرد مالرو:

- بونجور أرنست.. أهلا بك في باريس..

(لا نعرف ما إذا كان الرجلان قد تصافحا أم لا.. ولكن بما أن يدي همنجواي كانتا ملطختين بالزيوت والشحوم فيمكن لنا أن نتخيل ما حدث.. المهم فقد تجاوزا تلك الإشكالية بنبل الزمالة) بعد ذلك سأله مالرو:

- هنيئا لنا جميعا بهذا النصر.. ولكن قل لي كم من جندي كان تحت قيادتك؟..

فرد همنجواي بلهجة مرتفعة وواثقة:

- عشرة أو اثنا عشر رجلا.. مئتان على أكثر تقدير..

لم يرغب في التبجح أمام مالرو.. كذلك لم يكن مدعيا.. فقد دخل إلى الجندية بعد أن عمل كمراسل حربي.. ولكن حين سمع مالرو يقول له: «هذا بسيط.. أنا كنت قائدا لألفي جندي»، اهتاج همنجواي ثم تمالك أعصابه ليسدد له ضربة قوية.. قال لمالرو الذي شارك في الحرب الإسبانية والذي سبقه إلى تأليف الرواية بعدة سنوات، بلهجة ساخرة وباردة:

- إنه لأمر مؤسف أن لا نحظى بدعمك سيادة العقيد ونحن نلقي القبض على هذه القرية التي هي باريس..

تألم مالرو لتلك الصفعة. ولأول مرة يجد نفسه صامتا أمام كاتب عظيم مثله ومحارب عنيد.

أكمل خوسيه قصته لساندرا كما لو أنه كان شاهدا على تلك الحادثة ثم قال:

- لقاء العظماء غالبا ما ينقصه الود، لأنه يتميز بالحساسية.. ثم أضاف:

- ظل همنجواي يروي تلك الحادثة طوال حياته. وقد أقسم أمام أناس كثيرين وهو يلاعب بندقية صيده بأن أحد جنوده قد جره إلى غرفة الحمام واقترح عليه إعدام هذا المغفل.. أي مالرو..

- بابا (وهو اسم همنجواي لدى جنوده..) هل تأمر بإعدام هذا المغفل والمتنطع، رميا بالرصاص..

ضحك همنجواي وقال للحاضرين..

- لا يوجد حكماء كثيرون عند المحنة.. وهذا ما قاله لنا مالرو فيما بعد..

- أأعجبتك القصة يا ساندرا؟

- إنها مثيرة.. ولكن مالرو يبقى عشيقي.. ثم أطلقت ضحكة صافية وقوية سمعها المتوسط والمحيط معا.

*** *** ***

تجاوز الليل منتصفه، حين أوصلني خوسيه إلى باب دارنا. دخلت شبه متخفية. لم أشأ أن أوقظ أحدا. حتى الخادمة تحايلت كيف أمر من أمام غرفتها دون إزعاجها.. نزعت حذائي وحملته بين يدي ثم مشيت على رؤوس أصابعي. صاعدة الدرج نحو غرفتي.. كانت روائح خوسيه لازالت ملتصقة بفستاني.. ترك شعيرات بيضاء

على صدري.. وكذلك روائح عرقه.. كان طيفه لازال يلاحقني حين ذهبت إلى الحمام. وبعد أن أفرغت مثانتي، لم أشأ أن أدخل تحت الدوش.. عدت إلى فراشي، وبعد أن وضعت فيديو خوليو اغليزياس على ايفوني وهو يصرخ مغنيا أو يغني صارخا: (أنتن النساء..) وضعت فستاني تحت مخدتي ورحت انتظر النعاس..

كان خوسيه خليطا بين خوليو اغليزياس واندريه مالرو. تركيبته الجسدية والفزيونومية تجمع بين نحافة ايغليزياس وطول مالرو.. وجهه إن كان ضاحكا يأخذ شكل ايغليزياس وإن كان عابسا يأخذ شكل مالرو ، يداه ترتعشان مثل مالرو وصوته مبحوح ودافئ مثل خوليو.. أما شعره الأبيض فقد كان يضفي عليه فحولة لا يمتلكها أصحاب الشعور السوداء.. ودعته قبل ربع ساعة فقط، ولكن ها أنا أرغب في سماع صوته.. وكما لو أنه علم برغبتها، رن الايفون فإذا به خوسيه..

- أنت الآن في فراشك الآن برينسيزا!..

أجابت ساندرا بغنج.. وبصوت متوهج:

- فراشي لم يعد مريحا يا خوسيه.. نعم كنت أفكر فيك..

استجمعت ساندرا شجاعتها ثم سألته:

- هل سنلتقي غدا يا خوسيه..

لم يشأ أن يفاجأها ولا يريد أن يفقدها لذة النوم، لذلك أخفى عليها سفره إلى إسبانيا، ولكنه قال لها ما يمكن أن تفهم منه أنه مشغول في الغد.. قال على نحو غامض..

- غدا سنتهاتف.. وعندها نقرر..

بعد برهة عاد ليعترف:

- غدا ربما سأسافر إلى إسبانيا، وأعود بعد ثلاثة أيام. أضاف:

- السيد الياهو دانيال والسيد مصعب الصراف يريدانني أن أذهب معهما.. لكني لا أعرف متى بالضبط..

- إذن أنت ذاهب إلى مذبح الزواج.. قالت ساندرا ثم أطلقت ضحكة خفيفة.

بعد ذلك جرته إلى مداعبة خفيفة بالهاتف.. وحين بات صوته مخدرا، قالت له:

- لسانك خطير.. في كل الأوضاع يا خوسيه

وحين توارى الصوت، بدا الأمر وكان خوسيه قد خرج الآن فقط من غرفتها!.. ثم قالت لنفسها:

- غريب كيف ينشأ الحب بين شخصين بلا إرادة.. أو كيف تحب امرأة رجلا لأنه يشبه رجلا آخر!؟

الفصل العاشر

لم يسبق ليخت الياهو دانيال الفخم والمجهز برادار توجيه وتحكم متقدم جدا، والذي أضاف له مؤخرا في مرفأ حيفا جهازا اعتراضيا لكل الصواعق، أن عاش محنة الصراع مع العواصف والبحر كالتي عاشها تلك الليلة وهو يقترب من سواحل ماربيا.. المسافة بين ماربيا وميناء طنجة ليست بعيدة. ويمكن اختراقها حتى على مركب مطاطي بسيط، ولكن مفاجآت البحر لا يتكهن بها حتى أمهر السباحين والبحارة.. كان مشهدا مذهلا لو أن المرء كان يتفرج عليه من شاشة التلفزيون وهو ممدد على أريكته. أما أن تعيشه وأنت على يخت بين أمواج البحر، فلا شك أنه قد افزع الجميع، حتى أن قائد اليخت فكر أن يطلب النجدة من الحرس الإسباني أو يعود إلى سواحل طنجة حتى تبتعد العاصفة.. في منتصف المسافة كان الجميع على غاية من الانشراح. مصعب أخلد إلى قليل من الراحة.. شاهي شاهبار كانت تلعب الورق مع الياهو دانيال.. ستيفاني نيكولاس تتناقش مع إسماعيل السمان حول احتمالات النجاح والخسارة للسيد أوباما في مفاوضات فيينا مع إيران.. أما أنا. خوسيه بلانتيرو، فقد كنت أفكر في ساندرا.. وحين دخلنا في عين الإعصار، جاءنا الكابتن ليحذرنا ويشد من رباطة جأشنا.. ولما رأيت العاصفة تقترب، قلت لنفسي: أن

ساندرا تعاقبني مع أنها ليست مريم العذراء.. ثم صفقت أبواب اليخت من كل جانب فتجمعنا في الصالون وشددنا ببعضنا بعض كما لو أننا قررنا أن نموت معا.. اختفت الأضواء التي لاحت لنا قبل قليل ولم نعد نعرف اتجاهنا.. ثم ارتفع صوت الرعد وتزايدت سرعة الرياح ورحنا نتمايل بشكل بهلواني.. أحسسنا جميعا أن هذه الليلة هي آخر ليلة من أعمارنا.. ثم بدأ المطر يهطل بغزارة وبزخات مدوية ومعه البرق الذي لم نعد نتحمله.. أصبنا جميعا بالإرهاق والدوار والخوف.. وبدأ هرج ومرج بيننا وراح كل واحد منا يطلب رجاء ربه ويستجدي نبيه.. أمضينا نحو ساعة ونحن معلقون بين الموت والحياة ثم شيئا فشيئا بدأت العاصفة تبتعد وأصبح بالإمكان رؤية أضواء الساحل الإسباني.. للحقيقة فإن الرجل الوحيد الذي تمالك أعصابه وظل متيقنا أن يخته سيتجاوز هذه المحنة، هو الياهو دانيال. قال للكابتن منذ بدء العاصفة:

- كيف تريدنا أن نعود إلى طنجة.. هل نحن جبناء إلى هذه الدرجة!.

وبعد أن اقتربنا من المرفأ الخاص بيخوت رجال الأعمال والفنانين والمشاهير، قال وهو يهنئنا على الوصول سالمين:

- كان الرب معنا، لأن قلوبنا لم تكن شتى..

وجد مصعب في تلك العبارة شيئا من الحنين، أو شبها لها لدى المسلمين فعلق قائلا:

- فعلا.. الدين دين الله، لغته واحدة لكل أبنائه.. لكن الأبناء لا يعرفون!..

اقترب اليخت «زارا» من الشاطئ ببطء وترنح، وحين أصبح في مستوى الرصيف، قفزت شاهي شهبار أولا ثم الياهو وهو يمسك بيديها من شدة الإرهاق.. ثم ستيفاني ثم مصعب ثم إسماعيل. وأخيرا نزلت أنا. كان هناك رجل بدين جدا يتكأ على عكاز ومعه رجل آخر جدا أنيق.. تبادل الجميع القبلات والتهاني.. ثم قال لي مصعب:

- هذا السيد اسمه كريم كروان بك، صديق من تركيا.. ثم التفت باتجاه الرجل الآخر وقال:

- أما هذا فهو السيد فؤاد عبدي. وهو صديق من سوريا.. بعد ذلك قال لهما وكان يشد على كتفي..

- هذا صديقنا خوسيه بلانتيرو، إسباني.. رسام واستاذ جامعي ومتخصص في تاريخ العمارة الإسلامية..

الياهو دانيال تولى بعد ذلك تقديم ستيفاني وإسماعيل لكريم بك وفؤاد عبدي، ثم قادنا جميعا نحو ممر طويل مرتبط مباشرة بفندق»أورينتال كوستا» الذي يملكه بالشراكة مع كريم بك..

وأنا أسير في مؤخرة الركب، فكرت ما إذا كانت ساندرا ستغفر لي هذه الرحلة الغريبة والتي لم أعد أعرف لا سرها ولا نهايتها.. بعبارة أخرى ملأني شعور بالذنب لأنني لم أخبرها كما يجب.. ثم داهمني شعور غريب مفاده: أن الفقدان يعلمنا الحب.. ثم استنتجت بطريقة المتصوفة، أن الحب هو الفضيلة الكبرى في هذا العالم. فهو يفرغنا من كل أدران الأرض ويملؤنا بكل ما هو روحاني.. وحالما دخلت إلى غرفتي في الفندق سارعت إلى إخراج

جهاز الأيباد الصغير من الحقيبة ثم كتبت رسالة على الماسنجر لساندرا:

- أنا الآن في ماربيا في الضفة المقابلة لطنجة.. لست بعيدا عنك.. كان يمكن أن لا أصل هنا بسبب عاصفة هوجاء لا زالت تعبث بأمعائي حتى هذه اللحظة.. لن أتأخر عليك.. غدا سأذهب إلى غرناطة.. وسوف أتابع دقات قلبك.. أكتبي إلي متى شئت.. قبلاتي الحارة والساخنة. إنها الواحدة صباحا هنا..

*** *** ***

رحلتنا إلى غرناطة التي لا تبعد كثيرا عن مدينة ماربيا، كانت بطلب من شاهي شهبار ومصعب الصراف وكريم بك كروان.. ثم انضم كل من إسماعيل السمان وزميلته ستيفاني نيكولاس. وصلنا إلى هناك على متن سيارتين رباعيتين من نوع «مرسيدس» كانت كل واحدة تحت إمرة سائق مغربي.. بدت لنا غرناطة من بعيد ونحن نشرف عليها من ناحية الجبل بشوارعها وأسقف منازلها وساحاتها مزدانة برداء أبيض مبرقع بالأحمر وسط اخضرار عارم يزاحم البنايات والمنازل من كل الجهات. كان الجميع يرغبون في زيارة جامع الحمراء.. وهناك ارتديت بدلة الدليل السياحي ورحت أشرح لهم على نحو أكاديمي:

- هذا المبنى العريق نتج عن التحام بديع للحضارات وفن التعايش المشترك. إنه أحد المرايا المصقولة جيدا للحياة المدنية والمتعددة الأعراق والقصائد والثقافات.. استغرق بناؤه أكثر من قرن ونيف.. ولم يتوقف الأمراء عن التحسين والتجميل والتزويق خلال تلك المدة.. رغم الحروب والخلافات الدموية.. كانوا كما لو

أنهم يتسابقون مع الزمن لتسجيل زمانهم على صفحة التاريخ..

- هل كانوا يستشعرون الرحيل؟

سألت ستيفاني، بلانتيرو، فأجابها:

- ربّما.. كانت حرب الاسترداد قد بدأت. وكانت ممالك كثيرة قد وقع استردادها قبل أن ينتهي المعماريون من استكمال هذا الصرح البديع..

كان واضحا أنه مبنى فخم، أكبر بكثير من مجرد مسجد.. وأعتقد أنه سمّي بجامع لأنه يجمع روح مدينة بكل تفاصيلها ونشاطاتها وإبداعاتها.. لم ينسى المعماريون لا الحدائق ولا النوافير ولا كذلك الأسواق والساحات والمكتبات ولا القاعات الفسيحة والمزخرفة، ولا حتى الأبراج والتحصينات.. في البداية صمم قصر الحمراء كمربع: حصن كبير وثمانية قصور بديعة وحديقتان فسيحتان وحي خاص للحاشية الملكية والحرفيين والعطارين والخدم ثم راح يتوسع إلى أن أصبح مركزا بديعا بقلب غرناطة فوق إحدى هضباتها الأكثر روعة.. هنا ابتدع العرب موسيقى الماء، وأعادوا اكتشاف ضوء الشمس والزمن، وانسياب الشعر والآيات القرآنية مع الحجارة المزخرفة.. ورفعوا السلطة إلى مقامات مهيبة وعلى شرفاتها كان ينساب عطر المجد والقوة..

- لو أن كاثوليك إسبانيا يشبهون مسلمي العرب اليوم، لدمروا هذه المعالم الحضارية.

علق إسماعيل وهو يتأمل في السقوف العالية والمزخرفة بالفسيفساء والأعمدة الصلبة، النحيفة والطويلة.. ثم قال:

- أنا الآن لدي قناعة أن حركة الاسترداد كانت حركة ذات نوازع قومية. الدين كان بمثابة محرك لتلك الرغبة القومية.. أما

الذي يحدث عندنا، فإن الدين تحول إلى نزعات مذهبية منغلقة ذات رداء طهوري ولكنه نكوصي..

كان مصعب يستمع إلى إسماعيل السمان. وحاول أن يلتقط خيط الجدل ليرد عليه بما يعتقده صحيحا، فقال:

- أخي إسماعيل، المسلمون العرب صنف آخر من المسلمين..

- هل تقصد أنهم ليسوا بناة حضارة؟

- لا.. أبدا.. لقد تمكنوا من استيعاب حضارات كثيرة وتفننوا في إبداعات كثيرة.. وها هو قصر الحمراء شاهد عليهم.. الذي أقصده أنهم لا يحبون بعضهم ولا يفهمون بعضهم بعضا. هم الآن أيتام بلا مشروع لا إسلامي ولا عربي.

ذهل إسماعيل لكلام مصعب. فقد كان دائما يعتقد بأن هذا الرجل يحمل بين جنباته عقيدة لا تقهر ملخصها أن يعيد مجد الإسلام طبقا لرؤية أمرائه في الدوحة.. وأنه يتنقل بين عدة عواصم في الأسبوع الواحد لا لشيء إلا لكي يشارك في صناعة ذلك المجد.. وبما أنه أصبح يشعر بالتحرر في طرح آرائه، فقد تكلم هذه المرة بصراحته وجوارحه فقال:

- العرب لم يحترمهم التاريخ إلا حين احترموا تاريخ الآخرين.. ولم يصبحوا معلمين لشعوب أخرى إلا حين تعلموا جيدا من الشعوب الأخرى.. فمن الفرس تعلموا فخامة وترف الشرق.. كان اختلاطا بديعا أنتج الحدائق والسجاد والألوان والأقمشة الحريرية والتجارة والهندسة والشعر والأرابيسك.. وقد تعلم العرب كذلك من الإغريق التفكير والفلسفة والترجمة وفنون الحرب والاهتمام

بالطبيعة والبحث في أصول الأشياء.. كذلك تعلموا من بيزنطة فنون الحكم وقيادة الجيوش والإدارة والهندسة.. أما الآن فإنهم لا يريدون أن يتعلموا شيئا.. إذا فكروا في مصنع دواء، جاء من يقنعهم بأن شراء الدواء أسهل. وإذا فكروا في زراعة القمح، وجدوا من يعرض عليهم القمح بسعر أقل.. وإذا فكروا في الديمقراطية، جاءتهم المراكز والمنظمات الدولية لتعرض عليهم آخر منتوجاتها.. وإذا فكروا بالحروب التجأوا إلى تأجير الجيوش الأجنبية أو المرتزقة من الشوارع الخلفية القصديرية.. فهل تقول لي يا سيد مصعب من افسد العرب؟ ومن جعلهم يتقاتلون بلا توقف!.. هل هو الإسلام؟ هل هو النفط؟ هل هو إسرائيل؟ هل هو إيران أو أمريكا. أم كل هؤلاء جميعا مضافا إليهم الفقر والجهل والحسد؟!!

آنذاك وأنا لا زلت على حماسي، حماسي الحموي الذي ورثته عن أبي، اقتربت مني ستيفاني، لتنقذني من ورطة الصدام اللفظي مع مصعب ثم قالت:

- هل رأيت تلك النافورة البديعة.. انظر إنها أمامنا مباشرة.. أريدك أن تلتقط لي صورة وأنا أمامها..

ناولته ايفونها، ثم ابتعدت عنه. وحين أكمل مهمته، قالت له بصوت منخفض:

- خليك مرن كعادتك.. لا تدخل في صدام أو خلاف مع أحد.. خاصة مصعب.. إنه رجل كتوم.. لقد أصبحت أعرفه جيدا.. أظن أن اسمه مصعب لأنه صعب ومتعصب!..

ضحك إسماعيل وهو لا يزال ملتفتا إلى الوراء ثم وعدها بأن

يغلق فمه بقطعة من القماش إن لزم الأمر.

ابتسمت ستيفاني ثم فتحت حقيبتها فسحبت علبة شنغوم، فتحتها ثم قالت:

- خذ هذه العلكة.. إنها مفيدة للسانك..

*** *** ***

خاضت ستيفاني نيكولاس نقاشات طويلة وصعبة البارحة مع السيد مصعب الصراف في جناحه الخاص بفندق «كوستا أورينتال». وعرفت كم هو متمسك بآرائه إلى درجة التعصب. ورغم أنه كان يريد أن يظل ودودا معها إلا أن حماسه الشديد لأفكاره كثيرا ما افسد الود بينهما.. وفي آخر النقاشات حول الكرة والاستثمارات في الفرق الرياضية- تركته وذهبت لتنام لوحدها في غرفتها..

كنت أعرف أن الرياضة وخاصة كرة القدم تتأثر باهتمام لدى الناس وكذلك لدى الدول.. كذلك كنت أعرف أن بلدان الخليج على نحو خاص باتت مهووسة بكرة القدم.. وقد أنفقت أموالا طائلة على هذه الرياضة.. وأن قطر وضعت ميزانيات ضخمة لإنجاح كاس العالم الذي ستدور حربه على أراضيها.. وهي مستعدة أن تفعل أي شيء حتى لا تخسر ذلك الرهان.. كما أنني أتفهم جيدا أن دولة صغيرة مثل قطر عليها أن تنفق الكثير من أموالها لتضخيم قوتها وتحسين صورتها وتحصين مكانتها. أعرف كذلك أن الألعاب الرياضية كثيرا ما اهتم بها الطغاة أكثر من غيرهم وذلك لإلهاء الناس. ومنذ أن نظم هتلر كاس العالم في بلاده حتى هجم كل طغاة العالم على الاهتمام بكرة القدم..

ضحكت مارغريتا مارتيناز ثم أجابت..

- أعرف جوابه.. أليس هو من تركيا!!..

*** *** ***

«بعد انتقالها من أزمير إلى أنقرة، أصبحت لطيفة خانم تفكر في دور الوصيف على نحو جدي. قالت لمصطفى كمال أتاتورك ذات يوم: أنت تناديني بالياور، لكني لا أملك حتى سيفا. ولم تمض ايام قليلة حتى قدم لها القائد أتاتورك علبة صغيرة تحتوي على سيف صغير مصنوع من الذهب والماس يليق بوصيفة هي زوجة القائد»..

كان كمال أتاتورك لا يزال قائدا عسكريا يسكن في مقر القيادة العليا ببيت البستان، وهو الآن يسمى بقصر المتحف.. وكانت لطيفة هي المرأة الوحيدة التي تعيش بين جمهرة من الرجال: وصفاء وحرس وحجاب وخدم وجنود وضباط وسياسيون.. الجميع كان يقرع الأبواب ثم يدخل. وحين يكون مصطفى أتاتورك في غرفة نومه يدخل عليه الياور صالح ليوقظه.. ذات يوم كان الياور صالح يحمل برقيات مستعجلة إلى القائد العام وأراد أن يدخل إلى غرفة نومه، لكن لطيفة منعته وطلبت منه أن يسلمها البرقيات لتقوم هي بإيقاظه.. لكن الياور صالح رفض، خوفا من الباشا.. أثناء النقاش، سمع الياور صالح الباشا يناديه ويقول له: ادخل.. كانت البرقية حول مفاوضات لوزان. وبعد لحظات دخلت لطيفة خانم حاملة طبق القهوة. لاحظ الباشا التوتر على وجه لطيفة فقال للياور صالح: سأنتهي من شرب القهوة وأنزل إلى المكتب..

- ذلك الرجل الذي اسمه الياور صالح هو جدي، يا سيد بلانتيرو.

احتار خوسيه بلانتيرو وارتعب في نفس الوقت.. هل يصدقه ويمضي في سماع قصة هذا الرجل الذي اسمه كريم كروان بك، والذي لا يمكن أن يخطأ اثنان في انتمائه إلى «المافيا التركية». إذا نظرنا إلى هندامه وتسريحة شعره (يضع دائما شارة حمراء «بوشيت» في جيب جاكيته الصغير، ويتركها تتأرجح كما لو أنها ستسقط بعد حين على الأرض ولا ينزع نظارته السوداء حتى إذا جاء الليل.. أما شعره فيقلبه إلى الخلف مصففا ولامعا باستمرار.. وحين يريد أن يتكلم، يحاول أن لا يثرثر. وبما أنه بدين ويعاني من انتفاخ في رجليه، فهو يحمل عصا من الأبنوس المزخرف ويرتدي في أغلب الأحيان أحذية مسطحة ومفلطحة..). هذا فيما يتعلق بالحيرة التي انتابت خوسيه. أما الارتعاب فقد عبر عنه كالتالي:

- لم أعرف إلا الآن، أن مؤسسي «مجموعة هرقل» ينتمون كلهم إلى بيوت عريقة. جدّك كان ياور أتاتورك. وجد مارغريتا كان وزيرا في عهد فرانكو.. وجد الياهو الأول كان رفيقا شريكا لكريستوف كولمبوس.. وجد فؤاد عبدي كان مستشارا في جمهورية مهاباد قبل أن تتبخر من الوجود. وبطبيعة الحال فإن مصعب الصراف لن يكون إلا أميرا متخفيا!!

ضحك كريم كروان وقال:

- في الشرق تبنى الثقة بين الرجال عبر الأجداد قبل الأحفاد..
ثم أكمل قصة جده:

- حين ظهرت لطيفة خانم، تقلصت علاقة جدي بالقايد.. داهمه شعور بالتهميش.. وفي أحد الأيام طلب من أتاتورك إعفاءه..

كان الأكثر حماسا لزواج أتاتورك من لطيفة بعد عودتها من فرنسا. وكانت متحررة بأكثر مما كان يتوقع أتاتورك نفسه.. ورغم خلافه معها، فإنه كان يحبها حب أب لابنته.. ناداه الباشا أتاتورك ذات يوم. هدأ من خواطره ثم اهداه قصرا في أنقرة وبيتا لزوجته الثانية المطلقة في أزمير، وأكثر من مئة هكتار في أضنه.. أضنه هي بلاد أجدادي الأوائل. وأتاتورك كان يعتمد كثيرا على تلك المناطق. فقد خبر شجاعتهم في الحروب وقدرتهم على التحمل وسخاءهم وكرمهم..

أنا ولدت في أنقرة يا سيد بلانتيرو بالقرب من قبر القائد.. أمي زبيده من أزمير وأبي إبراهيم هو ابن صالح كروان الياور الكبير لدى كمال أتاتورك حتى إعلان الجمهورية.. واصل جدي العمل والحياة حتى سنوات السبعين. كنت تقريبا في العاشرة حين توفي.. عاش أكثر من ثمانين عاما. وقد ظلت ذاكرته جيدة.. ورغم أنه اكتسب فائضا من الوزن إلا أنه كان كثير الحركة.. لم أسمعه يوما يقول كلاما سيئا في السيدة لطيفة خانم.. كان فقط يذكر أناقتها وقوة شخصيتها بشيء من النبالة دون تجريح.. سمعته مرة وهو يصفها لأمي كما لو أنه لم يغادر الخدمة: (لطيفة خانم كانت لها عيون سوداء تلتمع من خلال رموشها الطويلة.. ورغم أن عيون القايد خضراء وذات بريق ينبعث منها السحر والقوة، إلا أن القايد كان لا يقوى على رد أي طلب للطيفة خانم حين تنظر في عيونه.. كانت حسناء من أصول شركسية أكثر قوة من زوجة سليمان القانوني.. حين تضحك تضحك بسخاء وصخب.. ينفتح فمها الصغير وتتمايل إلى الخلف لتظهر أسنانها بالكمال

والتناسق الذي تبرزه الإعلانات الخاصة بأصناف معجون الأسنان في الغالب، كانت ترتدي تايارا من الساتان الأسود.. ولم تكن تحجب وجهها بأي نقاب، فهي السيدة الوحيدة التي كانت تفعل ذلك.. وهي تحضر أحيانا مجلس الشعب -البرلمان- ويحيط بها ياوران.. واحد كان اسمه محمود، وهو الياور الخاص لأتاتورك الذي أخذ مكاني.. والياور الخاص بها واسمه رفعت. كانت تحب الخواتم والأساور. ولم يكن اتاتورك ليبخل عليها.. كان آخر هدية حضرت عليها قد جلبها عصمت باشا من لوزان وهو عائد من المفاوضات.. وكانت خاتما من البلاتين كتب عليه اسم القايد كما أوصت بذلك هي بنفسها عبر برقية حررناها معا..)

بعد ذلك تابع كريم بك يقول..

- هكذا ولدت تركيا الحديثة من زواج القايد مع لطيفة خانم.. لم يتركا أبناء، ولكنهما صنعا بلدا جديدا.. فمنذ خمسة قرون لم تظهر أية زوجة لأي سلطان أمام الجمهور.. وفجأة ظهرت لطيفة خانم زوجة القايد والرئيس تقدم الشاي لضيوفها، على صفحات «الواشنطن بوست» و«النيويورك تايمز» و«شيكاغو تايمز» و«لايف» وكذلك صحيفة «مقدام» الإسطمبولية.. بدا الناس يختلفون فيما يرونه.. قال البعض أن تركيا الأمس تموت وحتى إذا لم تمت، فمن المؤكد أن تركيا باتت مختلفة. آخرون استهجنوا المسألة وقالوا عن لطيفة خانم أنها جاسوسة يهودية دستها المخابرات الفرنسية لتقود القايد وتركيا معا من غرفة نومها.. لم يقبل كل الأتراك بتلك النقلة الصادمة.. جعلتهم مذهولين ومغلوبين على أمرهم وسيطر عليهم الشعور بالاضمحلال والضمور.. وكما اذكر

فإن جدي نفسه الذي لا يشق له غبار في حبه للقايد، لم يكن أبدا متكيفا مع تلك المتغيرات. كان يقول أحيانا: إنها أمور شكلية ولكنها خطيرة لأن تركيا العميقة لا بد أن تتحرك ذات يوم..هكذا يا سيّد بلانتيرو، غالبا أو دائما ما ينقادون الأتراك غضبا عنهم إلى حيث يريد قادتهم.

هنا سأله بلانتيرو بخبث:

- قل لي سيد كريم.. هل ترى أنت الفرق بين كمال أتاتورك وبين السلاطين!؟

- شخصيا وبصراحة.. كلاهما كان يحكم من القلعة.. وكلاهما كان يقع تحت سطوة الحريم.. الفرق أن كمال أتاتورك كان مكشوفا.. أي أنه كان يمارس قناعاته على المكشوف.. كان يريد أن يظهر أمام الجمهور كما هو.. كان لا يخاف من الناس والشيوخ والمعارضين وكان يحس أن الجمهور معه لأنه يريد أن يحرره من الماضي الثقيل.. لا تنسى يا سيد بلانتيرو مناخات تلك الحقبة.. هتلر في ألمانيا، ستالين في روسيا، موسوليني في إيطاليا والقاجاري شاه في إيران.. كان على كمال أتاتورك أن يكون بمستوى هؤلاء جميعا..

تابع كريم بك حديثه إلى بلانتيرو.. وكان يريد أن يخفف على مزاجه حتى يقول أن الأتراك لا يعرفون الضحك. فقال له:

- أتركني أمتعك بهذه الحكاية.. رواها لنا جدي صالح. ثم قرأتها بعد ذلك في مذكرات لطيفة خانم:

- كان القائد يريد أن يقوم بجولة داخل البلاد. وقد اختار أن يذهب إلى أضنه في رحلة ستدوم نحو أسبوعين.. الحاشية ضمت

جدي صالح والياور محمود والياور مظفر والياور رفعت مع قائد الكتيبة إسماعيل حقي. إلى جانب وزراء ومستشارين وعدد من الصحفيين. قال الغازي للطيفة: سأعرفك بتركيا لأنك بالكاد تعرفين أزمير وأنقرة. استمر أكثر من يومين حتى وصل القطار إلى أضنه. في كل محطة كان ينزل الغازي ولطيفة وكان الأهالي يقدمون الذبائح بلا تعب، ولكن الغازي كان غالبا ما يلتفت إلى الوراء حين ينهمر الدم. وسألته لطيفة عمّا به، فأجابها بأنه لا يستطيع مشاهدة الدم بعد كل الحروب التي خاضها!. حين وصلوا إلى أضنه، لاحظ الصحفيون وجود نساء كثيرات على أسطح المنازل وعلى الشرفات.. تحمست آنذاك لطيفة وخطبت أمام الرجال والنساء اللاتي يزغردن من فوق السطوح. نزلت بعض النسوة ليحتضن لطيفة وطلبن من القايد استضافة زوجته، فعبس وجهه وقال: حيث لا يمكنني الحضور.. لا يمكنها أيضا..». قال مفتي أضنه آنذاك: أن اصطحاب القايد وزوجته في جولة سياحية لا يتعارض مع الإسلام.. وأن ثيابها طبيعية وأن وجودها أمام الناس يتفق مع مبادئ الشرع.. ولكن كمال أتاتورك لا يمكن أن يبتعد عن أنقرة لمدة أسبوعين ولا يأخذ معه «الباشا كاظم» الملقب «بجحا الباشا». وأحيانا «بضحكة أنقرة»..

(كتبت تشا تشللر نقلا عن مذكرات إسماعيل حبيب، الصحفي الوحيد الذي اختاره الباشا ليكون قريبا منه في مقصورته خلال الرحلة: حكى «الباشا كاظم» على متن القطار نكتة للطيفة خانم جعلتها تضحك لمدة خمس دقائق فمنحته ورقة نقدية بقيمة 25 ليرة.. ومباشرة ذهب إلى القايد في مقصورته وهو يميل على جانبه

كما لو انه مشلول. سأله القايد: ما بك يا كاظم باشا؟ هل أصابك شلل..؟ رد قائلا: الورقة النقدية التي أعطتني إياها لطيفة خانم أخلت بتوازني.. قال القايد: عفارم يا باشا كاظم.. لا بد أن نعالجك وإلا فإنك ستصبح أعرج. فإذا أعطيتك أقل منها لن يعود لك توازنك، وإذا أعطيتك أكثر اختل توازنك مرة أخرى.. أرني الورقة التي في جيبك لأعطيك مثلها.. أخرج كاظم الورقة من جيبه وتقدم ليعطيها للقايد. أخذها القايد أتاتورك منه ثم نهره بجدية أن يقف الآن باستقامة.. ها أنت الآن مستقيما.. ألا ترى أنني عالجتك.. لن تعرج بعد الآن.. ألا تدفع لي أجرتي؟! نادى القايد على لطيفة وقال لها: انظري. لقد خلصته من العرج.. ولم يتمالك القايد نفسه من الضحك ثم أعاد إلى كاظم باشا ورقته النقدية ومعها ورقة أخرى بنفس المقدار..)

هكذا لا يختلف الأمر كثيرا بين ما فعله جحا أتاتورك التركي وجحا بن علي التونسي.. سأل الرئيس احد أصهاره البعيدين واسمه «سي العربي» ذات صيف وهو على طاولة الغداء في مدينة الحمامات..

- سي العربي لا بد أنك تمتعت بالدلاع (البطيخ الأحمر) هذا الموسم.. أخبروني أن الموسم جيد وأن وزن الدلاعة الواحدة قد وصل إلى 25 كلغ.. فرد «سي العربي» متصنعا عفوية إضافية على عفويته الطبيعية فقال:

- سيدي الرئيس.. لا تجعلني أقسم وأقول أنني لم أر دلاعا مفتوحا وأحمر ومشتهى كالذي أراه أمامي الآن إلا على طاولتك الكريمة يا سيدي الرئيس..

تعجب الرئيس وسأله:

- لماذا؟ ألا تحب الدلاع؟

- لا يا سيدي الرئيس.. ولكني أسكن في الطابق الخامس في بناية ليس بها مصعد.. ولا يمكنني أن أحمل معي دلاعة بوزن 20 أو 25 كلغ..

ضحك الرئيس حتى كاد يلطخ قميصه الأبيض بفتات الدلاع الأحمر.. ثم وعده بقطعة أرض لبناء فيلا.

تلك الحكاية روتها ستيفاني لخوسيه بلانتيرو، بعدما استمعت إليه وهو يعيد عليها ما رواه له كريم كروان بك عن جده صالح، الياور الخاص لكمال أتاتورك..

*** *** ***

اكتشف بلانتيرو أن كريم بك يمتلك موهبة فذة في فن القص.. فقد تركه معلقا فوق شفتيه لمدة ساعة دون أن يتوقف. تنزلق الحكاية من فمه بغرور باحثة عن التفاخر ثم تتعرج بك نحو تفاصيل غاية في الملاحظة.. وفي كل مرة تريد منه أن يوصلك إلى محطة، يعاود الظهور في منطقة أخرى أكثر رحابة وأكثر كثافة. تشعر وأنت تستمع إليه وكأنك عدت إلى قرن مضى ولكنه لا يزال مألوفا لدينا جميعا. وفي خضم ذلك لا يعود القايد أو الغازي أتاتورك إلا كبطل مهموم بزوجته لطيفة وبتركيا على وجه العموم.. لا يحب الدماء، ولا يحب الغدر ولا يحب الاغتيالات. وإنما عطوف، دافئ، يحب الضحك والسفر على القطارات. تداخلت حكاية جده مع حكاية الغازي إلى حد يريدني أن أصدق أن الياور صالح كان له

شأن كبير في عالم الحلفاء آنذاك أو أن كمال أتاتورك نفسه كان لا يفعل إلا ما يمليه عليه ضميره أو شعبه.. والمهم أنه توقف عند حد أخلاقي رسمه لنفسه حتى يصدقه الناس إذ يمكن أن يكون الياور صالح جدا لأكثر من كريم.. بمعنى آخر فإن كثيرين مثل كريم بك يروون تلك الحكايات وينسبون أنفسهم للياور مظفر أو الياور رفعت أو الياور محمود.. شخصيا أعرف أكثر من رجل في طنجة وتطوان يتقدم إلي بكل تفاخر وصفاقة ويقول..

- هل أنت إسباني.. أتشرّف.. عمي كان حارسا شخصيا للجنرال فرانكو..

وما إن تتورط معه في سؤال موال، حتى يصنع لك حكاية غاية في الحذق، ثم يعرج بك نحو مواضيع أخرى ليس بإمكاننا أن نكتشف غايتها إلا عند النهاية.. قبل عام استوقفني رجل من أصول عربية في روما، قال إنه فلسطيني، وحين استغرقنا في حديث مشوش وسريع حول قضية شعبه، سحب بطاقة من جيبه وقدم نفسه على أنه أحد أحفاد صلاح الدين الأيوبي.. كتب بخط واضح ومذهب على تلك البطاقة: «الأمير المبجل، أحمد بك الأيوبي. وتحتها بخط صغير، الحفيد المباشر للقايد صلاح الدين».. كثيرون من هذا الصنف الذي يبحث عن المجد في التاريخ البعيد في كل بقاع الأرض.. ثمة منهم من يدفع أموالا كثيرة ليشتري لقبا كبيرا.. هذا يحدث حتى في ألمانيا وفرنسا وإسبانيا.. ولكن أبناء وأحفاد الزعماء الحقيقيين لا يفعلون في الغالب هكذا. يمرون دون أن ننتبه إليهم.. ويبلغون من التواضع إلى حد التصوف.. فمن يعرف أحفاد ديغول أو أحفاد بيسمارك.. أو حتى أبناء ستالين

أو خروتشوف؟ العرب ومعهم الأتراك واليهود لوحدهم يبالغون في تعظيم آبائهم وأجدادهم إلى حد الهوس. مهووسون بالألقاب والصولجان وشجر العائلات كما لو هي ماركة تجارية أو أصل تجاري.. أخيرا قال بلانتيرو لستيفاني كما لو أنه يطلب المغفرة لهؤلاء المساكين..

– مساكين هؤلاء.. ربما يبحثون عن هوية قديمة.. مفقودة أو ضائعة وسط الغبار والدمار..

وافقته ستيفاني وأضافت..

– لو أنهم لا يعيشون مثل هذه الأزمة، لما عادوا إلى الدين في القرن الواحد والعشرين.. انظر جيدا بعد نحو قرن من العلمانية عاد الأتراك إلى الدين.. لا تنسى كذلك اليهود، بعد تطواف كبير داخل الحضارات والثورات والثقافات دام أكثر من ألفي سنة.. عادوا ليعلنوا عن دولتهم اليهودية..

– ولكن يا ستيفاني هؤلاء الذين نتحدث عنهم هم أناس أغنياء، ليسوا قادرين حتى على عد أموالهم وقصورهم وعشيقاتهم.. ثم هم مندمجون في عالم الأموال والتعدد..

– ومع ذلك يمكن أن يكونوا أكثر ضياعا وتشتتا وهشاشة.. المرء يحتاج إلى غير المال.. وكلما كدس الأموال، شعر بفقدان ذلك الذي لا يملكه.. إن مهارات جمع المال توجد حتى لدى اللصوص.. ولكن هؤلاء اللصوص يلزمهم زمن طويل لكي ينسى الناس أنهم كانوا لصوصا.. لذلك تراهم يبحثون عن ألقاب وأصول عريقة وإلى تقديم خدمات وصداقات ومشاريع خيرية لكي يكف الناس

بسرعة عن البحث عن مصدر أموالهم..

- صحيح.. قال بلانتيرو، ثم أضاف:

- حين بدا مراد بيك يتحدث عن جده الياور صالح عن علاقته بالغازي أتاتورك، فرغ ذهني فورا من الصورة النموذجية التي رسمتها لهذا الرجل. أصبحت أراه في الحال أرستقراطيا ونبيلا وعريقا بحيث لم يعد ممكنا أن يتبادر إلى ذهني أن هذا الرجل مافيوزي أو تاجر حشيش عبر أفغانستان أو مهرب نفط من العراق.. لقد نزع صورة ووضع أخرى مكانها.. أو ليست هذه إحدى مهارات السوق!.. إني هنا قد لا أوافقك على «أزمة الهوية» التي تتحدثين عنها إلا باعتبارها طلبا في الانضمام إلى نادي الكبار والمبجلين..

طوال تلك الجلسة المسائية التي قضاياها كل من بلانتيرو وستيفاني حول كاسين من الشاي مع بسكويت خفيف، لم يتجاوز الحديث بينهما نطاق موضوع أزمة الهوية عند شعوب الشرق. في الحقيقة كان بلانتيرو يريد أن يعرف أكثر عن مصعب الصراف ولكنه انتظر أن تفعل ستيفاني ذلك دون أن يسألها حتى لا يبدو متطفلا.. ولكن ستيفاني بذكائها فهمت ذلك جيدا.. وحين قررت القيام رمت برسالتها إلى بلانتيرو حين قالت:

- ثمة رجل آخر لا بد أن أعرفه من يكون..

أو خروتشوف؟ العرب ومعهم الأتراك واليهود لوحدهم يبالغون في تعظيم آبائهم وأجدادهم إلى حد الهوس. مهووسون بالألقاب والصولجان وشجر العائلات كما لو هي ماركة تجارية أو أصل تجاري.. أخيرا قال بلانتيرو لستيفاني كما لو أنه يطلب المغفرة لهؤلاء المساكين..

- مساكين هؤلاء.. ربما يبحثون عن هوية قديمة.. مفقودة أو ضائعة وسط الغبار والدمار..

وافقته ستيفاني وأضافت..

- لو أنهم لا يعيشون مثل هذه الأزمة، لما عادوا إلى الدين في القرن الواحد والعشرين.. انظر جيدا بعد نحو قرن من العلمانية عاد الأتراك إلى الدين.. لا تنسى كذلك اليهود، بعد تطواف كبير داخل الحضارات والثورات والثقافات دام أكثر من ألفي سنة.. عادوا ليعلنوا عن دولتهم اليهودية..

- ولكن يا ستيفاني هؤلاء الذين نتحدث عنهم هم أناس أغنياء، ليسوا قادرين حتى على عد أموالهم وقصورهم وعشيقاتهم.. ثم هم مندمجون في عالم الأموال والتعدد..

- ومع ذلك يمكن أن يكونوا أكثر ضياعا وتشتتا وهشاشة.. المرء يحتاج إلى غير المال.. وكلما كدس الأموال، شعر بفقدان ذلك الذي لا يملكه.. إن مهارات جمع المال توجد حتى لدى اللصوص.. ولكن هؤلاء اللصوص يلزمهم زمن طويل لكي ينسى الناس أنهم كانوا لصوصا.. لذلك تراهم يبحثون عن ألقاب وأصول عريقة وإلى تقديم خدمات وصداقات ومشاريع خيرية لكي يكف الناس

بسرعة عن البحث عن مصدر أموالهم..

- صحيح.. قال بلانتيرو، ثم أضاف:

- حين بدا مراد بيك يتحدث عن جده الياور صالح عن علاقته بالغازي أتاتورك، فرغ ذهني فورا من الصورة النموذجية التي رسمتها لهذا الرجل. أصبحت أراه في الحال أرستقراطيا ونبيلا وعريقا بحيث لم يعد ممكنا أن يتبادر إلى ذهني أن هذا الرجل مافيوزي أو تاجر حشيش عبر أفغانستان أو مهرب نفط من العراق.. لقد نزع صورة ووضع أخرى مكانها.. أو ليست هذه إحدى مهارات السوق!.. إني هنا قد لا أوافقك على «أزمة الهوية» التي تتحدثين عنها إلا باعتبارها طلبا في الانضمام إلى نادي الكبار والمبجلين..

طوال تلك الجلسة المسائية التي قضاياها كل من بلانتيرو وستيفاني حول كاسين من الشاي مع بسكويت خفيف، لم يتجاوز الحديث بينهما نطاق موضوع أزمة الهوية عند شعوب الشرق. في الحقيقة كان بلانتيرو يريد أن يعرف أكثر عن مصعب الصراف ولكنه انتظر أن تفعل ستيفاني ذلك دون أن يسألها حتى لا يبدو متطفلا.. ولكن ستيفاني بذكائها فهمت ذلك جيدا.. وحين قررت القيام رمت برسالتها إلى بلانتيرو حين قالت:

- ثمة رجل آخر لا بد أن أعرفه من يكون..

- ليس هناك أصعب من الأتراك واليهود والإسبان في المفاوضات.. ربما هم يقولون نفس الشيء عني.. نحن أيضا الخليجيون نحب المشي في الرمال طويلا ونقدر على الغوص في البحار عميقا.. كانوا يركضون بسرعة، ولكني كنت متأكدا أنهم سيضطرون إلى انتظاري حتى أصل إلى حيث هم.. كنت أتباطأ كما لو أني أشق الصحراء مشيا إلى حد جعلتهم يقبلون بما طرحته عليهم من فرط فراغ صبرهم..

سألته ستيفاني:

- أعتقد أن كل شيء قد تم كما كنت تتوقع..

- ليس على ذلك النحو.. ولكن يمكن أن أتوقع المزيد في اجتماعنا المقبل بأسطمبول..

كانت ستيفاني تنتظر أن يفصح لها أكثر، لكنه ابتعد عن الغوص في هذه المواضيع إلى ناحية أخرى. قال لها:

- غدا سأسافر مع كريم بك وفؤاد عبدي إلى إسطمبول. سأنتقل معهم لمدة أسبوع من أجل إتمام عقد بيع بيني وبين كريم بك.. أما أنت فستعودين إلى تونس وبعدها نلتقي في إسطمبول.. وسوف أطلعك على مفاجأة.. هذه المرة ستأتين لوحدك بدون إسماعيل.

تابع مصعب كلامه:

- الياهو وبلانتيرو سيعودان على اليخت إلى طنجة.. ثم نرى ما الذي سيحدث..

لم تسأله ستيفاني عن تلك المفاجأة التي سيطلعها عليها في

إسطمبول. لا بل تركت عبارة المفاجأة تمر كما لو لم تسمعها أبدا.. وقد لاحظت أنه أغفل شاهي شهبار من حديثه، فسألته بلا مقدمات:

- وشاهي، هل ستسافر معكم أم مع الياهو إلى طنجة..

أجابها مصعب بسرعة كأنه كان ينتظر ذلك السؤال الذي لا يخرج من حلق ستيفاني إلا إذا دفعته رياح الغيرة!

- شاهي ستبقى في غرناطة.. اتفقا على أن تنظم حفل عرض أزياء في فندق «كوستا أورينتال» بالتعاون مع مارغريتا مارتيناز..

أضاف مصعب:

- لقد رأينا أن نؤجل حفل التوقيع إلى ما بعد التأسيس وإنهاء كل الإجراءات.. وهذا الحفل قد يتخلله حفل عرض أزياء الذي كلفت به شاهي شهبار.. قد يستغرق الأمر نحو شهر أو شهر ونصف.. بعدها سنلتقي جميعا في غرناطة أو في ماربيا..

كان الليل قد انتصف حين هممنا بالانصراف.. دعاني مصعب إلى جولة في الحديقة.. أشعل سيكارا ضخما من نوع تشرشل ثم قال:

- أريد أن أهضم الذي أكلته قبل أن أذهب إلى النوم.. وأضاف:

- لا بد أن تشرشل قد تمشى في هذه الحديقة بالذات.. لقد نام ليلتين في كوستا أورينتال ثم اتجه إلى جبل طارق.. كان ذلك قبل نحو سبعين عاما.. سوف أريك تمثاله الذي رفع في آخر الحديقة.. عند التمثال قال لي مصعب:

- الملك فهد اقترحوا عليه أن يقيموا له تمثالا في حديقة قصره الذي لا يبعد كثيرا من هنا إلا أنه رفض.. لأن التماثيل ممنوعة حسب المذهب الوهابي.. نحن أيضا في قطر لايزال من المتعذر إقامة أي تمثال.. تخلصنا من الوهابية كمنهج سياسي، ولكننا لم نتخلص منها كمذهب ديني!..

استمعت إليه ستيفاني إلى أن أكمل حديثه. ثم قالت:

- هل تعرف أن تشرشل رفض هو أيضا مقابلة فرانكو حين جاء إلى إسبانيا.. ولكنه لم يرفض إقامة تمثال له.. في الحقيقة لست أدري من كان أكثر تطابقا مع نفسه، الملك فهد أم ونستون تشرشل!.

*** *** ***

حين التقى الزعيم الهندي نهرو بالفيلسوف كارل ماركس في العام 2014 في جينيف بمؤتمر دافوس ، كان قد مضى على «ربيع أوروبا» الذي عرف بربيع الأمم نحو قرن ونصف.. ومضى على موت ماركس نحو مئة وعشرون عاما. قال ماركس لنهرو بأدب شديد:

- أراك أخطأت سيد نهرو.. كيف تقول: إذا أردنا أن ننهي الأمية في الهند، فإننا قد ننهي الهند كله.. أعرف كنت تقصد أن تصبح الهند جرداء بلا شجر حين يذهب الشجر إلى مصانع الورق ثم إلى المطابع.. ولكن ها أنت ترى اليوم أن الهنود لم يعودوا أميين بالنسبة نفسها كما كانوا في عهدك بفضل السيليكون والألواح المعدنية..

التفت نهرو إلى مساعده قليلا ثم حدق جيدا في وجه ماركس

وقال له:

- أنت أيضا أخطأت في توقعاتك يا سيّد ماركس.. كنت تعتقد أن الإنتاج سيتضاعف حين تصنع آلات نسيج ضخمة. ولكن ها أنت ترى أن الإنتاج يتضاعف ويتراكم بينما آلات النسيج تصغر وتتضاءل.. لقد كان تفكيرك ميكانيكيا.. كنت تعتقد أن الحجم يقود إلى وفرة الإنتاج..

في الحقيقة، كان خطأ ماركس أفضع من خطأ نهرو. أولا لأنه مفكر رفع إلى مصاف الأنبياء ثم أن ذلك قاده إلى أخطاء ميكانيكية أخرى مثل أن البروليتاريا التي تعمل هي التي عليها أن تحكم وأن وفرة الإنتاج ستؤدي إلى الإشباع وأن وسائل الإنتاج التي طالب بتمليكها للعمال ستظل على حالها، وأن ذلك كله سينهي الاستغلال والاستلاب . إلى هذا كله لم يفكر ماركس في أن الرأسمالية قد تنجز الكثير مما كان يطالب منه، وأكثر مما أنجزته الأنظمة الشيوعية.. لقد فاقت منجزات وإغراءات الرأسمالية كل ما وعدت به الشيوعية!

كان ذلك موضوع إحدى الندوات التي أقيمت على هامش دافوس التي شارك فيها مفكرون ليبراليون وماركسيون من أوروبا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية. كان من بين المحاضرين الأستاذ نجيب سليمان (المصري) وأحد أصدقاء بلانتيرو المختص في الاقتصاد الكمي رفايللو كاستيلو وخبير الاقتصاد الرقمي الأمريكي غابريال ماركثر.. وهذا الثلاثي تعاونوا جيدا في تلك الندوة على تحطيم ما تبقى من الماركسية..

قال الأستاذ نجيب سليمان الذي حضر إلى دافوس مع وفد

رئيس الوزراء باعتباره عميدا جديد لجامعة «طنطا» منذ حوالي سنة.. كانت أمالي كبيرة في الستينات حين كنت لا أزال طالبا.. ظننا أنه بمجرد أن نأتي بمصانع كبيرة من دول الكتلة الإشتراكية يمكن لنا أن نتقدم وننتج أكثر.. كان هناك الحماس وكانت أيضا هناك القيادة ولكن الشيء الذي لم يكن موجودا هو الإنتاج أو الإبداع أو القدرة على التسويق.. أصبحنا أقل استهلاكا لأن قدراتنا الشرائية تقلصت.. جمدت الرواتب. بعد ذلك تقلص الاستهلاك ثم بات الإنتاج ضعيفا.. هذا الركود رأيته في الجزائر وكذلك في أندونيسيا خلال زياراتي لهذه البلدان.. ففي آخر السبعينات كادت هذه البلدان أن تجوع ثم دخلت إلى فخ القروض فوقعت تحت اشتراطات البنوك.. هل تعرفون من الذي تنبأ بسقوط الإمبراطورية السوفياتية في ذلك الوقت؟.. إنه أحد اقتصادي الهند الذي زار موسكو مع انديرا غاندي وهو أحد مستشاريها حين قال لها:

- لا تشتري أي شيء من موسكو الآن.. كل شيء سيصبح خردة بعد نحو عقد أو عقدين..

وفعلا فقد سار الاتحاد السوفياتي نحو الإفلاس لأنه لم يخترع ما يمكن أن يسمى بإستراتيجية الإغراء.. كان ينتج قمحا كثيرا ولكن آليات التوزيع والإيصال كانت ضعيفة.. وآليات التخزين كانت مخربة والبيروقراطية كانت تمسك بالفلاحين كعصا لضرب أي تغيير من شأنه أن يكسر لوبيات الفساد.. وها هي روسيا اليوم رغم تقلص أراضيها الزراعية في أوكرانيا وكازاخستان، أصبحت في خلال عقدين فقط أكبر منتج للقمح.. لقد تفوقت على أمريكا..

لا بسبب الآلات فقط ولكن بسبب إغراءات السوق الحرة..

رفايللو كاستيلو قال: حين تطورت الآلات في أوروبا في البداية، صاحبتها كذلك ثورة في طاقة الفحم وأخرى في الحديد وأخرى في التوزيع والاستهلاك.. وفجأة جاءت النتائج العكسية لهذا التقدم. أصبح كل مئة حائك مثلا في النسيج بلا عمل. وقد يموتون جوعا بسبب تكاثر الآلات.. وبالطبع فإن الإنسان الجائع أو المهدد بالجوع يمكن أن يفعل أي شيء لينقذ حياة عائلته.. دخل العمال في الإضرابات وحلت مآسي بسبب ذلك وهدمت معامل ومصانع كثيرة، ولكن التقدم لم ينته.. يعتقد الماركسيون إلى اليوم أن العمال بطبعهم وموقعهم تقدميون وثوريون ولكن ذلك الجانب كثيرا ما لا يذكرونه. فقد وقفوا ضد ثورات كثيرة وأثبتوا أنهم رجعيون، ومع ذلك لا زال هناك من يطالب بتمليكهم لوسائل الإنتاج.. جاء رأسماليون أذكياء وطرحوا عليهم فكرة التشريك في الملكية بقسط لا يؤهلهم فيه إلى الإضرابات وكذلك بقسط آخر من توزيع الأرباح حتى يظلوا على نشاطهم.. بعد ذلك مكنوهم من قروض صغيرة حين تأتي المناسبات والأعياد، مع ترفيع طفيف في المرتبات لا يتجاوز عتبة نسبة التضخم.. ما الذي حدث آنذاك؟ عاد العمال إلى العمل. وواظبوا على الإنتاج ثم تمتعوا بنسبة في الأرباح وبفرص في الإقراض ولم يعودوا إلى فكرة الإضرابات السلبية.. ظلت النقابات بلا عمل لفترة تقريبا، ثم بدأت تدرك أن مصالحها لا توجد فقط لدى العمال والحرفيين والمهنيين، بل هي توجد أيضا لدى أصحاب رأس المال وأصحاب المصانع والمعامل.. واليوم ها هم لا زالوا في بعض البلدان كما لو

أنهم يعيشون في بريطانيا في مفتتح القرن التاسع عشر، الأمر الذي رفع من نسبة البؤس لدى العمال ولدى أصحاب الأموال على حد سواء.. وحسب رأيي إذا كان هناك من لم يفهم معنى الثورات، هم قادة النقابات في بلدان كثيرة.. فعوض أن ينهمكوا في العمل لتعويض ما فات من زمن وعطالة وبطالة وفساد وتدمير، انهمكوا في إضرابات لا نهاية لها ولا طائل من ورائها.. فهم يدركون أن إغلاق مصنع في بلد ما يجر إلى إغلاق أكثر من مصلحة في البلد نفسه وفي بلدان أخرى. سيتوقف العمل ويفقد العمال مهاراتهم ثم تتوقف البنوك على التمويل، ويهرب الرأسمال إلى مكان آخر، وتتضرر شركات أخرى مختصة في التصدير أو التوزيع ثم يمتد الضرر إلى دوائر أخرى مرئية وغير مرئية دون أن يزداد الإنتاج أو تتحسن الأجور أو يقضى على البطالة.. وإذا حاولت الدولة، أية دولة أن تدخل لفض الاشتباك بين النقابات وأصحاب المال والمصانع، فإنها لا تستطيع أن تفرض رأيها لا على هؤلاء باعتبارهم أثرياء ويستطيعون العيش بلا عمل أو يستطيعون الاستثمار في بلاد أخرى، ولا على النقابات باعتبارها قوة منظمة تهابها الدولة ويمكنها أن تخسر معها المعركة!..

كانت ستيفاني تكتب يوميا من دافوس إلى «وكالة الأناضول» التي انظمت إليها عن طريق كريم بك بتوصية من مصعب الصراف. وكانت تكتفي بعرض بعض المحاضرات دون أن تتدخل في أراء أصحابها.. فلأول مرة تحضر جانبا من هذا العرض الساحر للنظريات والوعود والإعلانات لأفضل الابتكارات وكذلك للنقاشات التي تدور بين مجموعات من السياسيين والخبراء. ولولا

مصعب الصراف الذي دفع لها اشتراكها لمثل هذا الحضور، ربما ما كانت وكالة الأناضول أن تدفع تكاليف حضورها التي تفوق الـ50 ألف دولار..

على أن ستيفاني التي ذهبت لتغطية نشاطات منتدى دافوس وهي متحمسة ومندفعة، قد وجدت نفسها بين الحين والآخر متوترة أو غاضبة أمام تلك الأرقام المتطايرة مثل (أن الولايات المتحدة أنفقت على حربها في العراق ما يكفي لرفع الأمية من العالم وتزويد سكان العالم بمياه نظيفة) أو (أن 1٪ فقط من سكان العالم يملكون نحو 99٪من ثروات العالم).. ففي مقالها الأخير وهي تودع «منتدى دافوس» تساءلت ما إذا كان هؤلاء «الخواجة» يشعرون بأزمات ضمير أم لا حين يطلعون على أرقام الفقر وأرقام مرضى الإيدز وضحايا الحروب وانتشار الإرهاب.. كتبت أيضا بمرارة: إن مجموعة صغيرة من الرجال، حتى لو كانوا من رفاق أو حواري المسيح ليس بمقدورهم أن يرفعوا الظلم على البشرية مهما أضفوا من قداسة ويقينية على إنجيلهم.

مثل تلك الآراء نشرتها وكالة الأناضول في بثها الخاص بالرأي. ولكن مصعب لم تعجبه مثل تلك الآراء لأن الأمير، رئيس وفد قطر قد لاحظ بأن هذه الصحفية الفرنسية المسلمة، كان يمكن أن تكون أكثر لطفا مع منتدى دافوس..

*** *** ***

وصلت تلك الملاحظة إلى ستيفاني بعد حوالي ثلاثة أشهر من منتدى دافوس. فها هي أصبحت تقريبا تسكن بالقرب من فيلا

مصعب الصراف التي يقيم فيها حين يأتي إلى إسطمبول.. وهي فيلا محاذية للدار التي اشتراها من كريم بك بعد عودتهما من غرناطة على إثر التوقيع بالأحرف الأولى على «مجموعة هرقل 21».. اتفقت ستيفاني مع مصعب الصراف أن تصبح مستشارة إعلامية له، على أن لا تقطع عملها مع وكالة الأناضول أو الوكالة العالمية للإعلام المتعدد. وبذلك فقد أصبحت في حاجة إلى شقة قريبة من فيلا مصعب الصراف التي تحولت إلى مكتب استشارات متعدد التخصصات.. تكفل باشكير آغا بالبحث عن شقة صغيرة في منطقة «اياس باشا» بإسطمبول. فلم يمض يومان حتى أبرم عقد الإيجار.. ثم تكفل مراد شمان بتأثيثها في أقل من أسبوع.. وهكذا حين قررت ستيفاني الانتقال من تونس إلى إسطمبول بعد أن رتبت وضع ابنها طارق الذي لا يزيد عن العشر سنوات، ذهبت مباشرة من المطار إلى شقتها: إنها تقع في الطابق الرابع من مبنى «باشاكي أورينتال» المشرف على البوسفور. بها صالون كبير يحتوي على جناح يفتح على البحر يمكن أن يستعمل كمكتب للعمل. وغرفتان ومطبخ وممر جميل مجهز بأدراج ورفوف يمكن أن تضع عليها ستيفاني كتبها وصورها وبطاقات التقدير التي نالتها خلال عملها. حين دخلت ستيفاني إلى شقتها الجديدة شعرت بسعادة فائقة كما لو أنها مقدمة على زواج جديد.. ألقت نظرات سريعة على الصالون والمطبخ وغرفة نومها وهي تمطط شفاهها إعجابا ثم ذهبت مباشرة إلى البلكون لتجد نفسها وجها لوجه مع البحر.. سألت مراد شمان الذي نقلها من المطار إلى الشقة:

- هل أنا أقف الآن أمام البحر الأسود أو البحر الأبيض؟

- أنت الآن تديرين ظهرك لتونس وكذلك لفرنسا..

فهمت ستيفاني أنها تتجه إلى البحر الأسود.. وأن رحلة طويلة أمامها قد بدأت نحو آسيا..

كانت تريد أن تملأ صدرها بهواء جديد ومنعش، وكان المساء يقترب ليلقي ببؤرة المغيب على صفحة البحر. وظلت تراقب ذلك المشهد الذي يبدأ فيه البحر في ابتلاع قرص المغيب رويدا رويدا على نحو حميمي، إلى أن ناداها مراد شمان الواقف على الركن الأيسر من البلكون. ولما اقتربت منه بخطوتين قال لها:

- هناك.. في تلك المنطقة التي لازالت مخصصة للفيلات والبناءات المنخفظة توجد فيلا مصعب الصراف، التي حولها إلى مقر استشارات لشركاته.. إنها ليست بعيدة.. على بعد خمس دقائق فقط مشيا بالأقدام يا مدام ستيفاني.

أضاف مراد شمان يقول:

- لذلك البيت قصة جذابة.. إنه بيت عريق جدا.. لو عرفت الآن قصته، فإنك ستصنعين ريبورتاجا صغيرا عنه في الحال. دغدغ مراد شمان حاسة حب الإطلاع لديها ودفعها إلى سؤال استنكاري محمل بحاسة استطلاع قلما تقع في الخطأ..

- لا تقل لي، أنه كان مسكنا لبولند أجاويد أو لعصمت اينونو.. أو سكنت فيه أغاتا كريستي حين كتبت قطار الشرق السريع.. ليس من حقك أن تخاتل إحساسي!

تمشى شمان نحو الصالون حتى صار قرب الكانابيه.. سمعها

تقول له:

- إجلس. لن تخرج إلا حين أعرف قصة تلك الفيلا..

بدأ مراد يبحث عن مدخل إلى الحكاية ثم تكلم دون عناية كبيرة بترتيب أفكاره فقال:

- قبل نحو تسعين عاما من الآن، كان ذلك، البيت المطل على البوسفور، بمثابة المقر العام لحكم تركيا الكمالية. وها هو الآن يصبح مقرا لصناعة قرارات كبيرة للشرق الأوسط كله في عهد تركيا الأردوغانية.. تلك الفيلا هي بالأحرى قصر. إنها تبدو لي كما لو أن حجرها الأساسي قد وضع إلى جانب حجر البركة..

قبل فترة قصيرة كانت من ملكية كريم بك.. والآن فهي من ملكية مصعب بك.. ولكن قبل ذلك بنحو 90 عاما كانت سكنا للطيفة خانم، مطلقة القايد أتاتورك، قال مراد شمان أيضا دون أن يبدو عليه التشكك في معلوماته، أن كريم بك اشتراه قبل نحو ثلاث سنوات فقط من أحد أحفاد «آل أوشاكي زاده».. وأعتقد أنه ابن المنجي شقيق لطيفة الذي آل إليه البيت بعد وفاة الأب معمر.

أجلت ستيفاني سؤالها (لماذا اضطر كريم بك إلى بيع هذه التحفة الأثرية) ثم طالبته بأن يبقى في إطار الحكاية التاريخية.. فعاد يقول:

- يبدو أن الأب معمر أوشاكي اشترى ذلك البيت ليسكن فيه مع عائلته بعد طلاق ابنته من كمال أتاتورك.. قيل آنذاك أن سبب الطلاق هو عدم إنجابها لطفل.. ثم تأكد فيما بعد أن أتاتورك لا ينجب.. وقيل أنها ارتبطت بعلاقة عاطفية مع أحد الكتاب المشهورين «اميل لودفيغ» لم يتمكن أتاتورك من اكتشافها إلا

بعد الزواج حين سافرت إلى براغ والتقت معه خفية.. هذا الرجل عرف تركيا جيدا في بداية القرن العشرين وكتب عن الحرب العالمية الأولى ثم تفرغ إلى كتابة السير الذاتية لزعماء كثيرين.. وفي اعتقادي أن هذا كله غير مؤكد. فالمؤكد أن لودفيغ تعرف على لطيفة وهي متزوجة. وحين طلقت عادا فالتقيا، ولكن باسم آخر هو فاطمة صادق.. المهم بعد الطلاق لم يعد ممكنا لا للطيفة خانم ولا لأبيها معمر ولا حتى لأخواتها أو إخوتها أن يبقوا في أزمير.. آنذاك قرر الأب معمر بك زادة أن يشتري منزلا بطوابق أربع في «أياس باشا» في إسطمبول. وفي ذلك البيت.. وفي الطابق الرابع منه سكنت لطيفة خانم..

(يا إلهي.. ما هذا التشابه.. لطيفة خانم في الطابق الرابع بعد طلاقها.. وبعد نحو قرن تأتي ستيفاني وهي مطلقة لتسكن في الطابق الرابع في المبنى المجاور). ذلك ما خطر في ذهن ستيفاني وهي تترقب بقية القصة، آنذاك القت بسؤالها المؤجل:

- ولما اضطر كريم بك إلى بيعه بعد ثلاث سنوات.؟

قال مراد شمان:

- اشتراه.. أدخل عليه إصلاحات كبيرة. أقام فيه عرس ابنه كمال ثم باعه.. لنقل أن كريم بك صياد صفقات. اشتراه بعد أن ربح عدة ملايين في نقل البترول الخام من كردستان إلى تركيا.. ثم باعه مقابل صفقة أخرى مع تنظيم داعش بترتيب من قطر.. (لم يذكر مراد شمان نوع الصفقة الثانية، ولكن ستيفاني خمنت أن تكون أيضا في تهريب النفط) وحين سألته عن نوع تلك الصفقة، أجاب بسرعة:

- المهم تم نقل البيت إلى ملكية مصعب بك ضمن تسويات ومفاهمات كبيرة تتعلق بشراء الأسلحة وتهريب صهاريج النفط وإطلاق سراح بعض الأسرى الأتراك لدى إحدى التنظيمات التابعة لقطر.. وأعتقد أنه تنظيم النصرة.. باختصار، دارت مفاوضات كبيرة في أكثر من مكان ثم استقرت في ذلك البيت الذي سيظل دائما يعرف بقصر «آل أوشاكي»، حتى وإن أصبح تابعا لمصعب بك..

أحست ستيفاني بشيء من الغيرة لدى مراد شمان، فهمتها على أنها نوع من الاعتزاز والفخر بتركيته.. فسألته ما إذا كان زار البيت قبل إدخال الإصلاحات عليه، تكلم كما لو أنه يتألم على مجد قد ضاع..

- حين اشتراه كريم بك كان لايزال على أبهته القديمة حتى وإن بدت عليه بعض أثار الزمن والإهمال.. كانت لذلك البيت العريق بوابة حديقة رائعة ومرآب سيارات يدخل إليه من أحد الأبواب السفلية. لم يكن الباب الرئيسي للبيت من جهة البحر كما هو الآن، بل كان من جهة البر، يصعد إليه عبر ثلاث درجات.. أتذكر زجاج النوافذ المطلي والمزركش برسومات بديعة وملونة.. وإذا فتحت هذه النوافذ، ظهرت أمامك طبقة ثانية من الزجاج حماية من البرد. كان بيتا مهيبا. في مدخله رواق كبير يؤدي إلى تفرعات الطوابق. وهذا الرواق يعلوه بابان كبيران. كل منهما على دفتين. أحدهما يؤدي إلى قاعة الطعام على اليمين ويؤدي الثاني إلى الدرج المنحدر نحو المطبخ. والثاني يؤدي إلى قاعات الجلوس والاستقبال.. وهناك تجدين نفسك، وقد أصبح قصر «توب كابي»

الشهير ثم المضيق بكامله إلى الأسفل. على جدران تلك القاعات، علقت ثروة من اللوحات الزيتية لأشهر الرسامين في تركيا وإيران وكذلك في فرنسا.. ثم ترين ثريات الكريستال وهي تتأرجح فوق رأسك مثل التيجان.. وعند طرفي الدرج، كانت لاتزال تماثيل من البرونز قد اصطفت لنساء عاريات وهن يحملن المشاعل.. كشفت لنا أوراق الملكية وخارطة البيت أن ثريات الكريستال اشتريت في العشرينات من براغ وأن تماثيل البرونز قد نحتها فنانون من نابولي، وأن أثاث البيت قد جلب من باريس وهو من عهد نابليون الثالث، وأن الأبواب قد تم نقشها في أزمير. وأن المرايا التي علقت على جدران المدخل قد صنعت في باريس وأن السجاد الذي كان لا يزال على حالة جيدة، قد تم جلبه من أضنه وكذلك من أصفهان وتبريز وسمرقند.. كانت السقوف عالية ولاتزال حتى الآن.. وكان يتم الصعود، قبل أن يضاف إليه الآن مصعد كهربائي، إلى الطوابق الطويلة الثلاثة من كوريدور طويل في آخره درج مزدوج فرش بسجادات رمادية وحمراء صنعت في أوشاك.. الموطن الأصلي لعائلة أوشاكي زاده..

فجأة سألته ستيفاني:

- أوشاكي زاده هذا.. هل هو من أصل فارسي؟

- قد يكون.. لا أعرف بالضبط.. إنما هو متحدر من مدينة أوشاك التي تقع بالقرب من بحر أيجه، ويعتبر ميناء أزمير ميناء كل منطقة أوشاك.. وبما أن أجناسا كثيرة، وخاصة التجار، قد سكنت تلك المنطقة، فمن المحتمل أن يكون معمر بيك من أصول فارسية خاصة وأن اباه كما أذكر حسب عقود الملكية يسمى إسماعيل.

وهذا الاسم يوجد بكثرة في إيران.. ثم أضاف محذرا وهو يبتسم:

- لو ثبت أن الأب معمر فارسي، فإن ذلك قد يعني أن لطيفة خانم من أصول فارسية وليست تركية.. وربما كانت شيعية لا سنية!.. ثم أضاف مبتسما:

- لا.. لا يهم ذلك كله.. كمال باشا أتاتورك لم يكن متدينا ولم يكن يعنيه الدين..

بعد ذلك عاد إلى تاريخ ذلك البيت، فتابع يقول:

- هذا البيت بني أساسا للسيدة -صيحة خانم- وهي حفيدة نامق باشا الذي تقلب في وزارات خمسة سلاطين على التوالي. وقد باعه أحد أحفاد نامق باشا إلى أحد الفرنسيين الأرستقراطيين الأغنياء، وكان اسمه مسيو «جورج دي بولونجيه». وهذا الأخير باعه لمعمر بيك زاده الذي ظل يعرف بصهر الغازي. أما ما علاقة معمر بيك بمسيو جورج، فأعتقد أنها تعود إلى أيام الدراسة لبناته الثلاثة في باريس.. كانت لطيفة ومعها كل من وجيهة ورقية قد تلقين تعليمهن في فرنسا. وكان الفرنسيون قد تعرفوا على هؤلاء الشقيقات الثلاث خلال الحرب العالمية الأولى. كانوا يسمون كما تذكر الكتب رقية «بالآنسة جمال» ووجيهة بالآنسة ظرافة (grâce). أما لطيفة فيدعونها بالآنسة ذكاء.. تعلمن الفرنسية جيدا وربما يكن تعرفن على عائلة جورج دي بولونجيه في باريس.. وربما أيضا من هناك قالت الدعاية العثمانية، أن كمال أتاتورك قد تزوج من امرأة دستها له المخابرات الفرنسية..

حين أكمل مراد شمان حكاية البيت الذي اشتراه مصعب بيك

القطري، سألته بعيون مفتوحة:

- وأنت ماذا تفعل.. ما هو عملك يا سيد مراد (آنذاك فقط تذكرت أن زوجها السابق اسمه مراد. وأن هذا الاسم لايزال له مفعوله السحري على كيانها).

- أنا أعمل نادل في مقهى ومطعم على البوسفور. لست بعيدا من هنا.. ولدي أعمال أخرى مع كريم بك ومصعب بك حين يكونا في إسطمبول..

استغربت ستيفاني أن يكون نادل يملك كل هذه المعرفة التاريخية وهذه الذاكرة الدقيقة. ثم هذه الثقة الكبيرة التي يحظى بها لدى كريم بك ومصعب بك وهما من أغنياء الشرق الأوسط، ولكنها لم تكشف عن استغرابها.. فالتفتت إليه قائلة:

- ألا يوجد شيء نشربه في هذه الشقة يا سيد مراد.. أنت لاتزال صاحبها. وبداية من الغد سأكون أنا صاحبتها..

قام مراد فورا واتجه نحو المطبخ وهو يقول:

- كل شيء موجود.. كل أنواع المشروبات.. أما الأكل فيوجد تحت هذه العمارة أكثر من مطعم.. يمكنني أن أطلب لك أكلا إذا كنت جائعة..

بعد أقل من دقيقة عاد بكأسين ومفتاح وزجاجتي ماء غازيتين بين يديه ثم وضع كل شيء أمامها وقال:

- أنا سأشرب هذه الزجاجة. وأنت أيضا لك هذه الزجاجة..

وبعد أن فتحهما قال:

- لنبدأ بالماء.. الماء الطاهر هو صابون القلوب والمودة..

ثم قال:

- حين أخرج من هذا البيت، ارمي ورائي حفنة من الملح..

سألته باستغراب:

- لماذا الملح..

فقال لها:

- حتى لا أعود ثانية إلى هذا البيت.. تلك عادات أهلنا..

- وإذا أردنا من الشخص أن يعود.. ماذا نرمي وراءه؟ سألت ستيفاني، فأجاب مراد:

- في هذه الحالة لا نغلق وراءه الباب. بل نترك الشخص المغادر يسحب الباب خلفه بيده..

كان مراد يتحدث العربية بلهجة شامية.. ظننت أنه من سوريا، سألته: كيف يتحدث العربية بشكل جيد وهو تركي، فأجاب بسرعة: أمي من أصول عربية. من لواء الإسكندرون. أما أبي فهو من أضنه. إنه قريب من كريم بك.. أبي أيضا يتكلم العربية لأنه عمل طويلا كتاجر بين حلب وأضنه..

وحين أراد مراد أن ينصرف، استأذن، فقامت ستيفاني لتصاحبه إلى حدّ الباب.. سلم عليها مودعا بكلمات تركية وعربية فقال:

- تشكراتي ستيفاني خانم.. تمام.. إن شاء الله كله تمام..

بعد ذلك تركته يسحب الباب بيديه. وحين انغلق الباب أحكمت إغلاقه بمفتاح التأمين ثم عادت تتجول في الشقة وهي

تفكر فيما قاله جان بول سارتر مرة بأن بوسع المرء استخلاص الفلسفة من منفضة الدخان حين نذهب إلى ألمانيا.. وها أنا في إسطمبول ويمكنني استخلاص حكمة التاريخ حتى من تجار الدماء.. ولم يمض ربع ساعة حتى رن جرس الباب.. ثم رن جرس الهاتف وهو يقول لي:

- أنا مراد افتحي الباب..

حين فتحت الباب، ناولني علبة كرتونية مربعة وهو يقول:

- هذه بيتزا من مطعم «البيتزا هوت».. تصبحين على خير ستيفاني خانم..

وكالعادة، تركته يسحب الباب بيده.. عسى أن يعود ذات يوم..

*** *** ***

حين توجهت ستيفاني إلى فيلا «آل أوشاكي» في صباح اليوم التالي لتباشر عملها الجديد كمستشارة للشيخ مصعب الصراف، كانت لاتزال ممتلئة بتلك الحكاية التي رواها لها مساء أمس مراد شمان.. استقبلها عند الباب «باشكير آغا»، أحد مساعدي مصعب الصراف وكريم كروان بك.. ثم قادها إلى مكتبها في الطابق الأول.. وقبل أن تفحص مكتبها جيدا طلبت من باشكير آغا أن تقوم بجولة داخل الفيلا.. عادا إلى رواق المدخل الكبير.. ثم بدأت تتأمل في مجموعة الصور الفوتوغرافية المعلقة على الجدران والموضوعة داخل كادرات مذهبة ومزخرفة.. عرفت من خلال قراءاتها لعناوين الصور، أن مراد شمان كان دقيقا في عرضه لتاريخ هذا القصر.. ها هي صور جورج دي بولنجيه معلقة على المدخل

مباشرة بشاربين يشبهان شاربي جورج كليمنصو.. ثم ها هو نامق باشا يقف بعصاه ويحيط به ثلاثة من أبنائه.. ثم ها هي عائلة معمر بيك أوشاكي وهي تحيط بالقايد أتاتورك.. كان معمر بيك يرتدي بدلة بيضاء كروازيه وحذاء أبيض موكاسان. وخلفه تظهر وجيهة بتايرها الأبيض وهي تشد خصرها بحزام داكن ليس بلون الحذاء الأبيض والمكعب ثم تظهر لطيفة بنصف قامتها مرتدية روبا اسود يصل إلى كعبها ليظهر حذاء أسود مشدودا بخيوط سوداء.. وفي الوسط ما بين معمر وكمال أتاتورك تقف ام البنات لتأخذ مساحة كبيرة نظرا لامتلائها خاصة بداية مما تحت خصرها، فتبدو في روبها الأسود الفضفاض وبقصة شعرها القصيرة كموديل لنساء العشرينات المتحررات ثم بحذائها المكعب، كأنها مصارعة أو حاملة أثقال من الوزن الثقيل.. وإلى جانبها يقف الغازي ببدلته السوداء المفتوحة على جيليه أبيض دس بداخله ربطة عنقه ثم وقف كما يقف الممثل كلينودستوت، فاتحا ساقيه ومبرزا حذاءه الموكاسان، رافعا رأسه إلى الأعلى وواضعا يديه خلفه.. أما في طرف الصورة فتقف إلى جانبه أخت لطيفة خانم، رقية التي توصف بآنسة الجمال.. حقا إنها منعشة بفستانها الفضفاض الأسود وبوجهها الصبوح. إنها تشبه غريس في عز شبابها حين تزوجت أمير موناكو.. التقطت هذه الصورة في بداية الثلاثينات في1930، أي بعد طلاق لطيفة من أتاتورك ببضعة سنوات.. وهذا الأمر واضح جدا لأن لطيفة لم تكن تقف إلى جانب أتاتورك كما تفعل عادة حين كانت زوجته وحين كانت لاتزال خطيبته.. ثم أن توقيع المصورة الألمانية التي التقطت تلك الصورة وهي «ليني

ريفنستاهل» لم تزر تركيا قبل ذلك العام.. إذن تفيد الصورة بأنها زيارة مجاملة قام بها أتاتورك لبيت آل أوشاكي بعد الطلاق بنحو عامين.. برزت الفوتوغرافية ليني ريفنستاهل في البداية كراقصة ثم كممثلة سينمائية ثم كمخرجة ومصورة فوتوغرافية.. جسدت هذه الفنانة الشابة والفاتنة بالنسبة لهتلر رمز الجيل الجديد الذي سيجتاح العالم باسم ألمانيا الجديدة والنازية.. استدعاها الفوهور بعد أن تأثر بفيلمها الذي ظهرت فيه كفتاة متوحشة تدخل إلى الكهف تبحث عن جذورها ثم تخرج نحو الجبال لتتزحلق على الثلوج، وهي تقفز في الأعالي فتبدو كنسر جديد أبيض اللون. لم تتحدث «ليني» في مذكراتها عما دار بينها وبين هتلر خلال لقاء دام ساعتين، ولكن كثيرين تحدثوا عن علاقة غرامية بينهما.. ثم قرر أن يضمها إلى قسم التصوير والدعاية الخاص به شخصيا.. سافرت معه إلى بلدان كثيرة وركبت معه في الطائرة أثناء عواصف خطيرة.. وقدمها ذات مرة إلى صديقه كمال أتاتورك قائلا له:

- هذه فنانة رائعة يا سيد الباشا، لكنها لا تحبني..

ضحك هتلر وأتاتورك ضحكة عالية ثم وقف جنبا إلى جنب أمام سيارة المرسيدس التي لاتزال إلى الآن واقفة في ضريح كمال أتاتورك. بعد ذلك التقطت ليني ريفنستاهل لهما أكثر من صورة. تعرضت هذه الفنانة لأكثر من محاولة اغتيال. واحدة منها في إسطمبول. وتعرضت طائرتها للسقوط في إفريقيا ببلاد النوبة أثناء تصوير فيلم لها فنجت من الموت بأعجوبة.. عاشت أكثر من مئة عام ولم تبدي ندما أبدا لأنها كانت صديقة لهتلر ونالت هدايا من موسليني والتقطت صورا للغازي أتاتورك.. وفي آخر حوار معها في

قناة «أرتي» الألمانية.. قالت: «هايدغر أيضا كان معجبا بهتلر.. ما الغرابة في الأمر..»

ليس ذلك ما اثار ستيفاني، وهي تتذكر «ليني ريفنستاهل» كما لو أنها تبحث عن مبررات لوجودها أو لعملها الجديد في فيلا آل أوشاكي مع رجال مولعين بالأعمال والدسائس ومغامرين وتحوم فوق رؤوسهم مئات الشبهات.. فالذي أثار دهشتها فعلا هو تلك الصورة الضخمة المعلقة في مكتب باشكير آغا.. إنها الممثلة الخلاسية الساحرة والأفرو/ آسيوية «هال بيري» وهي ترقص بخفة بقطعتين من القماش الأسود تتشابكان عند الخصر بخيطين أبيضين يتدحرجان حتى مستوى حوضها، حيث ينكشف الجزء الأعلى من فخذيها من فتحة تنورتها الأمامية، وهي تتلوى بكعب عال كأنها ساندريلا.. انتبه باشكير آغا إلى ستيفاني وهي تحدق في صورة الممثلة «هال بيري»، فلم ير مانعا من أن يسألها فقال:

- هل أعجبتك «هال بيري»؟

- إنها مزيج رائع من الأنوثة والرقة والرشاقة واللون. ثم أضافت:

- شاهدت فيلما لها منذ عدة سنوات، أعتقد أنه يتحدث عن الكراهية والعنصرية. وقد فازت عنه بالأوسكار.

قال باشكير:

- وهذه اللقطة مأخوذة عن ذلك الفيلم.. «في ظل الكراهية»، ولكن سأقول لك شيئا ربما لا تصدقيه عن هال..

بلع ريقه كما لو انه يستعد لإطلاق كذبة ثم تكلم:

- هذه ابنة خالتي. خالتي قوقازية من الشيشان، سافرت إلى

أمريكا منذ بداية السبعين. وتزوجت أمريكيا زنجيا وأنجبت منه «هال» و«ايرام». العالم صغير يا مدام ستيفاني. نحن القوقازيون إما أن نحارب أو نسافر!!.

- هل أنت من غروزني يا باشكير؟

سألته ستيفاني، فأجاب:

- نعم من غروزني.. جئنا إلى هنا. إلى إسطمبول في أواخر التسعينات. لم يكن عمري آنذاك يزيد عن 13 أو 14عاما.. بعد نحو ثلاث سنوات وحين انتهت الحرب، عدنا إلى هناك.. وقبل نحو خمسة سنوات، عدت إلى إسطمبول.. لوحدي.. لم أتلاءم أبدا مع الوضع الجديد لغروزني.. أصبحت مدينة غريبة عنا.. امتلأت بالروس أكثر مما كانت عليه زمن الاتحاد السوفياتي.. خسر الشيشان الحرب أمام الروس.. ولكن الشيشان لا ينسون هزائمهم أبدا.. سوف يعودون من قمم الجبال ومن وراء الوديان كالغزاة لبلدهم ذات يوم..

كان باشكير آغا يتحدث بيقينية مفزعة.. رايته في تلك اللحظة يريد الابتعاد عن الحديث عن أهله، فقلت له:

- هل نواصل الجولة داخل بيت آل أوشاكي..

في تلك اللحظة، التفتنا معا للوراء لكي نتقدم، فإذا بي أجد نفسي وجها لوجه مع مصعب الصراف.. كان قد وصل لتوه إلى مكتبه، ثم نزل يبحث عني بعد أن أخبروه بقدومي. لم يتأخر كثيرا، بعد أن سلم علي بحرارة، في أن يقول لي:

- تعالي، سأقدمك لزملائك، ثم نصعد إلى مكتبي لنتحدث في

موضوع هام.

سرت بمحاذاته وأنا أحاول ألا ألتصق به. قال لي:

- هذا البيت يوجد به خليط عجيب من الأجناس والعرقيات والأديان والثقافات. ما نريد أن نصنعه معا هو ما نطمح إليه جميعا. لم يفصح كعادته. قلت في خاطري هذا الرجل بدا يفزعني. ولا أجد نفسي إلا مستسلمة له.. حتى الأسئلة الصغيرة والذكية غالبا ما تتبخر من ذهني حين أكون معه. ثم رايته يفتح بابا من دفتين.. وقال:

- هذا المكتب هو مكتب شاهي شهبار.

حين دخلت لم أر أي شخص: لا شاهي ولا غيرها، فقال:

- شاهي لا زالت في غرناطة، ستعود ربما بعد أسبوعين..

انتحى يسارا وأنا أتبعه ثم قال:

- الآن سندخل إلى مكتب شخص لا تعرفينه حتى الآن.. وبعد طرقات صغيرة، فتح الباب، فدخل ثم دخلت خلفه.. في الحين رأيت رجلا يقفز بسرعة ليصبح أمامنا في أقل من خطوتين. عانق مصعب الصراف ثم سلم علي باليد وراح يدعونا إلى الجلوس، لكن مصعب قاطعه قائلا:

- لا يا أبو منذر.. مجرد زيارة. السيدة ستيفاني مستشارتي الإعلامية تريد التعرف على فريق عملنا فقط..

أضاف يقول لي:

- لو سألتني ما اسم أبو منذر الحقيقي، فسأقسم لك أنني لا أعرفه.. ثم أطلق ضحكة.. بعدها سمعت ذلك الرجل الطويل

والبشوش يقول:

-أنا علي أبو منذر يا شيخ..

-مرحبا بك.. أبو منذر.. ثم تابع..

- إنه مدير المشتريات لدينا.. وكذلك مدير المخازن.. لا أحد يفلت من رقابة أبو منذر حتى لو كان فأرا..

بعد ذلك قادني إلى جناح آخر به عدة غرف.. طرق باب الغرفة الأولى ثم دخل لوحده بعد دقيقتين خرج ومعه سيدة شقراء مبتسمة ومرحبة.. قال لي..

- هذه السيدة مرام حسن.. من سوريا.... وبالتحديد من حلب.. مسؤولة عن جمعية لحماية الأطفال من الحرب..

قبلتني مرام ثلاث قبلات كما يفعل أهل الشام، ثم طلب منها مصعب أن تنادي على زميلاتها للتعرف علي..

خرجت سلمى فقال مصعب:

- هذه تونسية.. إنها تعمل مع مرام في الجمعية..

أضافت سلمى:

- وأتابع أيضا أعمال السيد كريم كروان مع شاهي.. ثم قالت لي مباشرة..

- أظن أنني أعرفك يا مدام.

- اين وكيف؟

قالت:

- في التلفزيون.. كنت تظهرين قبل فترة كمحللة أو معلقة سياسية في بعض البرامج بالقنوات التونسية..

- نعم. هذا حدث عدة مرات.. وإذن نحن أصدقاء قبل أن نتصافح.

- كنت من المعجبات بك في البداية.. ثم هبط مستوى اهتمامي بالتلفزيونات عامة..

قاطعها مصعب قائلا لي مرحبا:

- وهذا حبيب رودباري.. ها هو وصل الآن.. إنه صحفي تركي متخصص في الريبورتاجات بالمناطق الساخنة.. قبل أسبوع فقط، عاد من «كوباني» بريبورتاج تناقلته معظم الصحافة العالمية.. يعمل بصحيفة «جمهوريات» التركية.. ويعمل معنا في مهمات خاصة..

بعد ذلك انظم إلينا إسماعيل السمان الذي انتقل من قبلي من القاهرة إلى إسطمبول بعدما أغلق مكتب الجزيرة وتقلص عدد العاملين به.. ومعه السيد فؤاد عبدي الذي سلم علي بحرارة ثم سألني عن أخبار خوسيه بلانتيرو ثم قال:

- لا ينقصنا هنا إلا السيد بلانتيرو.. إنه رجل عالم ومهذب ومتواضع.. لقد أحببت فعلا ذلك الرجل..

قلت لفؤاد عبدي:

- هناك رجل آخر ليس معنا الآن هو الياهو دانيال..

قاطعنا مصعب كالعادة وهو يقول لي:

- وها هي السيدة سما عبد الصمد قد وصلت..

سألها مصعب في الحين:

- كيف عرفت أننا هنا.

ردت بسرعة:

- وكيف يمكنني أن أعمل في شركة الغوغل إذا كنت غير قادرة على تحديد مكانكم.. ألا تعرف يا سيد مصعب أن إحدى تطبيقاتنا الأكثر إثارة هي الجيولوكاليزيسن (تحديد المكان)؟

قال مصعب وهو يرحب بها على نحو مبتهج:

- أهلا بالأميرة..

ثم أضاف:

- مدام عبد الصمد.. هذه مدام ستيفاني، مستشارتي الإعلامية الجديدة.. فرنسية وعربية في نفس الوقت..

ثم التفت إلي وقال:

- وهذه مدام سمى عبد الصمد خبيرة لدى شركة غوغل ومتخصصة في البرمجة والتطبيقات.. تقيم في قبرص وهي مدير تنفيذي في المركز الإقليمي بقبرص، لكنها حاليا تفكر في مشروع آخر..

بعد قليل من الوقت استغرقه في الابتسامات ومصافحة الزملاء وهم يعودون إلى مكاتبهم، قال لي:

- الآن سنصعد إلى مكتبي وستصعد معنا السيدة سمى. لدينا اجتماع مع كريم بك والشيخ رشدي العطار..

*** *** ***

لكي أقرب لكم الصورة، يشبه مصعب الصراف في تفاصيل وجهه وضحكته البشوشة وشنباته الخفيفة، وزير خارجية بلاده حمد بن جاسم آل ثاني، لكنه أقصر منه بمقدار ثلث متر.. فمصعب الذي لا يتجاوز المتر وستين سنتم يبدو بدينا مع أنه ليس كذلك. إنه ممتلئ إلى حد ما. وعضلاته لاتزال مشدودة وحتى بطنه لا يبدو لا بارزا ولا منتفخا.. لذلك غالبا ما يعوض عن قصر قامته بلباس حذاء مرتفع. وتبرز إحدى مواهب مصعب في أنه رجل رغم ثروته الكبيرة، فإنه يبدو دائما متواضعا وقريبا من الذين يعملون معه، لكن لديه عيوب كثيرة يعرفها أناس مقربون منه، وأخرى لا يعرفها إلا من اقتربوا منه أكثر.. يأكل بسرعة ويلتهم الطعام دون أن يمضغه.. يرتدي قمصانا مشجرة ويصر على ربطة العنق أن تكون ملونة أيضا.. يطارد النساء ثم يتركهن حين يصبحن ناضجات وجاهزات.. يختفي عن الأنظار دون استئذان ويغير من أرقامه فورا فلا يعود ممكنا العثور عليه.. وثمة شيء آخر أعرفه عنه شخصيا، انه كثير الشخير عندما ينام.. وتنتابه بعض الهلوسات أو الكوابيس من حين لآخر.. توجد الحياة كلها في طرف لسانه وفي حساباته البنكية، لا يعير للعلاقات العاطفية أي اهتمام كبير.. كل شيء يبدأ وينتهي عند غزوة أو غزوتين.. لياقته البدنية جيدة ومع ذلك فهو ضعيف الأداء وبارد الأحاسيس، ولا يملأ قلبه إلا الحديث عن الصفقات والأعمال. قال لي عدة مرات أنه يحب زوجته لكنه يستعين عليها بالسفر والغيابات الطويلة.. فالزواج لم يكن لديه إلا بمثابة محطة صغيرة توقف

بها ذات يوم ثمّ تجاوزها.. عاش مع الزواج انكماشات صادمة ولم ينفتح مجددا عن النساء إلا حين عاش في المغرب. هناك بدأ يولد من جديد.. ولكن حين ولد رأى نفسه فوق الحب بشكل صارم.. بعد ذلك اتجه إلى أمريكا فرأى حياة أخرى ولكنه لم يندمج فيها تماما، قال لي: نحن أبناء الخليج نشبه نساءنا.. ما إن نصل إلى أوروبا أو أمريكا حتى ننزع عباءاتنا ونرميها جانبا. وحين يأتي وقت العودة نعود لننظفها ونكويها ثم نرتديها لننزل بها متبخترين في مطارات جدة والدوحة والرياض والمنامة.. أكمل تعليمه في جامعة كولومبيا، قسم التجارة والإدارة والأعمال. تخصص في قسم إدارة الأزمات. وحين عاد إلى الدوحة، وجد أن بلاده قد تحولت إلى قوة عظمى في البناء والجسور والبنى التحتية.. شعر بالفخر لأن ما رآه في أمريكا وهو نتاج قرون من العمل قد رأى ما يشبهه في بلاده وقد تم خلال عقد فقط من الزمن.. عائلته تنتمي إلى أكبر العائلات المرتبطة بشرق السعودية. وله أبناء عمومة موجودون كذلك في البحرين، لذلك لم يجد صعوبة في الانطلاق: بلد غني وطموح، أمير قوي وعنيد وعائلة ثرية ومتقدة ثم مناخ عالمي مناسب ومتناسب مع طموحاته.. وما إن أتى ما يعرف بالربيع العربي، حتى أصبح رجلا متميزا في عالم الأعمال.. رجلا لم يتخيل نجاحه وصعوده حتى أبوه الذي انحاز إليه وشجعه أمام إخوته الآخرين..

واليوم، إذا كانت حصيلة زواجه العاطفية فارغة، فإن حصيلة حساباته البنكية مليئة جدا.. إنه سريع الخطى ويتمتع بحاسة سادسة في الأعمال. ويحظى بمصداقية وكذلك بحظوة من الأمير

الحاكم مباشرة، ولكن مصعب القوي والناجح والعنيد والمنفتح، لم أره خجولا جدا، مطأطئ الرأس وغير مستعد لا للنقاش ولا حتى لإطلاق نكتة، مثلما رايته في ذلك الصباح، أمام الشيخ رشدي العطار.

كان كريم كروان بك قد سبقنا إلى مكتب الشيخ رشدي العطار واتخذ مقعدا له قبالته على طاولة الاجتماعات المنتصبة في الجانب الآخر من قاعة المكتب الضخم ذي الستائر البيضاء التي يتلاعب بها نسيم الصباح القادم من البحر.. ولا بد أن حديثا كان يدور بين هذين الرجلين قبل أن نقطع وحدتهما وندخل عليهما: مصعب الصراف ثم أنا، ستيفاني وسمى عبد الصمد.. قام الشيخ رشدي ليسلم علينا ويجلسنا على مقاعدنا، أما كريم بك فاكتفى بالمصافحة وهو جالس مكتفيا بانحناءه ومعتذرا لعدم الوقوف بسبب تورم في ساقه..

افتتح الشيخ رشدي ذلك الاجتماع بالترحيب بي مطولا وقال أن الشيخ مصعب حدثه عني وهو يثق في مهاراتي المهنية كثيرا.. ثم مضى مباشرة إلى موضوع الاجتماع قال:

- علينا أن نناقش اليوم نقطتين أو ملفين كما علينا أن نحسم أمرهما اليوم. الأول هو موضوع إمكانية إيصال الأنترنت إلى شمال وشرق سوريا ثم إلى شمال وغرب العراق. في تلك المنطقة من حلب إلى دير الزور ثم من الموصل إلى الفالوجة لا تصل الأنترنت. وعلينا أن نجد طريقة لإيصالها.. أما الموضوع الثاني فيتعلق بإنجاز بعض الأفلام الوثائقية عن ساحات القتال في تلك المناطق وعن معسكرات التدريب والتجنيد وكذلك عن الحياة العامة في

المناطق التي توجد تحت منظمات «النصرة» و«داعش» ثم عن مخيمات اللاجئين في الأردن وتركيا..

بعد أن أكمل حديثه، مرر الشيخ رشدي الكلمة إلى مصعب الصراف. لم يجده الصراف نفسه حتى في شرح ما قاله الشيخ رشدي، فالتفت مباشرة إلى السيدة سمى عبد الصمد قائلا:

- نريد أن نفهم موضوع الأنترنت من السيدة سمى.

فتحت سمى عبد الصمد الملف الذي وضعته أمامها ثم تكلمت بثقة كبيرة:

- كما يعلم السيد كريم والسيد مصعب، فقد أمضيت نحو شهر في دراسة هذا الموضوع. سافرت إلى قبرص لأطلع على الشركات الخاصة ببيع خدمات الأنترنت والتقيت مع وسطاء في بيروت قاموا بنقل خدمات الأنترنت إلى لبنان خارج سلطة الدولة.. ويمكنني الآن أن أقول أنه بالإمكان التعاقد مع شركة وساطة وخدمات لإيصال الأنترنت إلى تلك المناطق..

سألها كريم بك:

- مع من سيتم التعاقد في هذه الحالة؟

- معي.. عفوا مع الشركة التي قمت بتأسيسها مؤخرا في قبرص. إن عملي كمديرة تنفيذية في غوغل الإقليمي قد مكنني من الحصول على امتياز الخدمات الخاصة بغوغل.

- معنى هذا أننا لا بد أن نبرم تعاقدا مع شركتك لكي نحصل على هذه الخدمات.. قال كريم بك..

أضاف الشيخ رشدي:

- وكم يجب من الوقت لكي يبدأ التنفيذ والإرسال؟

- خلال ثلاثة أسابيع يفتح إرسال الخدمات.. ويبقى على المتواجدين هناك أن يقيموا محطات إرسال ثابتة أو متنقلة لتتلقى خدماتنا.. لن يكون الأمر صعبا البتة.. في لبنان تصل الأنترنت عبر شركات كثيرة منها ما هو تحت رقابة الحكومة ومنها ما هو خدمات موازية خارجة عن سيطرة الحكومة، لا بل لا تعرف بها..

التفت الشيخ رشدي إلى مصعب وسأله عن رأيه، فلم يتأخر عن إعطاء موافقته المبدئية، على أن تتم دراسة كل التفاصيل الفنية والمدة الزمنية وطاقة البث والإرسال ونوعية هذه الخدمات وكيفية الاستخلاص. وإلى ما ذلك..

- طيب، إذن ننتقل إلى موضوع الريبورتاجات والخدمات الإعلامية.. قال الشيخ رشدي ثم طلب من ستيفاني أن تمده بمقترحات إذا كانت قد اعدت شيئا..

قالت ستيفاني:

- نعم.. فكرت حاليا في نوعين من الريبورتاجات، الأول دعائي، والثاني إنساني، أضافت شارحة ما تعتقده ضروريا في الوقت الحالي.

- إن العالم كله يتحدث عن داعش لكنه لا يعرف عنها شيئا محددا غير كونها منظمة إرهابية، متعصبة دينيا.. تقتل وتذبح وترغم الناس على الشريعة وتتاجر في التهريب من النفط إلى الأعضاء البشرية إلى الآثار. وهنا لا بد أن نكشف عن الوجه الآخر لداعش.. ما هي أهدافه؟ كيف يدير المناطق التي يسيطر

عليها؟ ما نوعية التعليم الذي يشرف عليه؟ من أين يأتي بالمقاتلين، كيف ينظم حياة الناس. الخ.. ثم لا بد أن نذهب إلى المخيمات لكي ننقل آلام الناس في محاولة للضغط على الحكومات.. إن المخيمات تمتلئ بالمسنين والمهمشين والأطفال. وهؤلاء لا بد أن نعتني بهم حتى يعرف العالم آلامهم وعذاباتهم..

وختمت ستيفاني كلامها بالقول:

- لدي سيناريوهات رأيت أنه لا بد من إنتاجها خلال مدة قصيرة، خاصة وأن خدمات الأنترنت ستصبح متوفرة في هذه المناطق في مدة قريبة..

آنذاك اخذ الشيخ رشدي العطار الكلمة مرة ثانية، ولكن لكي يأمرنا بالانصراف على أن نعود بعد يومين لاستكمال الإجراءات الفنية.. ثم التفت إلى مصعب وكريم بك قائلا لهما:

- لا بد أن نبدأ هذه الإجراءات المادية لتأسيس الشركة.. لم يعد أمامنا وقت كثير.. ثمّ فتح أيفونه وبدأ يتكلم مع الرياض..

الفصل الثاني عشر

بعد نحو ثلاثة أسابيع من مباشرة عملي في إسطمبول، كان علي أن أسافر إلى الموصل. كنت أرى نفسي كما لو أنني أتدحرج إلى الهلاك ولكن بلا مقاومة. الأحرى أن أقول كنت راغبة في تلك الرحلة حتى وإن كانت مرهقة وذات مخاطر عالية.. مصعب هو الذي اختار أعضاء الفريق الذي سيسافر إلى الموصل.. أخبرني قبل موعد السفر بيومين فقط.. قال لي حين زارني في شقتي:

- سيكون قائد الفريق باشكير آغا. وستذهب معك مرام حسن والصحفي حبيب رودباري والكاميرامان سفيان التونسي.. ستجدون كل شيء جاهزا.. وأنا على يقين أنكم ستقومون بعمل جيد وجبار. إني أعتمد على ذكائك وشجاعتك.. صمت قليلا ثم أضاف:

- ما ستقومين به سيجعلك نجمة في عالم الصحافة.. وغدا سيصبح رصيدا تاريخيا في مذكراتك.. إنه المادة الأولى والطرية لكتابة التاريخ..

كان بإمكاني في تلك اللحظة أن أقاوم ذلك العرض الذي كان في شكل مهمة. وبما أنني كنت راغبة في القيام بذلك، فقد اكتفيت بسؤال واحد:

- هل هذا الاقتراح من عندك أو من عند الشيخ رشدي العطار..

أجابني:

- في المحصلة، لقد تم اختيارك.. لا يهم إن كان مني أو من الشيخ العطار.. وفي كل الأحوال علينا أن نحترم التراتبية التي يفرضها تقسيم العمل داخل شركتنا.. الشيخ العطار هو كما تعرفين رئيس مجلس الإدارة، وأنا المدير التنفيذي.. وكريم كروان، عضو مجلس الإدارة ونائب مدير تنفيذي.. أظن أن هذا قد أصبح واضحا..

هكذا انتهى الحوار بيني وبين مصعب. ولم أر أن أمورا كثيرة قد تغيرت في الفترة الأخيرة إلا حين وصلنا إلى الموصل. ورغم أنني متابعة جيدة للسياسة العربية إلا أن ما حصل قبل نحو ثلاثة أشهر من صعود ملك جديد في السعودية، قد فرض ذلك التغيير في التراتبية وتقسيم العمل والمهام.. كان هناك من يعتقد منذ بدء الربيع العربي أن قطر سوف تلعب طويلا وسوف تحلق في سماء العروبة كما لو أنها قائدة لهذا الربيع.. ولكن في النهاية سترث السعودية كل شيء.. بدا لي أن فكرة الكازينو التي كان يتحدث عنها زوجي السابق مراد عباس صحيحة. فهو الذي كان يقول لي: انتبهي لا أريد أن تخطئي.. اللاعبون كثر، ولكن الكازينو هو الرابح الوحيد والكبير!..

وصلنا إلى مطار «ديار بكر» في المساء. وهناك وجدنا سيارتي تويوتا رباعيتي الدفع في انتظارنا.. كل سيارة بها سائق وحارس. باشكير وسفيان التونسي ركبا في سيارة.. وأنا ومرام وحبيب ركبنا في سيارة ثانية.. وكان لا بد أن نذهب من «ديار بكر» إلى «ماردين»

لننام ليلتنا هناك.. الساعات الثلاث التي قضيناها على الطريق كانت مرهقة، لأن اللهفة للوصول إلى ماردين لم تكن تتناسب مع السرعة.. ذلك أن الجو كان باردا جدا وعاصفا.. ثم أن الطريق المنعرج بين الهضاب والجبال جعلنا نتذمر منه.. بالإضافة إلى ذلك فقد كنا نضطر أحيانا للتوقف في عرض الطريق حتى تمر بعض الأبقار. كان من الممكن أن أسأل حبيب ما إذا كان رعاة البقر لا يخافون من هجوم الذئاب في هذا الوقت المتأخر، ولكنه قال لي متطوعا: هذه الأبقار مسروقة.. إنها ذاهبة إلى المسلخ.. سوف تصل قبلنا إلى سوريا..

بعد قضاء ما تبقى من ليلتنا في ماردين في فندق أقيم على قمة جبل، انطلقنا باكرا نحو القامشلي، نقطة الحدود بين تركيا وسوريا.. آنذاك قال لنا السائق بلهجة مطمئنة..

- الآن سندخل إلى الأراضي السورية.. وسوف نمر على طريق جبلي تحت سيطرة جبهة النصرة.. ليس ثمة ما يقلق رحلتنا. إنشاء الله سنصل إلى الموصل في أقل من ثلاثة ساعات..

وبعد نحو ساعتين بطيئتين جدا وصلنا إلى مدينة سنجار التي لا تبعد كثيرا عن الموصل. تركنا الحسكة على الغرب ثم انحدرنا شرقا نحو سنجار.. توغلنا أكثر نحو الشرق، فلاحت لنا الموصل من بعيد كما لو أنها تنتظر من بعيد موكب هارون الرشيد.. كنا نطرد الخوف أحيانا بثرثرات تافهة وسخيفة أو بضحكات هستيرية، ولكن ليس الخوف فقط الذي كان يوحدنا، بل يجب أن نقول، أن شعورنا بالفخر والتميز ونحن نسير في أرض داعش التي لم

تهزمها جيوش ستين دولة مجتمعة هو الذي كان يوحدنا ويبعد علينا الخوف. ازداد فخرنا كلما توقفنا عند حاجز ما. فما إن يظهر الحارس بطاقته مع كلمة السر حتى تفتح الطريق أمامنا.. وبالتأكيد لم تكن تحت العناية الإلهية وإنما كنا تحت العناية الدولية التي تحتاج إلى أكثر من رحلة مرهقة لكي نستطيع فك شيفرتها!..

ولكن الموصل ليست مجرد مدينة كبيرة ومترامية وذات كثافة سكانية وغنية بثرواتها وتجارها وتقاليدها.. إنها توجد عند عقدة الطريق بين العرب والفرس والأتراك، وهي تستلقي على ضفاف نهر دجلة منذ آلاف السنين.. فقبل نحو ثلاثة آلاف عام وما يزيد، كانت عاصمة للأشوريين. ثم استولى عليها الكلدانيون قبل ميلاد المسيح بسبعة قرون.. وخلال تلك القرون امتلأت بالحصون والقلاع حتى جاء عصر الإسلام فأضاف لها رباطات كثيرة. لم تسلم الموصل في كل حرب كبيرة بين شعوب تلك المنطقة من الدمار. الكل كان يريد السيطرة عليها لأنها مفترق الطرق والتجارة والمياه.. حكمها الفرس والروم ووصلت إليها حتى جيوش الإغريق.. ثم استسلمت للعرب منذ زمن بعيد، لكنها لاتزال تناور من أجل أن تعيش في سلام بدا مستعصيا عليها عند كل احتكاك. الموصل التي لاحت أمامنا ونحن نهبط من القمم نحو السفوح، هي الموصل التي بناها العرب، وهي الساحل الأيمن لنهر دجلة. أما الموصل القديمة والتي تقع على الساحل الأيسر، فهي تعرف بنينوى. يقال أن الأكاديين هم الذين أطلقوا عليها ذلك الاسم الذي يعني الخصب والتواصل.. أعتقد أن العرب قاموا بترجمة الكلمة.. فالخصب والتواصل هما الميزتان الكبيرتان

لأرض الموصل. دخلها العرب المسلمون من تكريت.. وجاءت قبائل تغلب والنمر من جنوب الأنبار. توسعت في عهد الأمويين وعاد إليها بريقها التاريخي القديم.. في العهد العباسي دارت فوقها حروب لا تمحى من الذاكرة. بعد ذلك عادت إلى السلام. انضمت إلى إمارة حلب في عهد أبي فراس الحمداني. وأصبحت أهم مصدر للغذاء إلى بغداد.. سيطر عليها السلاجقة الترك لفترة فعاشت نحو ثلث قرن تحت الخراب والخوف، رغم ذلك فقد شاركت في رد الصليبيين.. وفي عهد عماد الدين زنكي الأيوبي عاد النظام إليها وكذلك التجارة والزراعة والعلم. لكن المغول حين هجموا عليها من الشمال والشرق أذاقها كل أنواع العذاب والإذلال. دارت أبشع أنواع الحروب في ذلك العهد، كما لو أن ما يحدث الآن ما هو إلا نسخة كربونية عن تلك الحقبة السوداء. استباحها المغول فقتلوا أهاليها وشردوهم نحو الجبال والصحاري، ولم يسلم أزيديو سنجار من بطشهم.. بعد نحو قرنين من حكم المغول، ظهرت دولتان على أرض الموصل. عرفت الأولى بدولة الخروف الأسود، والأخرى بدولة الخروف الأبيض.. لم يفهم أحد من الأهالي في ذلك الزمن مثل هذه التسميات.. بدت لهم من نسج المغول حين اختلفوا قادتهم من الجيل الرابع في الحكم. ثمة من قال أن الخروف الأسود يمثل المغول الذين ينحدرون من منطقة جنوب الصين وأن دولة الخروف الأبيض هي التسمية التي اختارها التتار، وهم مغول منطقة الشمال.. وفي نهاية قصة تلك الدولتين، اتضح أن حرب الخروفين كانت بين الفرس والترك.. أو بين الشيعة الفرس سادة آل البيت (العمامة السوداء) والسنة الأتراك.. فما إن سيطر

الصفويون الفرس على العراق، حتى انتهت قصة الخروفين اللذين ظلا يتناطحان على الأرض العراقية طويلا.. بل لا زالا حتى الآن، إن تاريخ العراق الدموي هو تاريخ الموصل مكثفا ومخثرا بالدم. من الأشوريين إلى البعثيين ثم إلى ما بعدهم، عصر الملالي والباشوات والعقلات والقبعات.. حين تفقد بغداد قوتها وأبهتها تصبح ممزقة بين البصرة والموصل، وقد تكون بغداد أقيمت كعاصمة لحسم ذلك الصراع القديم والمتجدد، ولكنها حين أصبحت مجرد مربع أخضر للسياسيين المتآمرين والمتحاسدين والمتخاصمين باستمرار، عادت كل من البصرة والموصل إلى ذلك الخصام الدموي اللعين..

وللحقيقة لم افهم حكاية داعش، أو على وجه الدقة لم أبدأ في تهجي شيفرة داعش إلا بعد وصولي إلى الموصل بنحو ثلاثة أيام.. استوقفتني سيدة في إحدى المحلات التجارية وكانت غارقة في رداء أسود، لا يظهر منها إلا وجهها النحيف والأبيض، أدركت أنني لست من سكان الموصل من خلال لباسي (بطلون جينز، وجاكيته طويلة إلى ما تحت الردفين وحذاء رياضي ثم فولار زهري على رأسي) فتشجعت للكلام معي.. ابتعد باشكير الذي كان يرافقني مع الحارس، فسألتني:

- هل أنت سائحة؟

قلت لها:

- أنا صحفية.. جئت لأتعرف على مدينتكم..

قالت وهي تدعو لي بالتوفيق في مهمتي..

- هل ستطول إقامتك هنا؟

- ليس لدي أية فكرة..

قالت بشيء من الأسف..

- يؤلمني أنني لا أستطيع استضافتك..

تملكني خجل من كلامها، فقلت لها وأنا أشكرها..

- لا بأس، لا بد أن الأمور ستتغير.. يا..

-أنا اسمي زينب.. طبيبة أطفال. ورسامة.. عيادتي هدمت ثم نقلت للعمل في إحدى المعسكرات البعيدة.. أما مرسمي فقد دمر وحرقوا جميع لوحاتي.. وعقابي هو أن أعمل كطبيبة في أحد المعسكرات بلا مقابل أربعة أيام في الأسبوع..

خلال حديثنا القصير، كانت زينب تنظر مذعورة في جميع الاتجاهات.. وحين رأت فرقة من شرطة النساء تركتني واختفت في الزحام.. بلا اعتذار..

*** *** ***

يشبه حاكم بغداد في كل العصور عازف الأكورديون. إن كان متمكنا من النوتة والسيطرة على جناحي تلك الآلة الموسيقية وقادرا على النفخ القوي لتوليد الأصوات والنغمات، فإنه سيكون قادرا على عزف سمفونية العراق.. وإن لم يكن متمكنا من ذلك، فإن الناس لن يحضروا إلى نشيد سمفوني قوي ومتماسك، وإنما سيستمعون إلى مناحات وأصوات حزينة ومتداخلة.. يعلق العازف هذه الآلة على صدره بحمالتين توضعان على الكتفين ثم يمسك الآلة من الجناحين اللذين يتحركان بوساطة منفاخ يدفعه

العازف ويسحبه بيده اليسرى، وتحرك اليد اليمنى لوحة الأزرار اليمنى المخصصة للألحان الرئيسية فيما يستخدم يده اليسرى لتحريك لوحة أزرار الأصوات المنخفضة. وهنا يحدث الانسجام الصوتي.. هذه الآلة الموسيقية هي حديثة جدا بالمقارنة مع آلات أخرى. اخترعت قبل قرنين فقط، ولكنها لم تشتهر إلا أثناء الحرب الأولى، حتى لتبدو كما لو أنها اخترعت من أجل حاكم العراق الحديث. فهذا البلد يقع بين قوتين جامحتين هما إيران وتركيا.. وكانت أرضه منذ عهود طويلة ساحة حرب لكل غزاة العالم القادمين من الشرق أو من الغرب.. ولربما لم يؤسس العباسيون عاصمتهم بغداد في المنطقة الوسطى من هذه الأرض إلا لكونهم كانوا على وعي، بأن حاكم بغداد عليه أن يعزف بكلتا يديه نحو الجنوب ونحو الشمال لكي يحتفظ العراق بانسجامه. وطبقا لذلك فإن ما يحدث الآن في الموصل هو نتيجة خلل قام به حكام بغداد خلال عزفهم المختل.. ارتفعت الأصوات المنخفضة ثم انخفضت الأصوات الأساسية العالية.. فحين أصبحت البصرة ومعها الكوفة وكربلاء أكثر حضورا، راحت الموصل والفالوجة ومنطقة الأنبار تختفي أو تتهمش.. ولم ينتبه حكام بغداد إلى ذلك الخلل الهارموني، إلا حين خرجت الموصل عن سيطرتهم وبدا لهم أن لوحة الأصوات الرئيسية قد أصبحت معطلة تماما.. وهكذا لن تجد بغداد انسجامها إلا إذا أعادت الانسجام بين البصرة والموصل.

كنت أفكر في تلك المعادلة الموسيقية التي يعزفها الأكورديون، التي لطالما استهوتني نغماتها حين كنت صغيرة وأنا أستمع إليها في بيت جدي، وكذلك أمام كنيسة - سان سيلفستر - المقامة في

حينا وكذلك في المدرسة أثناء الاحتفال بقدوم العطلة المدرسية.. حين جاء باشكير آغا ليقول لي وهو على غاية من الانشراح..

- لقد تحدد موعد لقائك مع خليفة المسلمين أبو عمر العدناني..

أضاف قبل أن أسأله متى ذلك:

- سنبقى جاهزين.. لن نغادر البيت حتى يحين موعدنا.. سوف يرسلون من يحملنا إلى مكان الخليفة..

ناديت في الحين على سفيان وكذلك على حبيب لأخبرهما بأننا لا بد أن نكون جاهزين.. طلب حبيب أن نجلس معا لنعد محاور الأسئلة.. ونقسم العمل فيما بيننا.. وقبل أن نبدأ في إعداد محاور الأسئلة التي سنلقيها على أبو عمر العدناني، كان لا بدّ أن نلقي نظرات سريعة على القنوات التلفزيونية. كان الحدث الأكثر فاجعة في جميع نشرات الأخبار هو الانفجار الذي حدث بأنقرة بالقرب من ضريح كمال أتاتورك. لقد أودى بحياة جنود وضباط كثيرين.. ثم وزعت الاتهامات على الجانبين: حزب العمال الكردستاني P.K.K وداعش.. الفاجعة الثانية كانت انفجار في سوق خضار ببغداد فاق ضحاياه ال150 شخصا.. وضعفهم من الجرحى.. أما الخبر الثالث، فهو المتعلق بالقصف الروسي لبعض قواعد وغرف عمليات النصرة وداعش في وسط وشمال سوريا وساحلها.. ما تبقى من الأخبار: أوردغان يتوعد حزب العمال، أوباما يغمز إلى اتفاق بوقف إطلاق النار مع بوتين.. والسعودية تكثف من غاراتها على منطقة مأرب والعاصمة صنعاء..

في الصالون، عاد حبيب وستيفاني ليلتقيا من أجل إعداد

أسئلتهما. تناقشا فيما لو رفض أبو عمر العدناني أن يكون اللقاء مصورا.. ورأت ستيفاني، أنه لن يرفض ذلك لأنه كثيرا ما يظهر وهو يخطب في صلاة الجمعة أو في بعض المناسبات الدينية.. أما حبيب رودباري فرأى أن يجهز نفسه لأية مفاجأة لأنه من الممكن أن يستبدل أبو عمر العدناني ببديل له.. وقال مازحا:

- ضعي نفسك مكانه.. أنا مثلا لو كنت مكانه لأرسلت شخصا آخر ليجيب عن أسئلتنا..

- تقصد أن يرسل بديلا له.. شخص يشبهه ويتحدث مثله..

- ولنفترض ذلك! كيف سنعرف إن كان الذي سنلتقي معه هو ابو عمر العدناني الحقيقي أو بديل له..

فعلا، نحن ذاهبون إلى رجل لا نعرف عنه إلا النزر اليسير.. عاش ومات الملاِ عمر زعيم الطالبان، ولم يلتق بأي صحفي، حتى قيل أنه مجرد نسج خيال.. فالملا عمر ما هو إلا بن لادن آخر. كانت القاعدة توحي بأن هناك زعيما أفغانيا هو الملا عمر، ولكن ثمة من شكك في ذلك إلى حين اصطاده الطيران الأمريكي في إحدى وديان قندهار.. انتهى بن لادن ثم من بعده الملا عمر، لأن الأمريكيين لم يعودوا في حاجة إليهما.. واليوم تكثر الإشاعات بين الحين والآخر حول مقتل أبو عمر العدناني.. وقد يكون قتل فعلا في إحدى الغارات، ولكن داعش لا تريد أن تفصح عن ذلك حتى لا تنهار هيبتها.. أو لأن الأمريكان لا يريدون أو لا يملكون الدليل القاطع على مقتله.. صحيح انه ظهر في مناسبات عدة.. ولكن من يؤكد للناس أن ذلك الشخص الذي يقال أنه أبو عمر هو أبو عمر نفسه..

حسب باشكير آغا الذي عمل إلى جانبه كحارس شخصي لمدة نصف عام، ثم كلف بمهمات أخرى خارجية بين الموصل وإسطمبول، فإن أبو عمر قد أصبح أكثر حيطة من ذي قبل.. أي قبل نحو عام. فهو يتوقع اغتياله في أية لحظة ويستبدل حراسه في كل أسبوع أو أسبوعين. كما يستبدل أماكن نومه وعمله باستمرار ويضطر أحيانا إلى التخفي حتى في ألبسة رياضية أو رداءات نسائية. أما الأشخاص الذين يعرفون مكانه فهم بعدد أصابع اليد ولا يملكون أية وسائل اتصال فيما عدا جهاز صغير يربطهم بمركز الحراسة مباشرة..

سألت حبيب عن مرام التي رافقتنا من إسطمبول إلى الموصل، فقال بأنه لم يرها منذ ما قبل البارحة.. ثم أعرب عن شكوكه ما إذا كانت مرام تنام في نفس البيت الذي ينامان فيه وقال:

- أظن أن مرام تغادر البيت في الليل ثم تعود إليه في الصباح..

سألته باستغراب:

- كيف عرفت ذلك؟

حكى لها ما شاهده بأم عينه وهو جالس في الصالون بصدد قراءة رواية «لأليف شافاك»، قال:

- رأيتها مرتدية عباءة سوداء كانت تغطي حتى وجهها، ولكني عرفتها من مشيتها. جاءها رجل ومعه امرأة أخرى محجبة ثم اصطحباها معهما.. سمعت بعد ذلك محرك السيارة حين انطلق السائق بقوة..وقد طال جلوسي في الصالون حتى ساعة متأخرة من الليل، لكنها لم تعد.. سكت حبيب دون أن يضيف شيئا

وتركني معلقة على أسئلة كثيرة.. آنذاك صدقت ما قاله لي مصعب الصراف بأن مرام حسن تعرف أبو عمر العدناني جيدا.. وقد تلقت تدريبات كثيرة، وهي كانت تشرف على كلية لتدريب البنات عن القتال.. وأنها قد تكون تعرفت على أبو عمر العدناني منذ أن كانت في الرقة! ولكن مصعب لم يقل لي ما إذا مرام تعرفت إلى أبو عمر ثم جاءت إلى أسطمبول. أو أنها جاءت من حلب إلى إسطمبول ثم وقع تجنيدها وإرسالها إلى أبي عمر في الموصل.. ثم عادت إلى إسطمبول لمهمات أخرى..

قلت لحبيب:

- كيف تقيم هذه السيدة؟

قال:

- حين تكون في إسطمبول تبدو لي كعازفة بيانو.. والآن تبدو لي كجاسوسة.. كماتا هارتي.. هل أنا مخطئ؟

ضحكت لما قاله حبيب وفي نفس الوقت تذكرت ما قاله لي مصعب بلسانه نقلا عن مرام، قال لي: أنت ستلتقين برجل جعل كل العالم يقف على ذيله كالكلب.. إنه لا ينام أبدا في المكان نفسه أو في المكان الذي يعيش فيه. كما أن طعامه يتم إعداده في عدة أماكن مختلفة وغير متصلة ببعضها بعضا.. وله العديد من متذوقي الأكل حتى لا يتم تسميمه.. وهو لا يخرج أبدا إلا إذا كان مرتديا بدلة مضادة للرصاص.. ويشترك مع الفنان محمد عبد الوهاب والملياردير «هوارد هوغ» وصدام حسين وستالين في هوس مرضي، يسمى «بهوس الصابون». إنه يغسل يديه كلما صافح أحد

الأشخاص إذ يخشى أن يقع تسميمه عن طريق نقل مواد مسممة عبر الأصابع.. كما حدث لكاسترو ذات مرة وكما وقع تسميم شافيز مؤخرا.. ولكي يكون جاهزا باستمرار في كثير من المناسبات، فإن لأبي عمر أشخاصا يشبهونه شبها غريبا يحلون محله.. وقلة من الحضور من يكون قادرا على التمييز بين الصحيح والمزيف (كان ستالين يفعل ذلك باستمرار.. وكان يكشف أعداءه وسط المكتب السياسي بتلك الطريقة.. فتمكن من إعدامهم جميعا فيما عدا اثنان هما: كروتشوف الذي حل محله ونكل به تنكيلا لأنه كان يلتزم الصمت وكان يعتقد أن الشخص الذي يرأس الاجتماعات هو ستالين حتى لو لم يكن ستالين. والشخص الثاني هو بيريا رئيس الكا.جي.بي الذي كان يعرف أيهما ستالين الحقيقي وأيهما المزيف)..

أقنعت نفسي أولا بأن ذلك ليس مهما.. فحتى لو تحدثنا إلى شبيه أبي عمر، فإن الناس لا يعرفون إن كان الحوار معه أو مع شبيهه.. ثم حاولت أن أقنع حبيب فقلت له:

- ما الذي يهم.. ولنفترض أننا سنتحدث مع شبيهه. المهم أن ما سوف يقوله، هو ما كان يجب أن يقوله أبو عمر العدناني الحقيقي.. لا تتعب نفسك بهذا الإشكال!.. نحن لم نأت لا لكي نغتاله ولا لكي نتأكد من شخصه وإنما لكي نحاوره..

قال حبيب:

- كمال أتاتورك كان له أيضا بدلاء. ولكن بعد فترة وحين صار محبوبا بين الناس تخلى عنهم.. وكان أحيانا يتخفى في لباس

الشيوخ.. وحين تعرض بيته للهجوم، خرج في عباءة نسائية بعدما ألبس لطيفة خانم بدلة عسكرية وكاسكيت وأوقفها على الشباك خلف ستائر بيضاء شفافة فوق صندوق من البرتقال جلبه من المطعم، لتظهر طويلة وشبيهة له.. ولما أفلت من الذين جاءوا ليلقوا عليه القبض عاد ليداهمهم من الخلف بعد أن جلب لهم كتيبة مقاتلة من إحدى المعسكرات..

بعد ذلك روى لي ما كان يفعله صدام مع بدلائه. حين فرض الأطباء على صدام تمارين رياضية لتخفيض وزنه بسبب آلام حادة في ظهره. أرسل بدلاءه إلى الركض يوميا حتى ينخفض وزنهم. أما هو فقد فرض على نفسه حمية صارمة. بعد فترة اكتشف أن وزنه خف بنحو 12 كلغ فأصبح يبدو أكثر طولا وأكثر شبابا. أما بدلاؤه فقد ظل وزنهم كما هو بدون نقصان.. آنذاك طالب جميع وزرائه وضباطه بتخفيف أوزانهم وسمى ذلك بحقبة الترشيق! نيرون كان يحب أن يحضر الألعاب الأولمبية ويشارك في افتتاحها في سباق العربات، ولكنه ما إن يحضر، حتى يتمارض جميع الرياضيين، وتصبح جميع العربات غير مهيأة للسباق خوفا من أن يصل نيرون في المرتبة الثانية فيعدم من سبقه.. كان يركض لوحده ويفوز بميداليات اليوم الأول ثم يبدأ سباق الرياضيين!..

كنا أنا وحبيب نتسلى بتلك الحكايات التي صاحبت حياة دكتاتوريين وطغاة في كثير من بلدان الشرق والغرب.. وكان يمكن أن نتحدث عن تشاوسيسكو الذي لا يركب طائرة أو قطار إلا إذا كان معه رئيس السكريتاتا وقائد الجيوش ونصف دزينة من الوزراء. فهم ترسانته ورداءه الواقي من كل غدر أو انقلاب.. وتطول

القائمة من هتلر إلى بن لادن.. لولا أن باشكير آغا لم يهجم علينا فجأة ليقول لنا:

- موعدكم بعد صلاة الظهر مباشرة.. هل أنتم جاهزون..

هاتفت سفيان بأن يخرج من غرفته ويتفقد كاميرته.. وبطارية الإضاءة..

لكن باشكير آغا سارع إلى مقاطعتي:

- لا داعي.. كل شيء جاهز هناك. هناك سيتم التصوير. ثم يسلمونكم نسخة على سي.دي

قلت لباشكير آغا:

- والأجوبة، هل هي جاهزة أيضا..

ضحك ثم قال:

- الأجوبة حسب أسئلتكم يا ستيفاني.. لا أحد يتكلم في مكان خليفة المسلمين.. حتى نائبه أبو بشر القحطاني لا يستطيع أن يتكلم بالنيابة عنه..

ولأنني لأول مرة أسمع بهذا الاسم «أبو بشر القحطاني» كنائب للخليفة أبو عمر، فقد انتابني شعور بأن مرحلة استبدال الأحذية لمواصلة المسير قد تبدأ قريبا.. وربما لم يكن لقاؤنا هذا مع أبو عمر العدناني إلا لقاء الوداع أو لقاء الانتقال.. ارتسمت في ذهني علامات مضيئة ومثقلة بالأسئلة.. ثم قلت لنفسي: بعد اللقاء قد أخرج من الاستفسارات المزركشة إلى الحقائق البذيئة..

بسرعة قفزنا إلى ثلاث سيارات «رونج روفر» سوداء، رباعية الدفع. كل واحد منا في سيارة.. ثم سارت كل سيارة في طريق

مختلفة.. لنجد أنفسنا في الوقت نفسه أمام بوابة ضخمة ومحصنة تحصينا جيدا بالمدفعية والحراسات وأكياس الرمل.

*** *** ***

رفعت الحواجز بسرعة، فدخلت السيارات الثلاث إلى سرداب طويل، ثم انفتح باب عريض وثقيل جدا في آخر السرداب.. واصلت السيارات إلى سرداب آخر.. أحسست أننا صرنا بمستوى أربع أو خمسة طوابق تحت الأرض.. بعد ذلك تركنا السيارات وتمشينا نحو درج لننزل ما بين 40 و60 درجا لنجد أنفسنا في النهاية أمام قاعة فسيحة ومضاءة بشكل قوي وجيد.. سلم علينا أكثر من شخص، أدركنا أنهم فريق التصوير والإخراج.. قادنا رجل في الثلاثين من عمره قدم نفسه على أساس أنه المخرج «مايكل»، وكان واضحا من شكله أنه أوروبي، إلى حيث سنجلس أنا وحبيب لإجراء المقابلة. طلب منا أن نجلس لترتيب الديكور. ثم أضاف:

- أنتما ستجلسان قبالة الخليفة.. وثمة خمسة كاميراوات ستتولى تصويركم..

بعدها تكلم مع المصورين لضبط الكادر. ثم نادى على أحد مساعديه ليتولى تجهيزنا بالميكروفونات..

وفي أقل من خمس دقائق على تجهيزنا وتثبيتنا على الكراسي، خيم صمت عميق، ثم سمعنا جلبة خلف القاعة.. أدركنا أن الخليفة قد وصل، قمنا لنسلم عليه.. كنت مصرة على أن أمد إليه يدي حتى لو ظلت معلقة.. وهكذا فعلت حين أصبح خليفة المسلمين أبو عمر العدناني أمامنا، فالتقط يدي وظل ماسكا بها وهو يبتسم

متوجها إلى الكاميرا.. بعدها سلم على حبيب ببشاشة، وظل ينتظرنا حتى نجلس لكي يجلس هو..

وكان لا بد أن ابدأ بسؤال يحمل شحنة عاطفية لكي نتسلل إلى أعماق الرجل.. كان أستاذي في كلية الصحافة والاتصال «ريجيس دوبريه» (نعم ريجيس صديق غيفارا لا غيره) ينصحنا دائما بإشاعة دفق عاطفي في البداية تجاه محاورك لكي تكسب وده.. وسيكون من الأفضل لو طرحت عليه في نهاية اللقاء أسئلة صغيرة حول حياته الشخصية لكي ترسم له صورة لا تمحى لدى القارئ أو المشاهد.. وطبعا لن أنسى دائما تلك النصيحة التي سمعتها من أحد الجنرالات وأنا أسأله: كيف يمكن لشخص خجول أن يتغلب على خجله أمام رئيس أو ملك أو قايد أو جنرال ؟.. قال لي الجنرال بادنتر: بسيطة.. عليك أن تتخيلي أنه يذهب إلى التواليت ويجلس ككل الناس لكي يدفع بالقاذورات ككل الناس..

كان سؤالي الأول للخليفة بعد الترحيب:

- لم نتوقع أبدا حسب ما قرأناه وشاهدناه وسمعناه عنكم وعن داعش، أنكم على هذا النحو من البشاشة والأريحية والتسامح.. إن الناس سيتساءلون بعد أن يشاهدوا هذا اللقاء ما إذا كانت هذه البشاشة حقيقية أم ربما هي ضرورة لتسويق صورة جميلة عنكم!..

ابتسم أبو عمر ثم مرر يده على لحيته بهدوء وهو يستعيذ من الشيطان، طالبا من الله التوفيق.. ثم راح يتكلم:

- الناس يعرفون عنا الصورة التي يريد أعداؤنا إشاعتها.. سيظل

الناس ضحايا ما لم يسعوا بأنفسهم إلى الحقيقة.. إن الطريق إلى الحقيقة لا بد أن يمر بالعدالة.. لا حقيقة بلا عدالة وكذلك لا عدالة بلا حقيقة. ها أنا أمامكم. ماذا ترون أمامكم؟ هل أنا إنسان أم شيطان؟.. وعلى العموم حين يكون المرء قويا ومؤمنا لا يعود في حاجة أن يتوسل العدالة من الظالمين.. لن يتزعزع حلمنا لأننا نراه قريبا، ولا يقيننا الراسخ، لأنه يقين الرب القدوس.. وأنا أقول دائما للمجاهدين والفدائيين، كل التحام بيننا هو التحام مع الله.. لذلك فإن الجن وكثير من الإنس قد اجتمعت علينا وضدنا ولم تقدر على زعزعتنا.. إن صعاليك الأمريكان لم يعودوا يرهبوننا، فكيف للأوغاد الآخرين أن يتجرأوا على محاربتنا. قلنا لهم: هذه أرضنا. وهذا ديننا ونحن أحرار أن نقيم دولة الحقيقة والعدالة الإسلامية فوقها..

صمت الخليفة أبو عمر وحدق في حبيب بعينين حادتين متوقعا مصدر السؤال التالي، فبدأ حبيب بإسداء التشكرات إلى الخليفة على استقبالنا وإتاحة فرصة اللقاء معه ثم قال:

- إن مساحة دولتكم تمتد من نهر الفرات حتى نهر دجلة.. وهي تسيطر على ثروات عظيمة ومساحات شاسعة. لكن أغلب المراقبين لا يتوقعون لها الحياة.. إنهم يقولون عنها: شطحة من شطحات الصحراء العربية، ويصفونها بدولة السكاكين والأحزمة الناسفة أو بدولة الدراويش الجدد. وأحيانا يذهبون بعيدا فيقولون أنها دولة العصابات العابرة للقارات.. ولا شك أن هذا يزعجكم ويجعلكم عاجزين عن الدفاع عن مبادئكم.. ما رأيكم في ذلك؟

أصغى أبو عمر بكل انتباه إلى سؤال حبيب. كانت الجدية

تبدو في أسنانه المصطفة إصطفافا جيدا. فابتسامته لا تدل على الأريحية، بل هي مجرد انفراجة بين شفتيه.. وأظن أنه بحث عن لهجة.. أو عن إيقاع لكلامه بعيدا عن أي مزاح..

- اصغوا جيدا يا أصدقائي، إذا كان الناس كلهم ضدك، فإنه من الصعب أن تجعلهم معك فورا.. أنا أدرك تماما أن هناك من يسخر منا ويتندر بنا، ولكن الجميع يهابنا ويحسب لنا ألف حساب، ويحاول أن يتفاوض معنا.. إذا كنا نحن مجرد عصابة، فلماذا كل هذه التحالفات الدولية وكل هذا الهرج والمرج الذي يبدأ من مقاعد الأمم المتحدة إلى غرف نوم الزعماء والرؤساء.. وإذا كنا نحن دولة السكاكين والأحزمة الناسفة، فلماذا تتمتع الموصل بالكهرباء التي لا تتمتع بها بغداد.. وإذا كنا نحن دراويش جدد، فكيف لنا أن ندير دولة مساحتها أكبر من دولة بريطانيا العظمى!.. صمت أبو عمر ساحبا نفسا من الأوكسجين ثم عاد يقول على إيقاع منخفض..

- انظر يا سيد حبيب. نحن ظاهرة استثنائية لأننا لا نشبه، لا من يحاول تقييمنا ولا من يحاول محاربتنا.. نحن ظاهرة لا يمكن إدراكها عن طريق المقارنة أو الاختلاف. لسنا جماعة إخوانية ولا نحن حشاشون جدد، ولسنا حزبا مثل الأحزاب. وإنما نحن شعب يريد أن ينهض على قواعد الله ورسوله.. هذه البلاد، أرض العراق والشام والتي تسمى داعش الآن، هي أرض التأسيس الإسلامي الأول، الطهوري، العارم بالمحبة والعدالة والمنفتح على الخير.. ليس بإمكاني اختزال نظام الاستثناء على عالم السياسة وحدها، ولكني أقول أن انبهاري بالعلوم والرياضيات لا يجعلني رجلا زاهدا أو

درويشا.. لقد جربت أن أتمتع بالجمال كشكل هندسي، حين كنت شابا، ولكنني أنا الآن على قناعة تامة أن الجمال كله كمعنى وشكل ومحتوى ليس له من اسم سوى اسم الله الحي القدوس..

أقول لكم اليوم، وصلت فكرتنا إلى كل بلاد العرب، وأصبح لنا موالون وأنصار ومجاهدون.. والحقيقة أنه لأول مرة منذ ألف عام ينفتح العالم العربي على هذه الفكرة الجامعة والمانعة.. إنها فكرة إعادة بناء الدولة الإسلامية.. ظلت الجماعات الإسلامية المتحزبة لمدة قرن، منذ سقوط الخلافة العثمانية، وهي تحلم بوضع هذه الفكرة على الواقع لكنها لم تقدر لأنها اختارت طريق المساومة والارتهان وأسلوب الملائمة والتوافق.. ثمة شيء جوهري لم يدركه هؤلاء هو: ما أسميته بنظرية بناء الذات، القائمة على نوع من الأصالة الخالصة والتجربة والمغامرة والاستثناء.. فأنا أبو عمر العدناني، لو أردت أن أكون مثل هؤلاء لقمت بخيانة ذاتي وخيانة الذات الإلهية!..

كنت قد اتفقت مع حبيب أن يترك لي الأسئلة الأكثر إحراجا فلعل الشيخ أبو عمر يكون أكثر أريحية حينما تأتي الأسئلة من امرأة، لكنني رأيت حبيب قد دخل منذ سؤاله الأول في منطقة الإحراج.. لذلك صغت سؤالي كالتالي:

- شيخ عمر.. رفعتم شعار: داعش تتمدد. ولكن بعد فترة بدا كما لو أنكم اكتفيتم بمنطقة النهرين.. لم تتمددوا لا نحو دمشق ولا نحو بغداد ولا حتى نحو الجنوب.. هل هذه هي حدود دولتكم إلى وقت آخر.. لا بل أن هناك من يراها لم تعد تتمدد، بل هي تتقلص.

- هنا ربما سأجيبك بطريقة فلسفية.. ثمة فرق بين الوجود والفكرة.. إنهما مترابطان، ولكنهما متعارضان.. نحن الآن ربما في الحد الأدنى من الوجود البطولي.. ولكن فكرتنا أوسع من وجودنا.. وهنا تأتي التوترات والتعارضات وحتى الانقسامات والاختلافات.. لدينا شيء لا يقبل الانحلال أبدا.. ما نصبو إليه هو ما يصبو إليه مئات الملايين.. لا بد للزمن أن يكون جسرا بين وجودنا وبين فكرتنا.. كنا قبل عام على أبواب بغداد وكان بالإمكان الدخول إليها، ولكن تقديرنا كان يقول: أن حجم الخسائر والفضاعات سيكون كبيرا لدى أهلنا..

قلت لهم:

أتركوها.. ستسقط كثمرة ناضجة.. وبالنسبة لدمشق، كان تقديرنا أنها ستسقط بمجرد أن تسقط حلب، لكن حلب لاتزال على غيها.. لا فائدة من الهجوم على دمشق.. يجب خنقها في الشمال من جهة حلب وفي الشرق من جهة دير الزور، وبعدها سترى كيف يتناثر نظام دمشق. استطعنا أن نقطع طريق الدعم الفارسي الذي يأتي عبر بغداد إلى دير الزور. وهذا كان حاجة إستراتيجية لقطع الطريق أمام ما يعرف بالهلال الشيعي.. فعلا ما كنا نحسب أن موسكو ستتدخل بتلك القوة. قد يكون الروس قد قطعوا علينا الطريق نحو دمشق، ولكن ذلك الأمر لا يعدو أن يكون مؤقتا..

- وماذا عن تركيا.. إنها تبدو صديقة لكم.. كل شيء يمرّ عبر تركيا: المتطوعون والسلع والتموين والسلاح وتجارة البترول.. ما تقوله الصحافة، أنه لولا تركيا لما استمرت داعش ثلاثة أسابيع، بالكاد ستجد الوقت لكي تنسحب بلا خسائر.. آخرون يقولون أن

داعش موجودة في جيب الغونكور التركي.. هل هذا التوصيف صحيح يا شيخ عمر؟

ذلك السؤال طرحه رجل تركي.. صحفي تركي لا غيره. هذا يدركه جيدا الشيخ عمر، لذلك استنتج في الحين أن الأتراك ليسوا متفقين في نظرتهم إلى داعش أو نظرتهم إلى سياسة أوردغان.. ثم أجاب:

- تركيا دولة قد تكون صديقة.. ولكن كل دولة مضطرة أن تلائم بين تعارضات مصالحها.. نعم إننا نبيع البترول إلى الخارج.. ولكن من قال أننا نبيعه إلى الدولة التركية!.. ثم ماذا نفعل بالبترول إذا لم نبعه.. هل نحرقه وشعبنا يحتاج إلى الأكل والتطبب والملبس؟ هل ثمة دولة واحدة لا تبيع بترولها.. ثم هناك مبالغات كثيرة حول ما يأتي من متطوعة وسلاح عبر تركيا.. نعم هناك متطوعة عرب ومسلمون من أنحاء العالم، ولكن أغلب مجاهدينا وفدائيينا هم من أبنائنا.. أبناء العراق وسوريا.. وفيما يتعلق بالسلاح، فأنا على استعداد لكي أبيع لمن يريد السلاح. لدينا فائض من السلاح.. نحن لا نحتاج إلى دبابات أو منظومات صواريخ.. حربنا حرب غير تقليدية.. ولا حاجة لنا بأي سلاح من شأنه أن يصبح عبئا علينا.. لقد استولينا في معركة الفالوجة والموصل على ما يكفي لتسليح ثلاثة جيوش متوسطة.. ماذا يفعل السلاح إذا لم يكن هناك من يقاتل به؟

خرقنا الشيخ أبو عمر بنظرة حادة حين فرغ من الإجابة ففهمت أنه يأمرني بسؤال آخر فقلت:

- ثمة من يقول أيضا أنكم «وهابيون جدد» بأسماء أخرى.

أي أنكم «صناعة سعودية - قطرية - تركية» مشتركة.. قاطعني الشيخ أبو عمر قائلا:

- نحن لسنا مصنع سيارات.. ولا نحن سيارة تصنع قطعها في أماكن كثيرة ثم يجري تجميعها في مكان آخر.. لو كنا هكذا لما انتهينا منذ فترة.. ولكن هل تعتقدين يا أختنا الكريمة أنه من الممكن أن نعيش مقطوعين عن العالم حتى لو كنا بضعة أشخاص. نحن مشروع كبير.. كبير جدا لم يكتمل بعد.. لا أحد بقادر على احتوائنا.. نحن دولة ناشئة وهناك دول نتعاون معها.. ثمة دول أخرى تفاوضنا وتتعاون معنا تحت الطاولة وفي الخفاء.. وثمة دول تخاف منا فتتقرب إلينا.. لدينا بالطبع أصدقاء.. وهؤلاء الأصدقاء مختلفون في حجم التعاون.. ثم هم مختلفون في تقدير مشروعنا.. هناك من يرى تعارضا بين مشروعنا ومشروعهم. وهناك من يتوقع حتى الصدام في المستقبل.. في عالم السياسة لا شيء نهائي. ومن يعتقد أننا رهينة لدى البعض أو صنيعة البعض الآخر، فهو مخطئ.. أبو عمر العدناني قد يموت الليلة أو في الليلة التي تليها، ولكن هناك ملايين يؤمنون بما يؤمن به أبو عمر..

- وإسرائيل يا شيخ عمر.. علاقتكم بإسرائيل مشوشة وغير واضحة.. وكثير من المتعاطفين معكم يؤاخذونكم فيما ما يمكن أن يسمى بهذه العلاقة المشبوهة.. كيف لدولة إسلامية تطالب بالعدالة والتحرير من الطغاة أن تتعاون مع كيان صهيوني مثل إسرائيل.. هل هو تحالف الضرورة، أم هو تحالف الإيمان: دولة إسلامية مع دولة يهودية؟ (كنت أنقل إليه ما يفكر فيه أغلب الناس).

عبر الشيخ عمر عن تجهمه لهذا السؤال، من خلال تعقيد بسيط لحاجبيه.. عرفت أنه متجهم وعابس وليس متعجبا فقط من خلال لهجته الحادة.

- إذا كان بلدي محتلا، فهل علي أن أذهب لتحرير بلد آخر؟ في الماضي أعتقد الإخوان المسلمون أن تحرير القدس يمر عبر أفغانستان. حتى الفلسطينيون ذهبوا إلى أفغانستان لأنه كان محتلا من السوفيات.. هل علينا أن نترك العراق لإيران ونذهب لتحرير القدس كما تقول الدعاية الفارسية.. قد يأتي يوم تتعارض فيه المصالح والمساحات ولكن الأولويات اليوم تفرض علينا أن نحمي دولتنا الإسلامية إلى حين يشتد عودها ويتصلب.. بيننا وبين إسرائيل ما يمكن أن نسميه بالمرحلة الخرساء.. لا بد أن تتضح الأمور وسيعرف العالم أننا لا نتعاون مع إسرائيل لا بأكثر ولا بأقل مما يتعاون معها الآخرون .. لا بل أصارحك القول: إذا كانت إسرائيل لها علاقات مع بعض أصدقائنا، فلا يعني ذلك أن لدينا سلاح أو مدربين أو ضباط إسرائيليين..

- ولكن لديكم علاقات تجارية ومدنية.. يقال أن معظم الأدوية تأتي من هناك.. وأن بعض كوادركم يعالجون هناك؟..

- نحن لا نعرف إلى أين يذهب النفط الذي نبيعه.. حتى النفط الإيراني يصل إلى إسرائيل ولكن عبر شركات أخرى. كذلك الأدوية. فهي تأتينا عبر شركات أغلبها عربية وتركية واذربيجانية وحتى فرنسية. أما ضباطنا الذين ذهبوا إلى العلاج هناك، فنحن لا نعلم بذلك.. قيل عني أنني زرت إسرائيل مرارا وتكرارا.. فهل علينا أن نصدق كل ما يقال.. نعم ذهبت إلى «أربيل» للعلاج

قبل نحو نصف سنة، ولكني لا أصدق أن من كان يعالجني هم من الإسرائيليين، إلا إذا كان الإسرائيليون أصبحوا يتكلمون بالكردي؟

صمت قليلا ثم عاد ليقول:

- ما جدوى النقاش في أمور لا ترتكز على الجزم.. إنهم يقولون كل شيء دون تفكير أو دراية.. هذا استغباء للبشر.. يعتقدون أنفسهم كما لو أنهم منقذون للقدس.. مسألة القدس لاتزال جذابة عند هؤلاء. ولكني أتحداهم أن يكونوا صادقين. إسرائيل موجودة مع أمريكا في بغداد. وعلاقتنا بأمريكا ليست أفضل من علاقات بغداد أو طهران بإسرائيل وأمريكا.. سوف يتمزق رداء القدس قريبا ويظهر مرشدهم مع مرجعهم عاريين!..

ونظر إلى حبيب لأعطيه فرصة طرح سؤال كان على قدر كبير من الحساسية.. فمهد إليه جيدا ثم أطلقه في الأخير كرصاصة طائشة. قال:

- شيخنا الجليل.. أنت قائد وخليفة الدولة الإسلامية. تعرف جيدا أن تاريخ الدولة الإسلامية كان مليئا بالتسامح والتعدد.. ومهما قرأنا من نكوصات وارتدادات عنيفة. فإن الأقليات غير المسلمة قد عاشت في سلام داخل الدولة الإسلامية.. كانت الدولة العباسية رحبة ومتعددة ومتسامحة، بل ثمة من وصفها مؤخرا بأول الدول العلمانية.. كذلك كانت دولة الإسلام في الأندلس. ورغم جبروت الدولة العثمانية، إلا أنها احتوت التعدد والتسامح.. كل هذا أقوله لكي أسألكم: ماذا فعلتم باليزيديين؟ هل ضاقت دولتكم بهذه الديانة القديمة!..

سدد الشيخ عمر نظراته بعيدا ثم رفعهما نحو السقف، بعدها انطلق في إجابته:

- الايزيديين هم موجودون في قراهم وبيوتهم. شخصيا أحد حراسي من الايزيديين.. ستتفاجأون أكثر لو قلت لكم أن السيدة مرام الحرة التي رافقتكم من اسطمبول إلى هنا، هي من الطائفة الايزيدية.. إنها من بعشيقة ثم انتقلت مع عائلتها إلى حلب. والايزيديون يتكلمون في عمومهم اللغة الكرمانجية، إحدى لغات الكرد، وثمة منهم من يعتبرون أنفسهم عرب. ديانتهم غير تبشيرية، قريبة من الإسلام أو هي إسلامية منحرفة. موحدون لكنهم يعبدون الشمس. وعموما فهي خليط بين الإسلام والزرادنشية والمانوية.. وهذا لا يزعج الدولة الإسلامية في شيء. أما أن يستخدمهم الفرس لإثارة البلبلة وتشويه دولتنا، فذلك لسنا مسؤولين عنه. لقد تعرض الايزديون عبر تاريخهم إلى أكثر من70 حملة إبادة شنت ضدهم من الفرس وغيرهم.. وقد أرادوا أن ينسوا كل تلك الإبادات ويلصقوا بدولتنا عارا لم نرتكبه أبدا.. إذا هرب الايزديون إلى الوديان والجبال، فلأن الآخرين يريدون استخدامهم لتشويه الدولة الإسلامية. اذهبوا إلى سنجار في طريق العودة، وسترون الايزيديين يعيشون في سلام.. أقول لكم بكل صراحة أن الفرس هم من صنع مأساة اليزيديين منذ زمن بعيد. منذ أن أرسلوا رجلا يدعي يزيد بن أبي أنيسة من فارس إلى البصرة زاعما أن الله سيبعث رسولا من العجم وينزل عليه كتابا يتكون من جملة واحدة ينسخ بها الشريعة الإسلامية (أعوذ بالله).

بعدما أكمل الشيخ استعاذته، رأيت أن سؤال الشحنة العاطفية

قد حان وقته لأن اللقاء قد أوشك على نهايته.. قلت للشيخ عمر:

- هل لديك أبناء يا أبا عمر..

- نعم ثلاثة أبناء وبنت.. ولدي زوجة واحدة.. إنكم لا تصدقون ذلك..

ضحكت فضحك حبيب ثم شاع جو من الضحك حتى طال المصورين والحراس..

*** *** ***

قال لي حبيب ونحن نهم بركوب سيارة الرونج التي وجدناها في مكان آخر غير الذي نزلنا فيه للعودة إلى البيت، وقد بدأ الغروب يقترب ليلامس مدينة البصرة.

- لقد أنجزنا سكوبا صحفيا نادرا جدا، لا يضاهيه إلا سكوب سلمان أوغلو مع كمال أتاتورك حين كان لايزال في فيلا تشنكايا بأزمير، وهو يتصيد لحظة القفز إلى السلطة لتدمير ما تبقى من الهيكل العثماني..

(قلت لنفسي: تبا لكمال أتاتورك.. الأتراك يستحضرون أتاتورك حتى حين يذهبون إلى الحمام.. حتى حين ينامون مع زوجاتهم.. كمال أتاتورك لايزال يقبض على أرواحهم ويشاركهم حتى في تحبيل نسائهم).. ثم قلت لحبيب حين وصلنا للبيت وجلسنا لوحدنا في الصالون..

- نعم.. إنه سكوب عظيم.. سبق صحفي ستكون له تداعيات خطيرة!..

في الحقيقة كنت راضية عن نفسي وفي الوقت ذاته غاضبة..

فغالبا ما ننتبه إلى بعض التفاصيل حين يفوت الأوان.. ثم نكتشف بعض الثغرات.. بعد ذلك نبدأ في تبخيس العمل الذي قمنا به لأنه كان من الممكن أن يكون أفضل.. وكان من الممكن أن نسأل أكثر لكي نستفيد أكثر.. إن مسألة الإشباع بالنسبة للصحفي عويصة جدا.. القليل جدا من الصحفيين من يشعر بالإشباع أو بالرضا التام. فحالما ينتهي من عمله حتى يقول لنفسه: كان يمكن أن يكون أفضل لو تباطأت أكثر أو أسرعت أكثر هناك أو بحثت أكثر هنالك.. وهذا ما حدث معي طوال تلك الليلة.. فقد وجدت نفسي كما لو أنني قمت بمهمة ناقصة أو بعمل فيه كثير من التواطؤ.. ورغم أن لا أحد فرض علينا الأسئلة.. ولا أحد طلب منا أن نقدم أسئلتنا مكتوبة كما يفعل بعض السياسيين، ولا أحد أشعرنا بضيق الوقت.. إلا أنني، على الأقل من ناحيتي، فإن كثيرا من الأسئلة كان علي أن ألقيها ولم أفعل.. هل نسيت؟ هل كنت أتحاشى غضب أبو عمر؟ هل كنت تحت أشعة الانبهار؟ هل أكون قد تواطأت مع انبهاري وإعجابي بنفسي وأنا أجلس أمام أخطر رجل في العالم.. ثمة أسئلة أكثر إثارة لم أتعرض لها مثل ذبح الأجانب، وحرق الأسرى وسبي النساء واستخدام الأطفال في عمليات الانتحار وتجنيد المراهقين وتناول حبوب الهلوسة، وتحطيم الآثار.. أو مثل علاقات تنظيم داعش بالأردن وبقطر وبالداعشات الأخرى الموجودة في ليبيا وسيناء.. أو مثل أفلام الدعاية المرعبة ذات الحبكة الهوليودية التي تبثها داعش عبر الأنترنت.. كذلك عن أسلوب الحكم والخلافة في الدول الإسلامية وكذلك عما يسمونه بالديمقراطية التشاورية أو

عن الخلافات والصراعات الداخلية بين الولاة والأمراء والقضاة.. وحتى بين القبائل والجنسيات. فأبناء القبائل العربية الكبرى منقسمون، والأنصار القادمون من الخارج مختلفون والأمراء والقضاة متصارعون.. كل ذلك لم نتعرض له في لقائنا مع الشيخ أبو عمر العدناني..

جاء سفيان وانظم إلينا في الصالون، خرج من بيته معكر المزاج، بل كان غاضبا لأنه لم يتمكن من تصوير اللقاء. وحتى من حضور اللقاء. قال لنا أنه وضع في غرفة ليجد نفسه مع ثلاثة من الحراس أشبعوه شايا وأسئلة ونظرات.. قال أيضا أن أحد التونسيين كان من بين الحراس الثلاثة، قدم لي نفسه بكنية (أبو هدى المدائني) من منطقة الساحل، لكنه لم يكن مستعدا أبدا أن يتحدث معي في أي شيء عن تونس، كما أنني لم أتجرأ على دفعه إلى الحديث عن تونس.. قلت لسفيان وأنا أحاول أن أخفف من غضبه:

- سوف نطلع على الحوار حين يصلنا غدا من ديوان الخليفة..

تساءل سفيان:

- هل احتفظوا بالحوار؟ ثم أضاف مستغربا..

- يمكن أن يحتفظوا به إلى الأبد..

- ماذا تقصد؟

- كأن يتخلوا عن بثه.. أو يرسلوه مباشرة إلى اسطمبول.. أو يقع بثه عبر وسائلهم الخاصة على اليوتوب..

هذا الذي لم أفكر فيه أبدا، طرحه أمامنا سفيان دفعة واحدة

إلى حد أثار خوفي وغضبي.. إلى حد سمعت رأسي يتصدع كمن يفقص بيضة.. وقلت لسفيان بلهجة متوترة:

- ستوب.. ستوب.. لماذا كل هذا التشاؤم.. ألأنك لم تقم بتصوير المقابلة؟

تدخل حبيب بهدوء حين رآني متوترة:

- ستيفاني.. غدا صباحا، سنعرف كل شيء.. لا أعتقد أنهم سيبثون اللقاء على اليوتوب.. لماذا نطرح احتمالات بشعة في مثل هذا الوقت!..

آنذاك رأيت أن أصعد إلى غرفتي وأبحث عن حبة منوم لكي أقاوم طرد الأشباح والهلوسات التي رأيتها تقترب مني.. لم أتمكن من مراودة النوم إلا عند الفجر حين بدأت المآذن تنادي على المصلين.. كان صوت المؤذن لجامع أبي ذر الغفاري الذي يجانب إقامتنا بعدة أمتار يكاد يخترق جدران الغرفة، حتى حسبت في لحظة ما أن ستائر الغرفة كانت تتراقص من صدى صوته.. وحين قمت لأقبض على الستائر، وجدت أن الواجهة البلورية كانت غير محكمة الغلق، وكانت نسائم الفجر تعبث بها.. أغلقت الواجهة جيدا ثم عدت إلى الفراش.. آنذاك أوشكت أن أنسى كل شيء، بعدما توصلت إلى فكرة مفادها أن يكون هذا الحوار طريقة لتأجيج الصراعات بين أبي عمر وبين أركان دولته.. أو أن يكون قد أرسلونا إلى هنا لكي نسرع في حسم الصراع الدائر بين الخليفة أبو عمر ونائبيه أبو بشر القحطاني وأبو يحي القرشي وكذلك بوالي الرقة أبو نصر الأموي.. بعد نحو أربع ساعات من النوم، تخلصت

من أفكاري الحزينة ثم اندفعت إلى الحمام لأنزع كل ما تبقى من بودرة على وجهي الذي بدا لي أكثر نظارة رغم تلك الليلة التعيسة بسبب تخمينات ملعونة.. هكذا في الليل تكبر أكبر التخمينات لتصبح كوابيس وأشباح.. ولو أن ما طرحه سفيان كفرضية، قد طرحها في النهار، لما فكر أحد في أرجحيتها. أما وقد قالها في الليل.. في ساعة متأخرة من الليل، فقد أصبحت قريبة جدا من الحقيقة من فرط ثقلها حتى لنكاد نشعر أنها مصيبة قد وقعت على رؤوسنا!..

بعد أن أحضرت قهوة مع بعض الكعك من المطبخ، سحبت من حقيبتي بعض المجلات التي تتحدث عن الخلافات والصراعات داخل تنظيم الدولة الإسلامية.. كنت قد قرأت الكثير عنها في صحف فرنسية وانكليزية واحتفظت ببعض القصاصات لمراجعتها عند كتابتي للروبرتاج عن زيارتي للموصل.. تيقنت أن أبو عمر العدناني هو الذي أسس جيش المجاهدين في العراق بعد الغزو الأمريكي للعراق في العام 2003. وكانت له كنية ثانية هي أبو مريم الأنباري. وقد انظم إلى تنظيم الإخوان في البداية ثم ذهب إلى أفغانستان ثم عاد من هناك بفكر راديكالي يتمحور حول تكوين دولة تشبه دولة الطالبان. خرج عن الإخوان وراح يهاجمهم ويتهمهم بالتواطؤ والعمى الفكري. كان يعيش متخفيا عن عيون نظام صدام حسين، لكن الأمريكان كانوا يعرفون هذا الرجل منذ أن كان في أفغانستان ثم كانوا يعرفون أنه موجود في العراق منهمكا في بناء تنظيمه الخاص (وربما على هذا الأساس كان بوش يتهم صدام حسين بالتعاون مع تنظيم القاعدة).. دخل

من إيران إلى العراق واختفى إلى أن ظهر مع «الصحوات»، اعتبر أن «الصحوات» مؤامرة أمريكية للقضاء على المقاومة وإدخال العراق في حرب أهلية على أساس مذهبي، فبدأ يكتسب شعبية متزايدة في أوساط المقاومة والأيمة السنة. في ذلك الوقت كان مصعب الزرقاوي قد نال استحقاق النجومية في مقاومة الغزو الأمريكي ثم نال استحقاق الشهادة، فأفضيت الساحة لأبي مريم الأنباري الذي غير اسمه إلى أبي عمر العدناني.. كثرت الاتهامات صوبه فقيل أنه مغرور ومعقد ومعتد برأيه ومنقاد إلى الدم وممتلئ بالغيرة ومتقلب المزاج والفتاوي.. ثم قيل أنه من ضباط المخابرات العراقية في عهد صدام. وأنه خرج من السجن بعد اتفاق مع الأمريكان لضرب «قواعد الزرقاوي». تعاون الرجلان في البداية وقال ذات مرة أبو عمر «أن الزرقاوي هدية أنزلها الله من السماء لشعب العراق». ثم ما لبث أن اختلفا حول مسائل كثيرة حول من يجب تكفيره من الشيعة ومن النظام.. هل يجب تكفير كل الشيعة أم سادتهم وعلمائهم فقط.. وهل يجب تكفير كل النظام أم شرطته وجيشه فقط؟ وحين مات الزرقاوي بلغ الخصام شده بين الزرقاويين والعدنانيين ولم يستطع أيمن الظواهري أن يصلحه. وجاء إعلان دولة العراق الإسلامية ليحول ذلك الخصام إلى صراع دموي بين أنصارهما.. مات في ذلك الصراع اثنان من رجال أبو عمر العدناني، كانا أكثر راديكالية منه وهما أبو حمزة وأبو عبيدة، فأتهم أبي عمر بقتلهما لكي يتخلص من الرجال الذين يزاحمونه على القيادة.. وحين انتشرت الحرب في سوريا، رأى أبو عمر أن يمد علاقات مع جبهة النصرة، فأرسل صديقه وقد عرف

في البداية تحت كنية «أبو أوس» إلى سوريا للسيطرة على تنظيم النصرة عن طريق التوحيد، أو عن طريق التسلل والتغلغل داخل التنظيم من أجل التخلص من كل الذين لا يبايعونه ويبايعون تنظيم الدولة.. وهكذا بعد فترة قصيرة تم الإعلان عن دولة العراق والشام الإسلامية.. وهي ليست إلا تركيبا إيديولوجيا بين أفكار القاعدة القديمة والقاعدة الجديدة واندماجا بين تنظيم الدولة الإسلامية في العراق التي يتبناها جيش المجاهدين والدولة الإسلامية في سوريا التي تتبناها جبهة النصرة..

حين أكملت قراءة ما جاء في «الغارديان»، وجدت أن هناك تضاربا في المعلومات والأسماء والتواريخ.. ولكني خرجت بقناعة هي: أن داعش مليء بالدسائس والزعماء والتدخلات، وأن أبو عمر العدناني قد لا يكون إلا خليفة مؤقتا إلى أن يحين موعد رحيله..

نزلت من غرفتي نحو الصالون، فإذا بي أجد باشكير آغا في انتظارنا، أنا وحبيب.. بعد لحظات جاء حبيب وعندها سحب باشكير من حقيبة صغيرة يحملها تحت إبطه، حزمتين صغيرتين من الكتيبات والمنشورات وبداخل كل حزمة قرص مدمج ثم ناول كل منا حزمة قائلا:

- لقد أتيت لكل منكما بنسخة من لقاء الخليفة أبو عمر.. ثم أضاف:

- النسخة الأصلية سيتم إرسالها مباشرة إلى اسطمبول. لقد طلبها كل من الشيخ مصعب الصراف والشيخ رشدي العطار بإلحاح..

الفصل الثالث عشر

عدت إلى تونس مباشرة من اسطمبول. طلبت إجازة من مصعب الصراف حالما عدت من الموصل. كنت أشعر كمن ولد من جديد، وأنا أدخل بيت «آل أوشاكي».. جاء الجميع ليهنئني بالسلامة. وقد شعرت بالفخر، لكنني كنت أحتاج إلى قسط من الراحة لكي أستأنف عملي.. لذلك وجدت كل التفهم لدى مصعب الصراف وكذلك لدى الشيخ رشدي العطار الذي بات صاحب القرار الأول والأخير..

وصلت إلى تونس قبل يومين من الذكرى الـ 240 لعيد الاستقلال الأمريكي.. وجدت في علبة الإيميل دعوة لحضور هذا الاحتفال الذي سيشرف عليه السفير الأمريكي بنفسه.. وكما توقعت، فقد وجدت أمامي حضورا كثيفا.. امتد الصف إلى الباب الخارجي.. ثم فرشت السجاجيد الحمراء لاستقبال النخب التونسية. سياسيون من كل الأطياف، صحفيون، رجال أعمال، ناشطون في المجتمع المدني ونساء لا عدٍ لهن ولا حصر.. وحين أغلقت أبواب السفارة التي تتوسط العاصمة التونسية وتقسمها إلى نصفين، لتظل كقلعة مشرفة على حركة السير في الأرض وفي السماء، بدأ النشيد الرسمي الأمريكي (نشيد المارينز).. ثم تقدم السفير المستعرب إلى المنصة

بعد أن أكمل استقباله لزعماء الأحزاب والسفراء والوزراء ليلقي كلمة الترحيب: فجأة راح السفير الأمريكي يقرأ قصيدة الشاعر الراحل منذ نحو ثلاثة أشهر أولاد أحمد: نحب البلاد كما لا يحب البلاد أحد.. صباحا مساء ويوم الأحد.. ولو شردونا، لعدنا غزاة لهذا البلد).. سيطر على الجميع دفق عاطفي.. صفقوا بأدب شديد كما تفعل النخب المؤدبة والمدجنة.. ثم سمعت صديقتي وزميلتي سامية تقول لي همسا: انتبهي جيدا.. هذا السفير خطير جدا. أخيرا أصبح الشاعر أولاد أحمد بعد مماته، كبيرا حتى في أعين الأمريكان. ثم راحت تردد كما لو أنها أصيبت بفالج..

- شيء لا يصدق.. برافوا.. برافوا.. هذا شيء عظيم أن يبدأ سفير الولايات المتحدة خطاب ذكرى استقلال بلاده بنشيد أولاد أحمد عن حبه لتونس..

بعد أن أنهى السفير الأمريكي خطابه، توزع الحضور في أرجاء ساحة السفارة.. ذهب السفير ليتجاذب الحديث مع بعض الوزراء .وزعماء الأحزاب.. ثم رأيته يقترب من حين لآخر إلى بعض الصحفيين والناشطين السياسيين.. وآنذاك قالت صديقتي سامية..

- لماذا أنت على هذا القدر من الاستغراب.. قبل عامين، بدأ السفير الأمريكي في بغداد خطابه بقصيدة لسعدي يوسف.. وحين انتهى الحفل، جاء من يقول له: كيف تقرأ قصيدا لهذا الشاعر الذي هو ضد أمريكا منذ أن ولدته أمه.. صحيح أنه شاعر كبير، لكنه يحرض ضدنا إلى حد أنه بات متحمسا لداعش..

ضحك السفير ثم قال لمحدثه:

- أنا اخترت سعدي يوسف لأنه شاعر كبير.. ثم لأنه ضدنا.. ألا تعلم بذلك؟

يشبه أولاد أحمد، سعدي يوسف شبها غاية في الإتقان حتى لكأنهما شقيقان ولدتهما أم واحدة.. الخجل حين يكون صاحيا والسمرة والفم المكتنز.. وكثرة الشرب والتدخين والتسكع وحب المقاهي وكذلك حب النميمة والموهبة. لكنهما يختلفان في أشياء أخرى. لقد شق كل منهما طريق حياته بشكل مختلف. سعدي يوسف كان شيوعيا منذ نعومة أظافره. انتمى إلى اليسار وقضايا العالم الثالث، عاش متنقلا من بلد إلى بلد. لم يعد إلى بلاده منذ أواسط السبعينات.. أما أولاد أحمد فلم يغادر تونس أبدا إلا لسفرات قصيرة.. ولم يكن سياسيا، ولم ينتم إلى اليسار في جميع طبعاته.. مع ذلك فإن موهبته جعلته يتفوق على كل شعراء جيله في بلده.. ولا بد أن الإدارة الأمريكية تدرك قيمة هذين الشاعرين وإلا ما كان سفيراها في تونس وبغداد يفتتحان خطابهما بقراءة قصائد لهما!..

قبل فترة تساءل عملاق الأدب الأمريكي نورمان مايلر عن أصل النذالة الأمريكية. قال: «أن الذين يحكمون أمريكا متورطون في النذالة إلى أبعد حد.. فكما هم لا يفرقون بين بلد وآخر حين يتعلق الأمر بالاستيلاء على الثروات، فهم كذلك لا يفرقون بين ثقافة وأخرى حين يتعلق الأمر بالاستيلاء على مواهب الشعوب».. بحركة بطيئة يرفع مايلر يديه إلى السماء، يشير إلى المحيط وهو يمتد وراء الخليج الشفاف ويهز شعر رأسه

الأبيض ثم يقول بصرامة: لا بد أن أفضح سخافتهم وتهتكهم.. حتى لو أدى إلى تأخير كتابة روايتي الجديدة التي أشتغل عليها منذ عامين!.. لم يتراجع رغم الهجومات التي استهدفته من كل جانب.. المحافظون اتهموه بالتشكيك في العقيدة الأمريكية، والليبراليون شتموه لأنه عرى تناقضاتهم وأكاذيبهم، كذلك اليساريون لأنهم حسب اعتقاده يتلهون بالقشور والقاذورات ولا يمتلكون القدرة على المواجهة.

بين مايلر ومراد عباس أكثر من جيلين.. ولكنهما متلاحمان في معركتهما ضد البشاعة الأمريكية.. قال مراد في اليوم الثاني لاحتفال السفارة الأمريكية: لن أصمت على هؤلاء اليرابيع النتنة، حتى لو كلفني الأمر تأجيل إخراج فيلمي الذي أصبح جاهزا للتصوير.. كان وجهه متجهما وبدا في ذلك الصباح وكأنه قام من النوم فقط ليندد بتلك النخب المتهتكة والمتهالكة على أسوار السفارة الأمريكية.. صمت قليلا ثم عاود هجومه قائلا:

- هؤلاء ليسوا طابورا خامسا كما تعودنا أن نصفهم.. إنهم طابور سادس..

طلبت منه ستيفاني التي ذهبت إليه لتناول فطور الصباح معه بعد غياب طويل وقد اصطحب معه ابنهما طارق.. أن يشرح لها ما الذي يعنيه بالطابور السادس..

- الطابور الخامس يطلق عادة على العملاء المندسين.. أما السادس فهو يعني العملاء المكشوفين. ثم أضاف:

- تعودنا أن نرى حكومة وطنية.. وإلى جانبهما جماعات تشتغل

لحساب الخارج.. أما الآن فالحكومة نفسها هي التي تشتغل لحساب الخارج.. أن الطابور السادس هم أولئك المصطفين وراء بعضهم بعضا ينتظرون الوصول إلى بين يدي السفير الأمريكي. وختم قائلا:

- الطابور الساس لا يعادله إلا الأسطول السادس.. لنقل بطريقة أخرى الطابور السادس هم جنود الأسطول السادس..

فاجأته ستيفاني بسؤال من منطقة أخرى بعدما هدأ قليلا. فقالت:

- ولكن ألا ترى معي أن الزمن قد تغير.. لقد اختلط كل شيء ولم يعد هناك من أهمية لرؤية الأشياء على هذا النحو.. هل تستطيع أن تفعل شيئا آخر أكثر مما يفعل هؤلاء.. ثم ماذا بوسعهم أن يفعلوا ؟!

أجاب مراد بكثير من الوثوق واليقينية:

- إنهم يحولون التاريخ إلى مسرحية هزلية.. ولكن لا بد أنهم يصنعون مأساتهم بهذا التهتك المرضي.. هم الآن على قدر من البهجة لأن الأمريكان يسلمون عليهم ويفتحون لهم أحضانهم وخزائنهم، ويفرشون لهم السجاد الأحمر.. ولكن لا بد أنهم يشعرون بالخزي والعار.. ما هذا الخليط العجيب والغريب.. أناس لا يلتقون أبدا إلا حين تفتح السفارة الأمريكية لهم أبوابها.. أمام السفير يصبحون وديعين ومتعاونين ولطفاء. وما إن يخرجوا من السفارة حتى يتمترس كل واحد وراء حزبه وهو يحلل ما إذا كان سيجد الدعم من السفير لمحاربة خصمه السياسي. بعد فترة يكتشف

كل واحد منهم أنه لم يكن إلاّ خرقة.. ممسحة من الخيش والقش..

بعد ذلك قال مراد:

- ستيفاني.. أخبريني أنت كيف كانت رحلاتك.. هل أعجبتك الإقامة في اسطمبول؟

للحظات بدا فم ستيفاني فارغا من الكلام.. ثم قررت أن تقول له:

- هل تعرف يا مراد.. هل تصدقني لو قلت لك أنني ذهبت إلى الموصل، والتقيت بقائد داعش أبو عمر العدناني..

- أعرف أنك مجنونة أحيانا.. ولكن ليس إلى هذا الحد.. هل ما تقولينه صحيح؟

سألها مراد بغبطة السينمائي الذي يريد أن يكون حاضرا في المناطق الساخنة (ولمعرفته أن السينمائي لا يستطيع أن يكون صحفيا، ذلك أن الصحفي ملتصق بالحياة الواقعية بينما السينمائي ملتصق بعالم الخيال.. يدخل الصحفي إلى كل الزوايا المظلمة ويتعرض للمخاطر ويلطخ أحيانا يديه ببعض السيئات وهو يتعامل مع واقع سائل وساخن ومتلاطم، بينما السينمائي عادة ما يتعامل مع العالم كمادة صلبة يريد تفتيتها من جديد وباردة يريد تسخينها من جديد.. وواقع متفتت يريد تركيبه من جديد).. قال لها بصوت مهزوم:

- ما أشد رغبتي في القيام بهكذا عمل.. إني أشعر أنني أهملت الصحافة، ولم أكسب السينما..

ثم عاد يسألها:

- وكيف وجدت الأمور هناك.. هل ما نقرأه عن داعش صحيحا؟

- كانت تجربة مثيرة وصاخبة.. لامست فيها الخطر بأصابعي.. ولكني لا أعرف حقيقة حدود الواقع والخيال في تلك الرحلة. بكل بساطة أنا غير قادرة على الإجابة.. إن كان ما رأيته واقعا أم خيالا.. كل شيء كان مرتبا بطريقة عجيبة.. لم يكن للصدف أي مجال في رحلتنا.. وصلنا إلى الموصل في يومين. وبقينا هناك نحو أسبوع.. قمنا أنا وحبيب زميلي التركي بلقاء مع الخليفة.. أما سفيان، الكاميرامان، فقد قام بتصوير بعض الأسواق والمدارس ومعسكرات التدريب.. وحين عدنا لاسطمبول عرفت أن المقابلة قد يقع بثها في وقت لاحق.. وها أن أسبوعين أو أكثر وهي لم تبث بعد..

- يبدو لي الأمر، كما لو أنهم أرسلوك لمهمة أخرى.. ألم يخالجك هذا الشعور..؟

أجابت ستيفاني..

- لذلك قلت لك قبل حين الأمور باتت مشوشة ومختلطة على الجميع.. الحقائق التي تتحرك أمامنا ليست حقائق.. لقد وقع تجميعها من الأكاذيب.. وبعد حين ستولد حقائق أخرى.. إن صناعة الواقع لم يعد متوقفا على تراكم التجربة والخبرة والعمل أو نتيجة لتغير في علاقات الإنتاج كما يقول معلمك ماركس، وإنما هو بات نتيجة لقوة الدفع لدى الافتراضي.. ثمة عالم افتراضي آخر نعيشه هو غير عالمنا الواقعي.. بل عالمنا الواقعي يبدو لي هو الافتراضي..

- هل أفهم منك أن داعش مجرد ضرب افتراضي..

- لربما.. قالت ستيفاني ثم أضافت..

- ذهبت إلى هناك لأرى ما يحدث فعلا.. وحين عدت لم أكن أعرف ما الذي يحدث هناك فعلا.. كلامي هذا غير منطقي ربما ولا ينطق به صحفي يذهب إلى المناطق المبهمة والمتشابكة ليفك الظلمة والغموض للناس.. ولكن لو أردتني أن أكون صادقة، فإن ما عدت به من الموصل ليس أكثر من حقيقة افتراضية..

ظل مراد يتابع ما تقوله ستيفاني وهو متأهب للعثور على جملة مفيدة أو معلومة أكيدة، لكنه لم يجد أي شيء واضح في كلامها.. تذكر ما قرأه عن الصحافة البورجوازية التي تبدأ في تدمير وعي القراء بحذلقاتها لتنتهي أخيرا بتدمير وعي الصحفيين أنفسهم.. ثم نطق:

- ستيفاني، أحسست أن عصر الصحافة قد انتهى.. فهل بدأ نحو المغيب.؟

- بصراحة لم يعد بإمكاني أن أكون أحيانا «فلاتشي» أخرى ولا «كلير ستيغلر» أخرى.. أجابت ستيفاني بنوع من الخفة ثم استأذنت الانصراف مع ابنها طارق.

قام مراد كذلك وخرج معها من المقهى (مقهى مورنمارتر) واضعا يده على رأس طارق. ثم ساروا الثلاثة نحو الباركنج.. قال لها وهو يودعها طابعا قبلة خفيفة على خدها وقبلتين على وجه طارق:

- هناك.. خلف تلك الشجرة، كان يقف القتلة.. قتلة شكري بلعيد..

*** *** ***

بين الشاعر والسينمائي، هناك دائما علاقة حميمية ومتوترة في نفس الوقت منبعها اهتمام كل منهما باللغة.. الشاعر يعتقد أن اللغة ليست سردا ولا هي وسيلة تواصل. فهي ليست إلا لحظة قيامية تخترق التاريخ دون أن تهتم كما يصر عبد القادر الجنابي، بينما السينمائي يعتبر أن اللغة هي جسر بين التاريخ والشعر، والجسر ليس نصا فقط، بل هو سلسلة من الصور والصدف والترادفات والحوادث والأصوات. وهذا هو رأي مرد عباس حين يدخل في نقاشات مع صديقه الشاعر فريد ريكوبي الذي يعجبه جدا أن يتحول اسمه على ألسنة أصدقائه «فريدريكو لوركا».. مراد عباس هو الذي أطلق عليه اسم فريدريكو لوركا. فذات يوم قال له:

- أنت فعلا تشبه فريدريكو لوركا.. لا ينقصك شيئا حتى تصبح لوركا إلا أن يقتلك ديكتاتور. وبما أنك هاجرت من العراق ولم يتمكن منك الدكتاتور.. فما رأيك أن نصنع فيلما بطله أنت، لأقتلك في نهاية الفيلم!..

ضحك فريد ريكوبي ثم أجاب:

- إذا كنت لا ينقصني إلا الموت أو القتل لكي أصبح لوركا.. فأنت ينقصك فيلما بروعة الكلب الأندلسي لكي تصبح سينمائيا شهيرا مثل بونويل..

- جميل.. رائع.. إنك متيقظ جدا، بالرغم من أنك لم تأخذ بعد قسطك من الجعة.. قال مراد ثم أضاف:

- والله، فكرت في ذلك مرارا.. إنك تقرأ أفكاري يا مراد.. حتى

صرت أخاف أن تسرق قصائدي..

ثم سأله:

- ما رأيك في عنوان «الكلب العراقي»؟

- سوف لن نختلف.. قد يكون عنوانه «الكلب العربي»

قال فريد ريكوبي ذلك وقد بدأت الفكرة تشع من عينيه، بل تكاد تندلق من عينيه..

- سوف نجعلهم حزانى ومقهورين بهذا الفيلم إذا ما أنجزناه.. سنجعل من أحشائهم تتمزق وعظامهم تتكسر، أما أفكارهم فسوف نجعلها خرقا لمسح أحذيتنا..

- من هؤلاء يا فريد؟..

- هم.. يا مراد.. إنك تعرفهم جيدا.. أولئك الذين يتسولون بطاقات التأمين والدعم من السفارات ووزارة الثقافة ليصنعوا أفلاما تتحدث عن نكاح المحارم والحمامات والسحاق لتنشيط العيون الشرسة.. عيون الغرب الشره والمتجبّر..

أضاف فريد يقول:

- جاء الرسامون المستشرقون فهتكوا الأجساد وكشفوا عن أفخاذ الصبايا وصدور الفلاحات.. وها هم السينمائيون يكملون المهمة منذ ما يزيد عن قرنين..

دار كل هذا الحديث في الطريق إلى بار (الشيلينغ) وحين انزويا لوحدهما في آخر القاعة، طلبا من النادل أن يأتيهما بقنينة من «الماغون القديم» وصحن عجة مشترك.. ثم عاد مراد يقول..

- لا نريد فيلما يتحدث عن سيرة ذاتية أو ما شابه.. لا نريد أن يكون الفيلم جزء مما يسمى بالثقافة الجماهيرية. نريده فيلما يبحث عن معنى اللغة.. هل تعرف يا فريد أن اللغة هي العزلة نفسها.. يخترع الإنسان العادي اللغة لكي يتواصل مع الآخر.. ولكن الفنان يصنع لغته لكي ينعزل.. لكي يحمي نفسه.. لكي ينفرد.. لكي يطير بأجنحته الخاصة.. تلك هي مهمة السينما كما أفهمها. بعبارة أريد فيلما شرسا يشبهنا تماما..

قال فريد وهو يصرخ..

- الله عليك يا مراد.. أخيرا أصبحت تتكلم مثلي..

(فعلا كان الأمر مستعصيا على الفهم حتى على سلفادور دالي.. كيف يحدث أن يتشابه شاعر وسينمائي.. أو لأقل، فنانان إلى هذا الحد.. حينما التقى دالي بلوركا أحبه إلى حد اتهم فيه باللواط.. قال له: أنت شاعر وأنا رسام.. أنت جمهوري وأنا ملكي وفرانكوي.. ولكن لماذا تحبني وأحبك إلى هذا الحد.. أجابه لوركا: لأننا نتشابه في احتقارنا لهذا العالم البائس.. وفي براعتنا لمعرفة الجمال.. وكذلك في لغتنا..) وثمة ما هو أبعد لدى فريد ريكوبي الآن وهو يتحدث مع مراد عباس.. فهما قد تورطا داخل غابة من الأفكار المشتركة وكأنها إرث عائلي لكل منهما.. بينما كل واحد منهما مولود في مكان ما.. فريد مولود في الشرق الإسلامي. ومراد مولود في الغرب الإسلامي!؟

كان فريد قد ولد في إحدى حارات الرشيد في قلب بغداد القديمة. كان إذا خرج من بيتهم وهو صغير يصطدم مباشرة

بمقهى البرلمان العتيق والعريق.. وقد كان من جلاسه أشهر مذيعي هتلر في إذاعة حي العرب، يونس بحري والبياتي ونصف دزينة من وزراء نوري السعيد بعد أن خرجوا من السجن، وبعض الأعيان إلى جانب المقاولين والتجار. وقد كان أبوه الحاج عبد الفتاح الريكوبي من جلاس هذا المقهى، لذلك لم يكن بعيدا عن أجواء الشعر.. فقد الفت عيونه رؤية شعراء كبار وكتاب ومثقفين كبار.. لكنه كان دائما حذرا لما يمكن أن يخترق هشاشته كطفل يدخل باحثا عن أبيه لحاجيات منزلية.. «كنت أبحث عن لغتي منذ أن وعيت على نفسي.. وحين أعجز عن الكلام بشكل مختلف كنت أختار الصمت.. إن الصمت هو الذي علمني فرادة لغتي.. وأعتقد أيضا أن الصمت هو الذي جعل مني شاعرا..» أنهيت دراستي الجامعية مبكرا.. ثم بدأت أنشر في المجلات الثقافية بعض قصائدي.. وكان يمكن أن أذهب إلى الجندية لمدة عامين ثم أتولى وظيفة كما فعل أغلب زملائي.. ولكنني اخترت أن لا أقع تحت طائل الخدمة العسكرية.. دفعت أبي إلى دفع بدل الخدمة ثم دفعته بأن يمكنني من جواز سفر ثم غادرت العراق.. وحين وصلت إلى لندن، اندفع الجيش العراقي إلى داخل الكويت.. ثم انتقلت إلى باريس. ومنها إلى تونس.. لم يكن ذلك باختياري، فتونس لم تكن ذات جاذبية بالنسبة إلي.. ولكني جئت باحثا عما تبقى من الفلسطينيين..

«كنت شغوفا بقضيتهم. ولم أتمكن أن ألتحق بهم في بيروت. فحين خرجت من العراق، كانوا هم قد خرجوا مطرودين من بيروت.. في تونس قررت أن أصنع قدري بنفسي، ولكن لا قدر

للشعراء في هذا البلد.. حتى الشابي ليس أكثر من درس في البرامج المدرسية.. ولو أنه عاش في دولة الاستقلال لأرسل إلى السجن بتهمة التمرد». أيقظتني من هذا الغوص الحنيني في قاع الذاكرة قهقهة أحد الزبناء الذي جلس على الطاولة التي تقع ورائي مباشرة.. كان علي أن التفت لأتثبت من مصدر تلك القهقهة الصاخبة، فإذا بي أجد الممثل الكوميدي جميل عطية يلاصقني بظهره.. أدرت رأسي نحو مراد فورا ثم قلت له:

- ما رأيك في جميل عطية كبطل للفيلم .. «الكلب العربي»؟

جاء فريد ريكوبي إلى باريس من العراق شبه هارب من الانقلابات وحكم الضباط والفاشيات البدوية كما كان يقول. وجئت أنا إلى باريس من بلد قد غرق في الإذلال بسبب شيخ أطال الجلوس على كرسي الحكم ثم أعقبه جنرال مزيف ومدجج بالعنف والكراهية وبكل ما هو فوق الرداءة بقليل.. لا أذكر أين التقينا لأول مرة في باريس.. ولكن سرعان ما أصبحنا أصدقاء. كان لا يحب أوساط العراقيين الذين هجموا على الحي اللاتيني كالذباب في سنوات التسعين.. وكان يقول أن العراقيين ببعثييهم وشيوعييهم وبجميع طوائفهم لا يحسنون إلا المناحات.. وكنت أنا أيضا أبتعد بقدر ما أستطيع على حلقات التونسيين الموبوءة بالاتهامات والخزعبلات.. كلهم يتكلمون عن تونس ويحبون تونس، ولكن لا أحد يتكلم مع الآخر أو يحب الآخر.. الماركسيون بأنواعهم يشتمون القوميين والقوميون بأطيفاهم يشتمون الشيوعيين.. وهؤلاء جميعا يندِدون بالإسلاميين ويرونهم كما لو أنهم كائنات مصابة بداء الجرب.. أما الإسلاميون المنهمكون في تجارة الروبافيكا وأمعاء

البقر ورؤوس الخرفان والخضار الفاسدة والمولعون بفتح دكاكين الفطاير والزلابية والمخارق واللبلابي والكفتاجي، لا يعيرون أي اهتمام لما يسمى باليسار.. كانوا يقولون: لقد انتهى عهدهم. لكنهم لا يقشعون.. عميان في كل وادي يهيمون. في الحقيقة كانوا أكثر تلاحما من اليسار، وأكثر وعيا بالرحلة والمحنة ! فمنذ أن رأوا انهيارات الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية حتى أدركوا أن عصر الإلحاد الإيديولوجي أو عصر الإيديولوجيات الملحدة قد انتهى.. كانوا لا يترددون في القول أن لولا نضالات الإسلاميين لما سقط الإلحاد الشيوعي.. وفي الوقت نفسه كانوا يهيأون أنفسهم لمعارك أخرى.. ولما تعفنت الأوضاع في الجزائر بعد اندلاع الحرب الأهلية بينهم وبين «نظام الجنرالات الفرنسيين» رأوا أنهم أصبحوا قريبين من إنجاز مهمتهم في تونس.. وحين انفتحت حرب البوسنة، أصبحوا متحمسين للدفاع عن ذلك الشعب البوسني.. ذهب منهم الكثير للقتال هناك تحت رعاية الأمن الفرنسي.. وحين عادوا، عادوا بتجربة في القتال وحزمة من العلاقات العامة والدولية.. تعرفوا على الخليجيين الممولين لحروب أفغانستان والبوسنة وكذلك على الأتراك الذين بدأوا ينتشرون في أوروبا منذ عهد أربكان، وكانوا يعرفون كيف يجمعون الأموال ويكسبون الناس حتى بدأوا يفرضون احترامهم على الجميع.. كانوا يقولون، أنهم أصحاب قضية ولا بد أن ينجحوا ذات يوم.. في ذلك الجو قررت العودة إلى تونس. وكان صديقي فريد ريكوبي قد سبقني إلى تونس. فقد هاتفني عدة مرات وأنا لا زلت في باريس يدفعني إلى العودة قائلا لي:

- الأجواء في تونس أكثر هدوءا واقل ضجيجا. الناس طيبون.. الجعة متوفرة بكثرة والإخوان كلهم في السجن.. ارحل من باريس.. لقد هجم عليها الذباب من كل صوب: الأفارقة والغجر والأكراد والإسلاميون والأتراك وكذلك الهامبورغر ورداءة الطقس.. باريس لم تعد باريس.. و«الحي اللاتيني» أصبح حيا لأصحاب القضايا الميتة!..

كنت قد أنهيت دراستي في الإخراج السينمائي.. وبدأت أتعرف على أوساط السينمائيين الفرنسيين، لكنني وجدتها أوساط مغلقة وكئيبة وتعيش على المنومات وغارقة في الأعمال الرديئة. كانت السينما آنذاك تمر بأخطر مرحلة. فمن جهة ثمة سينماءات أخرى قد فرضت نفسها كالأمريكية.. ومن جهة أخرى بدأ التلفزيون والفيديو ينتزعان المبادرة من بين يدي السينمائيين.. بالإضافة إلى عدم قدرة الفرنسي أن يتخلص من فولكلوره وتيماته المملة والضيقة.. انتهت مرحلة الطلائعيين وحل محلهم التجار الذين عجزوا على منافسة الفيلم الأمريكي.. وذات يوم قررت أن أعود إلى تونس مدفوعا بحماس شديد من أجل أن أصنع تجربتي الخاصة انطلاقا من بلدي..

كان رأسي لايزال ممتلئا بأفكار لا مكان لها في تونس.. فأنت لا تجد من يعرف ماركيوز أو ويلهام رايش أو بولنتزاس ولا حتى الألوية الحمراء.. أو التوبوماروس أو حتى نورمان ميللر.. أو هنري ميلر. بدت لي تونس منذ الأشهر الأولى كما لو أنها سبورة قد تم مسحها ليبدأ درس جديد ووحيد.. سيطرت النزعة الجدانوفية على

الجميع.. حتى الذين كانوا يعرفون، أخفوا انتماءاتهم السابقة وبلعوا ألسنتهم لكي يغتنموا فرصا حقيرة وصغيرة من بين أنياب الوحوش الجديدة.. كانت الرداءة هي المنتوج الوحيد لتلك السلطة الغبية.. وكان الامتثال والخضوع هو الطريقة الوحيدة للعيش بسلام.

وجدت فريد قد أصبح يمتلك شبكة من الأصدقاء سرعان ما اندمجت معهم.. شبكة تمتد من الشيوعيين على أصنافهم حتى بائعي الحشيش والقصائد في الأعراس الشعبية.. ثم بدأت أتهجى المشهد الجدانوفي: شلة السينمائيين مع شلة أخرى للشعراء إلى جانب شلة أخرى من الصحفيين وأخرى للكتاب.. وكل شلة لها «بيت ومفتاح ومشروع».. المفتاح الحديدي والثقيل لباب «بيت الشعر» كان لا ينام ليلتين إلى جانب أولاد أحمد أو زميله المنصف المزغني.. كل منهما كان يترصد الآخر خوفا من انقلاب أحدهما على الآخر.. تواصلت المعركة حتى فاز المزغني في المعركة ونال المفتاح الذي يشبه مفتاح محسن مرزوق في مشروعه الجديد لفتح تونس! لم يصمت أولاد أحمد وراح يندد بالسلطة التي انحازت إلى منصف المزغني.. وصفه أولاد أحمد بأوصاف قذرة وقال عنه: أنه بائع لفت وقصائد.. لأنه يلقي قصائده في الأعراس لقاء مبالغ مالية قيمتها أقل من ربطة لفت.. ورد المزغني: «إذا كانت جماعات المزود يتلقون الأموال مقابل إفسادهم للذوق العام، فلماذا لا يبيع الشعراء قصائدهم ليتحسن مستوى الشعب!».. كانت «بيوت الثقافة» التي انتشرت بكثافة في تلك السنوات هي عبارة عن «بيوت حراسة» لمراقبة الشعراء والكتاب والصحفيين، بينما جدانوفيو النظام يعتبرونها إنجازات عظيمة تضاف إلى القناطر

المهلهلة والطرقات المغشوشة! صاغت كل شلة شعاراتها وأفكارها على مقاس النظام.. وكل من قاوم تلك الانضباطات، أرسلوه إلى العزلة بإشاعة الاتهامات. كان الوضع سورياليا دون أن يكون هناك سرياليون.. وهو ما قد يعني أن عصر الرداءة والانحطاط قد ساد على كل المناخات.. فعلا لقد حضر الإنسان ذي البعد الواحد إلى تونس وأصبح هو صانع للمصير الجماعي.. مصير المجموعة الوطنية.. كانت هناك نزعتان في البلاد كلاهما انحطاط وإسفاف: الأولى تسمى بالمجموعة الوطنية والثانية تسمى بالجماعة.. والجماعة هنا.. إما هي جماعة النظام أو جماعة الشيلينغ أو جماعة المسرح أو الجماعة الإسلامية.. كل الناس يصبون إلى العيش المستقر والأمن.. أصوات من كل اتجاه تدعو إلى المحبة والتكاتف.. وصوت القايد يوعز بالانتقال إلى عصر الرفاهية الذي لا نظير له.. عصر في منتهى الروعة والجاذبية!.. عصر اتحد معه شعراء كثيرون ومثقفون ونقابيون وماركسيون سابقون ومناضلون لتجفيف المنابع مخافة أن ينضب المنبع الكبير.

ذلك زمان قد ولى.. أغلقت ذاكرتي التي باتت تتبول عليّ كلما حاولت تنشيطها.. ورأيت أن الإنسان يمحو آليا ذاكرته التي لا يريدها أن تتذكر حتى لا تتعرض للعقاب في زمن الاستبداد.. أما في زمن الحريات، فإن الذاكرة تعود لتتذكر كل ما كان يعرضها للعقاب.. ذهب الزمان، ولكن رجاله لا زالوا موجودين بأفكارهم وخبثهم وآليات بطشهم وغبائهم ودناءاتهم.. وها أنا الآن مأخوذا بين زمنين قد تعانقا وتواصلا عبر جسر مهدد بالانهيار.. ولكن لحظات الكآبة في الزمن الجديد أصبحت أراها أكثر افتراسا

وتوحشا.. فارغة من كل أمل كما كانت في الزمن الأول وخالية من أي وعد.. إنها كآبة الزمن المفتوح على الخواء والهباء!.. ومع ذلك فثمة دائما فتحة في مكان ما!..

*** *** ***

كما كنت ولازلت معلقا فوق جسر من الهشاشة بين زمنين، كنت كذلك معلقا بين امرأتين تتبادلان الحضور والغياب.. الأولى هي زوجتي السابقة ستيفاني نيكولاس التي لاأزال صديقا لها دون التزامات وواجبات أخرى.. والثانية هي مهى زعفراني التي اعتد بصداقتها ووعودها الجمالية.. كلما اقتربت مني ستيفاني التجأت إلى مهى، وكلما تقدمت علاقتي بمهى، أحس برغبة في العودة إلى ستيفاني.. كلاهما كائنان من البللور والإشعاع.. بداخلهما قوة مغناطيسية جبارة.. تحبان السفر واجتياز الغباء عن طريق التنقل السريع من مناخ إلى مناخ.. كان ذلك في حد ذاته يشكل لي إغواء لا فكاك منه حتى أن صديقي فريد لطالما اقترح علي كتابة رواية عن هاتين السيدتين لكي تخف لدي درجة الإغواء.. قال لي أيضا فريد، أن صداقتك بمهى وستيفاني تشبه النص الشعري، لا يفرغ صاحبه من كتابته حتى يصبح صارما معه بأشد مما هو صارم عند كتابته.. ثم يصبح مهووسا بأن أحدا قد يسيطر عليه.. أو يصبح عبدا له لأنه لا يريد أن يتجاوزه . أو يصبح حريصا على إخفائه حتى لا تفتض بكارته أو يسرق شعراء منحطون تقنيات كتباته.. أوحى لي فريد بتلك الرغبات الغامضة دون أن يشعر، وحالما ودعته في منتصف الليل أمام «بار الشيلينغ» الذي راح يتقيأ آخر زبائنه مع القطط والعسس، ذهبت مباشرة لاستلقي

على فراشي باحثا عن مهى عبر المسانجر، حيث لم أعد أعرف إلى أية مدينة قد وصلت..

- مساءات الفرح، مهى..

أقول لك: مهما كانت درجة الثقة بأنفسنا، فإننا لا نعرف متى وكيف نقع تحت سلطة الإغواء..

بعد لحظات ارتعشت إشارة الإجابة على صفحة الايباد.. ثم قرأت..

- هاي مراد.. تصورتك غرقت في قصص أخرى.. لا أظنك تستسلم بسهولة لأي نوع من السلطة!..

ستجدينني دوما طريا ومطواعا.. وأحيانا نزقا..

- نسيت معنى كلمة نزق.. أظن قد رايتك في لقائنا الأخير (قبل أسبوع تقريبا) نزقا!.. أنا أيضا قد أكون أحيانا نزقة.. سمعت منك كلاما مهما ومثيرا.. وكان يجب أن أنتبه أكثر لما قلته.. واذكر كل الكلام ولكني لم أفهم كل شيء.. ربما كنت تحت سلطة ما!..

- نزق يا مهى، هو ذلك الطفل الذي لا يعرف حدود الجد واللعب.. بالنسبة لي كان لقاؤنا لحظة اختبار للزمن وللمزاج، لكي نتأكد من مستوى الإثارة.. أنا أيضا استمعت واستمتعت بكل كلمة نطقت بها.. كنت تخلطين الكلام بالضحك، وكنت كلما أردت أن أسمع الكلام، استمتع بالضحك أكثر.. رأيتك منشرحة ومنطلقة ومرحة وكذلك معلقة بين لحظتين أو لنقل بين خيارين: الاستسلام العفوي أو الاندفاع إلى الأمام للشعور بالانتصار.

أعترف أنك عرفت جيدا كيف تنزعين مني الكلام ثم النصر.. بعد الوداع، كدت أن أصاب بوعكة غيرة.. عانقت طيفك ودخلت لأنام، لكن النوم جاء متأخرا وشامتا.. إني أراهن أنك لم تتخلصي بعد من سلطة ذلك الرجل الذي اعترض سبيلك في المطار وفرض نفسه عليك كما لو أنه كان يعرف أنني أنتظرك منذ زمن طويل!..

- أعترف أنني كنت في غاية الانشراح معك. لا أظنني أنني انتصرت على شيء.. كما لا أظنني أنني كنت تحت سلطة ذلك الذي اعترض سبيلي (قالت لي مهى أن رجلا من الجزائر قد تعرفت عليه في مطار أورلي في بوكس الرحلة المتجهة إلى تونس، وأنه جاء ليجلس إلى جانبها بعد أن أصبحت الطائرة في الجو.. وقد تعلل بأنه لا يحب الركوب في المقاعد الأمامية..).. كنت تحت سلطة مشاعر وأحاسيس لطالما أربكتني! كنت في صراع بين الرغبة في الاستسلام العفوي.. أو التريث.. وقد اخترت التريث.. كنت فعلا سعيدة والسبب هو شعوري أنك تفهمني كما يجب.. أرجو ألا أكون مخطئة!..

قمت بسرعة نحو البراد باحثا عن علبة من الجعة.. ثم عدت إلى الأيباد بعد أن صغت ردا خفيفا..

- والله أني اشعر أنني اسعد رجل في تونس الكئيبة. هل تعرفين لماذا؟ لأنني يا مهى ببساطة عثرت على المنتوج النسائي الذي ابحث عنه.. لم اعرف من قبل أنني سأصل. ولكن هل وصلت فعلا ؟!

- وما هي مميزات هذا المنتوج النسائي كما وصفته؟

(كنت أعرف أنها ستلقي علي بمثل هذا السؤال لذلك فقد

أجبت بدون بحث طويل عن الكلمات)

- الرقة.. التدفق في الضحك.. القدرة على السيطرة على العواطف الملتهبة (ليس دائما على ما أظن) الأناقة وكذلك القدرة على السرد.. الحكاية هي الأسر الجميل للكائن البشري.. هي الترويض لشياطين الداخل. أما الأنوثة فهي عنوان أصيل لطغيانك الجميل..

- ومتى تبين لك كل هذا.. خاصة القدرة على السرد؟

- كل ذلك بدأ يلوح لي مع عشاء تاليران.. ومع المحادثة التي أجريناها وأنت تجلسين في مقهى المادلين بباريس.. ثم اتضح لي مع عشاء الماغون الذي تناولناه معا.

- جميل ما تكتبه لي.. إني أسمعه بأذني حين أقرأه.. مغر جدا..

كنت أرغب أن أحدثك أكثر حين كنت في البرتغال.. ولكنني لم افعل لأنني كنت مترددة!..

- ألا يكون السيد ماغون لعب برأسك. ماغون المهندس الزراعي الكبير، كان صديقا لحنبعل لأنه كان يمتلك قدرة عجيبة على السرد. عاشا معا في الريف بعد أن هزمت قرطاج ثم هربا معا إلى المغرب الأقصى.. ثم ترافقا معا إلى سوريا ثم إلى أرمينيا هربا من بطش روما.. وكانت حكايات ماغون التي لا تنتهي محرضة لذاكرة القايد حنبعل.. وها هو السيد ماغون لايزال يحرضنا على السرد حين نحتسي منه كأسين أو ثلاثة!..

- إنك تثيرني.. نعم أعرف القليل عن ماغون.. المهندس الزراعي القرطاجني، أما نبيذ الماغون فلم أعرفه إلا معك. ولكن كيف

عرفت أنني خجولة. التردد كان واضحا، أما الخجل فقد أغلقت عليه جيدا حتى لا يتسرب إلي!!

- مهى.. مهما أخفينا خجلنا فإنه يتسرب إلينا عبر نوافذ أخرى.. الضحك المسترسل علامة خجل.. نعم أنت خجولة لكن خجلك ممزوج بالحياء والحذر واليقين، وهو علامة ذكاء وفطنة تعبر عن نزعة ثورية كما يقول ماركس. أما التردد فهو يشبه عمى الألوان.. ما يلبث أن ينهار أمام الضوء الساطع..

- نزعة ثورية! أعترف أنها موجودة بداخلي رغم كل مظاهر الانضباط والامتثال ولكن لم أتصور أن يكون الخجل من ملامحها.. كم هو جميل ما قلته لي عن عمى الألوان ولحظة الانقشاع تحت الضوء الساطع..

أنا لا أناور أمام اندفاع الحواس. أنا واضحة جدا..

- قولي يا سيدتي بكل وضوح، متى ستعودين من كندا.. ومتى سأراك ثانية..

- لا أعرف.. لكن بالتأكيد ستراني..

- تثيرني كلمة لا أعرف لأنها نابعة من ضلع الدلال والغنج. ولكني أعرف أنك تعرفين.. قولي.. لا تتركي التردد يهاجمنا..

- حقا لا أعرف.. ولكن بعد أسبوع سأقول لك.. يجب أن أتريث. فأنا كثيرة السفر والاندفاع ولم يسعدني ذلك أحيانا. قلت لي مرة إنك تحب من يحبك.. أنا أيضا كذلك.. أنت تشبهني وعلي أن أتريث.. أخشى هذه Faiblesse. ولا أحب استعمال كلمة

ضعف إذ تبدو لي أشد حدة مما أشعر به فعلا.. لا بد أن هناك كلمة بالعربية أكثر أناقة وأقل حدة لكنني لم أجدها..

- لعلها هشاشة الكائن البشري، تلك التي يتحدث عنها كونديرا.. إننا لا ننظر إلى المرآة كل صباح وكل مساء إلا لأننا نشعر بالهشاشة.. أو لأننا نبحث عمن يشبهنا.. وتلك هي رحلة نرسيس الشيقة والمعذبة.

- أخشى نرسيس يا مراد. كثيرا ما جعلني أخطئ.

- يمكنك ترويضه.. نرسيس في معناه الأول ارتدادي..

- وما المعنى الذي تقصده ؟

- هو البحث عمن نحبه.. عمن يشبهنا.. عن ذواتنا في النهاية. أنت لا تخطئين. أنت تراكمين تجربتك.. سأجعلك معتزة بأخطائك.. وسأكون نرسيس المضاد..

- جميل ومنعش ما تقوله لي.. إنك كما لو كنت تداعبني. إذن أفهم أن البحث عمن يشبهنا هو انعكاس لأرواحنا في أرواح أخرى. أترى أننا نتشابه فعلا ؟!

- نعم.. أنا خجول أيضا ومتردد ومندفع في أحيان كثيرة..

- ولكني لم أر خجلك ولا ترددك. ولكن رأيت بعض الاندفاع المتزن.

- أصارحك يا مهى.. كنت على وشك أن أحضنك لأمنحك بعض السعادة ولكني لم أتمكن

- آه يا مراد لو ترى ابتسامتي الآن.. أظن أنها ستمنحك ما

يكفي لنوم عميق..

- أتخيل ذلك.. سأذهب إلى النوم الآن.. قبلاتي الحارة يا سيدة الشلالات العالية..

في صباح اليوم التالي، استيقظت على رائحة الورد. وضعت قهوة مرة أمامي ثم فتحت الايباد باحثا عن خيال مهى.. كان حوارنا ممتعا البارحة (بتوقيت تونس) وكان أيضا الربيع (ربيع تونس) قد بدأ ينشر ألوانه وروائحه.. وكان لا بد أن أتفطن أيضا إلى أن توقيت كندا لا يناسب أحاسيسي الجياشة. فمهى لا بد أنها نائمة الآن.. وهي لن ترد علي إذا ما كتبت إليها.. في ذلك الصباح تذكرت أن علي أن أحضر حلقة نقاش عن روزا لوكسمبورغ.. وقبل أن اخرج من البيت وجدت نفسي اكتب لها:

- هذا النهار ربيعي.. الربيع قصير جدا في بلادنا.. قد يذهب في غفلة منا دون أن نتمتع به، كما تبخر ما يسمى بالربيع العربي. أنا سأخرج الآن لحضور ندوة عن روزا لوكسمبورغ.. وفي المساء سأعود إليك لأجدك متفتحة كورد الربيع!..

الفصل الرابع عشر

بفضل كتابات «روزا لوكسمبورغ»، أيقنت أن الأحزاب العمالية تآمرت على ثورة العمال، إن كان ذلك في روسيا أو ألمانيا أو بولونيا.. أشكر العفيف الأخضر الذي دلني عليها. كانت بالنسبة له أيقونة الفكر الثوري. قال لي:«أنها تفوقت على لينين وحتى على ماركس في نقدها للدين وللاقتصاد الرأسمالي».. ولدت هذه الفيلسوفة في بولندا بعد إحدى عشر سنة من موت ماركس.. وعملت بالتجارة ثم أصبحت مواطنة ألمانية بزواجها من عامل ألماني.. تعرفت على بليخانوف في زوريخ وكادت أن تتزوجه. وعند اندلاع الثورة الروسية في 1905 عادت إلى بولندا فألقى عليها القبض.. بعد ذلك تزعمت مع كارل ليبكنخت الجناح الراديكالي من الحزب الاشتراكي الألماني. عارضت الحرب العالمية الأولى ثم عارضت نظرية لينين القائلة «بأن الحزب الشيوعي هو أداة البروليتاريا لتحقيق دكتاتورية البروليتاريا». قالت أن ذلك ما أفسد الديمقراطية ثم أفسد الأحزاب.. آنذاك أسست «عصبة سبارتاكوس» التي كانت نواة الحزب الشيوعي الألماني.. انتهت الحرب العالمية الأولى فأعلن ليبكنخت الجمهورية الألمانية الاشتراكية.. وبعد أسبوع فقط تم

اغتيالها مع رفيقها ليبكنخت. قال مؤرخون كثيرون: لو نجحت روزا في مشروعها لتفوقت على لينين. ونظر لها آخرون على أنها العقل الثاني بعد ماركس في الفكر الشيوعي.. آخرون رأوا فيها المثال الذي لا ينجح لأن كان لها مشروع ثوري، ولم يكن لها مشروع سلطة كما لينين.. ورغم كونها لم تكن ألمانية بالولادة وناضلت ضد القومية الألمانية والرأسمال الألماني.. إلا أن ألمانيا الرأسمالية الحالية تضعها في مرتبة القديسين.. وتقوم بدعم «مؤسسة روزا لوكسمبورغ» في كل مكان من العالم. ثم أنشئ صندوق «روزا لوكسمبورغ» لدعم التربية السياسية وإنتاج التحاليل النقدية للرأسمالية وتطوير الحوار بين القوى التقدمية في العالم، وتقديم بعض المنح الدراسية!..

حين جاء دوري في الكلام، أقول بصراحة، سيطر علي طيف «مهى» ورحت أبحث عن خطوط التشابه بينها وبين روزا لوكسمبورغ.. لم يكن هناك إلا خيط واحد يربط بين هذين الكائنين الخفيفين.. هو خيط الشغف بالحياة والمغامرة. ركزت بشكل قصدي على الجانب العاطفي لروزا لوكسمبورغ ورأيت أنها ذات شخصية رومانسية حالمة. كانت ثورية بنسبة 90 ٪ كما قال عنها غيفارا الذي قال عنه «ماو» أنه كان ثوريا بنسبة 70 ٪. عاشت أكثر من قصة حب بين بولندا وألمانيا وزوريخ.. أحبت ليتوانيا وحامت حولها شبهة علاقة مع بليخانوف وأحبت فرنسيا وصفته «بالنتن» في أحد رسائلها ثم تزوجت عاملا ألمانيا.. لا أدري حتى الآن ما إذا كانت «مهى» قد أحبت رجالا كثيرين، ولكن مما لا أشك فيه أن رجالا كثيرين قد أحبوها لأنها امرأة تبدو كأنها

جاهزة للحب أو قابلة لأن تحب.. خلال جولاتها من كندا إلى البرتغال مرورا بباريس وأمستردام لا بد أنها تعرفت على أكثر من رجل.. أكثر من جسد، أكثر من ثقافة في الحب.. كل ما أعرفه أنها كانت متزوجة من تونسي وطلقت دون أن تنجب.. وأن لها حاليا صديقا فرنسيا /كنديا / إفريقيا اسمه برنار، لكنها لا تعيش معه.. لم أعثر على نقطة التمفصل (بلغة الديالكتيك) بينها وبين روزا لوكسمبورغ، لكنني وجدت شبها بينهما في تجربة المنفى.. ذلك المنفى الصوفي الكامن داخل كل منهما.. ذلك المنفى الجوال الذي جر ويجر كل منهما إلى حيث انعكاس الروح في روح أخرى..

وعند الظهيرة فتحت الأيباد متلهفا لأجد ثلاثة رسائل قصيرة من مهى.. كتبت في الأولى: لا تترك الربيع يمضي دون ان تقبض عليه.. أريد أن أتمتع به قليلا.

في الرسالة الثانية قالت لي: لاحظت البارحة أننا حطمنا الجدار الأول.

في الرسالة الثالثة قرأت التالي وهي تسألني: ألا ترى أننا دافعنا بضراوة عن ضرورات كسر الخجل ثم تراجعنا إلى الخلف حتى لا ننزلق إلى مواقع الإثارة؟..

بسرعة رحت أنقر على لوحة الحروف.

- العزيزة مهى، سأجعل الربيع ينتظرك حتى تأتين..

حقا ما تقولين.. لم يكن من حقنا أن نغلق قوس الحميمية لسبب أو لآخر لأن ما من سبب وجيه لنقف أمام تدفق العواطف..

ولكن إذا كان لا يجب التسويف معها حتى نقتلها تدريجيا، فإنه أيضا لا يجب الإفراط فيها حتى لا نهدر رحيقها. اليوم بالغت في التوهم وبحثت عنك في سيرة روزا لوكسمبورغ ورأيتك مختلفة مثلها لكني لم أعثر على خطوط التشابه بينكما إلا في ما يتعلق بالسفر الذي يسكن أرواحكما..

- كثيرا ما يقال لي أنني امرأة مختلفة.. هذا يخيفني ويغريني في الآن نفسه.. أن تكون المرأة مختلفة عليها أن تدفع ثمنا باهضا.. اختلافي هو هويتي.. وهو قوتي وفي الآن نفسه هو ضعفي الغامض.

- البارحة حين ودعتك غطست في برنامج تلفزي تافه مليء بالهرج والمرج.. رأيت نساء كثيرات قد شوهن وجوههن بالماكياج. وأخريات اندفعن إلى الرقص على المزود.. ومعهن رجال يرقصون بأردافهم مثل النساء.. أنا لا أعرف رجالا يضعون على أردافهم أحزمة ملونة ثم يبدأون في تحريكها بكثير من الإمعان في التذلل.. كل الرجال حين يرقصون يحافظون على نوع من الفروسية والفحولة إلا رجال تونس إذا ضرب المزود تحولوا إلى رجال يتباهون بأردافهم. إنها الرداءة بعينها. قد لا يمكن الحكم عليهم بقساوة ولكني أشك ما إذا كان هؤلاء يحملون قدرا من السعادة حين يرقصون.. إني أعتقد أن الرقص هو الشعور الحقيقي بالكمال وجمال الكائن البشري ولكن حين يتحول إلى مباراة بين الأرداف، فإنه لا يعبر إلا عن انحطاط للجسد البشري..

- أنا مثلك لم أر لا اليونانيين ولا الأسبان ولا حتى اللبنانيين أو الفرنسيين يرقصون بأردافهم.. لعله تأثير آلة المزود الإفريقية..

في تونس أشعر أن المزود له قدسية تضاهي قدسية العلم الوطني.. من ناحيتي أشعر بالاكتمال أكثر حين أغني..

- سأجعلك تغنين لي بلغات كثيرة وبآهات عميقة. ورغم أنك لا تفضلين الرقص، فسوف أجعلك ترقصين لي.. وفقط..

- لا أظنني قادرة على ذلك. أحتاج إلى حلبة وحشود كي أرقص. ولكني أستطيع أن أغني في كل مكان.. أنا كائن غنائي. لا أتحكم أبدا في رغبتي في الغناء.

- إذن سأكتفي بصوتك العذب.. أكيد ستخترقين كياني.

- قبل ذلك أسألك: ما الذي حصل البارحة؟

- لم أفهم سؤالك؟

- عفوا.. سأوضح لك ذلك وإن كنت لا أنتظر منك جوابا دقيقا.. إني اشعر بشغف يتقد من خلال كلماتنا.. كلماتنا أصبحت جمرات تطقطق.. ولا أدري ما أفعل وما حصل!..

- ذلك الرجل الجدلي.. والمنطقي، ذلك الرجل المنهجي ليس دوما باردا أو محايدا. فهو ينتابه الشغف والغضب وتخترقه نوبات العشق والفوضى. وحين لا يجد الكلمات يستنجد بالآهات لتخفيف حدة الجمرات التي تطقطق.

- إني لا أعرف ذلك الرجل المنطقي جيدا ولكني لا أظنه باردا أومحايدا.. فقط لا أريده غاضبا..

- ذلك الرجل.. يا مهى، هو أنا. وفي انتظار ذلك اليوم الذي سنبدأ فيه تهجي أبجدية العشق، ستظلين أنت وذلك الرجل ترقصان على

صفيح ساخن.

- يخيل إلى أن في أعماقك شاعر جبار..

- لي أصدقاء شعراء. لا أحب براءة الشعر.. أحب هتك النثر. سيدتي يا ذات الإيقاع المستبد تعجبني عباراتك الملتفة بالغموض الجذاب. (استعار المحافظون الجدد عبارات كثيرة من قاموس أندريه بريتون السوريالي مثل الفوضى الخلاقة أو الجذابة ومثل «الغموض البناء» ومثل «العصيان الأليف» أو «المعارضة المحايدة».. ومثل «الجمال الفتاك» أو «الجاذبية المنحرفة». فأن يكون الشاعر ثوريا عليه أن يكتب شعرا حقيقيا، لا أن يكتب قصائد للوطن والعلم والأحزاب والنقابات.. كل الثورة توجد في الجمال.. وفيما عدا ذلك يصبح تسولا على أعتاب شاعرية محدودة جدا.. كذلك السياسي حين يصاب بالعمى يلتجأ إلى قواميس الشعراء ليزين فلسفته السياسية العنيدة والهوجاء!..)

- أنت تدخل في متاهات أخرى وتدخلني معك غصبا عني.. بعدها أجد نفسي ألتذ بما تقوله. وكأنك تصب لي شرابا لذيذ المذاق.. ولكن لماذا تصفني بذات الإيقاع المستبد؟

- آه مذ رايتك تغير إيقاعي بشكل غريب.. عرفت أنني أصبحت أسير على إيقاعك.. أليس هذا استبداد؟ ولأنني لا أملك الآن غير الكلمات، فها أنا أغدق عليك جنوني وهذياني وآهاتي.. ذلك الرجل المنهجي والجدي والحاد النظرات لم يعد يمسك بزمام قلبه..

- ولكنك تمسك بزمام الكلمات. إني أرتاب فيما تقوله لي أحيانا وأتساءل كيف حصل كل هذا منذ أول لقاء؟..

- حصل كل هذا حين تقاطعت النظرات وكنت تودعيني عند باب مكتبي. لم نكن لوحدينا لذلك ضاعت مني الكلمات آنذاك التي لم تعرف كيف تستريح في غرف الانتظار..تلك التي تطير إلى السحاب كلما هبّت رياح همجية أو هجم عليها لصوص الثورات.. الكلمات التي سافرت مع حنبعل إلى جبال الآلب، تلك التي نطقن بها نساء قرطاج وهن يصرخن ضد الغزاة.. وضد نبلاء البرلمان وضد تجار الخشب والحديد والرصاص..

- إني أتذكر تلك اللحظة المفعمة.. وتلك النظرات المتكسرة على فستاني.. أتظن أن لا شيء يعوض الكلمات! كانت عيونك خجلى وحادة.. كانت تبحث عن مستقر. ولم أجد ما أقوله إذ خفت أن يتفطن أحد فيفسد متعتي..

- لم أتخيل ذلك أبدا.. كل ما أعرفه أنك تركت قلبي على الطاولة..

- ولكن أتعرف لماذا كنت شبه محرجة؟ قد لا تصدق.. لقد خجلت من ذلك الرجل الذي كان بصحبتنا (أنا ونادية) لقد قدم لك كارتا سيء الطباعة وليس به عنوان واضح ولا حتى رقم هاتف.. ولم يبق لي إلا أن أنقذ الموقف فأقدم لك «كارتي الخاص». أنا لا أعرف ذلك الرجل. كان مع نادية في الجمعية..

- ههhe.. وهل تعتقدين أنني كنت مهتما بكارته أو به شخصيا في حضورك البهيج!..

- لا أدري.. كنت منزعجة لقلة ذوقه.. وعلى أية حال لولا ذلك ما كنت لتجدني.

- حتى لو لم تقدمي لي كارتك، فقد كنت سأبحث عنك بكل الطرق..

- لربما العناية الإلهية قد هيأت لنا تلك الصدفة لكي نلتقي بلا موعد.

- مع ذلك.. ثمة دائما عمق آخر للصدفة.. هو الرغبة.. الصدفة توقفت عند الباب.. أما الرغبة فها هي تسكن الروح!..

- أليست هناك كلمة أخرى غير الرغبة؟..

- ربما.. أهو الشغف.. لا أعرف إن كانت لديك كلمة أخرى ولا تجد طريقها للخروج من فمك.. أطلقيها بقوة.. سوف التقطها بخفة!..

- أية كلمة!..

- لا أعرف. أنت تعرفينها جيدا.

- لا أدري ما إذا كانت لا تريد أن تخرج من فمي أو لم تأخذ مكانها في ذهني بعد! ألم اقل لك أنني شديدة البطء أحيانا.. أفكر بسرعة ولكني لا أفعل إلا ببطء.

- ها إنك تعيدني إلى كونديرا الرائع مرة أخرى.. إلى عالم البطء.. غالبا ما يتباطأ العشاق في الوصول من أجل ألا ينهكوا رصيدهم من العشق!..

- أودعك الآن على حلم شهي..

*** *** ***

هاتفني فريد ريكوبي من أجل أن نلتقي.. قال لي انه شرع في كتابة سيناريو قد يصلح للإطاحة بسينما «الحمامات والسطوح» بالضربة القاضية. وأنه يريد أن يطلعني على بعض ما كتب. قال

أيضا انه يحتاج إلى ذخيرة من الجعة لكي يستمر في الكتابة.. وأنه يود لو يلتقي معي هذا المساء..

أجبته:

- الوقت لم يعد مساء. الليل توغل إلى منتصفه.. وأفضل أن نلتقي بعد الغد.. لأن غدا هو الأحد. وأنا لا أحتمل ثقله وتكاسله.. ثم أنني أريد أن أتفرغ لطارق وأمه.. قد نذهب إلى مطعم معا..

أحالني على قصيدة منشورة بإحدى الجرائد وطلب مني ان أقرأها..

قلت له: هل هي قصيدة لك.

قال: لا. إنها قصيدة لإحدى الشابات.. لم تتجاوز العشرين من عمرها.. قرأتها ووجدتها «كتابة ترتد همجيا» كما يقول أدورنو على الشعر.. تعرفت على هذه الفتاة خلال زيارتي الأخيرة إلى كلية الآداب..

قلت له: آت بها يوم الأحد.

قال: القصيدة أم الفتاة؟

قلت: كما تريد.. القصيدة سنقرأها.. أما الفتاة فقد تصلح لدور في السيناريو الذي تكتبه.. قدرت مشاعره ثم أضفت:

- فريد.. نلتقي يوم الاثنين..

كنت لا أزال ممتلئا بمهى. وتساءلت كيف يصبح الافتراض واقعا.. وما إذا كان الحب يتسلل عبر أسلاك السيليكون بكل

هذا العنفوان.. بدأت أترنح وسط الصالون ثم وضعت فيديو غنائي للموسيقار اليوناني باريوس ورحت أتمايل معه.. إنه يشبه ريتسوس في مظهره، لكن صوته أقوى.. لإنه يندفع كشلال، وصدره المشعر مفتوح وهو يعانق إحدى الشقراوات.. كنت أنتظر حتى تفرغ مهى من مشاغلها وتعود إلي.. ولكن النوم أخذني.. قمت في الصباح لأجد نفسي أكتب لها:

- البارحة نمت بعمق.. وعرفت أن النوم أحيانا يضرم أعتى نيران الحب. لقد تمنيت لي حلما شهيا. وها أنا أرويه لك كما رايته.. رأيته مقبلا دون أن أتأكد من ملامحه.. في ليلة صيفية مقمرة، على مسرح كبير وعال. متألقا كان وأنيقا ومحاطا بالطيور وهو يمشي على المخمل الأحمر القاني متكبرا ومتجبرا.. سار نحو ركن قرمزي ليتمدد على مهل.. ثم رأيته يفتح ذراعيه فيبدو جماله المهيب كما قرر أن يهيمن على العالم كله. فهل هذا اختبار فطري لطريق سالكة يا مهى؟!

بعد ساعة أو أكثر.. بعد أن حطت علي الكآبة.. بعد أن أصبحت موبخا لحظي.. جاء الرد. كتبت مهى كما لو أنها تسخر مني:

- أحلامك لك وحدك.. يكفيني أن تكون الليلة مقمرة والطريق سالكة.. ههههه.

- مهى، أراك تلتقطين كلماتي بعناية ثم تعيدين إرسالها كطلقة.. ما تقوله امرأة مهذارة طوال يوم. تقولينه أنت في نصف استدارة.. هذا ما يسبب لي أحيانا سقوطا حرا!..

- مراد.. أرأيت كيف أننا جميعا نصبح على درجة عالية من

الحساسية حين نقترب من بؤرة الضوء.. نصبح كالفراشات عند المنعطفات المنحنية نحو الدفء أو الضوء. وما إن تقترب من بؤرة الضوء حتى نسقط سقوطا حرا.

ما إن قرأت رسالتها حتى هطلت عليّ رسالة أخرى..

- مراد سأخرج بعد حين للعشاء مع بعض الأصدقاء.. بعد ذلك سأعود إليك.. لا تقلق..

بعد حوالي ثلاثة ساعات، انتبهت إلى رنة الماسنجر. كتبت تقول:

- أريد قبلة يا مراد.. كل أصدقائي، نساء ورجال محاطون الآن بالدفء العاطفي.. إلا أنا.. بعد ساعة سأكون في شقتي. انتظرني.. حذار أن ينتصر عليك الضجر كما انتصر علي هنا!..

- لك قبلتان.. واحدة على عجل وأخرى على مهل..

بعد نحو ساعة، جاءني الجواب..

- هل تراني تأخرت في هذا الطلب..

- لا أبدا.. لك مني ألف قبلة وقبلة..

- طلبت منك واحدة.. فإذا بك غمرتني بالقبل إلى حد الخجل.. سأحتفظ بالتي جاءت على مهل.

- وهي الألذ.. يا سيدة الياسمين والفل..

- وأنت الأدرى كيف يبدأ الفصل الأول.

- وأنت لماذا احتفظت بالتي هي على مهل

- لا أعرف، اخترتها دون تفكير أو كسل

- إذن تذوقيها شيئا فشيئا. إنها عسل على عسل.

دخلنا في مقطع من السجع حتى بدا لي الأمر وكأننا نرقص (رقصة التانغو الأخير لمارلان براندو مع ماريا شنيدر) ولا بد أن مهى فقدت الإيقاع فسقطت وسقط فوقها براندو ليضع في إستها شيئا من الجبنة ثم يدفعها فوق الحلبة ليشعل شمعتها التي تريد أن تحترق!.. سألتني وقد خرجت عن سياق السجع..

- لماذا التي على مهل.. هي الألذ.. من قال لك هذا..

فكرت قليلا حتى لا أقع في فخ السؤال.. ومن ثم أفقد خيط المتعة.. ثم كتبت:

- لأن عسلها يصعد مباشرة إلى الدماغ.. إلى منطقة اللذة والإدمان.. إنها منطقة الأفيون..

قالت بسرعة:

- جوابك أمتع والذ مما تصورت.. ثم عدنا إلى الرقص على موسيقى السجع. فكتبت:

- أجوبتك كثيرا ما تقودني إلى مناطق الخطر والخبل..

- ماذا أفعل؟ هل أتوقف عن إجابتك لسلامتك من الهبل..

- لا.. لا خوف علي.. ولا يأتي منك ملل..

- افتحي إذن شراعك الآن.. لقد فاض الوعد ومعه حليب ذلك الرجل..

*** *** ***

ذلك الرجل، ذلك الذي قرأ ميخائيل باكونين وأندريه بريتون وهاجم الإخوان المسلمين في كل مكان والإمبريالية والوهابية الجديدة، ذلك الذي مدح روزا لوكسمبورغ ودافع عن كارلوس وانتشى بموسيقى الإغريق ورقصات زوربا، وقهقهات نيتشه حول المسيح.. ها هو يقع صريعا أمام «قبلة افتراضية» جاءت من وراء الأطلسي.. أحالتني تلك القبلة مباشرة إلى المخرج الأرجنتيني المبدع «هكتور بابنكو» الذي نال السعفة الذهبية في كان 85 عن فيلمه -قبلة المرأة العنكبوتية-.. وها هو خيط السيناريو الأول قد بدأ يلوح كشعاع من الشمس عند الفجر.. آنذاك حرصا على أن أمسك بذلك الخيط قبل أن يسحب نفسه إلى إحدى الزوايا المظلمة في ذاكرتي.. كتبت كما يكتب الشعراء، على مجلة قديمة كانت أمامي. وبالتحديد فوق صفحة إعلانات حول مفعول مادة الجافيل ما يلي:

تمتلئ الغرفة بالموسيقى
ومعها قبلة من وراء الأطلسي
من بلاد الماء.. من أرض الغوايات المستعجلة
قبلة مؤجلة..
من أرض معلقة تتأرجح من السماء
لامعة، ناصعة مثل الماء
من مكان غزاه البجع قبل أن يغزوه الجنود
لصيد الهنود
من ثقب في أعلى السماء
يطل منه رجل أعمى، لكنه يَرى ما لا يُرى!..

لا أعرف بعد ما الذي كتبه فريد ريكوبي كسينوبسيس للسيناريو الذي قال أنه قد شرع فيه.. ورأيت أنه من الممكن كتابة سيناريو مشترك وملاءمة أفكاري مع أفكاره في قالب سردي جديد يقفز من الافتراضي، أي التخيل إلى الواقع.. وبالعكس. فأنا اعتقد أن لا أهمية للواقع في السينما إلا من خلال النظرة الشخصية لمؤلف ما. فالواقع قد يتجاوزنا إذا لم يتجاوزه المؤلف بنظرته المشخصنة والمتخيلة.. إنه حقل ألغام حقيقي. فحين نصنع مثلا قصة حب خيالية في باريس أو في هافانا أو تونس نكون أحرارا ولا نعود نهتم بصحة الأحداث أو تدفق عواطفها أو تسلسل أحداثها أو حتى منطقيتها التاريخية. هنا الواقع دوره الصمت. ولكن إذا ما حاول السينمائي أن يجعل الواقع متكلما، فإنه سيعرض نفسه إلى «محاكمة دولية» يشترك فيها الصحفيون والمؤرخون والسياسيون والمحامون وحتى الشهود أو الورثة.. ففي فيلم -رجال الرئيس- نسي العالم الكتاب ثم انهالوا على صاحب الشريط لكما وسبابا. وفي فيلم J.f.K حول اغتيال كنيدي خرج الجميع من القاعات مذهولين من فرط التفاصيل والتعقيدات دون أن يجدوا قاتل كنيدي.. في الظلمة، داخل القاعات الصامتة صمت المقابر، عادة ما تنجح السينما في عقد الثقة بينها وبين المتفرج. يصبح الأمر وكأنه قداس في إحدى الكنائس، لا يناقش المصلي أبدا السيد الكاردينال.. الكاريدنال يقول للمصلين: صدقوني.. ثقوا في وفي الله». والمصلون دون أن يردوا بأصواتهم، يتمتمون: إننا نثق فيك وفي الله:.. بعد الخروج من القاعة المظلمة، تنفجر الأحاسيس.. عادة ما يعبر الناس العاديين عن إعجابهم

ومتعتهم، ولكن بعد فترة يفسدون عليهم النقاد والسياسيون متعتهم.. حتى سنوات الستين، كان مسموحا للسينما أن تقول شيئا عن السينما وشيئا عن الواقع وتخرج بوجبة دسمة، كما كان يقول فرانسوا تريفو.. ولو لم تنحن السينما الطلائعية، لما أصبحت الطريق سالكة أمام تزوير الواقع.. أفضل هنا كلمة «تهريب الواقع» أو «ترحيل الواقع». لقد أقنعنا فيلم «جوراسيك بارك» أنه انطلاقا من حشرة تحجرت في إحدى العنابر المظلمة، قد تم الحصول على الحامض النووي لأحد الديناصورات.. وبات الشغف به لا نظير له عند جميع الناس، ولكن بعد مضي عدة سنوات، لم يعد يثير إلا شغف الأطفال!.. بعد ذلك أقنعنا المخرج بيكولا في «رجال الرئيس» التي تتحدث عن فضيحة و«ترغيت» بتلك السلال المملوءة بالنفايات والأرشيف والخارجة من «الواشنطن بوست» إلى هوليوود، ولكن ذلك حتى لو كان مشهدا صبيانيا، فإنه لم يساعد أبدا في قول الحقيقة. لقد ظلت حقيقة الصحافيين بوب ودوارد وبرنشتاين أكثر سطوعا وشجاعة.. وحاول «الفير ستون» أن يقول لنا أن الرئيس كنيدي كان ينوي الانسحاب من الفيتنام قبل موته، لكنه لم يتوفق لأن لا دليل لديه إلا سر غموض الاغتيال.. حين تكذب السينما على الواقع، أو تعتدي عليه، تفقد سطوتها وسحرها.. لا يزال الجمهور يصدق الأوهام الكاذبة للسينما بحكم اختفائها وراء الحكايات وتجسيدها بممثلين بارعين وإغراقها في فيض من العواطف.. ولكن إلى متى! شخصيا لا أعرف.. ما أعرفه أن الأكاذيب باتت واضحة.. لقد رأينا أحد الممثلين في فيلم «كليوباترا» وهو يرتدي ساعة رولكس في معصمه وذلك

قبل أن تخترع الساعات.. كما رأينا في فيلم «المسيح» أحد الممثلين وهو يحمل في عنقه «الصليب» قبل أن يتخذ «الصليب» كعلامة لأنصار المسيح.

وإذا كان ذلك يحدث داخل إمبراطورية هوليوود الضخمة، فكيف لا يحدث أسوأ منه في الهند أو في مصر أو في تونس.. فعلاوة على الإهمال والغباء، هناك السلطة السياسية العتيدة. فكيف يمكن لمخرج أن يصور فيلما على البايات وهو غير قادر على إنزال صورة الرئيس بن علي من فوق الجدار.. وكيف يمكن لمخرج مصري أن يقنع جمهوره وهو يصور فيلما عن نفرتيتي قرب وزارة الداخلية في القاهرة!.. أو كيف لمخرج عراقي أن يقول للممثل الذي جسد صدام حسين: «سيدي.. علينا أن نعيد المشهد»؟!

*** *** ***

- هيا.. يا خالد، اركب حصانك.. لم يعد لدينا أي وقت.. وأنت يا «ألفة»، قفي عند تلك الشجرة.. وحين يقترب الحصان، اصعدي على الصخرة ثم اقفزي على ظهر الحصان وشدي بذراعيك خالد من حزامه.. هكذا أمر المخرج مراد عباس ثم التفت إلى المصورين يحثهم على أخذ كادر فسيح جدا للمشهد لنرى المسافات التي سيقطعها الحصان، قبل أن يعثر ويسقط في بركة مليئة بالمياه..

انطلق التصوير.. وصمت الجميع في انتظار تجسيد المشهد.. ولكن لا مراد عباس ولا المصورون كانوا يعرفون طبيعة الأرض التي سيركض عليها الحصان.. كما هم لم يروا تلك البركة الراكدة

والمختفية وراء أحد الكثبان الترابية.. ركض الحصان لمئة متر ثم راح يتباطأ.. ثم تعثر، فسقط.. لم يكن ذلك ما يريده مراد. ولكن بما أن الأرض ظهرت سبخة والحصان قد سقط، فقد راح يبحث عن فكرة ملائمة تصلح كجسر للربط بين تلك اللقطات ولقطات أخرى حتى يبدو سقوط الحصان مبررا..

سأل مراد فريق التصوير:

- هل لديكم فكرة عن لقطة تصلح كجسرا.. ليس لدينا ما نفعل لأننا لا نستطيع أن نذهب إلى مكان آخر. فهذا يتطلب عذابات أخرى تبدأ من ترخيص الوزارات إلى تأجيل التصوير لأيام أخرى.

- أقترح أن تكتفي بالمقطع الأول قبل أن يسقط الحصان.. قال مدير التصوير.

- ولكن المتفرج لن يقتنع بتلك المسافة القصيرة التي ركضها الحصان.. قال مراد.

- أقترح أن نعيد المشهد ويركض الحصان في الاتجاه الآخر.. قال مساعد المخرج.. بعده مباشرة رن هاتف خالد ليقول للمخرج أن الحصان قد اصبح يعرج.. وأظن أن رجله الأمامية اليسرى قد انكسرت..

-ماذا نفعل؟ تساءل خالد بغضب، فتكلم مساعد المخرج:

- سنربط رجل الحصان بخرقة.. ثم نصوره وهو يعرج وإلى جانبه يظهر خالد وألفة حزينين وخائفين ثم نأتي بكلب نراه لا يزال

ينبح وهو ينسحب إلى الخلف.. فيفهم الجمهور أن الحصان قد سقط بسبب عضة كلب هجم عليه..

- وكيف يمكن لكلب أن يلحق بحصان وهو يركض.. تساءل مراد.

قال مساعد المخرج:

- الحصان لم يكن يركض بقوة حين سقط.. ثم أن الكلب ما كان يركض وراءه.. يمكن أن يكون اعترض سبيله..

- طيب.. طيب.. هل ثمة فكرة أخرى..

بعد ذلك حك مراد رأسه بقوة وقال:

- كلب يهجم على حصان فيسقطه. هذا لا يكون إلا كلبا من فصيلة ألمانية أو بلجيكية.. أما أن يكون من فصيلة عربية.. من تلك الكلاب السائبة في السباخ والمزابل، فلا يستطيع أن يواجه أو يهجم على حصان.. (كان في ذهني شيء آخر هو ما طرحه مخرجون ملتزمون وطلائعيون منذ فترة طويلة فيما يتعلق بين الصورة وبين الكلمة. فتصوير لقطات لكلب ينبح وهو ينسحب، لا تشير إلى نجاح الكلب في هزيمة الحصان، بقدر ما تشير إلى أن الكلب راح يبحث عن النجدة للحصان.. إن أهمية وجود الكلب الذي سيعطينا مبررا لسقوط الحصان، قد تكون سقطة فنية تغطي عن سقطة معرفية بطوبوغرافيا الأرض التي اختيرت للتصوير.. صحيح أن السينما تفعل ما تريد.. ولكني أنا مراد عباس لا أستطيع أن أفعل ما أريد.. علي أن أصلح الخطأ من أساسه ونعيد تصوير المشهد في غابة أخرى.. وهذا يتطلب وقت طويل.. وأما أن

أجد معالجة فنية لتجاوز ذلك السقوط).. في تلك اللحظة، وصل فريد ريكوبي كاتب السيناريو، لاحظ ارتباكنا ثم سألني:

- ما بكم ساخطون؟ هل وقعتم في ورطة..

- وقعنا في ورطة الحصان الذي أصريت عليه. فخالد وألفة كان يمكن لهما أن يهربا على دراجة نارية تشبه دراجة «فيتوريودي سيكا»، أو دراجة الرئيس فرانسوا هولاند وعشيقته جولي غابيه. وكان يمكن أن يهربا على متن سيارة تشبه سيارة فرانسو بريفو، البيجو القديمة.. ولكنك أصريت أن يهربا على ظهر حصان لتجعل الناس أكثر حنينا إلى روميو وجوليت أو قيس وليلى..

- الحصان.. ليس المقصود هنا بالحصان كحصان.. إنما أردت أن اقترب من واقعية اندريه بازان الذي تتكلم عنها باستمرار يا صديقي مراد..

- وماذا نفعل الآن، إذا كان حصانك قد سقط في بركة وخرج منها أعرج..

- نواصل المسير.. والتصوير.. ليكن أعرج.. فليمشي ويمشي خالد وألفة أمامه وهما يقودانه نحو الكوخ الذي سيظهر من بعيد.. أليس هذا استدعاء كبير لعواطف الجمهور.. الجمهور هنا سيتعاطف مع الحصان وكذلك مع ألفة وخالد. وسيشتد حماسه إلى أن يعرف ما إذا كان عاشقين أو سارقين.. يمكنك أيضا أن تجعل الحصان يتعب فيسقط ثانية.. وفي اللحظة التي يقرر فيها خالد وألفة مغادرته وتركه، ينهض دفعة واحدة.. سيتساءل الجمهور ما إذا كان الحصان أكثر وفاء من الإنسان؟.. أليس هذا هو السؤال

الفلسفي الذي حير فلاسفتك يا صديقي مراد؟!

اتجه مراد فورا إلى الكاميرا مان ثم امره..

- هياء اضبط كادرك..

ثم نادى على مساعد المخرج والسكريبت.. وقال لهما:

- سنواصل التصوير.. ابحثوا عن منديل أو قطعة قماش أبيض لنربط بها ساق الحصان.. دسوا في حقيبة ألفة قطعة القماش لكي تتولى سحبها أمام الكاميرا..

تدخل فريد وقال:

- لا.. لا.. يا مراد.. من الأفضل أن يكون الشال الأبيض على عنقها ثم تنزعه لكي تبدو أكثر حنية..

- جميل.. لنفعل ذلك.. هيا.. أسرعوا.. لا نريد للشمس أن تغيب دفعة واحدة لأننا سنتجه باتجاه المغيب وهو يهيمن على آخر الكادر ويبعث بأشعته الحمراء نحو الكوخ.. هيا أمامنا ساعة لكي لا تختفي بؤرة المغيب..

- ألا ترى أن ما نفعله شيئا بسيطا يا فريد في عالم السينما اليوم؟

- ولكن اتفقنا أن نعتمد على البساطة.. سنتباهى بالبساطة إلى حد بعيد، لا لأننا مجبرون على ذلك، ولكن لأننا باحثون عنها.. وهنا على السينمائي أن يثبت مقدرته ويلعب لعبة البساطة التي لا يقدر عليها سبيلبرغ أو سكورزي.. ولكن دون أن يفضح فقر أدواته أو تعبيراته..

أجاب فريد دون أن يسمع أحد كلامه غير مراد.. ثم تابع يقول:

- قل لي يا مراد.. ألم تشاهد فيلم «الكلب الأندلسي».. هل تعتقد أنك ستصنع فيلما كبيرا دون مساعدات وزارة الثقافة والسفارة البلجيكية والسفارة الفرنسية. ومكتب التوثيق السينمائي.. أنت لست نوري بوزيد أو فريد بوغدير.. أنت ضد التخنيث الثقافي وضد التهجين وضد الفوركلور وضد النساء الديمقراطيات وضد مكاتب المدراء والنقابيين.. كنت تطلب الحرية لكي تصنع سينما.. ها هي الحرية.. وعليك أن تصنع سينما.. تلك هي مسألتك..

(في العام 1928 تحدى كل من لويس بونويل والرسام سلفادور دالي الافلام البورجوازية وأرادوا أن يسخروا من هذا الفن الجديد الذي بدا يسيطر على الجميع. وبمساعدة مالية بسيطة من أمه، تمكن بونويل من إنجاز فيلم «الكلب الأندلسي» ساخرا من الخدع السينمائية والشكلانية التي طغت على السينما.. في الحقيقة لا وجود لكلب أندلسي في الشريط ولا لأي كلب آخر.. كل ما هناك تركيب للحظتين من الحلم. بونويل حلم ذات مرة أن غيمة تقطع القمر إلى نصفين، مثل موسى حلاقة كانت تفقأ عينا.. ودالي حلم بأن يده أصبحت مملوءة بالنمل.. كان ذلك تعبيرا عن موسم فاشي بامتياز.. تتابعت المشاهد الكابوسية، فاستهوى ذلك جميع السينمائيين الأوروبيين وبدا فيلم «الكلب الأندلسي» بمثابة بيان عن السينما السوريالة.. كانت فكرة فريد ريكوبي ومراد عباس، هي أن يقولا للسينمائيين التونسيين من خلال فيلم -حصان عربي- أن العصر قد تغير، وأن البطاقات البريدية

التي كانت تظهر عبر هذه الأفلام قد استنفذت ولم تعد تعبر إلا عن الانحطاط.. وانه يمكن أن نكسر أسطورة السينما القوية والمتفوقة بأبسط المشاهد وأن كل القوة هي في سرد تلك المشاهد بطريقة مختلفة وممتعة ومثيرة للتساؤل.. حين اخترنا حصانا كبطل للفيلم، كنا نقصد أن يتساءل الجمهور، لماذا حصان وليس كلب. وإذ سقط وأصبح أعرج فلا بد أنهم سيتساءلون لماذا هذا الحصان أعرج؟ وما الذي يقصده المخرج؟ البركة لم تكن موجودة في السيناريو. ولكن وبما أنها وجدت، فإن فكرة خروج حصان من بركة، ستعطي للمتفرج إيحاءا غريبا حول هذا الحصان المبلل والأعرج والذي يشبه بطة بيضاء، بينما هو ليس ببطة!.. وحين تركز الكاميرا على عيون الحصان البيضاء، فإن ما سيصل إلى الجمهور أن هذا الحصان يشبه البقرة.. وعندما نرى خالد وألفة يقودان الحصان، فإن المتفرج قد يستنتج أن الحصان ذاهب إلى المسلخ.. وليس ذلك الكوخ الذي يظهر من بعيد، إلا مسلخا.. أما حين يخرج من الكوخ كلب وراعي غنم، فإن الحكاية ستبدأ في التعقيد.. ولا بد أن يسألك الصحفيون والنقاد):

- لماذا حصان؟ وليس جمل عربي؟

(كان فعلا يفكر في ذلك السؤال. ولكن مراد كان يخبئ إجابته إلى حين يتم الفيلم ويعلن عنه في ندوة صحفية بعد عرض خاص وافتتاحي.. ولكن أكثر ما كان يزعجه هو أن يفهم البعض من زملائه المخرجين أن كلمة «حصان» لم يكن يعني بها حصان، وإنما يعني بها التعبير عن «حصان آخر».. تماما مثلما غضب لوركا من

زميله بونويل وسلفادور دالي وقال إنهما يسخران منه ويقصدان شتيمته من خلال «الكلب الأندلسي» لأن أصوله أندلسية. وبما أن الهوية الجديدة اليوم لا تعرف بالأصول أو الجغرافيا أو اللغة فقط، فإن الممثلين وخاصة السينمائيين سيحتجون على الفيلم ويعتبرونه متخلفا وعنصريا).. فجأة نهض مراد من غفوته، فوجد فريد قد استهلك أكثر من خمسة قناني من الجعة، فقال له:

- هيا.. يا فريد.. متى تكمل السيناريو، لكي نبدأ في التصوير..

*** *** ***

جاءني فريد مهرولا بفكرة أخرى جديدة. وبعد أن شتم بوليس المرور الذي أرغمه على دفع «قهوة الصباح» في مفترق حي المنزه، انتقل إلى شتم الحكومة. قال:

- حكومة بلا شعب.. أو شعب بلا حكومة، لم اعد أفهم بلادكم.

البوليس يحكم ويشدد القبضة من جديد، والحكومة لا وجود لها. أصبحتم مثل العراق.. مثل لبنان ومثل ليبيا: ثلاثة حكومات ولكن بلا دولة.. هذه أرفع درجات السوريالية السياسية.. لبنان بلا رئيس منذ عامين.. لا أدري مع من تعمل الحكومة إذا كانت بلا رئيس والشعب لا يعترف بها.. في العراق يكاد الرئيس لا يرى بينما الحكومة لا تزيد مساحة سلطتها عن مساحة مربع لكرة القدم.. أما في سوريا فيوجد رئيس ولكن بلا دولة.. وفي اليمن لم يعد يوجد لا رئيس ولا حكومة ولا دولة. أليس يحتاج

هذا إلى مراجعة شاملة لمدونة العلوم السياسية.. انطلاقا من دراسة الحالة العربية، حالة بحالة..

كنت أنتظر أن يفرغ من كلامه السياسي ويعود إلى السينما، لكنه تابع يقول:

- هل تعتقد أن شعوبا تتجه إلى السماء وتدعو بطول العمر والنصر إلى البغدادي والظواهري والقرضاوي وبلمختار الأعور يمكن أن تتقدم، او يمكن ان تهتم بالسينما.. هل أضيف لك بأن الدولة الوحيدة في العالم العربي هي دولة داعش.. هل تعرف لماذا.؟

قلت من باب السخرية:

- لماذا؟

لأنها الوحيدة التي تحمل مشروعا، حتى لو كان كله شر. هل تعرف، الآخرون كلهم قسموا بلدانهم وفصلوا حكوماتهم عن شعوبهم واستكانوا إلى نظرية الدفاع الارتدادي.. أما داعش فهي تسعى لإقامة خلافة إسلامية. وقد وحدت بين بلدين جارين أمعنا طويلا في الخصام والعداء رغم أنهما كانا تحت حكم حزب واحد. ثم أن داعش لم تشكل حكومة هنا وأخرى هناك.. بل راحت تهاجم وتتمدد بلا توقف.. ومن يدريك غدا قد تصل إلى هنا..

- أين هنا ؟ قال مراد..

- هنا.. أي هنا..

- ولكنها موجودة هنا منذ زمن.. قال مراد.. ثم أضاف:

- انظر إلى ذلك الرجل.. ذلك الذي يجلس لوحده في الركن على يمين الباب.. ذلك الرجل لا يمكن أن يكون إلا من داعش..

- ولكنه يحتسي الجعة مثلنا وأكثر منا يا مراد..

- هذه افلام قديمة.. لكي تعمل بصمت عليك أن تتخفى جيدا.

- لعله بوليس من بقايا البوليس السري

- هل تعرفه؟

- سألت عنه النادل، فقال لي أنه من بقايا جماعة عمار 404.

- وما الفرق بين بوليس وداعشي؟

- هل تعرف اسمه؟

- أظن أنه يدعى «العربي سمار». ينادونه جميعا بسي العربي..

- هل تظن انه يراقبنا أو يتجسس علينا؟

- ولحساب من.. ألم يحلوا جهاز البوليس السياسي؟..

- وهل أنت غبي لكي تصدق ذلك؟.. قد يحلوا الحكومة ويظل الوزراء كمتصرفي أعمال ليواصلوا سرقاتهم، لكنهم أبدا لن يحلوا جهاز البوليس السياسي.. البوليس السياسي هو الذي يحكم حين لا تحكم الحكومة وحين تحكم الحكومة..

أراد مراد أن يغلق ذلك القوس الذي فتحه فريد، وهو غير مهيئ لنقاشه في اي موضوع، غير موضوع السيناريو.. قال أن الحياة تسير بلا حكومات، لأن الناس منظمون بعفويتهم وتجربتهم وشغفهم بالحرية.. وها أنت ترى كما لو أنه من المبهر، لو ننسى هذه

الحكومات لحين، بأن الناس قد بدأوا يتخلصون من عبوديتهم للحكومات.. بعد ذلك نهره مرة أخرى، وهذه المرة لم تكن خلال الحلم وإنما خلال يقظة تامة وقبل حتى أن يتناول قدحه الأول:

- فريد.. مرة أخرى، أين وصلت في السيناريو؟!

*** *** ***

أخرج فريد أوراقه المبعثرة من حقيبة الجلد الصغيرة التي لا تفارقه أبدا ثم راح ينظر إلى ما كتبه.. أما أنا فقد فتحت الأيباد المحمول الصغير وذهبت مباشرة إلى الماسنجر.. كتبت بسرعة:

- عزيزتي مهى.. صباحات البساتين.. لا أعرف إلى أين وصلت، أيها الكوكب المسافر! لدي ما أريد قوله.. أنا أكاد اندلق على الأسفلت..

بعد نحو ربع ساعة، وأنا أفكر فيما إذا كنت قادرا على استبدال الحصان بقرد ليصبح عنوان الفيلم -القرد العربي- أو -خليج القردة- خاصة وأن لدينا في ضاحية قمرت الشمالية بتونس العاصمة خليج يسمى «بخليج القردة»، تناهت إلى سمعي رنة رسالة رغم الضجيج العاتي. قرأت بتركيز شديد:

- أربعة أيام مضت دون أن نتحدث يا مجرم.. يا لك من رجل قاس!

تتابعت رسائل قصيرة أخرى..

- أنا الآن في طريقي إلى أمستردام.. في المساء سأصل أمستردام.

وبعد يومين قد أكون في تونس، لا بد أن أمر بباريس..

فهمت أنها في المطار، وأنها ستدخل بعد حين إلى الطائرة.. لذلك أسرعت في الرد..

- مهى، صدقيني كنت مشغولا في الإعداد لتصوير فيلمي الأول. منذ سنوات طويلة وأنا أحلم بإخراج فيلم.. لذلك لم اتصل بك.. ثم تركتك تنهين أشغالك دون أن أشوش ذهنك.. كنت أنتظر أن تقولي لي: ها أنا قادمة.. وها أنت قادمة.. لقد خبأت لك قبضة من الربيع!

ثم عدت لأكتب لها:

- لقد أتعبتني فكرة السيناريو.. لا أحب أن أعود إلى ما يسمى بفيلم المؤلف.. أريد أن يكون فيلمي الواقعي من النوع الافتراضي.. قدم لي صديقي الشاعر فريد فكرة شبه سوريالية، ولكنه لم يتمكن من تطويرها إلى الآن.. أفكر بجدية أن تكون الفكرة نابعة من مراسلتنا: سيدة مثقفة وموسيقية بارعة تنتقل من بلد إلى آخر وهي تتبادل الكلمات والضحكات والإرهاصات مع رجل التقى بها صدفة لمرة واحدة، ثم سكن في داخلها مستسلما للغة الحنين والسفر.. بعد فترة يلتقيان ثانية على شرفة منزل وبجانبهما كلب! كلب أبيض!ما رأيك؟ أقول لك أن فن المراسلات لايزال مبهجا وفاتنا حتى في عصر الأنترنت.. لقد ودع جوستاين غاردر بروايته الرائعة «عالم صوفي» عصر المراسلات الرومانسية قبل أن يطغو عصر الافتراض. كانت «بست سيللر» لأنها عادت إلى فن المراسلة في القرن 18. كانت شبيهة بما كان يكتبه فولتير

في رواياته.. كان يختار اسم فتاة ثم يجعلها متلهفة ومتمردة. كان يستعمل ذلك الفن للإيقاظ الحس التحرري لدى المرأة.. ثم ختمت قائلا:

- ما نربحه في حواراتنا مع الأذكياء، نخسره في مكان آخر لإدارة الغباء. لا أريد أن نبقى في المكان نفسه!!

في صباح اليوم التالي، كتبت لي مهى:

- صباح الليلك من أمستردام.. قرات رسائلك وأشبعتني ضحكا.. لا تقل لي أنك ستجعلني شهرزاد جديدة.. شهرزاد التي تركب الطائرات والقطارات وتخترق الفضاءات والمدن.. شهرزاد الأخرى كانت تفعل ذلك كله دون أن تتحرك من فراش شهريار.. أما أنا فأفعل ذلك كله خارج فراش مراد.. قل أيهما أكثر حداثة وافتراضا؟

- صباح الليلك في الدروب..

لا تسألوني ما اسمه حبيبي

أخاف عليكم من ضوعة الطيوب..

مهى بصراحة لم أعد أعرف.. لقد اختفت الدروب أمام عيني.. ما أقوله مجرد مديح لأمكنة نقطعها على الأرجل. أمكنة تظل تسكن فينا لزمن طويل.. وبما ان شهرزاد لم تعرف لا مونتريال ولا باريس ولا أمستردام.. ولم تمش أبدا على دروب وأرصفة تلك المدن، فإنني أغامر بالقول أن الرجل الذي أرادت ترويضه، قد استيقظ بداخلي بعد عدة قرون.. ثمة فرق بينكما. شهرزاد

قتلت الوحش داخل الرجل، أما أنت فقد أخرجت الرجل من بطن الوحش! ههههه.. على كل هنيئا لك بالوصول إلى أمستردام.. قضيت في هولندا عام 2000 نحو ثلاثة أشهر بين لاهاي وأمستردام.. لا تنسي زيارة المتحف الجنسي.. سترين (لكن لا تلمسي) أعظم عضو تناسلي لأدمي.. ثم عرجي على مقاهي ذلك الحي الكوسمبوليتي لتتذوقي سيغارة أفغانية أو كولمبية أو مغربية تأتيك على الصينية مع القهوة.. ثم تجولي قرب «ساحة الفاسينوس» حيث تمثال الرجل الذي لا ينام أبدا مع قضيبه، كما يفعل السياح.. أنا متأكد سيبقى ما يطن في الأذن.. أما بسبب الطوفان والعلو أو بسبب الغطس والعمق.. لعلها الحقيقة التي لا تجعل من كل شيء متوازن عند البعض، يتجه نحو التمايل عند الآخرين!.. أنا متأكد أنك ريشة، لكنها ريشة ثابتة في يد رسام.. دندني معي، أخاف عليك من ضوعة الطيوب.. وأخاف على نفسي من وثبة الجنون..

- لا خوف عليك من الجنون! أراك ثابتا وراسخا لا تتزعزع..

*** *** ***

يخرج رئيس الحكومة، صباحا معكر المزاج تدفعه ابنته الكبرى بحنان إلى السيارة، حيث الحراس ينتظرونه لينطلقوا به إلى قصر الحكومة.. ما كاد الباب يغلق بعدما استراح في مقعده الخلفي، حتى تلقى اتصالا هاتفيا آمره بالتوجه إلى قصر الرئاسة.. أمام القصر، توقف موكبه بسبب مظاهرة لرجال الشرطة وهم يتقدمون نحو مدخل القصر.. لم يسمح له الحراس بالنزول، لكنه فتح النافذة لكي

يتكلم مع أحدهم.. هجم على السيارة عدة أشخاص وهم يرتدون زي الشرطة فأغلق النافذة وقال بصوت خافت: ما هؤلاء القردة.. الأمن الذي عليه أن يحرس الدولة أصبح هو الذي يهدد الدولة! التقط أحد المتظاهرين القريبين جدا من نافذة السيارة، كلمة قردة!.. ثم صرخ بأعلى صوته:

- هل تعرفون.. لقد أصبحنا قردة.. لقد قال عنكم قردة..

حين انتبه المتظاهرون إلى ما يقوله زميلهم، كانت السيارة قد نجحت في اختراق الحشود وأصبحت داخل القصر.. قال الرئيس لضيفه بعد أن استقبله على عجل..

- هل تعرف، لم أكن أتصور أن يجرأ هؤلاء القردة على القصر.. كيف تمكنت من الدخول؟

- حاولت أن أخاطبهم، لكن الحراس لم يسمحوا لي بالنزول من السيارة..

- وماذا يريدون؟

- زيادة في الرواتب والمخصصات وقانون حماية خاص من الإرهاب..

- كنا نتوقع أن يحموا الدولة من الإرهاب، فإذا بهم يطالبون بحماية أنفسهم من الإرهاب! هذا ابتزاز..

- نعم.. إنه ابتزاز واضح.. لا بل إرهابيون يرتدون الزي الرسمي للدولة.. ليس ثمة انحطاط بعد هذا الانحطاط..

روت ذلك المقطع من الحوار الذي دار بين الرئيس ورئيس

حكومته، ستيفاني. وكانت تتحدث لزوجها السابق مراد عباس في مقهى «مون مارتر» حول فنجاني قهوة:

- لا أحد يعرف إلى أين تسير هذه البلاد..

أجابها مراد ساخرا:

- هذا المدخل يصلح كمشهد افتتاحي لفيلمي الذي قد اسميه «خليج القردة»

ثم أضاف حانقا:

- ليس ثمة من حل.. لو كنت مكان الرئيس لقدمت استقالتي للبرلمان.. هيبة الدولة كانت شعارا له، فباتت غبارا متناثرا في كل مكان.. سلطة لزجة ومقززة بلا مذاق وبلا فحولة.. سلطة تشبه سلاطة من عدة أحزاب لا يمكن تناولها لأنها عديمة المذاق.. التونسيون لا يعرفون الأحزاب ولا يعرفون كيف يحكموا أنفسهم.. وإذا رأوا رئيسهم قد شاخ فإنهم لا يستمعون إليه أبدا.. أظن أنهم انتخبوا رجلا عجوزا لكي لا يستمعون إليه أبدا.. رئيسنا يعرف ذلك. وقد قبل أن يكون ألعوبة بين الأحزاب والمافيات.. وقد عاش مثل هذه التجربة حين كان وزير لدى الزعيم.. ولكنه لم يفهم أبدا أن السلطة متى بدأت خانعة، فإنها لن تصنع إلا الإذلال والرذائل..

استمعت ستيفاني جيدا إلى ما كان يقوله مراد. إنه لا يزال يحرك بداخلها نوازع التمرد، ولكن هذه المرة جاءت لتقول له شيئا آخر ربما لم يخطر على باله أبدا..

- مراد.. البارحة، أي مساء أمس، اتصلت بي سيدة من السفارة الفرنسية، قالت أن اسمها ناستازيا، وهي سكرتيرة خاصة للسفير «دي شامبير».. وأن السفير يود مقابلتي في أقرب فرصة..

- وماذا يريد منك السيد السفير؟

- لم نتحدث في الموضوع، لكني وعدتها بزيارة غدا صباحا..

- على أية حال.. أنت فرنسية قبل أن تكوني تونسية.. فهل هذا يزعجك؟

- أشعر بأن الدعوة غير بريئة..

- هل رأيت السفير «دي شامبير» من قبل.؟

- ابدا.. تعرفت عليه أخيرا في حفل السفارة الأمريكية بأعياد الاستقلال.. وكنت مع مجموعة من الزملاء..

- لا بد أنهم لاحظوا سفراتك الكثيرة في المدّة الأخيرة..

- لعل بعض أصدقائك ممن يعرفونني هم الذين أخبروا السفارة بوضعي العائلي والمهني الجديد..

- هل تشكين في أحد.. من هم أصدقائي، فريد لا يعرف حتى كيف يكتب اسمه بالفرنسية، سمير، لا أعتقد انه يحب الفرنسيين.

تساءلت ستيفاني:

- ألا تكون رحمة صديقي؟ أرملة الزعيم إبراهيم النقاش الذي تم اغتياله..

لم أتحمل الصفعة، ولكنني تمالكت نفسي ولم أشأ أن أظهر أمامها مضطربا أو مفككا كمحرك سيارة قديم. قلت لها بهدوء:

- لا أفهم ما تقصدين. هذا موضوع أصبح قديما يا ستيفاني.

*** *** ***

حملت نفسي على عربة من القلق، وذهبت إلى موعدي مع السفير. استقبلتني مضيفة شابة عند باب السفير وكبار الموظفين بعد ان مررت بأكثر من دورية أمنية وأكثر من متراس رملي وأكثر من حزمة أسلاك شائكة حتى لتبدو السفارة وكأنها مقر لأحد قادة الميليشيات في الموصل. قادتني المضيفة في الحين إلى مكتب سكرتيرة السفير ناستازيا.. اسمها فقط قد يوحي بالأنوثة والجمال لدى من يسمعه. أما الشكل، فهي رجل متنكر في هيئة امرأة.. حتى صوتها كان خشنا ومتشقق الحبال، يخرج من حنجرة ضخمة بدأت تتدلى ما تحت الذقن، نحو فم ضيق جدا بحجم إحدى عينيها.. حين ابتسمت وهي تصافحني، لم أر اسنانا أو حتى فما.. رأيت فقط أنف وثلاثة عيون.. (أردت أن أصف وجه هذه السيدة لا لشيء إلا لأن البيروقراطية العتيدة قادرة أن تقيم تحالفا مع الطبيعة في أنتاجها للقبح!)

بعد نحو خمس دقائق قضيناها في الصمت، أدخلتني ناستازيا إلى رواق مكتب السفير. وجدته واقفا خلف الباب الثاني والمغلف بالجلد، مباشرة. تصافحنا ثم قادني إلى ركن الجلوس. لم يكن ثمة من داعي لكي يكثر من الترحيب. وكما لو كان محقق شرطة على

موعد آخر بعد ربع ساعة مع متهم آخر، سألني ما إذا كانت رحلتي إلى أرض داعش موفقة. وبعد أن منحني بعض المديح على جرأتي وشجاعتي، وجه لي بعض اللوم، لأنني لم أخبر أحدا في السفارة بإسطمبول برحلتي من باب الاحتياط.. ثم قال وهو يصوغ عباراته بحذر:

- في الحقيقة، ليس هذا هو الموضوع الذي أردت أن أراك بشأنه. الموضوع يتعلق بجانب من حياتك الشخصية لو لم يكن هناك مانع.. منذ مدة ونحن نتلقى معلومات تخصك وتخص زوجك السابق السيد مراد عباس. ولم يكن همنا أن نتطفل على حياتك، ولكن من واجبنا أن نحميك من كل سوء، كمواطنة فرنسية لا زالت تسافر بجواز سفر فرنسي..

تابع يقول: إن الواجبات هي التي تلقي علينا بثقلها.. وكثيرا ما يجد من يكون في مثل وضعي مجبرا على الخوض في مواضيع قد تبدو جارحة أو لنقل خصوصية. لذلك سأسألك من باب التعاون لا أكثر ولا أقل عن بعض الأشياء ويبقى لديك مطلق الحرية في ان تقبلي أو ترفضي..

- تفضل سعادة السفير.. جئت إلى هنا لكي أعرف لماذ جئت، لا لكي أشرب شايا ثم أخرج..

رأيت وجه السفير قد اشرق، وأصبح طريق الكلام أكثر سلامة، فقال:

- لا يمكننا أن ننكر جمال الثورات.. ولكن لا أحد بإمكانه أن يتوقع أحداثها ونتائجها المروعة أحيانا.. ولا شك كفرنسية

تدركين ذلك أكثر من غيرك. لم تكن هناك من ثورة أكثر دموية ورعبا من الثورة الفرنسية. ومع ذلك ظللنا نحبها ونحلم بها باستمرار حتى أصبح ذلك الرعب الذي عاشه الأجداد، حلما رومانسيا لدى أحفادهم.

وافقته على قوله بابتسامة وكذلك بحركة من رأسي فدلق سؤاله:

- قبل طلاقك من مراد عباس، هل كنت تعرفين بأنه كان يقيم علاقة مع سيدة أخرى؟

- كانت له مغامرات مثل رجال كثيرين.. ثم بلغتني معلومات أنه أقام علاقة عاطفية مع إحدى السيدات. ولكني لم أكن متأكدة من ذلك. لم يكن لدي وقت لكي أركض وراء الإشاعات.. كنا متحدين برباط الحب والاحترام.. ولكن شيئا فشيئا لاحظت انه يتغيب ويتكاسل عن جميع واجباته. ولم يكن لدي ما أفسر ذلك إلا بحالات الإحباط التي كان يعيشها.. فقد قضى عشر سنوات وهو يحلم بإخراج فيلم دون ان يفعل ذلك حتى الآن.. والآن أعتقد أن إحباطه من الثورة قد فاق إحباطه الذي عاشه في العهد السابق..

لم أقل كلمتي الأخيرة. تعلمت ألا أقول كلمتي الأخيرة لأنها مثل الرصاصة الأخيرة لا نطلقها إلا إذا كنا متأكدين من الهدف.. ثم ألقى السفير بسؤال ثان يتطلب إجابة محددة..

- هل تعرفين السيدة رحمة صديقي..

- أعرفها.. يعرفها الصحفيون والسياسيون

- ما علاقتها بمراد؟

- ولكن يا سيدي السفير.. أنتم تعرفونها جيدا وتزوركم هنا.. وهي لا تنقطع عن الذهاب إلى باريس..

- مدام ستيفاني.. ما أقصده بسؤالي.

- هل كانت على علاقة مع زوجك مراد، قبل أن يقتل زوجها..

- لست متأكدة، لأكون صريحة.. كانت تصلني بعض الأخبار، ولكن مراد لم يعترف لي بذلك. كلن يقول لي أنها مجرد صديقة يعرفها منذ أن كانا يدرسان في باريس.. وأن عائلتهما على علاقة قرابة..

ارتفع منسوب التوجس لدي وبدا علي بعض التوتر، فرفع السفير من وتيرة كلامه مستغلا ذهولي. ثم سألني:

- هل كانت تقوم بزيارتكم في البيت مع زوجها القتيل؟

- لا أبدا. ربما مراد لم يكن يتحمل ثرثرة أو جدانوفية زوجها. على الأقل. هذا ما كان يقوله لي عنه.

- ألم يتصل بك زوجها ولا مرة ليشكو لك من مراد؟

- ولا مرة.. ولم أكن أعرفه شخصيا.. رايته مرة صدفة مع احد أصدقاء مراد. وحين أصبح نجما بعد الثورة لم أسع أبدا للقائه.. لأنني لا أجد في كلامه إلا خطابا راديكاليا. الحقيقة بعد أن قتل ندمت لأنني لم أتعرف عليه.. كان ذلك من أخطائي الصحفية!

- ألم يكن ذلك بسبب الخصومة التي بينه وبين مراد؟

- سيدي السفير.. دعني أنقذك من أسألتك العاجزة والمحتشمة..

أننا لا نستطيع أن نفسر مشاعر اليوم بما كان يحدث قبل عدة سنوات.. لم أكن أعرف بهذه الخصومة التي تتحدث عنها الآن.. قيل لي أنهما كانا يهددان بعضهما بعضا. ولكن ما أعرفه جيدا أن مراد ليس عنيفا حتى مع من يسيئون إليه..

- لدينا شريط مصور يا سيدتي، وصلنا من إحدى البارات يوثق لشباك لفظي وجسدي بين زوجك السابق وزوج السيدة رحمة الصِديقي.

الفصل الخامس عشر

حين قال الملك الحسن الثاني:« أنا الملك الوحيد في العالم.. والآخرون كلهم ملوك من ورق»، لم يغضب أي ملك في العالم إلا ملكة بريطانيا التي تركها تنتظر في القطار المتوجه إلى مراكش لأكثر من نصف ساعة. قالت العجوز البريطانية آنذاك (أغلب الناس يعتقدون أنها ولدت عجوزا): «يا للمسيح.. كيف يقول ذلك.. ألا يعلم السلطان المغربي.. أنني ملكة ولست ملكا؟؟». كان ذلك في ثمانينات القرن الماضي.. بعدها بعام، صعد الكاتب محمد شكري فوق كنتوار بار في طنجة ثم صرخ أمام الكاتب الأمريكي بول باولز: «أنا الكاتب الوحيد في العالم.. بعد صديقي بول باولز». في تلك السنوات بدا للبعض أن المغرب يتقاسمه رجلان.. الكاتب محمد شكري في طنجة والعاهل الحسن الثاني في الرباط.. وثمة من يعتقد حتى الآن أن منجزات المغرب حتى ذلك الوقت يمكن تلخيصها في المسيرة الخضراء لتحرير الصحراء ورواية الخبز الحافي، على أن احد أصدقاء خوسيه بلانتيرو وهو أستاذ جامعي في طنجة قد دمج الإنجازين في كلمة واحدة حين قال له:

- كان عليك أن تأتي إلى المغرب حين كان في زمن المسيرة الخضراء للخبز الحافي! المغرب الآن يشبه إسبانيا.. لقد تغير شكله

وكذلك تغيرت روحه.. لقد طارت روحا الثنائي محمد شكري والحسن الثاني..

تورط بلانتيرو في سؤال فقال:

- هل كان الحسن الثاني قارئا للروايات.. هل كان يشبه الملك فريدينالد الخامس الذي يعتبر أول من قرأ دونكيخوت قبل السماح بنسخها وتداولها؟

رد صديقه:

- ولكن إذا كان فريدينالد كان يضرب طابعه على كل نسخة تخرج من النساخين، فإن الحسن الثاني، كان يقرا كل كتاب يخرج من المطابع المغربية.. أضاف يقول:

- إنه نهم القراءة إلى درجة انه أصبح قادرا على تقليد أساليب الكتاب.. هل تعرف أن الحسن الثاني يمكن أن يقلد أسلوب فلوبير وكذلك أسلوب الكسندر دوما؟

(كان الحسن الثاني يقول عن نفسه لو لم أكن ملكا، لكنت طباخا أو سائس خيول أو كاتبا روائيا).. لذلك كان يحب المحمدين: محمد شكري ومحمد خير الدين، كأديب متخفي. ويحترم العبادلة الثلاثة، عبد الله العروي وعبد الله إبراهيم وعبد الله كانون، كمفكر ورجل سياسة ومتفقه في اللغة والنحو.. حين زاره ميتران الرئيس الفرنسي في العام 84، وهو أديب وكاتب إلى جانب كونه سياسي عتيق، تبارى معه في ملفات كثيرة.. عرض عليه من ذاكرته عدة فقرات من كتاب «الفرسان الثلاثة» وعدة قصائد لفيكتور هيغو.. ولم يتمكن ميتران أن يتبين ما إذا كان العاهل

المغربي يستعرض ذلك من ذاكرته أو هو يرتجل أدبا شبيها بأدب العمالقة الفرنسيين. فرش له الزرابي المغربية من الدار البيضاء إلى مراكش، عشرات الكيلومترات من الزرابي قد امتدت فوق الإسفلت لتسير عليها سيارة الركب الملكي ومعها دراجات الحراسة النارية وسيارات الإسعاف وباصات الصحفيين.. بين كل مسافة وأخرى يرى ميتران الخيام الملكية قد أقيمت والذبائح قد أعدت في طواجين شهية والخيالة قد أدت رقصتها.. ثم يواصل الركب سيره.. وعلى باب مراكش، فاز الحسن الثاني في المباراة السياسية. قال الحسن الثاني لضيفه ميتران وقد بدا الركب يستعد لدخول مراكش:

-سيدي الرئيس.. انظر على يمينك.. هل رأيت تلك السيارة المتفحمة؟ إنها سيارة الجنرال الدليمي.. ها هو الدليل على أن سيارته قد تعرضت إلى حادث ادى إلى احتراقها.. تلك هي حكمة الله يا سيدي الرئيس!

فهم ميتران الرسالة ولكنه رواها بعد ذلك بشكل مختلف نافيا ان تكون للمخابرات الفرنسية أي دور في محاولة انقلاب الدليمي ضد الحسن الثاني.. عرف الحسن الثاني عدة انقلابات فاشلة قام بها ثلاثة جنرالات فاشلين.. قال ذات مرة لعرفات: «إذا كان قائد الجيش في بلادنا يفشل في انقلاب، فكيف سينجح في حرب. يكفيك من أضغاث الأحلام وحرر بلدك بما تراه مفيدا، ولا تنتظر شيئا من جنرالات العرب».

آنذاك كان محمد خير الدين صديق سارتر لا يتردد في التبول أمام البرلمان بعدما أغلقه الملك. أما محمد شكري فقد بدا كتابة

روايته الجديدة على النحو التالي:«أفضل فطور يمكن أن تتناوله المرأة التي تنام في فراشك حتى الصباح هو: بيضتان + نصف باغيت من القمح الصلب + رشفات من الحليب الطازج».. ورغم الحب الذي بينه وبين الحسن الثاني، فإن ذلك لم يشفع له بأن تشطب تلك الجملة الافتتاحية. قال الملك:

- قولوا له ان يستبدل البيضتين بتفاحتين، حتى لا يقطع نسله!..

ضحك بلانتيرو بتوسع حتى بلغت ضحكته القهقهة ثم ثال:

آه.. أنه ثنائي رائع..

ولكن ساندرا التي لم تعرف عهد الحسن الثاني لم يكن ذلك الحديث ليستهويها لولا قدرة بلانتيرو على إعادة سرد الحكاية ثم علاقة الملك الذي لازال ذكره يرعب أهلها، بالأدب والأدباء..

قالت ساندار:

-هل تعرف يا خوسيه.. كل ما أعرفه أن الملك السابق كان قاسيا مع أهل الشمال. حكم ثلاثين عاما ولم يزر طنجة أبدا.. لقد وصفهم ذات مرة بالأوباش.. ثمة كراهية دفينة بين الحسن الثاني وأهل الشمال منذ أن انتفضوا عليه..

لم يكن بلانتيرو، استاذ التاريخ والحضارات والجوال الدائم يجهل ذلك التاريخ. كما لم يكن يقصد أن ينوه أو يمدح الطغيان، لذلك فقد عاد يقول لها كحكيم خبر الحياة قائلا..

- اسمعي يا ساندرا.. غدا ستتقدمين في السن وتصبحين أكثر تسامحا.. إننا نقتل جمال مراهقتنا وشبابنا بالتفكير في الماضي

وبمحاسبة الذين أخطأوا.. كلما تقدمنا في العمر، ربما ارتكبنا أخطاء أكثر حتى ولو كنا أناس بسطاء وعاديين.. لذلك من الأفضل أن نفتش عن مناطق التسامح..

- ولكن شبابنا هو ما يصنع شيخوختنا يا خوسيه.. حياتنا ليست مونتاج لعدة مشاهد منفصلة.. إنها ليست سينما..

- بعد فترة ستكتشفين تلك هي حياتنا.. دائما ما نجازف بخلق أنفسنا من الخارج.. لذلك يبقى البناء إلى حد ما مشوه.. نحن الرسامون ندرك ذلك جيدا..

- كيف، سألت ساندرا التي لاتزال تذكر كيف وقفت أمامه وقالت له أريدك أن ترسمني.. وبعد أن رسمها أحبها وأحبته.. أفزعها ما قاله خوسيه، ولكن خوسيه لم يتركها فريسة لتأويلات فاسدة، فقال مسرعا:

- نبدأ في تكوين فكرة عن أنفسنا من خلال الأفكار التي يحملها الآخرون عنا.. أي أن تكون أنت هو أن تكون أيضا ما يفكر فيه الآخر نحوك..

هرع خوسيه الذي كان يقف على بعد خطوتين منها على شاطئ البحر، ثم ضمها بين ذراعيه فعصرها كأنها حبة توت. بعد ذلك أمسكها من يدها وقادها نحو صخرة كبيرة جعلاها كرسيا للنقاش:

لم يكن يمثلان في مشهد رومانسي على حافة البحر كما يفعل العشاق في سينما الستينات، كما لم يتفطنا إلى أن أي واحد سيراهما على ذلك النحو، سيقول عنهما: «شابة وعجوز يمثلان في مسرحية قديمة». تحدثا وتناقشا كأزواج لا كعشاق. هكذا أحست ساندرا

في تلك الجلسة، ولكن ما كان يدخل عليها الحبور والمرح هو أنه كلما تطايرت تنورتها بسبب الرياح التي تبعثها أمواج البحر، تتأكد بأن خوسيه قد أصبح يشعر بالإثارة.. ولو أن أحدا قد مر بالقرب منهما لدخلت على صفحات الفايسبوك كأكبر خليعة لمدة يومين. وبعد أن غرس خوسيه عينيه باتجاه ساقيها العاريين اكثر من مرة قال وكأن خبلا قد حل به..

- قومي.. انهضي.. لماذا لا نذهب إلى البيت.. سنجلس على البلكون ونشرب كاسين ونتمتع بأكثر من أمواج البحر..

لم أعارضه.. وللحقيقة فقد كنت أنتظر أن يقترح علي ذلك.. بل أكثر من ذلك كنت أود أن أمزق له قميصه لكي ادفعه إلى ذلك الهياج المجوسي الذي يجعله رجلا إسبانيا بحق!.

حين عدت إلى البيت في منتصف الليل، كنت منتشية إلى حد فقدت فيه كل إحساس بالألم.. ولكن في الصباح وجدت نفسي وكأنني بقايا من جسد وقع تحت ثور خلال مصارعة للثيران. أدركت آنذاك لماذا يمنعون النساء من مصارعة الثيران (الكوريدا النسائية).. فبعد تجارب عديدة وجدوا أن الثيران تشتم رائحة النساء فتصبح أكثر هيجانا.. يلتقط الثور ضحيته بقرنيه ثم يبطحها أرضا ويهجم عليها بعد أن يخرج قضيبه، ولا يقوم من فوقها إلا إذا أفرغ ماءه.. لم اسمح لأمي أن تعرف شيئا عما حدث معي البارحة. ولكن حين لاحظت أثر الكدمات وأنا أتطلع على ظهري في المرآة، انتبهت أيضا إلى أن فخذي قد ظهرت عليهما بقع بنفسجية، ناديت في الحال صديقتي سمية التي كشفت لها

عن تلك الآثار وأنا أتألم ولكن كما لو كنت أتفاخر بالثور الذي دهسني دهسا، سألتني سمية:

- هل ضربك؟

- لم يضربني يوما.. ولكن انفعالاته لا حدود لها كما لو في داخله جن..

قالت سمية حين رأتني متشبثة بكلمة انفعالات..

- هنيئا لك.. هذه علامات صدق وحب. تبا لشباب اليوم. إنهم كالديكة. ما إن يصعدوا على كومة حتى يؤذنوا ثم ينزلون متبخترين، واضعين أيديهم في جيوب بناطيلهم الوطئة..

ضحكت سمية لما قالته حتى رايتها تشتهي رجلا من فصيلة الثيران.. ثم قالت

- حذار أن تكوني حبلى، وإلا فإنك ستضعين عجلا إسبانيا صغيرا..

لم يكن في نيتي أن أضحك، ولكن سمية أجبرتني على ذلك، فأحسست بأضلعي تعود إلى مكانها الطبيعي ثم سمعتها تقول:

- هيا انهضي، عليك أن تذهبي معي إلى الطبيب..

- لم أمانع اقتراحها. فأنا كنت أحتاج إلى بعض المراهم والمهدئات..

ولم يستغرق الوقت أكثر من ساعة ونصف بين الطريق وإنهاء الفحوصات، حتى سمعت الطبيبة تقول لي:

- أنت حبلى يا مدموازيل..

*** *** ***

اختار «صابر» كنية له ليعرف بها في المسجد الذي يؤدي به صلاته كل يوم جمعة.. أصبح يعرف «بأبي هند الطنجاوي».. كان اسم «هند» هو اسم أمه وكان كذلك يريد أن يطلق على ابنته فيما لو رزق بطفلة اسم «هند».. وحين قرر الذهاب إلى سوريا للانضمام إلى المجاهدين العرب، لم يخبر لا زوجته الشابة التي تركها حبلى ولا أمه في طنجة ولا حتى أخته ساندرا التي يتراسل معها يوميا.. أمضى هناك في سوريا نحو عام ونصف وانضم إلى تنظيم داعش في بلاد الشام، وحين استعاد الجيش السوري مدينة تدمر وجد أبو هند الطنجاوي نفسه مرغما على العودة إلى باريس، وبالتحديد إلى زوجته التي تركها في شقة صغيرة قرب ساحة ستالينغراد.. حين وصل إلى تركيا أعاد الاتصال مع زوجته فأخبرته بأن البوليس الفرنسي يبحث عنه . اخبرها ببرودة دم بانه فقد ساقه في الحرب.. وبعد ذلك قرر العودة إلى بلده المغرب..

جاءه رجل إلى الفندق الصغير الذي سكن فيه في ضواحي أنقرة، بعد ظهيرة اليوم الثالث لوصوله من الحدود السورية. ودون أن يخبره حتى عن اسمه سلمه ظرفا صغيرا به مبلغ من المال: ثلاثة آلاف دولار. شكره على شجاعته وحماسه وإخلاصه للإسلام. وكرر له بأن الله لا ينسى أبناءه ثم اختفى!

عاد «صابر» ليستلقي على فراشه وقد تنفس الصعداء لأنه أصبح قادرا على خلاص الفندق والعودة إلى المغرب، ثم عادت إليه روحه المرحة التي باتت كئيبة منذ عدة أيام. تمنى لو مات وقال

لنفسه: كان الأفضل لو ذهبت شهيدا إلى الفردوس، على أن أعود أعرج بساق واحدة.. تجاوز تلك المحنة مؤقتا بإقناع نفسه بأن بتر عضو من الجسد قد لا يعطل الجسد وإنما يغير دوره الذي يؤديه على مسرح الحياة!..

بعد يومين من وجوده في ذلك الفندق تعرف على رجل آخر في نفس سنه ومن نفس بلده في صالون الفندق.. ولما أراد أن يتصافحا اتكأ أبو هند على عصاه ومد يده اليمنى فظلت معلقة في الفضاء. أدرك أن يد صاحبه كانت مقطوعة، وأن ما يراه بلون اللحم البشري، عبارة عن يد بلاستيكية.

قال صابر:

- أنا أبو هند الطنجاوي. وأنت؟

- وأنا ابو قتيبة.. من مكناس.

- من أين وصلت؟ سأل أبو قتيبة.

من تدمر.. وأنت؟

- من الرقة.. قبل نحو أربعة ايام.

- هل أنت عائد إلى المغرب، سأل أبو هند.

- أنا ذاهب إلى النرويج. عائلتي في النرويج.. وأنت ؟

- أنا عائد إلى المغرب.. جئت من باريس ولكني لن أتمكن من العودة إلى هناك.

ثم سأله أبو قتيبة:

- هل معك مغاربة آخرون؟

- معي شاب آخر تركته نائما في الغرفة.. فقد عينه اليمنى ولايزال جرحه لم يتماثل للشفاء..

(يا الله، كما لو أننا أولئك الشبان الثلاثة الذين فتحت لهم الجنة أبوابها ثم قفلوا راجعين وخائبين! قال أبو هند لنفسه.. وقد تذكر حكاية الشيخ أبو عمر الذي جنده مع اثنين من رفاقه في مسجد ستالينغراد في باريس. وهو يحذرهم من عدم غبطة تذوق رحيق الحياة على عتبات الجنة كما فعل شبان ثلاثة لم يفسخوا العقد الذي بينهم وبين الشيطان، وهم ذاهبون إلى الجهاد..

قال الشاب الأول: وهل لي أن اعرف ماذا يخبئ لي القدر؟

وتساءل الثاني: وماذا لو لم أجتاز عتبات الجنة؟

أما الثالث فكان لايزال متشككا في كلام الشيخ وتمتم مع نفسه: وماذا لو كان الأمر خدعة؟

ذهب الشبان الثلاثة إلى الجهاد، فعاد كل منهم خائبا وناقصا.. (خائبا لأن روحه لم تعرف طعم الجنة وناقصا لأن جسده أصبح معطلا)..

ودع أبو هند أبي قتيبة على أن يعودا فيلتقيا في المساء ثم صعد إلى غرفته ليفكر في العودة إلى المغرب بشكل جدي.. فهو لا يزال غير مقتنع بذلك الخيار الذي فرض عليه فرضا.. وهو خيار قد يجعله فأر سجن طوال ما تبقى من حياته.. خطفه نوم عميق لم يتخلص منه إلاّ حين رن هاتف غرفته بقوة.. ثم سمع أحد موظفي الاستقبال يقول له:

- غدا يمكنك أن تسافر إلى الدار البيضاء. لقد تم الحجز لكم..

بعد ذلك عاد إلى النوم محتضنا رواية فلاديمير بارتول «ألموت»: جئن إليه ثلاث فتيات.. واحدة تحمل إبريقا من الشاي. والأخرى قصعة من الحليب الطازج والثالثة منشفة بيضاء وليفة أو حكاكة وصابونة.. سألته التي تحمل إبريق الشاي ما إذا كان يريد أن يشرب الشاي أو الحليب قبل الحمام، فأجاب:

- أنا عطشان.. هات الحليب..

كرع قصعة الحليب وكأنه جدي صغير، ثم خلع ملابسه ودخل إلى الحمام. مدد كلتا ساقيه في المغطس ونسي تماما أن ساقه اليسرى قد قطعت.. ثم أدار بظهره للفتيات كي يدلكنه بالحكاكة.. أومأت إحداهن بخلع ثيابهن جميعا ثم غطسن معه في الماء.. تراشقن معه الماء والضحك.. وحين أراد أن يصرخ

- يا لبهجة هذا الحمام، رن هاتف الغرفة وفي نفس الوقت طرق بابه بقوة..

التقط السماعة لأن الذهاب إلى الباب مهمة صعبة بالنسبة لرجل أعرج، فسمع الموظف يقول:

- سيد صابر.. لقد حان موعد ذهابك إلى المطار..

*** *** ***

حين صار أبو هند الطنجاوي في المغرب، وقد اجتاز إجراءات الجمارك بسهولة بالغة كما لو أن أحد حراس الجنة كان يسير معه، تذكر تلك الرؤيا العابرة والكثيفة التي عبرت به بعد الفجر بقليل.. اطمأن جيدا لأنه بدا بشرب الحليب وفسر ذلك بغسيل

روحه وقلبه من الحقد. ثم فسر دخوله إلى الحمام بأنه تخلص من أدران جسده القديم. أما إبريق الشاي الذي لم يتمكن من شربه بسبب رنين الهاتف وطرقات الباب القوية، فقد فسره بأن شرب الشاي يعني الراحة والاستجمام. ولأنه لم يتذوقه، فقد يكون أمامه طريق طويلة من المحن حتى يتمكن من شرب كاس الراحة!.. وها هي رؤيا أبو هند الطنجاوي التي تسللت إليه من «رواية الموت» تتحقق تقريبا، بل أصبح يراها واقعا ماثلا أمامه..

بعد أسبوع من السكن في أحد أحياء الدار البيضاء مع أحد أبناء خالاته الذي يعمل في البريد، جاءه رجلان بنظارتين سوداويتين وطلبا منه أن «يتفضل معهما» إلى مركز البحث والتوثيق.. ثم اخضع لاستجواب مخاتل وعنيد.. وقبل أن ينطق بكلمة، قرر أن لا يقول إلا الحقيقة، لأن مثل هؤلاء الرجال لا يكفون عن الضرب والتعذيب ما لم يجدوا ما يقنعهم على ألسنة ضحاياهم.. إنهم يفعلون أي شيء ولا يسلم منهم إلا اللسان، لا لشيء إلا لكي يتكلم، أمضى في ضيافة قسم التحقيق نحو ثلاثة ساعات وهو يتكلم بلا انقطاع. وجعل المحققين الثلاثة الذين كانوا يلقون الأسئلة بلا توقف شبه راضين عنه، فطلبوا له أكثر من كأسة شاي. وكلما توقف عن الكلام، يقول له أحدهم:

-اشرب.. اشرب الشاي المنعنع الذي لم تشربه في سوريا يا أبا هند.. وتكلم دون أن ندخل في تشاكل جسدي..

(في الحقيقة لم أشرب شايا في حياتي أكثر مما شربت في سوريا، خاصة أيام الحصار في تدمر. نفطر شايا ونتغدى شايا ونتعشى

شايا. انتهت المؤونة كلها، ولولا الشاي لمتنا جوعا.. ولكن الشاي الذي يشربه الآن في قسم التحقيق أكثر متعة. خفيف ومنعنع كذلك الشاي الذي لم أشربه في المنام)..

تسلحت بكل ما أملك من شجاعة وإيمان وصبر (لأن الرجل الذي يدفن ساقه في التراب وهو يدعو لها بالتوفيق نحو طريق الجنة، عليه أن ينزع كل الخوف من قلبه لأنه لا يريد أن يفرط في مجده أو يشوه تاريخه) ثم قلت بعد ان انتهوا من إلقاء الأسئلة:

- إخوتي الكرام.. هذا الشاب الذي أمامكم والذي ترك جزءا رئيسيا من جسده مدفونا في الصحراء، وعاد إليكم طواعية، ما كان ليذهب إلى الحرب بشكل عفوي، لولا مشيئة الله وبعض عباده. لا أنا ولا أغلب الذين رايتهم هناك في ساحة الحرب كان يملك الوعي الكافي لما يحدث.. كنا لا نملك إلا الإيمان، كذلك كنا فخورين بأن ندفع حياتنا من أجل أن تكون راية الإسلام خفاقة وعالية.. وربما سوف لا تصدقوني لو قلت لكم أن المرء لا يتعلم إلا إذا تعرض إلى المحنة.. المحنة هي الاختبار الحقيقي للإنسان المؤمن.. والآن فإن سجني لن ينفعكم، كما أن موتي لن ينتفع منه أحد.. كنت فردا من آلاف المتطوعين من أجل هذه التضحية.. وها أنا فرد أمامكم. لذلك من الحكمة أن نتعاون لا أن نتقاتل.. لقد عدت من الحرب بإيمان شديد مفاده: كل قتال لا بد أن ينتهي إلى صلح.. إلى سلام.. وليس أمامي الآن إلا أن أتدبر أمري لكي أعيش بسلام.

رأيتهم الثلاثة صامتين وهم يحدقون في وجهي. فتابعت أقول:

- سادتي، ليس ثمة أصعب من أن يكون الإنسان متساويا مع نفسه. كنت أعرف شيئا وحيدا من البداية هو أن لا أخدع أحدا ولا أترك أحدا يخدعني.. ذهبت متطوعا لا مرتزقا. وحين رأيت نفسي قد أصبحت عاجزا انسحبت بشرف كامل وجسد ناقص..

- أراك تتكلم العربية جيدا.. من اين تعلمت ذلك وأنت كنت تعيش في باريس، سألني احد المحققين..

قلت مازحا وجادا في نفس الوقت:

- حين تهاجر تصبح اقرب إلى الوطن.. وحين نذهب على فرنسا نصبح أكثر تمسكا بلغتنا وإسلامنا.. القلة فقط تخرج عن تلك القاعدة.. ما نتعلمه بعد العشرين لا يتعدى بعض التقنيات.. المعرفة بلا إيمان وبلا هوية تصبح شيئا مرعبا يا سيدي..

بعد برهة من الصمت الذي أطبق علينا جميعا، سمعت كبير المحققين كما فهمت ذلك من خلال سنه المتقدمة وهدوئه ورصانة أسئلته القليلة.. يقول:

- ماذا ستفعل ابتداء من الآن يا «صابر»، إذا كان عليك أن تبدأ حياة جديدة؟

- سأحاول أن أدرب نفسي من جديد على الحياة في المغرب.. يبدو لي أن العودة إلى فرنسا أمرا لا يطاق.. قد تلتحق بي زوجتي مع ابنتي «هند» إلى هنا. وسأذهب إلى طنجة لأتصالح مع عائلتي.. لا أحد مهنم يعلم حتى الآن لا بذهابي إلى سوريا ولا بعودتي إلى المغرب..

- في باريس كنت تعمل كنادل وأحيانا كسائق تاكسي.. والآن

ماذا ستعمل بساق واحدة.

- يمكنني أن أعمل كسائق تاكسي أتوماتيك.. ألا ترى أن ساقي اليسرى هي المقطوعة.. ثم أن زوجتي إذا ما اختارت الالتحاق بي، فهي تعمل كمهندسة ديكور.. ويمكن لها أن تشتغل هنا..

- ألديك سكن في طنجة؟

- أنا من عائلة متوسطة الحال وقليلة العدد. لدي أخ يدرس في الولايات المتحدة، وأخت قد تكون أكملت دراستها الآن في الفنون الجميلة. ويمكنني أن أسكن في الطابق العلوي من بيت الوالد.. أنا صابر سلطاني يا سيدي.. ذهبت إلى باريس لمتابعة دراستي، لكنني لم أجد في الدراسة أية معرفة تقودني إلى الله! وحينما لا نجد الله في المدرسة أو في الكلية نصعد إليه نحو الجبال ونبحث عنه في الصحاري!..

عند ذلك الحد أغلق أبو هند فمه ثم عاد يتكلم باسمه الأصلي صابر، قال:

- أنا الآن صابر سلطاني.. أريد أن أبدأ حياتي من جديد..

أمر كبير المحققين بختم التحقيق.. لم يمكنه من قراءته لكي يضع توقيعه، قائلا له:

- انتيهنا من حصة اليوم.. في المرة المقبلة قد نحتاج إلى بعض التوضيحات ثم نطلعك على التحقيق للتوقيع..

تابع يقول:

- يمكنك العودة الآن من حيث أتينا بك.. وإذا أردت أن تذهب

إلى طنجة.. أخبرنا..

كرر أحد مساعديه:

- أخبرنا يا صابر.. لا تنسى..

لم يسأل «صابر» عن موعد المرة القادمة لأنه أدرك بحسه ان ملفه لن يغلق إلا بعد استكمال الابحاث. وهذا يستوجب ربما اتصالات مع الأمن الفرنسي، ولكنه شعر بالراحة لأنه شرب الشاي الذي لم يشربه في المنام..

*** *** ***

حين توقف التاكسي أمام بيت مبارك سلطاني.. قال صابر لصاحب التاكسي..

- اضرب الزمور يا سيد.. نحن لسنا في الليل..

زعق الزمور بقوة، فقفزت الخادمة من الباب..

سألها صابر من الشباك:

- هل يمكنك مساعدتي..

- ومن أنت.؟

- أنا صابر.. أنا ابن مبارك سلطاني وهند سلطاني.. أنا شقيق ساندرا..

أصابها ذهول كبير.. إنها تسمع بصابر، لكنها لم تره آبدا.. أمها تعرفه لأنها أشرفت على كامل مراهقته وجزء من شبابه. وها هي تأخذ مكان أمها بعد أن توفيت.. فتحت باب التاكسي ثم نزل السائق فتعاون معها على إنزال صابر إلى الأرض وإنزال حقيبته..

وحين تأخرت الخادمة في العودة إلى البيت خرجت ساندرا لترى ما يحدث.. ثم رأت صابر بقامته الطويلة يتكئ على عكاز وهو يحاول أن يتقدم إلى المدخل. صرخت بانفعال شديد..

- صابر.. صابر أخي.. عانقته بقوة ثم راحت تبكي بحرقة...

لم تكن ساندرا أبدا تتخيل أنها ستعيش ذلك المشهد الذي رأته في فيلم -الانكليزي المريض-. ودعته وهو يقفز كلاعب تنس شهير وكانت لم تتخطى العشرين بعد وها هي تستقبله عائدا من الحرب على عكاز. لم يكذب عليها حدسها. فحالما تم إجلاس صابر في الصالون بعد حصة طويلة من العناق والبكاء، اشتركت فيها الأم هند والأخت ساندرا والخادمة -ممو- ثم انظم إليها الأب مبارك. تكلم صابر..

- تلك أقدار الله.. أنكم تسألون ما حدث لي.. لم يحدث شيء.. أراد الله أن أكون أعرج فتم ذلك. ولو أراد أن أموت لمت.. وصلت إلى عتبات الجنة ثم قفلت خائبا..

لم يفهم أحد ما حدث بالضبط.. ولكن صابر أراحهم جميعا من عناء السؤال قال:

- كنت في سوريا.. كنت أعزز جلالته في المواقع الأمامية.. ذهبت إلى هناك لاعتقادي أن الإسلام سيبدأ رحلته البديعة مرة أخرى من أرض الشام.. كنت متلهفا لكي اجعل المسلمين غير متلهفين.. ثم التفت إلى أمه وقال:

- لا أطلب منك إلا أن تسامحيني، لأنني ربما جعلتك تتعذبين لأجلي..

بعد ذلك التفت لأبيه وقال:

- أنا لست إلا رجلا عابرا.. جميعنا عابرون بأرجل وبدون أرجل.

كاد أبوه أن يضحك، إذ ظن به خبل.. ولكنه لم يضحك.. ازداد كآبة..

نادى صابر على أخته ساندرا لكي تجلس إلى جانبه ثم حدق فيها قائلا:

- ها.. لم تتزوجي بعد يا ساندرا.. هل ثمة من يستغني عن هذا الجمال؟

حط الخجل على كامل جسد ساندرا كما لو أنها مراهقة لم تبلغ بعد الرابعة عشر.. (ربما تقديرا لوضع صابر الصحي.. وربما لأن صابر يتحدث كما لو أنه رجل صوفي أو كدرويش خرج للتو من احد الزوايا الدينية).. ثم غطست في استيهامات جارفة ورأت نفسها مع بلانتيرو وهي غير قادرة على منعه من ممارسة الفاحشة معها.. ارتعشت كما لو كانت بردانة ثم رأت صابر يحدق في اثر الكدمات التي تظهر على ذراعها.. لم تسع ساندرا كما يجب لإزالتها أو لإخفائها لأن كدمات العشق تبقى كجرس لإعلان الرغبة لدى المرأة منذ أن تعبر إلى ضفة الحب.. وها هو جاء وقت الحساب الذي لم تحسب حسابه.. فماذا ستقول لو سألها عن سبب تلك الكدمات).. وفعلا لم يتأخر صابر كما توقعت:

- ساندرا.. هل لديك قطة في البيت.. أم أن أحدا ضربك؟

*** *** ***

ثمة أحداث تعبر حياتنا لم تحدث.. نتذكرها ولكنها لم تحدث،

كأن تكون خائفا من عضة كلب فتذهب إلى الطبيب وتطلب منه حقنة مضادة لداء الكلب.. تأخذ الحقنة، فتصبح تحت الاعتقاد الواهم بأنك تعرضت لعضة كلب وتجاوزتها بسلام. كذلك ثمة أحداث لا تتذكر أنها وقعت إلا بعد فترة من حدوثها لأنها كانت تحتاج إلى جرعة من الألم والاهتمام.. كان تسقط امرأة أمامك بسبب توعك مفاجئ.. ثم تمضي دون أن ننتبه.. وحين ينتهي موعدك الذي كنت منشغلا به، تتذكر انك لم تقم بالواجب تجاه تلك المرأة المسكينة. يتوعك ضميرك قليلا ثم ينهض بلا أسف متكاسلا. ما حدث لساندرا يمكن تصنيفه في خانتين: حدث أصبح مستوطنا لا عابرا. وحدث لم يحدث. عابر لكنه كذلك مستوطن.. كلاهما يوجدان خارج سياق الإرادة، ولكنهما قد يوجدان داخل سياق الحبكة أو الحكاية.. عودة صابر بساق واحدة من جبهة القتال في سوريا. يمكن اعتباره فوبيا الذي لم يحدث، لأن أخاها صابر لايزال في فرنسا مع زوجته وابنته هند. ثم قوبيا الذي قد حدث في غفلة منها لأنها كانت منشغلة بالمتعة وبالحب، لأن طفلا قد أصبح ينمو في بطنها وهو مستوطن بالرغم منها. وهكذا فإن الحدث العابر ليس عليه أن يبقى عابرا إلى الأبد!.. لأن أي حدث لا بد له أن يرتبط بسلسلة من الأحداث الأخرى ليقيم سياقات تصبح هي الحياة ذاتها لا القصة التي نود أن نعيشها بعيدا عن الحياة!..

كانت ساندرا تريد أن تعيش قصة مع بلانتيرو. وكذلك بلانتيرو على الأرجح أيضا. بدأت برسم ثم تطورت إلى صورة ثم دخلت في سياقات متشعبة حتى أصبحت حياة. ولا شك أن وضعها في

هذه الحالة يشبه وضع الكاتب الذي يكتب ما يتوقعه القارئ والكاتب الذي لا يعلم أو لا يكتب ما يتوقعه القارئ.. وهنا يجب أن نؤكد أن ذلك لا علاقة له بحرفية الكاتب أو بموهبته. وكمثال، فإن أمبرتو ايكو ونيكوس كازانتكيس كاتبان كبيران لا يشق غبار لموهبتهما.. كازانتكيس بإمكانه أن يقودك إلى أين يريد ولا تستطيع أن تفلت منه، أما إيكو فليس بالإمكان أن تعرف إلى أين يقودك ولا تستطيع أن تفلت منه أيضا.. وقد كان على ساندرا أن تلعب مع بلانتيرو على الساحتين (أن تعرف وان لا تعرف إلى أين يقودها) وتجد المتعة في الاتجاهين، لكنها لا تعرف إن كانت متعة الخاسرين أو متعة الرابحين..

ما يهم ساندرا في الحقيقة ليس الربح أو الخسارة لان أية علاقة عاطفية إذا أخضعناها لذلك المقياس، أصبحت عملية تجارية تافهة ومحدودة. لأوضح، فإن ساندرا قد تجد نفسها خاسرة، ولكنها متمتعة بتلك الخسارة وذلك هو الربح الكبير.. كان بلانتيرو يغذيها باستمرار بتلك الأفكار المجنحة والتي تطير بثلاثة أجنحة. كان يقول لها أن الجناح الثالث لأية فكرة وفي أية علاقة هو جناح اللاتوقع لأنه يمنحنا القدرة على الطيران العالي جدا، كان يضرب لها أمثلة عديدة عن متعة الخاسرين التي تحتوي على بعد آخر، هو متعة الآخر، أي المتلقي أو المشاهد.. ففي أفلام كثيرة ينتشي أغلب الناس لانتصار البطل، ولكن اغلب الناس هم الجمهور العادي والبسيط.. أما الأكثر ذكاء والأكثر حساسية فإنهم يتمتعون بحكاية الضحية أو الخاسر. قال لها ذات مرة:

- لنأخذ مثلا مدام بوفاري... هل تعتقدين أن الناس يحبونها

لأنها انتحرت فقط.. إذا كان ذلك هو الرأي فهو بسيط.. الناس يحبونها لأنها تجرأت وراهنت على الحب وخسرت..

- هل هذا يعني أن الرابحين في الروايات والأفلام هم يربحون بالمصادفة أم هم يربحون لأن الحبكة فرضت نفسها

أضاف بلانتيرو:

- الأدب كالحياة.. والرسم هو الأدب والحياة معا يا ساندرا.. وإلا قولي لي ما الفرق بين محمد شكري والحسن الثاني.. أو حتى بين أندريه مالرو والجنرال ديغول.. أما سلفادور دالي فقد جعل فرانكو قطعة من إسبانيا أو قصة إسبانيا مع الألم والحياة..

فجأة اختفى بلانتيرو من أفق ساندرا، أي من مساحتها الضوئية.. فانتهى الحوار عند ذلك الحد. وظل اللقاء مجرد وعد لأن السكايب انقطع. فقالت لنفسها: حقا كل لقاء هو حدث عابر وغير مكتمل..

الفصل السادس عشر

عادة ما يقتفي الدكتاتوريون أثر بعضهم بعضا. إما أن يذهبوا إلى المقصلة أو يذهبوا إلى المنفى.. ورغم أن بن علي كان يشبه «تشاوشيسكو» رومانيا في نظامه الأمني، نظام «السكيريتاتا». أو في علاقته بزوجته إذ كانت ليلى نسخة أخرى عن (الينا تشاوشيسكو) وكذلك في درجة حبه لبلاده إلى درجة التملك! إلا أنه اقتفى أثر «عيدي أمين دادا» فلم يذهب إلى الموت كما ذهب «تشاوشيسكو».. فالطائرة التي انطلقت من مطار قرطاج تحت أعين الجيش والبوليس استطاعت أن تصل إلى جدة. أما الهيليكوبتر التي نقلت تشاوشيسكو من فوق سطح مقر الحزب، فقد حطّت مرغمة في إحدى القواعد العسكرية؟!

بين «عيدي أمين دادا» و«زين العابدين بن علي» عدة نقاط تشابه: كلاهما جنرال. كلاهما قاما بانقلاب ضد زعيميهما. الأوّل ضد ميلتون أبوتو، أول رئيس لأوغندا. والثاني ضد بورقيبة أول رؤساء تونس. كلاهما كان صديقا للقذافي. الاثنان هربا إلى جدة طلبا للجوء السياسي. والاثنان كانا يحبان النساء والمال والسلطة.. بالإضافة إلى كراهيتهما المشتركة للصحفيين وحبهما المشترك لمطبخ بلديهما!.

حين سقط «تشاوشيسكو»، كان حبيب رودباري، نجم جريدة «جمهوريات» في عالم السبق الصحفي لم يصبح بعد صحفيا.. كان لا يزال طالبا في العلوم السياسية. أما ستيفاني نيكولاس التي شجعته على اقتفاء أثر بن علي بعد أن مدته بعدة عناوين وهواتف، فربما كانت لا تزال مراهقة في بلدتها «درست» بشمال فرنسا.. تعلل حبيب رودباري بأنه ينوي القيام بعمرة، لكنه ظل في جدة ولم يذهب لا إلى مكة ولا إلى المدينة. كان عاقد العزم على الوصول إلى رجل تونس القوي الذي أصبح لاجئا في جدة منذ أربع سنوات.. كان قد طلب من الشيخ العطار أن يساعده لأداء العمرة خلال شهر رمضان، فصرف له مبلغا من المال وتذكرة سفر درجة أولى وإقامة كاملة لمدة 15 يوما في «فنادق انتركونتيننتال» ثم مده بعنوان رجل تركي قال له، أنه سيجده في مطار جدة ليتولى تنظيم رحلته..

تمّ كل شيء على أحسن ما يرام لدى أبو منذر المدير المالي والإداري للشيخ العطار. وقال أبو منذر وهو يودعه في مكتبه.

– حين تعود من العمرة، سنتمكن من رؤية الشيخ العطار لكي نشكره..ثم خرج. عرّج على مكتب زميلته ستيفاني. وبعد أن ودعها قال لها:

– سأهاتفك من جدة لأمدك بأخباري !

لم تكن ستيفاني تعرف أن حبيب رودباري كان جادا في الذهاب إلى جدة قبل يومين. أما الآن وقد باتت متأكدة، فقد ودعته قائلة وهي شبه ناقمة على نفسها لأنها امرأة مطلقة ولا تستطيع أن تزور السعودية بلا رجل محرم:

- لا تنسى أن الفكرة فكرتي يا حبيب .. بالتوفيق..

كان جلال طاهر في استقباله في مطار جدة. وهو الرجل الذي حدثه عنه أبو منذر. وبعد أن أخذ مكانه في المقعد الخلفي لسيارة التايوتا الرباعية، عرف حبيب أن جلال طاهر رجل مصري يعمل بإحدى شركات الشيخ العطار في جدة..قال له حبيب:

- أوّد أن أمكث في جدة لمدة ثلاث أو أربعة أيام للإطلاع على هذه المدينة الضخمة ثم أذهب إلى مكة للبدء في شعائر العمرة..

أوصله جلال إلى فندق انتركونتيننتال.. وفي المساء أرسل له سائقا مع سيارته التويوتا.. وحين عرف حبيب أن السائق تركي ويتكلم التركية شعر بالراحة والغبطة.. ورأى أن الطريق قد تكون انفتحت أمامه للوصول إلى الرئيس السابق التونسي بن علي!

بسرعة وجد في السائق «رجب روشكان» دليلا لما كان ينوي القيام به. تعاهد معه على إخفاء مهمته التي جاء من أجلها بعد أن وعده بمبلغ من المال، ثم اتفق معه على أن يأخذه إلى كل الأماكن التي يرتادها السياسيون الأجانب.. كان رجب قد قضى أكثر من عشرين عاما في جدة. وفد عاصر ثلاثة ملوك. وقد عمل في البداية كنادل في أكثر من فندق ثم كحارس لإحدى الشركات ثم كسائق في مؤسسة العطار الخيرية، لذلك فقد أصبح يمتلك معرفة ميدانية ونظرية لكي يساعد ابن بلده حبيب رودباري في مهمته..

قال له حبيب في صباح اليوم التالي:

- قيل لي أن بن علي يرتاد الحمامات البخارية.. وأنه أحيانا يتناول غداءه في «المريديان». وفي المساء يحب أن يجلس في

«السوفيتيل» لتناول القهوة. فما رأيك؟

أجاب رجب:

- سأذهب معك إلى حيث تشاء. ولكن إذا ما عثرنا عليه في إحدى الأماكن، فيجب أن تتصرف بمفردك كما لو أن الأمر صدفة.. أضاف..

- رأيته مرة جالسا في مقهى «الواحة» القريب من نزل شعبي يجلس به الأجانب. بدا لي ضخما ويعتمر قلنوسة بيضاء ويرتدي جلبابا أبيض. لم أقترب منه، لكن الرجل الذي كان معي دلني عليه وقال لي، أن ذلك الرجل الجالس في الركن مع اثنين من الرجال، هو الرئيس السابق لتونس.. ولكنني لست متأكدا ما إذا كان يرتاد ذاك المكان باستمرار أو هو جاء يومها لموعد خاص.

بعد ثلاثة أيام من البحث والتقصي، لم يعثر حبيب رودباري على أي أثر لبن علي كشخص .. عرف أنه يسكن في فيلا ضخمة على الشاطئ محصنة وقريبة من القصر الملكي وقصور الضيافة الملكية.. عرف كذلك أنه أحيانا يذهب إلى المطار ليتلقى بعض «المواد البلدي» كالهريسة والفلفل الأحمر المجفف وطحين الزميطة والزيتون المملح التي تأتيه من باريس. عرف كذلك أنه يستقبل من حين لآخر بعض أقربائه الذين يأتون من قطر وتونس وباريس.. وأنه يقضي وقتا طويلا أمام شاشة التلفزيون لمشاهدة الأخبار والبرامج الرياضية.. وأنه في كل عام يقوم بأداء العمرة مع زوجته وابنه، وأنه يرفض مقابلة أي صحفي مهما كان مستوى الوساطة. وبما أن موعد أداء العمرة قد حان، فقد أرجأ حبيب كل شيء

إلى زيارة ثانية، وعزم على اجتياز العتبات المقدسة في الحرمين..

فشل أهم صحفي «جمهوريات» حبيب روباردي فيما نجح صحفي من «البانوراما» الإيطالية، ريكاردو أوريزيو. والسبب كما فسرته ستيفاني، ليس سوء حظ أو عدم حرفية حبيب رودباري، وإنما يعود إلى عدم شجاعة بن علي.. هنا يختلف الجنرال بن علي على الجنرال عيدي أمين. فهذا الأخير ظل يقاتل إلى أن انهزم. لم يركب طائرته ويهرب إلى جدة. وإنما قطع مسافات طويلة حتى وصل إلى ليبيا، عبر السودان ثم طلب اللجوء السياسي لعدم إحراج صديقه القذافي، فذهب إلى جدة.. لم يكن عيدي أمين دادا أكثر شجاعة. بل كان أكثر جرأة ومرحا ودعابة .. كان يتحدث بأسلوب، شرشل ويتصرف كملوك الباغنداء، ويسدد ضرباته إلى السياسيين مثل محمد علي كلاي.. فاز ببطولة المصارعة في بلاده تسع مرات، فانتقل من عرش الرياضة إلى عرش السياسة. كتب ذات مرة إلى ملكة بريطانيا قائلا: « إني أحبك أيتها الملكة لأنك كنت قائدي العام. ولكن ها أن جزءا من شعبك اليوم يحمل عرشي فوق رؤوسه.. لا تترددي إذا كنت تحتاجين إلى شحنة من الموز». كما كتب إلى عدوه اللدود جوليوس نيريري: « إني أحبك.. ولو لم تكن مريضا بداء السفلس لتزوجتك». لم يكن عيدي أمين يجمع المال كما كان يفعل بن علي. كما لم يكن يصمت أمام فساد عائلته أو زوجاته أو وزرائه..بل كان يمعن في الانتقام من كل شخص، إن كانت زوجة أو وزيرا إذ شعر بأنهما خانا الأمانة أو تقاعسا عن الواجب..طلق زوجته «ثريا» أمام التلفزيون ثم أرسلها إلى رعي الثيران. وعزل وزيرة خارجيته عارضة الأزياء

الفاتنة، الأميرة «اليزابيت باغايا» ابنة ملك قبيلة التورو بتهمة ممارسة الجنس مع رجل أبيض في حمامات مطار أورلي بباريس، ثم راح ينشر صورها في الصحف وهي عارية.. استمر ذلك المسلسل لمدة عام فأضاف إلى شعبيته رصيدا آخر من المحبة، ولكن بعد عام من تلك الحادثة بدا أن نظامه ينهار بسبب الحرب التي أعلنها على جارته تنزانيا.. استبدل القذافي صديقه عيدي أمين بصديق آخر من جيل آخر اسمه «موسفيني». وهو ماركسي قديم تعلم في الدار السلام ثم تدرب على السلاح في ليبيا. وقال البعض آنذاك، أن القذافي لم يدافع عن صديقه أمين دادا لأنه كان ينافسه في الشعبية والجرأة ومعاداة الانكليز. وحين طلب منه أن يغادر طرابلس، لم يكن عيدي أمين يعلم أن موسفيني الذي قاد ضده الحرب، كان ينام معه في نفس الفندق (غراند أوتيل). أشهر فنادق العالم لدى كل مخابرات العالم دون أن ترتكب فيه جريمة واحدة لمدة ثلاثين عاما.. كان بلير ينام إلى جانب قادة الجيش الايرلندي وعمر البشير ينام إلى جانب قادة دارفور، ورباني ينام إلى جانب حكميتار، ومع ذلك فلم تتخيل حتى أغاثا كريستي كيف نجا فندق «الغراند اوتيل» من أية جريمة سياسية!..

- هل كان بن علي يشبه تشاوشيسكو أكثر، أو عيدي أمين دادا أكثر؟

ذلك السؤال هو الذي طرحته ستيفاني على زميلها حبيب رودباري بعد عودته من العمرة..

أجاب حبيب:

- من حيث النهاية، فإن بن علي انتهى إلى ما انتهى إليه عيدي

أمين. ها هو جالس في جدة ينتظر حساب ربه.. أما من حيث أسلوب الحكم، فهو يشبه تشاوشيسكو، قاد كل منهما بلده بقبضة فولاذية من السكيريتاتا. وحاولا أن يبتعدا عن الشرق والغرب، وخضع كل منهما لنزوات زوجته.. ولما خرجت أول مظاهرة ضدهما، ركب كل واحد طائرته نحو منتهاه..

- ثمة أكثر من ذلك يا حبيب، قالت ستيفاني.

- ما حدث لتشاوشيسكو فجر صعود بن علي إلى الحكم لم يفهمه جيدا.. فالبرغم من أنه رجل أمن لمدة ثلاثة عقود وسفير لعدة مرات في بلدان كانت تتظاهر يوميا مثل بولونيا إلا أنه لم يفهم كيف سقط تشاوشيسكو ثم كيف انتشر ذلك النمط من الثورات في أوروبا الوسطى ثم في آسيا الوسطى، وكاد أن ينجح في إيران..ثم انتقل إلى تونس!.. كان الأمر بالنسبة لي واضحا لو أن بن علي فتح عيونه أكثر..

تابعت ستيفاني حديثها:

- دعك من رغبة أمريكا.. ثم إنسى للحظة ما يسمى بالإسلاميين. ولا تقل لي أن النظام لم يكن متماسكا إلى حد ما.. هناك بطل واحد لعب الدور الأبرز في كل تلك الثورات. هو التلفزيون في العصر الفضائي.. فحين كان التلفزيون محليا فقط، كان أداة للحكم. أما حين أصبح فضائيا، فقد أصبح أداة للانقلابات والثورات.. ففي اللحظة التي تحوّل فيها التلفزيون إلى الفضائي، انتقلت سلطته من الضعفاء إلى الأقوياء..

كانت « السي.آن.آن» قد افتتحت بثها الفضائي قبيل سقوط

تشاوشيسكو ببضعة أشهر. وفيما كانت تعرض الجثث التي أخرجت من برادات المستشفيات في تيماشاور، وهي جثث لموتى حوادث الطرقات، كان الدكتاتور الروماني ينزل بطائرته في قاعدة عسكرية.. استمرت المظاهرات أمام قصر المؤتمرات على الشاشة، بينما الناس قد عادوا إلى بيوتهم.. وكان في نظر العالم كله أن تلك المظاهرات لن تكف إلا بإعدام الدكتاتور وزوجته.. تم إطلاق النار بسرعة في حديقة تلك القاعدة ثم أعلن عن نجاح الثورة.. كانت ثورة فضائية شاهدها العالم كله كما يشاهد حفلة أعياد الميلاد أو مباراة كأس العالم، ولا أحد تفطن إلى الحبكة والأكاذيب.. هكذا دشن العالم عصرا جديدا من الأكاذيب.. إن الأكاذيب المتقنة هي الحقائق الجديدة.. بل هي التاريخ الحقيقي !..

- ولكن ما لم أفهمه لماذا بدأ الانهيار للأنظمة العربية من تونس؟

سأل حبيب. وأراد أن يجتهد فطرح عدة تساؤلات أخرى :

- هل تكون تونس أكثر عطشا للحرية. هل يكون التونسيون أكثر استعدادا للتمرد ؟

أم لأن تونس هي النقطة الأكثر هشاشة ؟

أكملت ستيفاني كما لو أنها أستاذة جامعية.

- اسمع يا صديقي الثورات والانتفاضات لا زالت تتحدى كل دارسيها بمفاجآتها. لماذا تندلع فجأة كرعد السماء كما يصفها فيكتور هيغو، أو كيف تندلع في المكان الذي لا نتوقعه كالزلزال؟ أو لماذا تنتقل كالنار في الهشيم من مكان إلى آخر؟ إن هذا أمر لا

يبحث فيه خبراء الثورة الجدد. إنهم يعدون أنفسهم جيدا للقدرة على توجيهها حين اندلاعها.. ثم يعدلون ساعاتهم على ساعاتها، بعد ذلك تصبح كالموضة تنتقل من بلد إلى آخر.. فلو أنها بدأت بمصر لوصلت إلى تونس. ولكن عليها أن تنجح في بلد حتى تنجح في البلد الآخر.. إن قانون المحاكاة هنا هو المعادل الحقيقي لقانون الفوضى.. أن الثورات لا يمكن التنبؤ بها حتى ساعة حدوثها كما تقول روزا لوكسمبورغ.. إنها جنون كما يقول ماركس، ولكنها جنون خلاق.. ها أن كونداليزا رايس صاحبة تعبير «الفوضى الخلاقة» قد التحقت بماركس في بداية القرن الواحد والعشرين.!

تسألني لماذا بدأت في تونس؟ وليس في بلد آخر.. ولكن لاحظ ما حدث في تونس أعيد إنتاجه في بلدان أخرى حرفيا: الفضائيات تثير العواطف وتقوم بإعداد الناس، وحين يخرج الناس إلى الشوارع، يأتي دور القناصة لإحداث بقعة الدم التي تحتاجها الثورات كقربان..بعد ذلك يتدخل الجيش لإرغام الدكتاتور على التنحي أو الرحيل.. وإذا الرئيس لم يرحل، لأن الجيش لا زال يقف إلى جانبه.. وآنذاك تتحول تلك الثورات إلى مذابح..

كان حبيب قد بدأ في كتابة سلسلة من المقالات عن الثورات المذبوحة في العالم العربي في صحيفة «جمهوريات». لذلك كان يحتاج إلى أن يسمع من ستيفاني بأكثر مما يتكلم..رأى أن أفكاره قد بدأت تنضج. وبعد أن تواعدا على لقاء آخر قال لها مودعا:

- وما رأيك في عنوان: الثورات الفضائية؟

قالت:

- يعجبني تعبير الثورات السماوية الثانية ربما أكثر.

سألها: لماذا ؟

قالت: لأن العرب يؤمنون بالسماء أكثر من إيمانهم بالأرض. ثلاثة أرباع حياتهم يقضونها في محاورات مع السماء. أما أرضهم فمهملة.. دخلوا إلى التاريخ عن طريق النبؤات القادمة من السماء في البداية.. وها هم يحاولون الدخول مرة أخرى عن طريق السماء..

بالتأكيد كانت ستيفاني تمزح.. أو أنها بدأت آنذاك تدرك أن اللعبة أكبر منها ومن حبيب بكثير.

*** *** ***

زار الرئيس المصري حسني مبارك قبل سقوطه بنحو عامين مقر قناة الجزيرة فأبدى اندهاشه، وقال أنه مقر صغير يشبه علبة الكبريت.. ولم يدرك أن علبة الكبريت تلك هي التي أشعلت الحريق الكبير في بيته. وكانت هذه القناة قد سببت صداعات كثيرة لجميع حكام العرب، حتى أصبحت الدوحة عاصمة لصناعة القرار العربي وأصبح أميرها أميرا على المؤمنين وغير المؤمنين من العرب.. كان مصعب الصراف أحد أولئك الذين اخترعوا تلك الفكرة..كان لا يزال شابا عائدا من أمريكا وقد أكمل دراسته في الإدارة والأعمال، حين ذهبت إلى مقابلة أمير بلاده مع صديق له.. قال للأمير بكل جرأة:

- إن قطر دولة غنية ولكنها صغيرة.. تقع بين إيران الكبيرة والسعودية الضخمة.. وهي لن تكبر إلا إذا دخلت إلى عصر الملتيميديا الفضائية.. ثمة عطل كبير داخل إيران وداخل السعودية هو عطل الخطاب وعطل الحرية. خطابهما راديكاليان

ونظامهما منغلقان.. وإذا استطاعت قطر أن تخترع خطابا جديدا يستجيب للشارع العربي والإسلامي المتعطش للحرية، فإن قطر ستصبح قوة ضاربة.. إن الإعلام يا طويل العمر هو القوة الضاربة لأية دولة في العالم حتى لو كانت صغيرة الحجم..

من هناك. من ذلك اللقاء، ولدت الجزيرة حسب رواية مصعب الصراف لستيفاني نيكولاس.. سألته ذات مرة:

- قليلة هي الحكومات، ديمقراطية كانت أم لا التي قد تقبل بتمويل قناة تضر بمصالحها. فلماذا أقدمت قطر على ذلك. بالأحرى كيف استطعت أن تقنع أميرك بذلك؟

قال مصعب وهو يمسك بسيكاره الكوبي «كوهيبا» ليشعله للمرة الرابعة.

- مدام ستيفاني. لو لم يكن الأمير شجاعا لما أقدم على ذلك. أنفق عشرات بل مئات الملايين من الدولارات ليقول للعالم أن بلده مختلف ويريد التحديث. ولما أطاح بوالده الشيخ، كان يريد أن يقول لأمراء الخليج الآخرين، أنه حان الوقت لتحديث بلدانهم. فرض عليهم نسقا جديدا، بدا واضحا في البحرين.. ثم في الإمارات ثم أصبح يتحرك الآن في السعودية. قناة الجزيرة زعزعت المشهد السمعي/ البصري في المنطقة وفرضت خطابات جديدة على المنطقة ثم تمكنت من أن تكون قاطرة للتحديث في الداخل والتغيير في المنطقة من المغرب إلى اليمن. ولم تمض أربع سنوات على تأسيس الجزيرة حتى ألغيت وزارة الإعلام وحصلت النساء على حق التصويت والترشح للانتخابات البلدية. وبدا المجتمع

يتحرك ثم بدأنا نرى نساء قطريات يجلسن في المقاهي إلى جانب الرجال ويقدن سياراتهن وقد اكتظ بهن الشارع. وهذا ما حرض النساء السعوديات على التحرك والتنظيم.. أسألك يا عزيزتي.. هل رأيت أميرا أو ملكا خليجيا يقف إلى جانب زوجته أو يسافر معها أو يسهر معها في مطاعم باريس وروما باستثناء أمير قطر ؟

كان يمكن لستيفاني أن تطعن في تلك الرواية البطولية، وتسفه مستوى الديمقراطية في قطر.. وتأتي بحفنة من الأمثلة عن القمع والتمييز العنصري ومنع إنشاء الأحزاب وعدم احترام القانون وغياب القضاء المستقل.. ولكن ذلك كله يظل مسألة نسبية. فمصعب الصراف يدرك جيدا أن ما حدث ليس الكمال، وإنما هو مقدمات نحو الحرية.. لذلك سألته ما إذا كان يعتقد فعلا أن قناة الجزيرة حرة فعلا؟

وهنا أجاب مصعب كالتالي:

- هناك دائما في أي عمل، خطوط حمراء وأخرى خضراء. وثالثة برتقالية.. وبصراحة فإن «الجزيرة» قد نصفها بالقناة البرتقالية. فكلمة حرة لا تعبر عن أي معنى محدد. من أنشأ القناة لا يستطيع أن يكون مدركا تماما لتلك المسألة، كذلك الصحفيون العاملون بها.. إنهم يجرون لقاءات مع كل أطياف المعارضين العرب، ولكنهم لا يجرؤون على مقابلة المعارضة القطرية.. مثلا كان والد الأمير منفيا في روما ولا أحد التفت إليه.. كان يمكن أن يكون صيدا ثمينا لصحفيين آخرين لا يعملون في الجزيرة، ولكن لا أحد ذهب إليه أيضا.. لماذا؟ لأن الجزيرة قادرة على الردع.. وتلك هي قوة الإعلام الكامنة والاحتياطية.. إن الجزيرة تلعب في النقطة

البرتقالية التي تمتد من الأحمر إلى الأخضر.. تكبح جماح الأعداء كما هي تطلق عنان الأصدقاء..

كانت ستيفاني تصطنع أحيانا الإقتناع حين كانت تستمع إلى مصعب الصراف.. وفي أحيان أخرى كانت تتذكر ما كان يقوله لها زوجها السابق مراد عباس حول هذه القناة.. كان مراد لا يمكن إقناعه أبدا بأن «الحريات» يمكن أن تأتي من الخليج أو من بلد صغير مثل قطر.. فإذا كانت مصر مكممة ومعطلة، فكيف يمكن لنا أن ننتظر النجدة من قطر.. كان يرى في ذلك كله فصلا من النفاق، مسرحية عن انفصام الشخصية العربية مشخصنة في قطر وأميرها.. فقناة الجزيرة هي في جانبها الآخر قاعدة «العيديد» الأمريكية.. هذه تغرق العرب في خطاب أجوف عن الحرية.. وتلك تقصف العرب بالقنابل الحارقة والحقيقية.. وبين مشهدين مصورين، أحدهما لجندي إسرائيلي يدهس طفلا فلسطينيا، وآخر لناطق رسمي باسم حكومة إسرائيل، تطير القضية مع إعلان لطائرة الخطوط القطرية !..

وما بين كلام مصعب الصراف وكلام مراد عباس، كانت ستيفاني معلقة تماما. فلا هي استطاعت أن تجعل مصعب الصراف يهيم بها كما هام في البداية.. ولا هي تمكنت من العودة إلى مراد. ولكن المرأة المعلقة بين رجلين غائبين حاضرين في نفس الوقت ولا أحد يمد إليها يده لا بدّ لها أن تسقط كحبة تفاح ناضجة في سلة رجل ثالث !.

*** *** ***

إن ستيفاني تمثل الشكل المثالي المرغوب في المرأة التي يعشقها مراد شمان. هي أطول بقليل من «مرام حسن»، التي لم تعد بعد من الموصل منذ أن اصطحبت الفريق الصحفي. ولكن كل منهما تتمتع بجاذبية قلما يصمد أمامها أي رجل.. كل منهما توحي بأنها ذات قدرة إنجابية مرتفعة. وهذا ما يزيد في مادة الأستروجين لديهما.. فاستدارة الورك التي تزيد عن استدارة الخصر بحوالي الثلث والشفاه المكتنزة والذقن الدقيق والوجه المتناسق والبشرة السليمة والناعمة، والصدر النابض، كلها ملامح المرأة الباحثة عن الخصوبة.. وبمعنى آخر الباحثة عن الرجل القوي دون الاهتمام بمظهره الخارجي. فإذا كان الرجل يختار بعيونه، فإن المرأة تختار بعقلها..

لكن مراد شما ن رجل وسيم وقوي في نفس الوقت إلى درجة يرغبن فيها النساء إلى استدراجه لاغتصابهن! يتحدثن نساء الجمعيات لمقاومة للعنف، على أن اغتصاب الرجال للنساء هو جريمة لا تغتفر، ولكن ما من جمعية أشارت إلى أن هناك رجالا يتعرضون لاغتصاب النساء.. وحين طرح كتاب «التاريخ الطبيعي للاغتصاب» في أسواق أمريكا منذ عدة سنوات اندلعت عاصفة هوجاء داخل جمهور النساء. وتجرأن بعض النساء على شراء نسخ كثيرة وحرقها في الشوارع، لكن البعض الآخر رأى أن إستراتجية العلاقات الجنسية القسرية هي نتيجة طبيعية لمبدأ النشوء والارتقاء.. قال الكاتب، «أن الاغتصاب يقوم به الطرفان: المرأة والرجل. أو الذكر والأنثى. فهو يعطي للرجال المرفوضين من النساء الفرصة لإيداع جيناتهم في الأوعية التناسلية للمرأة، وبذلك ينظمون إلى حركة الارتقاء بإنجابهم للأطفال..أما المرأة

فهي تفعل ذلك انطلاقا من رغبتها في إنجاب أطفال أقوياء يشبهون أباءهم». تحدث كذلك الكاتب عن الاغتصاب الجنسي في عالم الحيوان. ضرب مثال العقرب الذي يقضي على مقاومة الأنثى بواسطة كلابتين حادتين.. وشدد الكاتب على أن دوافع الاغتصاب تنتعش في زمن الحرب. أولا طلبا للإنجاب لأن الحرب تقتل النسل. ثم لأن العقوبات تتراجع وتضمحل. وحين ظهر مؤلف الكتاب وهو البروفسور «راندي ثورنهيل» في ندوة لمقاومة الاغتصاب وتساءل عن الشبه بين سلوك الحشرات وسلوك الناس في زمن الحرب، تعرض إلى اعتداءات شنيعة.. إحدى السيدات رمته بحذائها وقالت له: إنك تدعونا إلى الاغتصاب يا سافل.. سيدة أخرى صفعته في وجهه وشتمته بقوة.. ومنذ تلك الندوة، ألغى ذلك البروفسور كل ظهور علني له.

الأكاديميون استهزؤوا بالكاتب الذي استهزأ بعلم الاجتماع، لكن البروفسور الذي دافع عن بحثه وبحث زميله «كريغ بالمر» في مقال آخر ظهر في مجلة «علوم» بأن الاغتصاب ليس هو الإرث الوحيد الذي يعود إلى العصور الحجرية. بل هناك سلوكيات أخرى ورثها الإنسان من تلك الحقبة مثل الغيرة التي كان إنسان تلك العصور يستخدمها بصورة لاواعية لتطوير جيناته الخاصة. فالذي لا يثق في شريكه ويتجسس عليه ويخفيه أو يضربه من فرط حبه له يخلق فائدة لنفسه لأنه يمنع شريكه من البحث عن المغامرة في مكان آخر. وهذا نوع آخر من الاغتصاب.. وبما أن الغيرة موجودة بالتساوي لدى المرأة والرجل، فإن رغبة الاغتصاب سلبية أو إيجابية كانت متساوية لديهما.

ولكن شيئا فشيئا بدا الداروينيون الجدد يفرضون أنفسهم على المجتمع الأمريكي إلى حدٍ تطور فيه نشاطهم وأصبح خطرا على الجمعيات المقاومة للعنف والاغتصاب.. ومثل جرثومة تكاثرت، عاد علم الأحياء الدارويني بقوة.. وأصبح كثير من الناس يتكلمون عن الاغتصاب المزدوج أو الاغتصاب السلبي والإيجابي.. كذلك عن الزنا المشترك، كما لو أنهما من سلوكيات الدماغ البشري منذ القدم.. وخرجت إحصائيات إحيائية أخرى استعانت بخارطة الجينوم. فقد رأت بأن طفلا من كل عشرة أو ثمانية أطفال يولدون لا ينحدرون من صلب آبائهم. وسواء حملت المرأة سرّا من عشيق لها يمتلك عدة جينية جيدة أو أن يدلس الرجال من دون علمهم طفلا لأحد خصومهم، فإن ذلك كان ولا يزال وسيلة فعالة لنقل جيناتهم للجيل اللاحق..

وحين وصلت ستيفاني إلى الفقرة التي تقول:«أن الرجال يحلمون بأن يكون لهم أكثر من شريك، وهم يركضون باستمرار وراء المغامرات العابرة. وأن النساء يولين أهمية كبرى للرجل الذي يمارسن معه الجنس، لكن لا واحدة تعير اهتماما خاصا بعدد شركائها»، توقفت عن القراءة ثم علقت كما لو أنها تتكلم إلى مراد شمان الذي حام طيفه فوق رأسها كنوبة حمى..

– حقا أن الناس يفهمون الجنس كشيء تملكه النساء ويحاول الرجال امتلاكه وافتكاكه.. ولكن ذلك لا يعدو أن يكون خطأ شائعا..

كانت متكئة على الكنابيه بروب خفيف وشفاف عشية ذلك الأحد الثقيل الذي تقاوم ثقله وكسله بالاستماع إلى الموسيقى

وبقراءة بعض الكتب البعيدة عن السياسة، حين ضرب جرس الباب..لم تتوقع قدوم أي شخص إلى شقتها بدون أن تتلقى هاتفا أو رسالة بالماسنجر، ولكن بعد أن سمعت صوت مراد على الانترفون. انطلق كل شيء لديها. ابتهجت حواسها. لم يكن غياب الأناقة مقصودا.. ولكن الأنوثة حلت محل الأناقة..

حين خرج مراد من المصعد، وجد الباب منفرجا وكانت ستيفاني تقف وراء الباب مباشرة. خطفته من الباب وراحت تقبله بلهفة كما لو أنها كانت تنتظره منذ مدة. بعد ذلك سحبته من كرافته ككلب صغير ثم قادته إلى غرفة النوم.. دفعته إلى الفراش فاستلقى على ظهره ثم التحقت به لتنزع الكرافته وتفتح قميصه على غابة صدره الكثيفة. بعد ذلك نزعت حذاءه بسرعة ورمت كل فردة في اتجاه.. ثم انهالت كعادتها عليه لثما وتقبيلا ولحسا ولعقا حتى استوى، وبدون أن تنزع قميصها أو حتى كيلوتها، جلست فوق محوره الكوني.. وراحت تهذي. وبين هزة وأخرى تلطمه بكفها على وجهه ثم تبصق في فمه بقوة لتعود تلحس ما بصقت.. وها هو مراد شمان المهووس بفحولته وقوته الجسدية يستسلم لطريقة جماع تختارها ستيفاني في كل مرة حتى ليبدو أن حضوره ليس إلا «تعلة» لكي ترتوي ستيفاني.. فالذي قام به أثناء ذلك الجماع يكتسي طابعا رمزيا لأن لولا وجوده لما ابتهجت حواس ستيفاني وجعلته مبتهجا.. خلال الفسحة التي تفصل بين جماعين، اشتكى مراد من الأحداث المشؤومة التي توالت عليه خلال الأسبوع الماضي.. وعبر لها عن شوق دافق إذ قال وهو يتهجى خارطة جسدها الممدود إلى جانبه بأصابعه كرجل أعمى استبدل بصره بأنامله:

- افتقدتك كثيرا، خلال الأسبوع التي قضيته في تونس يا ستيفاني..

تجاهلت ستيفاني ما قاله ، لأن نبرته كانت توحي بعدم الصدق. ثم قالت:

- مراد، أنا هنا منذ أربعة أيام.. وسبق أن تواعدنا قبل البارحة على عشاء، ولكنك اعتذرت.

ضحك مراد وقال:

- الرجال سيظلون على جهلهم وهم يكررون ماضيهم..

- إنهم يكررون ما تعلموه، قالت ستيفاني.. وبدون حب.. أضافت..

يدرك مراد جيّدا أنه غالبا ما يفشل في تخمين المشاعر الحقيقية الكامنة لدى المرأة التي يشتهي مضاجعتها. فهو لا يراها إلا ككائن جسدي شاهق لا عيوب فيه ولا يهمه أن يفهم نفسيتها أو يغوص فيما يوجد داخل الجسد.. ولكن هذه المرة بدأ يشعر بأن الإثارة الحقيقية لا تكمن في أن تضاجع امرأة فاتنة بقدر ما تكمن في جعل تلك المرأة تقوم هي بمضاجعتك.. استعد للمنازلة الثانية، فأنهى ما يسمى باستراحة المحارب، ثم سحبها دفعة واحدة ووضعها بين ساقيه وضغط عليها فخرج لسانها يلعق بشبقية مفرطة.. ليس ذلك تمرينا على القوة. وإنما هو تمرين على الإثارة.. امسك بشعرها، فلفه لفة واحدة في يده ثم جعلها تلعق عضوه.. وبين لعقة وأخرى يرشقها بكف على خدها أو ببصقة على وجهها أو بشتيمة فظيعة لم تخرج أبدا من فم مصعب الصراف.. كان

مصرا على أن يفقدها توازنها ويبعثها إلى الهذيان ليشرب من مائها العذب الذي لا يتدفق إلا إذا ابيضت عيناها.. كذلك كان مصرا على تسفيه نظريتها حول من يمتلك الجنس حقا.. انتهت المعركة بسرعة لأن كل منهما كان يريد الآخر بأكثر مما يعتقد كل منهما..

وحين تباعد اللهاث وعاد كل منهما إلى نفسه الطبيعي، ألقت ستيفاني وجهها على صدره ثم قالت:

- هل تعتقد أن الذاكرة حين تنتعش، تبعث على الهياج؟

وبما أنه كأغلب الرجال يعشق الغزوات الجديدة والنساء الجديدات، فقد أجابها على قدر ما استوعب من سؤالها وبدون مواربة:

- الذاكرة مصدر إنعاش للحواس كلها. حين تشم رائحة طعام نعرفه من قبل، نشعر فورا بالجوع.. كذلك الأجساد تتحسس بعضها عن طريق الشم واللمس. فحتى لو كنا عميان، فإن العاشق لا يخطأ أبدا جسد عشيقته.. هل هذا ما تقصدين؟..

- أقصد هذا.. وشيئا آخر يا مراد..

أضافت:

- ذاكرة الجسد ليست واحدة لدى المرأة والرجل. التجربة الجنسية تستوطن داخل المرأة حتى لو كانت مع رجل عابر. أما لدى الرجل فهي تعبر بسرعة حتى لو كانت تجربة استثنائية.. أغلب الرجال عابرون لأن ذاكرتهم ضعيفة. يبحثون عن الجديدات، يركضون كل يوم وراء جسد جديد.. ويكفرون عن نفاذ صبرهم بهجرهم للنساء القديمات حتى لو كن مثيرات.. وهم يفعلون

ذلك بلا وعي دون أن يدركوا أن الإثارات الفظيعة تحصل مع النساء اللاتي خبرهن في الماضي.. لا وجود للماضي لدى الرجل، بينما المرأة يسكنها الماضي بكل خبله وتخيلاته وحتى فضاعته وتعاسته..

(ولأن مراد كان لا يكف عن اقتفاء اثر ضحيته إلا إذا أطاح بها.. فإنه قلما ما يعود إليها ثانية.. كان أحيانا يتلهى بتسجيل أسماء النساء اللاتي يرغبن لكنهن يرفضن الرجل العابر. والآن عليه أن يفتح جدولا جديدا بأسماء النساء اللاتي يعود إليهن بين الحين والآخر.. وأول هذه الأسماء هي ستيفاني).

فجأة انتفض مراد وقام مسرعا ليرتدي ملابسه. التقط كل قطعة من مكان.. وكاد أن يجن لأنه لم يعثر على فردة حذائه اليسرى.. وبعد أن نهظت ستيفاني من السرير قامت بنفض الألحفة فسقطت فردة حذاءه من بين الثنايا.. لم يكن يريد أن يهرب كما يفعل في العادة. وأدرك أنه متى أمضى الرجل وقتا على الفراش بعد المضاجعة، لا بد أن يكون ذلك نتيجة شعوره بالمتعة.. ولو لم يشعر بمتعة البقاء إلى جانب ستيفاني لقفز من الفراش حالما انتهت الارتعاشة.. وكما كان خائفا من أن ينسى، مسح عرق إبطي ستيفاني بمنديل ورقي صغير ثم مرره على ما بين فخذيها ليبلله بمائها، ثم لفه ووضعه في جيب سترته الأعلى كما يضع البوشيت.. قال لها وهو يضحك:

- هذا المنديل القريب جدا من أنفي.. هو الذي سيعلمني كيف لا أنسى.. ثم أضاف..

- سيجعلني كالكلب المسعور.. كلما شممته جئت ركضا إليك..

ولكن حذاري..

- قالت ستيفاني.. مما سأحذر..؟

أجاب برمية واحدة وكأنه يلعب النرد:

- من مصعب الصراف !

*** *** ***

في اليوم التالي، أي يوم الاثنين صباحا، ناداها الصراف إلى مكتبه. ذهبت إليه مترددة إذ توقعت أن يسألها عن علاقتها بمراد الشمان..(توقعت أن يكون حارس البناية عينا من عيون الصراف، أو أن كاميرا البناية مرتبطة بقسم المراقبة في قصر آل أوشاكي) وحين جلست أمامه قال لها فورا:

- استعدي للسفر.. ستسافرين معي إلى باريس يوم الأربعاء!..

- هل لديك عمل محدد هناك سيد مصعب ؟.. تساءلت ستيفاني لتعد نفسها وملفاتها جيدا.

- لدينا أكثر من عمل.. سنلتقي بالياهو دانيال وشاهي شهبار. كما سنلتقي بأحد رجال الإعلام والمال جورج سوروس ثم سنلتقي بأحد المسئولين في وزارة الخارجية..

(نسيت البارحة أن تسأل مراد شمان مما يقصده بقوله: حذار من مصعب الصراف، إذ فكرت أن يكون مراد قد بدا بالغيرة منه، فتركته معلقا بلا جواب، حتى يشوى بنار الغيرة، ولكنها اليوم وهي جالسة أمام مصعب الصراف، فلا بدّ لها أن تتثبت من مغزى تحذير مراد).. أطردت ذلك الهاجس من ذهنها بسرعة ثم

عادت لتسأله:

- ومتى تكون العودة !

- في اليوم التالي.. رحلتنا لمدة 24 ساعة فقط، إن لم يحدث أي طارئ !

أضاف مصعب:

- سنسافر على طائرة خاصة يا ستيفاني..

- هل سيكون معنا الشيخ العطار، أم سيخصص لنا طائرته الخاصة فقط !

- سنستأجر طائرة.. لقد تحدثت مع أبو منذر في ذلك.. وهو منشغل الآن في البحث عن طائرة..

راقت فكرة الطائرة الخاصة لستيفاني وغمرتها ببهجة كبيرة.. ولكنها لم تظهر من تلك البهجة شيئا حتى لا يذهب في اعتقاد مصعب، كأنها أميرة ستسافر مع أمير لقضاء شهر العسل.. تضع السذاجة نفسها أحيانا بمحاذاة البهجة. فحين يبتهج المرء يغيب عنه الذكاء للحظات، لذلك كتمت بهجتها وقالت بحزم وسذاجة..

- إذن.. أستطيع الآن أن أنصرف لإعداد ملفاتي كما يجب..

قال مصعب بهدوء:

- إذنك معك..

وقبل أن أتجاوز الباب، أرجعني صوته حين سمعته يقول:

- اقتربي.. ستيفاني، سأقول لك شيئا خاصا..

كان قد اقترب هو أيضا من البهجة.. لكنه كان أكثر جرأة مني.. قال لي بصوت خافت:

- سأعلمك شيئا مثيرا هذه المرة، حين نصعد إلى السماء..

ضحك ثم أضاف:

- شيئا لا تعرفينه من قبل.. أو هو شيء لا يمكن نسيانه أبدا..

نظر في عيني كما أنه يتوسل الرغبة ثم قال:

- أعرف أن تخمينك لا يخطئ .. وإلا ما اخترتك مستشارة .!

الفصل السابع عشر

كان يوم جمعة.. وقد افتتح الإجتماع بريجنيف بهيبته ونياشينه، وإلى جانبه على اليمين كان يجلس كوسيغين. وعلى يساره كان يجلس بودغرني. وهؤلاء هم أعمدة وفلاسفة وقادة الاتحاد السوفياتي العتيد.. في الجانب المقابل على الطاولة الضخمة المنصوبة في القاعة الزرقاء منذ ما يزيد عن ستة عقود، أي منذ أيام ستالين الأولى، كان يجلس العقيد معمر القذافي وعلى يمينه رجل نظامه الثاني عبد السلام جلود وعلى يساره قائد جيشه أبو بكر يونس جابر.. تحدثا الزعيمان السوفياتي والليبي عن مفاوضات كامب ديفيد وعن السلام الأمريكي وعن سياسة السادات الأمريكية.. كذلك عن الحرب الأهلية في لبنان. وحين اقترب الكلام من ملف النفط والأوبيك، استأذن القذافي وقام فجأة لينزع حذاءه طالبا من الوفد الذي معه أن يقفوا وراءه ليؤم بهم صلاة الجمعة.. ظل الزعماء الروس يتفرجون وهم صامتون على حركة الركوع والقيام والسجود إلى أن ألقى القذافي السلام على الملائكة ثم عاد الجميع إلى مقاعدهم. قال القذافي وهو يتصنع السذاجة كما يفعل الليبيون عادة:

- إن الله لن يغفر لنا إذا لم نؤد صلاة الجمعة في حينها ونحن نجتمع مع الملحدين.!

رد برينجيف بلبقاته وصوته الأجش:

- فليغفر لنا ولهم ابانا الذي في السماوات.. لأنهم لا يعلمون، ثم استمر الإجتماع.

حكى القذافي تلك الحادثة إلى عرفات.. وبعد نحو شهرين، استدعي عرفات لزيارة إلى موسكو.. وفي منتصف الإجتماع قام عرفات ثم انحنى لوحده وراح يصلي (أغلب الوفد الذي كان مع عرفات كانوا من المسيحيين). بعدها عاد إلى مكانه. قال له بريجنيف:

- ولكن اليوم هو الاثنين وليس يوم الجمعة..

وسأل كوسيغين رفيقه نايف حواتمه الذي كان عضوا في الوفد..

- أيها الرفيق.. ما بال زعماء العرب يريدون أن يجعلوا من الكرملين مسجدا؟!

أضاف:

- قبل شهرين.. زارنا القذافي. وقد صلى في المكان الذي صلى فيه عرفات..

ضحك الجميع.. إلا عرفات. وبعد اقل من ثانية قال للمترجم:

- أخبرهم أنني سأزور السعودية قريبا.. ولا بد أن يفهم خادم الحرمين أنني مؤمن حتى في قلب الكرملين.!

الآن وقد مضى نحو أربعين عاما على ما حدث في قاعة الكرملين الزرقاء، بوسع المؤرخين الأكاديميين الباردي الأعصاب والمتوسطي الذكاء أن يدحضوا أو يؤكدوا ما حدث فعلا. فقد مضى بريجنيف ومعه عرفات ثم لحق بهما القذافي.. وما يبقى مفيدا من تلك الرواية هو أن يعرف الناس كيف كان زعماء العرب يعاملون السوفيات.. وهو ليس بأفضل حال من زعماء اليوم، وهم يتعاملون مع الروس. فقد روى مصعب الصراف لسما عبد الصمد كيف عرض أمير قطر على بوتين عدة مليارات كاستثمارات من أجل أن يفك تحالفه مع سوريا وإيران.. وكيف وضع أمير سعودي شيكا بقيمة 50 مليارا من الدولارات مقابل أن يوقف صفقة الصواريخ مع إيران.. وكيف أراد أن يحصل رئيس المخابرات السعودية على قنبلة نووية جاهزة مقابل 50 مليارا أخرى.

كان يحي علوان هو الذي روى رواية الصلاة في الكرملين.. أما توفيق السراج فقد اكتفى بالضحك والتأييد إذ قال:

- عرفات يفعلها.. يفعل أكثر من ذلك. كان حين يجلس إلى السفير الكوبي في مقره بالفاكهاني، يستأذن لبضعة دقائق ليرد على هاتف مستعجل.. يصرخ بقوة ويقول:

- اضرب يا أبا الليل.. اضرب بقوة.. لا تجعلهم يتقدمون..

ثم يعود إلى ضيفه وهو لا يزال غاضبا..

- الله.. الشباب بصدد الاشتباك مع العدو الصهيوني يا سعادة السفير.

في الحقيقة، لا هاتف مستعجل ولا ابا الليل، ولا هجوم ولا

اشتباك.. وإنما تلك هي حيل عرفات لكي يحصل على الدعم من كوبا.. وهو يكرر ذلك أمام جميع السفراء، بما في ذلك السفير الأمريكي الذي يشعره بأن لولا شبابه، لتعرضت سفارته إلى التفجير..

قال يحي علوان معلقا على ذلك..

- إنها سياسة الكيتش يا توفيق..

لم يفهم توفيق السراج ولا عباس فرشخاي كلمة كيتش، ولكنهما أحسا بأن يحي مراد كان يسخر.. تابع يحي يقول:

- الكيتش، هو الشيء الهابط. هو كيس الزبالة.. أو هو الخيشة التي تمسح به الأرضية..

آنذاك أدرك عباس فرشخاي ما يعنيه يحي علوان. ولما كان عباس قد درس في ألمانيا بعد الثورة الإيرانية مباشرة، فقد أدرك كذاك أن كلمة كيتش تورد باستمرار في أحاديث الألمان ليعبروا بها عن شيء غير ثمين أو شيء لا قيمة له أو شيء مزيف أو هابط أو متدني. أو مستبدل. قال عباس ليؤكد ذلك الابتذال الذي طبع السياسة العربية:

- حين زار عرفات الإمام الخميني بعد نجاح الثورة، عرض عليه أن يقوم بوساطة بينه وبين كارتر لإطلاق سراح رهائن السفارة الأمريكية.. استمع إليه الخميني جيدا.. ولما أكمل عرفات حديثه، قام الخميني من مجلسه. خرج إلى سطح بيته، حيّ مؤيديه رافعا يده إلى الإمام ثم دخل إلى استراحته.. وجاء رافسنجاني لينهي الإجتماع..

علق توفيق السراج عن ذلك:

- عرفات كان يحتاج آنذاك للاعتراف به.. لم يكن يردعه عن الذهاب إلى هدفه أي رادع.

- ولكنه لم يفهم آنذاك مزاج الإمام.. فلو أعطى تلك الورقة إلى كارتر، لهزم نفسه بنفسه.. كان يريد معاقبته لأنه تجرأ على أفغانستان وتجرأ على غزو إيران ثم استقبل الشاه.. ورغم أنه اطرد الشاه فيما بعد إلا أنه فعل ذلك من أجل أن يركع الإمام.!

- ألم يكن الإمام غاضبا من عرفات لأسباب أخرى، أكثر من غضبه على كارتر؟

تساءل يحي علوان، ولكن عباس فرشخاي الذي تدرب حين كان لايزال شابا في معسكرات الثورة الفلسطينية بجنوب لبنان والذي انتمى فيما بعد إلى الحرس الثوري ثم فتح شركة ضخمة لتسويق السجاد الإيراني تمتد من بيروت إلى دبي إلى باريس، أراد أن يغلق الموضوع بطريقة أخرى لا تخلو من إثارة.. رد على تساؤل يحي علوان قائلا:

- ربما.. عرفت فيما بعد أن الإمام كان غاضبا من عرفات، لأن الفلسطينيين أشاعوا بأن الإمام موسى الصدر الذي اختفى في ليبيا، كان بتواطؤ مع الإمام الخميني.. وهذا موضوع آخر..

لكن يحي علوان الذي عايش تلك المرحلة علق بتخابث:

- ربما السر كله، ذهب مع بهشتي..

*** *** ***

كان يحي علوان قد وصل قبل يومين فقط إلى بيروت من طهران. كانت زيارته إلى طهران واصفهان وقم ممتعة جدا. أطلع على عظمة الفرس من خلال حدائقهم وصوامعهم ومتاحفهم.. وهذا هو الشعور الذي ملأ كل من توفيق السراج وسمى عبد الصمد اللذين رافقاه في الرحلة.. التقوا في طهران بسياسيين وبرلمانيين وتحدثوا مع رجال دين في قم ثم تجولوا في حدائق وأسواق طهران، فكانوا في غاية الانشراح. أحسوا بدفء الناس وانضباطهم وكذلك بالحياة المتدفقة في شوارع المدن التي زاروها.. وتأكدوا أن ما يسمى بالحصار، ربما لم يكن إلا سياسة إيرانية لدفع الإيرانيين إلى الاعتماد على الذات.. كل شيء كان متوفرا وبكثرة من الحلويات إلى الخضروات.. وكل شيء كان مرتبا ونظيفا من الأشجار إلى الشوارع إلى سيارات التاكسي إلى المترو. أما النساء فهن يقفزن في الشوارع والأسواق مثل القطط الفارسية ويجلسن في المقاهي والفنادق مثل نساء بيروت أو تونس وربما أكثر.. ولمدة أسبوع لم يشعر لا يحي ولا توفيق ولا سمى بما تحدثه آلة الإعلام المضادة من ضوضاء.. كانت الثلوج قد بدأت تذوب من أعالي الجبال المحيطة بطهران، فتنساب في سواقي منظمة وهي تشق شوارع طهران ثم تعبر إلى الحقول البعيدة.. كذلك كانت الدعايات المضادة، ما إن تصل سحبها فوق سماء طهران حتى تتبخر وتنزل أمطارا فوق قمم الجبال.. لا شيء من تلك القبضة الحديدية لرجال الدين، ولا شرطة سرية تتعقب أنفاسك ولا حتى رقابة مشددة على الصحف.. ثمة مناقشات عميقة وجدل عالي النبرة في كل مكان.. في المقاهي كما في الجامعات كما في البرلمان.. قالت سمى عبد الصمد ليحي علوان

وتوفيق السراج وهم عائدون من زيارة بيت الإمام الخميني..

- يبدو لا شيء مقدس في هذه البلاد، إلا الإمام الخميني..

صحح لها توفيق السراج العبارة بقوله:

- الأصح، أن لا شيء معصوم في هذه البلاد إلا الإمام.

ثم تابع يقول:

- عصمة الإمام مسألة توجد في قاع اللاوعي لدى الشيعة.. لقد قام بواجبه وذهب لدى ربه. وإذا كان الناس يزورونه فلأنهم يرون فيه القدرة للتفوق على الذات طلبا للعصمة..

سألهم عباس فرشخاي عن زيارتهم لطهران إن كانت موفقة، فأبدى كل واحد منهم رضاه وإعجابه على طريقته. ثم انتقل بهم إلى «الموضوع» الذي تلقى بشأنه تأشيرة الموافقة المبدئية من طهران قبيل يومين من عودتهم.. قال عباس وهو جالس إلى طاولة مربعة الشكل وجمعتهم الأربعة على نحو متساو:

- السيدة سمى، أهنئك، لأن موضوع الأنترنت الموازي قد حظي بالموافقة المبدئية.. والآن أريد أن نبحث في الإجراءات..

أضاف عباس يقول على نحو جازم:

- إذا تقدمنا في الإجراءات، فإننا نحتاج إلى تأسيس شركتين. واحدة في بيروت والأخرى في تونس.. إننا نحتاج إلى التواصل مع إخواننا هنا وهناك، ثم التفت إلى يحي علوان ليستمع إلى رأيه.

قال يحي وهو ينظر إلى وجه سمى التي تجلس أمامه مباشرة..

- في تونس يسيطر القطريون والفرنسيون والإماراتيون على خطوط الأنترنت.. وهي مرتفعة الأثمان وسيئة الخدمات، ثم هي مراقبة على نحو منهجي.. الحكومة التونسية نفسها لا تسيطر على شبكة الانترنت إلا في جزء بسيط. وهي لا تستطيع مراقبتها أو التحكم فيها أو حتى غلق بعض نوافذها الإباحية أو الدينية والمذهبية ذات المنحى الوهابي.. والآن لدينا إمكانية لكي ندخل إلى سوق الأنترنت بطريق موازية. وهذا سيحقق لنا عدة أهداف أهمها: الحد من الدعاية الوهابية ثم حماية المقاومة ومدها بوسائل جديدة وغير مراقبة. للانتشار..

بعد أن صمت يحي جاء دور توفيق السراج فكرر شكره لعباس الذي مكنهم من هذه الزيارة الممتعة ثم قال:

- سيد عباس. إن الشيء الذي أريد التأكيد عليه، قد حددته مع الإخوة في طهران. قلت لهم، أن حماس تحتاج إلى خط موازي لخدمات الأنترنت خارج عن الضغط الإسرائيلي.. الإسرائيليون هم الذين يسيطرون على الأنترنت.. وليس بوسعنا ولا بوسع حماس أن تقيم وصلات للبث في غزة دون أن تكشفها الرادارات الإسرائيلية.. إسرائيل ليست تونس، وغزة ليست إلا مدينة محاصرة.. فإذا كان لا بد أن نخرجها من حصار الانترنت، فلا بد أن يتم ذلك مع حزب الله انطلاقا من الجنوب ثم نبحث كيف تتمكن حماس من التسلل إلى سيناء لنصب أعمدة البث!..

كانت سمى عبد الصمد تستمع بانتباه وهي تبدو كانها تنتظر دورها في الكلام.. وقد أصبحت قصتها تشبه قصة التاجر الذي

يريد أن يبيع نفس البضاعة لعدوين لدودين.. عرض بضاعته على الأول بسعر اقل من السعر الذي عرضه على الثاني.. وحين رغب الثاني في البضاعة، عاد إلى الأول ليعرض عليه سعرا أرفع من السعر الأول.. وظل هكذا إلى ان كسدت بضاعته.. ولكن سمى عبد الصمد لا تشبه ذلك التاجر، الذي لا يمكن أن يكون إلا عربيا، وإنما هي تشبه التاجر اليهودي «شايلوك» الذي سيبيع بضاعته في الصباح ثم يعود فيشتريها في المساء بسعر أقل، وهكذا دواليك إلى ان جمع ثروة كبيرة دون جهد كبير.. فسمى عبد الصمد هي وحدها التي تدرك أن معظم شركات الأنترنت الموازية في قبرص يسيطر عليها إسرائيليون. وهم مستعدون أن يبيعوا لإيران كما للسعودية وللبنان كما لداعش بما أنهم يجمعون المال والمعلومات في آخر المطاف..

لم يكن من مصلحتها أن تشرح ذلك. وهي لم تفعل ذلك لا مع فيلا «آل أوشاكي» في إسطمبول حين وقع معها الشيخ رشدي العطار عقدا لمدة عامين، ولا هي مستعدة أن تكشف عن ذلك لعباس فرشخاي، الذي قال لها:

- سيدة سمى. متى يمكن ان نبدأ في الإجراءات؟

- حالما تبدأون في رصد الاعتمادات.. لدينا عقود جاهزة سنوقعها. ثم نبدأ في التدريبات.. وخلال شهر يكون كل شيء جاهزا إذا سارت الأمور كما يجب..

التقت عيون سمى بعيون يحي علوان حين أنهت كلامها فأوعزت إليه برمش خفيف أن يتكلم. وهكذا قال يحي:

- سيد عباس، هل تعرف أن سمى هي التي سربت معلومة الأنترنت الموازية إلى حزب الله؟ الشبكة التي اكتشفها حزب الله ما كان ليكتشفها دون سمى عبد الصمد.. أما كيف تم ذلك فإن توفيق يعرف بقية القصة..

علق توفيق باقتضاب..

- هذا صحيح.. ثم أضاف:

- وكان يمكن أن يترك الأمر سرا حتى يستفيد حزب الله من تلك الشبكة الموازية أكثر..

بعد ذلك قال عباس:

- السياسيون يبحثون عن الانتصارات كيفما جاءت.. وقلما أفصحوا عن مصادرهم حتى لأكبر حلفائهم.. هل نسيت ما كنت تقوله قبل حين عن عرفات حين صلى في قاعة الاجتماعات بالكرملين.. أو حين عرض وساطته على الخميني مع الرئيس الأمريكي كارتر!..

*** *** ***

في أعماق كل منا توجد شيفرة، قد نسميها بشيفرة الأساسات الأولى. لا أعني الشيفرة الوراثية الجينية. وإنما أعني ذلك التكوين الأولي.. تلك القاعدة إن كانت صلبة أو سائلة. إن كانت منفتحة أو منغلقة. إن كانت خيرة أو شريرة.. وإن كانت أصيلة أو مزيفة.. وهكذا.. وفي رأي يحي علوان ، فإن أساسات سمى عبد الصمد الأولى قد تكون استعارية أو مجازية. فحين تتحدث تلقى بضلال

كثيرة وتوزع صورا كثيرة لها. ويصبح المتحدث إليها كما لو انه يتلهى بالتقاط الصور في محاولة لرسم صورة متماسكة لها.. ولكن من الصعب جدا أن ينجح أي شخص في تلك اللعبة التي تجد نفسك مرغما عليها.. لا داعي لكي تتخيلها في أوضاع كثيرة. فهي قادرة على إعطائك مثل هذه الأوضاع على نحو واقعي لا متخيل. استمع لها جيدا فقط وسوف يتعاظم دور الممثل لديها حتى يلج شخصيتها تماما ثم يقيم معك نوعا من الاتصال السحري حتى تسحبك إلى واقعها الاستعاري. كنت أعتقد ان هناك أناس قادرون على أداء ادوار تمثيلية بشكل جيد، ولكن ليس ذلك في نفس الوقت كما يحدث لدى سمى عبد الصمد. فهذه السيدة لا تمثل أدوارا بل هي تعيش تلك الأدوار، لا عبر التمثيل، ولكن عبر الاستعارة بحيث يصبح الدور مفصولا عن الممثل ليصبح الممثل هو الحقيقة المستعارة..أدباء وفنانون كثيرون تحدثوا عن تلك الحقيقة المجازّية الاستحواذية. وهذا شيء يصعب استيعابه او إدراكه إلا متى كان الشخص المراقب أو المصاحب لسمى عبد الصمد، هو نفسه الشخص الشريك أو الشخص المتواطئ..

في كل سيناريو تمثيلي يوجد تواطؤ بين الممثلين على أن الدور يحتاج إلى تقمص شخص آخر لمدة ساعة أو ساعتين. وبشيء من التركيز والتدريب تسير الأحداث داخل المسرحية بشكل جيد، ولكن سمى عبد الصمد تفرض على أي شخص ذلك التواطؤ دون أن تتفق معها مسبقا ودون أن يكون له أي دور محدد حتى يبدو كشخص مقزز.. وهذا ما قاومته بشدة وضراوة حين خرجنا نسهر في بار «أوتيل الكومودور».

كان الأجدر بي أن أتقمص شخصية أحد الجواسيس الكبار مثل غراهام غرين أو سومسرت أو بريماكوف، لكي أتسلل إلى أعماق سمى عبد الصمد، لكنني لم أفعل ذلك، لأنها تمكنت من إخضاعي وتدجيني منذ أن عرجت علي وفتحت لي باب سيارتها لأركب إلى جانبها.. وقبل أن تتحرك السيارة، ناولتني هدية، قالت:

- هذه علبة سيكار من النوع الفاخر.. أعرف أنك تحب السيكار المونتوكريستو..

بعد ذلك أمرتني بفتح العلبة أمامها.. ففعلت. وجدت مقصا مذهبا خاصا بالسيكار ثم حاوية سيكار من الجلد تتسع لثلاثة أصابع.. وقبل أن اعبر لها عن امتناني، ناولتني علبة ثانية مذهبة، ثم أمرتني بفتحها.. اندهشت في الحين حين رأيت ساعة «رولكس» ذهبية زرقاء اللون، وأردت أن اشكرها بطريقة خاصة، لكنها بادرتني في الحين بقبلة على خدي وهي تقول:

- يحي.. هذا ليس رشوة.. إنه هدية.. الرشوة تدفع في السر وتتضمن جوهرا فاسدا ودنيئا. اما الهدية فتعطى في العلن وتتضمن معنى مترفعا.

لم تترك لي أية فرصة لا للاعتذار ولا حتى للشكر.. تحركنا بالسيارة نحو فندق الكومودور ثم انتقلت لتحكي لي عن قطتها الفارسية التي اشترتها من طهران.. قالت، إنها لاتزال ساخطة وغاضبة ولا تترك أحدا يقترب منها.. وأنها تختفي لساعات طويلة ولا تظهر إلا حين تشعر بالجوع. وهي تكاد تجن حين تراها تقفز أمامها معترضة طريقها وهي تموء طلبا للحليب..

حين جلسنا في ركن يكاد يكون مظلما، قلت لها:

- أنا أعرف هذا الفندق منذ سنوات طويلة.. كان هو الفندق الوحيد الذي يفتح أبوابه زمن الاجتياح الإسرائيلي.. كان يسكن فيه جميع الصحافيين الذين غطوا ذلك الاجتياح.. وكان المكان الأكثر أمانا لأن الإسرائيليين ما كانوا ليتجرأوا على قصف الصحفيين..

ردت سمى بسرعة:

- حين اسمعك.. أتخيل أن عمرك فاق السبعون، ولكن ها أنت لاتزال شابا..

أدركت في الحين، أنها تدفع بي إلى مواضيع أخرى، ولكني لم أتراجع، فأضفت أقول لها بطريقة أخرى..

- أنا شاب، لأن سنوات الحرب لا تحسب من أعمارنا.. الحرب تقتل الذي كان يحب أن يموت، لكنها تعطي حياة جديدة وإضافية للذي يريد أن يعيش..

استأذنت منها أن أشعل سيكارا وإذا كان ذلك لا يزعجها، فأبدت عدم الممانعة وقالت:

- بالعكس.. أحب رائحته.. ولا أجد حرجا في تدخين بعض أنواعه في بعض الأحيان.

ثم أضافت:

- لدي اعتقاد لا أعرف من أين تسلل إلي، هو أن الرجال المدخنين للسيكار هم رجال جذابون..

بعد ذلك صححت أو عدلت ما كانت تقوله:

- ليس كل من يدخن السيكار رجل جذاب.. كذلك ليس كل رجل جذاب يدخن السيكار..

(آنذاك قال يحي لنفسه: إذا كنت صادقا مع نفسي، فإن من واجبي أن أقول لها أن كلامك حذلقة سخيفة.. أما إذا أنا لم اقل ذلك، فلأنها أهدتني قبل حين علبة سيكار وساعة. ومعنى ذلك أنني أصبحت ذليلا لأنني قبلت الهدية بعنوان رشوة.. وهي أيضا غلفت رشوتها في صندوق هدية لكي تمتحن قدراتي الداخلية أو أساسياتي الأولى.. فعلا وضعت نفسي في منطقة حرجة.. ومضت عدة دقائق دون أن أتكلم، فأدركت أن أساسياتي الأولى ليست صلبة بما فيه الكفاية، قابلة للفساد.. وقابلة كذلك للتمثيل والاستعارة).. وفجأة انتقلت بها إلى موضوع آخر فسألتها:

- ما رأيك في ستيفاني نيكولاس..

- امرأة شغوفة بالصحافة.. عرفتها أول مرة في القاهرة ثم التقينا مؤخرا في اسطمبول.. هل تعرفها.؟

قلت لها بشكل حازم حتى لا يذهب تفكيرها في اتجاه آخر:

- كانت زوجة لصديقي مراد عباس.. أعرفها منذ عدة سنوات..

- أراهنك، أنها ستعود إليه.. لا زالت تحبه.. أرجو فقط أن لا يكون ذلك بعد فوات الأوان.. أجابتني سمى دون أن تشرح ما تعنيه بقولها (بعد فوات الأوان). وفي الحقيقة لم أفكر آنذاك في أي شيء محدد إن كان جيدا أو سيئا، ولكني فهمت فقط أن ستيفاني

ربما تكون على أهبة الزواج من رجل آخر.. فسألتها:

- هل لديك أخبار جديدة عنها.

أجابتني بحذق ودون أن تحدث بداخلي أي نوع من القلق، قالت:

- تحدثت معها البارحة. وأخبرتني أنها ستسافر إلى باريس في طائرة خاصة مع مصعب الصراف.

(تذكر يحي صديقه مراد عباس وقد أصبح يعيش خارج حب حقيقي.. حب متماسك، حب يجعله بعيدا عن نوبات الاكتئاب وحالات السكر الفظيعة التي تفصله عن الواقع.. بدا له متأرجحا بين خيارات استيهامية. زوجته ستيفاني لم تعد معه، صديقته رحمة الصديقي أصبحت مراقبة من البوليس بعد مقتل زوجها.. ومهى زعفراني امرأة افتراضية من كابلات السيليكون كالفراشة لا تكف عن الطيران.. إنه يعرفه جيدا.. ويعرف كذلك انه لا زال يحب ستيفاني، لكنه يجد نفسه بلا دافع حقيقي لكي يعود فيتزوجها.. اختفى ذلك الحب كالسراب وشعر بأن الحب وهم يبتدعه الإنسان لمقاومة أوهام أخرى. تماما مثل الله الذي تم اختراعه لمقاومة آلهة أخرى). انتهى بي المطاف وأنا أتأمل في حالة صديقي مراد عباس إلى أن أجد حالتي مشابهة تماما لحالته، لكن المنطقة التي يوجد فيها عباس ليست هي المنطقة التي أتواجد بها أنا.. فأنا لا أعيش خارج الحب، وإنما في «داخل الحب».. لا أطارد النساء ولكني أجعل النساء تطاردني.. وهذا شيء أساسي في حياتي).. آنذاك سمعت سمى تقول لي:

- وأنت لماذا أنت غير متزوج؟

*** *** ***

تكمن قوة سمى عبد الصمد، في أنها تجعل من كل مغامرة حبا جديدا، حتى لو كانت عابرة.. تماما مثلما تجعل من كل كذبة حقيقة ساطعة.. يمكن أن التقي معها في جزء من هذه القوة وهي أنني أعيش كل مغامرة وكأنها حب ثم امضي إلى حد لم أعد أعرف أين تقف حدود الحب وأين تبدأ المغامرة.. اعتقدت دائما أن معيار الحب لدي هو القدرة على التواصل حتى لو كان مؤقتا.. ومهما كانت المدة، لأنه لا يقاس بالزمن بل بومضة تشتعل في الأعماق فجأة وتستمر إلى نهاية الوقت المستقطع من الزمن الخارجي.

حين أخبرت سمى أنني لم أتوفق أبدا في الزواج. وان كل مرة أعزم فيها على الزواج، أجد نفسي خارج المعادلة. وأنه يمكن القول في حالتي أنني «الأعزب اللاإرادي»، لان إرادتي كثيرا ما تحرضني على الزواج، لكنها تبدو غير مكتملة وتتبخر حالما يطرح أمامي موضوع الزواج. وجدتها توافقني على ذلك وتقول لي: رجال كثيرون مثلك..

إن عزوبيتي هي الشيء الوحيد الذي يجعلني أكثر استقلالية.. قد يتهمني البعض أن استقلاليتي هي نوع من اللامبالاة والأنانية.. ولكن الزواج يمثل لي كبحا لإرادتي. وبمعنى ما، فإن عزوبيتي اللاإرادية هي إرادة الاستقلال لدي.. وان إرادتي غير المكتملة أمام الزواج، هي إرادة مطلقة تجاه الاستقلال..

وسواء كنت أقول الحقيقة أو كنت اكذب على نفسي، فإن الأمر لا يختلف كثيرا لأن أية حقيقة تعيش بداخلها كذبة. كما كل كذبة لا تعيش إلا من خلال حقيقة ما.. وبهذا المعنى فإن الحقائق والأكاذيب متعايشة ومتصالحة وتعبر في الأصل عن علاقات متشابكة ومتداخلة إلى حد أن كل أطروحة تستدعي نقيضها.. ومن هذا الجانب، فإن سمى عبد الصمد هي نفسها خاضعة لعدة قواعد مترابطة. أي أن حقيقتها مرتبطة ومتطابقة بمجموعة الأكاذيب التي تحكمها وتحكم علاقاتها بالآخرين.. إن على صعيد العمل.. أو على صعيد العاطفة.. وإذ يعتريها الشك في عدم التطابق بين الحقائق والأكاذيب، تعيد ذلك إلى خطا في التقدير أو خطا في عدم القدرة على إثبات الشيء الذي يجب إثباته. فالحقيقة هي الاسم الآخر للكذبة.. والكذبة هي الرسالة المرسلة إلى الشخص الآخر.. ومن زاوية ما ما دام الكذب لا يجلب الضرر، فإنه يصبح وعدا بالأمل..

بعد أن تضاجعنا مرتين. الأولى في الصالون على الكانبيه ثم وجدنا أنفسنا فوق السجاد. والثانية على فراشها وقد تحولت إلى جارية مسعورة، وضعت على عنقها حزاما جلديا ثم أخذت هيئة دابة وناولتني طرف الحزام ثم قالت: خذني.. قدني إلى الفراش.. ثم سارت على أربع وأنا أسير أمامها.. (إلى ذلك الحين لم أتخيل أبدا أن امرأة بشخصية سمى عبد الصمد وقوتها وجبروتها يمكن أن تتحول إلى جارية.. أو إلى أدنى من ذلك إلى دابة.. وآنذاك بدأت أدرك ما معنى عدم التطابق بين الشخص في مظهره، وبين جوهره.. أدركت كذلك أن أكاذيب المظهر تخفي حقائق أخرى، وأن حقائق الجوهر تحمي

نفسها بأكاذيب المظهر.. سألتها بعدما هدأت الحمى التي أخرجت كل إفرازاتنا.. من عرق ومني وماء وروائح حارة وآهات وكلمات بذيئة وحتى شتائم وبصاق وبعض التبول وضراط ودموع ومخاط..

- هل أنت حقا سمى التي كانت تدير غوغل الإقليمي؟.

ضحكت وهي تنزع من رقبتها ذلك الحزام الجلدي..

- نعم أنا سمى.. لست كلبتك كما كنت تعتقد..

- أنا لا أعتقد شيئا..

- بلى. كنت تعتقد في أشياء. والآن تعتقد في أشياء أخرى.. ولكن لا تتعب نفسك. أعرف أنك تعرفت على نساء كثيرات يتحولن إلى دواب على الفراش. ولكن ما يشغلك هو كيف لامرأة قوية ومتجبرة كما تقول عني، في الحياة وهي تتحول إلى جارية على الفراش.. هذا ما يشغلك.. لو لم أكن سمى، صاحبة شبكات الانترنت الموازية والتي تدخل في مفاوضات مع الدول ومع أعتى رجال المخابرات، لما كان ذلك سيثير شكوكك. ذلك جانب من الحياة.. وهذا أيضا جانب آخر من الحياة.. فقط ثمة وضعيات تكيفنا وتفرض علينا سحرها أو جبروتها..

- وأنت لماذا لم تتزوجي يا سمى؟

سألها يحي ثم ظل ممسكا بسؤاله. فلو أنها تغافلت أو تحايلت أو تصنعت عدم الاهتمام، لأعاد عليها السؤال ثانية ولكن سمى تنهدت وهي تستعد للإجابة في شكل قصة قصيرة:

- أنا لم أولد في لبنان. ولدت في مكسيكو - سيتي من أب لبناني

هاجر مع أبيه وهو شاب. وأم مكسيكية من أصول كاتالانية.. حين بلغت سن المراهقة، وجدت أبي غائبا عن البيت باستمرار. لم يكن لا سكيرا ولا مصارع ثيران ولا بائع مخدرات، وإنما كان سائس خيول ثم أصبح تاجر خيول، وهي مهنة ورثها عن أبيه.. وكان عليه أن يتنقل من مدينة إلى أخرى طوال العام ويحضر سباقات الخيول والمزادات العلنية وكان وضعه المادي جيدا لأنني درست في أحسن المدارس، مدارس النخبة الأوروبية وزرت عدة مدن مع أمي في أوروبا وأمريكا.. كنا نأتي أحيانا إلى لبنان. ولربما كانت أمي تحب لبنان أكثر من أبي رغم أنها ليست لبنانية.. وفجأة وجدت رجلا آخر إلى جانب أمي.. وهذا الرجل عجوز بالنسبة لأمي وكذلك بالنسبة لوالدي. فهو أكبر من أمي ميشيلينا بنحو ثلاثين عاما أو أكثر. وأكبر من والدي بنحو عشرين عاما. احتفظ ذلك الرجل العجوز الذي يدعى أندريان لعدة سنوات، بأمي ذات الجمال الكاتالاني الفتان حتى أصبح بلا قوة.. أما أبي فقد انتقل ليعيش مع امرأة أخرى ظهرت فيما بعد، أي بعد أن توفي اندريان. إنها ابنة اندريان وكان لا بد أن ندخل إلى متاهات الإرث والميراث.. عالجت أمي الأمر بطرحها لمفاهمة مفادها أن ترث هي كل ما ترك اندريان وأن ترث ابنة اندريان المسماة كريستينا أي زوجة أبي كل ما يملك أبي.. في الاثناء تحطمت تلك التسوية لأن أبي لم يمت بعد وربما يظهر فيما بعد أن له ابناء في مناطق أخرى.. بالإضافة إلى ذلك، فإن أمي راحت تبحث عن وسيلة للتخلص من كريستينا. فهي لا تتحمل أن تكون أخذت زوجها الذي هو أبي ثم تأخذ فيما بعد ما يرثه زوجها الثاني وهو والد كريستينا..

اقترح عليها أحد المحامين أن تطلب الحامض النووي لكريستينا ووعدها بأنه سيربح القضية، لأن ثلث ابناء المكسيكيين يلدون من عشيقات وعشاق لا من زوجات وأزواج.. ولكن كريستينا لم تستسلم وطالبت هي أيضا عن طريق محاميها الحامض النووي لي، أي لابنة ميشال عبد الصمد وميشلينا بورخيس. توقفت هنا سمى ثم سألتني لكي تقوم بتقطيع الخيط الدرامي:

- هل تعرف، ما كانت النتيجة؟

لم أشأ أن أجيبها رغم أنني توقعتها..

تابعت سمى تقول..

- النتيجة أن سمى انجيليكا التي هي أنا، ليست إلا ابنة اندريان.. أما زوجة أبي كريستينا فقد اثبت الحامض النووي أنها ابنة رجل آخر مجهول.. بعد ذلك، أي بعد تلك الفضيحة العلمية، تعاون كل من أبي الافتراضي وأمي وكريستينا على دفن الفضيحة وتقاسم الإرث مهما كان مصدره وبالتراضي والتساوي.. كنت قد تجاوزت سن المراهقة وانتقلت إلى الدراسة في باريس. وفي باريس تعرفت على زوجي الأول وهو شاب لبناني. تزوجنا لمدة عامين ثم انفصلنا. وباختصار فإن أبي لا يزال يعيش مع كريستينا بلا أطفال. أما أمي فقد تزوجت مرة ثانية من رجل يصغرها بنحو عشر سنوات.. وختمت قائلة ومتسائلة:

- أليست قصتي تشبه فيلما سينمائيا.. هل تستطيع أن تدلني على الحقيقة داخل هذه القصة؟

- ولكنها ليست قصة.. هذا تاريخ يا سمى!

- التاريخ سلسلة من القصص.. والقصص تحتمل كل شيء والحقيقة جزء بسيط منها..

- وهل ما نعيشه الآن أنا وأنت قصة أم تاريخا!

قالت سمى وهو الاسم الذي احتفظت به وتحب أن يدعوها به كل الناس، بعدما تخلصت من انجليكا:

- هو قصة.. سوف ترويها أنت بشكل ذات يوم. وأرويها أنا بشكل آخر في وقت آخر.. ثم يرويها أناس آخرون بأشكال متعددة.. وحين تختفي يقال لها تاريخ..

*** *** ***

في اليوم التالي عرضت علي سمى أن أسافر إلى قبرص لمدة يومين. كنت راغبا في ذلك ولكنني كنت مترددا. تحججت بأن لدي أعمالا لا بد أن أنهيها في بيروت ثم أعود إلى تونس..

قالت لي ونحن لا زلنا في المطبخ نتناول فطور الصباح:

- أنت لا تعرف أنني سأسافر معك إلى تونس. ثم أضافت:

- ستيفاني ستكون في تونس أيضا.. وسوف نلتقي معا هناك.

لم افهم مغزى ذهابها إلى تونس باستثناء أنها ستلتقي بستيفاني، ولكنها أوضحت قائلة:

- لا بد لي أن أكون معك وأنت تقوم بإجراءات تكوين الشركة التي ستتولى توزيع خدمات الانترنت الموازية.. ولكن الشركة سيجري تأسيسها هنا في لبنان. شركة أوف شور. ففي تونس لن

يكون هذا ممكنا إلا تحت غطاء خارجي..

(وبما أنني أنتمي ولو بقدر بسيط إلى ذلك الصنف من الرجال الذين لا يعارضون امرأة خوفا من مكيدة، أو هروبا من صداعات متتالية، فقد وافقتها على الذهاب معا إلى تونس محتفظا بقراري الأخير الذي سأدرسه مع صديقي توفيق السراج)..

قلت لها:

- طيب أنتظرك حتى تعودين من قبرص ثم نذهب معا إلى تونس.. ما رأيك ؟

- أو، نلتقي هناك في يوم محدد.. فربما ذهبت مباشرة إلى تونس.. ما رايك؟

سألتني سمى فقلت:

- المهم أن نلتقي هناك.. سواء بسواء..

أضافت محذرة:

- لا تنسى أنني ابنة غير شرعية لرجل كان يبث الخوف في كل اتجاه.. كان إذا حدق في عيون حصان متنطع يخر الحصان صريعا خوفا منه.. كانت له رائحة لا أعرف كيف أصفها لك..

- من.. أبوك أم الحصان؟

- أبي.. إذا حضر أبي الإسطبل، راحت الخيول ترحب به وهي تصدر أصواتا موسيقية متناسقة. أما إذا أطلقها من خلف سياجاتها، فهي تذهب باتجاهه لتغلق حلقه من حوله وتبدأ في

الرقص إلى أن يصفق لها عن نهاية الرقصة.. كنت أراه يفعل ذلك وأنا لا زلت صبية..

- ومع ذلك لم يستطع أن يجعل أمك ترقص له كما تفعل الخيول..

ضحكت سمى بعمق ثم قالت:

- أنا أيضا لم أستطع أن أكون زوجة جيدة أو طيعة.. أعرف كيف أحب رجلا، لكني لا أعرف كيف أتزوجه. وإذا تزوجته لا أعرف كيف أحتفظ به.

أوصلتني سمى إلى فندقي قبل العاشرة صباحا بقليل وهي تسألني ما إذا كنا سنلتقي في المساء.. تجاهلت سؤالها أكثر من مرة. وحين ألحت علي، قلت لها على نحو مبهم..

- سألتقي مع توفيق.. ثم نذهب معا إلى صديق آخر، لا أعرف كيف وإلى أين سينتهي النهار.. نتهاتف ونتفق..

إن الشيء الوحيد الذي لم أخبرها عنه هو لقائي المحتمل مع عباس فرشخاي!.. تبعت نصيحة رواقية قديمة تقول: «حين تكون قاصدا مكانا محددا، لا تدع أحدا يؤثر عليك سوى روحك».

سألني توفيق حالما التقينا في المساء لكي نذهب معا إلى عباس فرشخاي..

- أتظن أن سمى عبد الصمد صادقة فيما تقول؟

- صادقة! لا أعرف ما الذي تقصده.. أغمض عينيك في بلاد العرب إذا كنت تبحث عن الصادقين..

صاغ سؤاله بطريقة أخرى ثم أعاد طرحه.

- هل تكون قادرة فعلا على تنفيذ ما تعد به.. أي هل تستطيع أن تمد خدمات الانترنت الموازية بدون معرفة الأمريكان أو الإسرائيليين..

- هل تقصد أنها من المحتمل أن تكون جاسوسة لدى الأمريكان والإسرائيليين؟

- نعم. هذا ما أقصده.. السيرة الذاتية لهذه المرأة غامضة جدا.. مولودة في قارة وتعيش في قارة أخرى وتتعاون أو تشتغل في قارة ثالثة. أمها من بلد وأبوها من بلد آخر وزوجها السابق من بلد ثالث.. ثم أنها تزور تل أبيب كل ثلاثة أشهر، وتعيش في قبرص ولبنان.. أليست هذه إشارات غير جيدة..

- ومن أين لك بهذه المعلومات؟

سألت توفيق ونحن واقفان أمام منزل عباس فرشخاي.. فأجابني بسرعة..

- ستعرف كل شيء من فم عباس.. الإيرانيون لا يلعبون في الشرق الأوسط.. كل ما روته لك البارحة عبارة عن قناع.. ثمة أقنعة أخرى لم تكشف بعد..

- ولكن حزب الله يتعاون معها وربما هي التي كشفت له وجود شبكة للانترنت بديلة وموازية تعمل في لبنان انطلاقا من قبرص..

أجابني توفيق:

- حزب الله قد يكون رمى تلك المعلومة لأغراض أخرى يعرفها جيدا عباس فرشخاي..

- هكذا إذن. قلت لنفسي، يا يحي. إنك هنا لتحقق فوزا على أمر انتهى منذ فترة، فكأن كل ما حدث منذ بداية الشريط مع سمى عبد الصمد، لم يحدث أبدا..

ثم جاء الحارس ليدخلنا إلى الصالون.. صالون عباس فرشخاي..

هناك من يكره جورج سوروس ويسميه «بالكلب المجري المبرقع» إلا أنه ما انفك يقفز من بلد إلى بلد ويتمتع بسحر لا يقاوم!

حين وصل سوروس إلى تونس، طلب أن يلتقي بأم محمد البوعزيزي الذي فجر «الربيع العربي»! ولكن طلبه قوبل بالتسويف في البداية. فكر أحد المسؤولين أن يأتوا له بسيدة تشبه أم البوعزيزي ثم تخلى عن الفكرة.. وفي النهاية اعتذروا له وصارحوه بالحقيقة الموجعة.. قالوا له: «أنها هاجرت لتعيش في كندا مع ابنتها». سألهم: لماذا؟ أجابوه باختصار: «هذا خيارها.. لم تعد تتحمل العيش هنا».. آنذاك أدرك جورج سوروس أنه قام بخطأ وقال لنفسه: «إذا كانت هذه الثورة لم تحضن أم مفجرها. فماذا يفعل الشعب بهكذا ثورة»؟ ولكن في قرارة نفسه العميقة كان يؤمن بأن ما حدث هو جزء من العولمة وليس له أية علاقة بالثورة ولا بمحمد البوعزيزي.. كان يقول دائما: لا تنسوا أن روما حين تحولت إلى إمبراطورية كفت عن تكون ديمقراطية.. وهكذا أيضا أمريكا.. استخدم سوروس ما يسمّى «بعينه الثالثة» جيدا.. وبعبارة أخرى لقد تم هو نفسه استخدامه «كعين ثالثة» جيدا.. استعمل قوة التلفزيون، فأطاح بالكتلة الاشتراكية وحطم جدار برلين.. وفي شرق آسيا استخدم سلاح البورصة فأطاح بالاقتصادات والدكتاتوريات.. وفي العالم العربي استخدم الأنترنت لإنجاح المرحلة الثالثة من «ثوراته الملونة». كانت أسلحته تتكون من الشباب ومجموعات الأنونيموس المهمش والجمعيات وصناديق الجعة وحتى حبوب الهلوسة وبعض القناصة المتجولين وأبناء الله (إسلاميين ومسيحيين). وهم في الأخير ما يمكن أن يطلق عليهم

بأيتام وأبطال العولمة الجدد. فإذا كانت العولمة قد زادت عن عدد المهمشين والفقراء، فإنها صنعت كذلك أبطالا آخرين بإمكانهم أن يصنعوا ثورات دون أن يصعدوا إلى الجبال أو يتبنوا نظرية الكفاح المسلح.. أبطالا من نوع جديد ما إن تنتهي مهماتهم حتى يتبخروا داخل الزحام.. أبطالا مهمتهم الوحيدة أن يفتحوا الطريق أمام الشركات والبنوك والرأسمال والديمقراطيات الفاسدة..

خلال رحلته في عالم المال، استخرج «نظرية الانعكاسة» ومفادها، أن العولمة بآلياتها الجهنمية ومؤسساتها النقدية قد خلقت جمهورا من الغاضبين حتى داخل شركائها كمؤسسات أو دول أو أنظمة. وعليه فإنه من الواجب أن يتحرك الرأسمال للإطاحة بهؤلاء الشركاء واستبدالهم بشركاء آخرين أكثر خضوعا.. أما كيف ستتم الإطاحة بهؤلاء.. فإن ذلك سيتم بأدوات العولمة ذاتها وكذلك بجمهورها العريض بما في ذلك من مهمشين ومنبوذين!.. إنها نظرية الانعكاسة التي سميت «بانعكاسة العين الثالثة»، فيما بعد. فحين لا يجد نظام ما يقدمه لشعبه، ينعكس ذلك قمعا وتهريجا في بيروقراطيات الدولة.. وإذ تنتقل عيون الدولة إلى مراقبة كل شيء، فإن العين الثالثة تظل تراقبها باحثة عن هفوة أو خطا أو حفرة تقع فيها تلك الدولة. وحيث لا يتوقع أكبر المنجمين، تتحول تلك الهفوة إلى شرارة.. وتلك الشرارة هي انعكاسة العين الثالثة.. وها هنا توجد العلاقة بين سوروس وأم محمد البوعزيزي!.. وفي الواقع، لا أم البوعزيزي ولا ابنها الذي احترق كانا يعرفان جورج سوروس، ولا جورج سوروس كان يعرف عائلة البوعزيزي، أو حتى مدينة سيدي بوزيد..

لا زال مراد عباس يحوم حول حافة أفكاره التي يراها تنهار كما تنهار حافة وادي قد غمرته فيضانات، بالقرب من صديقه توفيق بن بريك (لا نعرف كم المسافة التي تفصل بينهما). فالاثنان يعتقدان أن الثورة التونسية كانت ضرورية ولكنها لم تكن أبدا ناضجة.. وبما أن درجة النضج أو الإنضاج نسبية، فإنهما تركا الثورة بشكل أو آخر ليعبث بها الآخرون.. الآخرون هم اللبيراليون الرأسماليون والأصوليون الذين يقتسمون الفضاء العام الذي يمتلأ بأولئك الذين يؤمنون بالله قليلا وأولئك الذين يؤمنون بالله كثيرا. كان مراد عباس أكثر راديكالية ربما من صديقه توفيق بن بريك ولكن توفيق كان أكثر شراسة وفتكا. فحين يكشف عن أنيابه لا بد أن ينال من خصمه ولا يتركه إلا إذا سقط على الأرض. ومنذ أن هرب الدكتاتور، لم يعد هناك ما يعادله في الوزن والحجم حتى أن توفيق قد شعر في وقت من الأوقات أنه فقد توازنه، لأنه فقد عدوه. أما مراد عباس فيرى أن سبب انهيار أفكاره يوجد في التحالف الفظيع بين الذين يؤمنون بالله قليلا أو كثيرا. فالأصولية هي المعتنق القبيح للذين يشعرون بالإذلال! تجاه الغرب.. والليبرالية هي المعتقد الجميل الذي سيبدد ذلك الشعور بالإذلال. وما إن عقد ذلك الحلف الخفي في البداية ثم أصبح علنيا، حتى اندمج مهمشو العولمة مع أبطال العولمة. كان مراد عباس يرى أن ما يسمى باليسار قد أصبح «موجة» ارتدادية، تشبه انعكاسة العين الثالثة. لديها قوة احتجاج لكنها لا تملك لا برنامجا ولا آليات لتحولات جذرية وراديكالية، وهو ما يجعل الأصولية أمرا مقبولا في عالم كل شيء فيه، يقع تحت

رحمة الرأسمال. وبإبعادهم لليسار أصبح الليبراليون يشجعون الأصوليين. ولا شك أن من كان يقول أن صعود الفاشية الدينية قد تآزر دوما مع غياب اليسار، كان على حق. فمن أتى بهؤلاء الأصوليين وزرعهم في كل مكان من العراق إلى المغرب.. ومن كان يتوقع أن أفغانستان الدولة العلمانية الأولى في العالم الإسلامي، قد سقطت تحت أقدام الطاليبان. (ألغت أفغانسان تعدد الزوجات في بداية القرن العشرين. وبعد نحو 80 عاما عدن النساء إلى بيوت الطاعة والإذلال.. بعد ذلك بنحو أربعين عاما فعل بورقيبة ما فعله الملك أمان الله في أفغانستان وأتاتورك في تركيا..) ثم دارت عجلة الزمن ليجد مراد عباس نساء بلاده لا رجالها، يطالبن بعودة تعدد الزوجات.. حسب مراد عباس الذي قرأ جيدا الأدب الماركسي، فإن كل ظهور للفاشية يحمل شاهدا على ثورة قد أجهضت أو تم إجهاضها، كما كتب والتر بنيامين.. وبما أن الثورة التونسية قد وقع طمسها وتبخيسها ثم إجهاضها عبر مماحكات ومساومات داخلية وخارجية، فإنه لايزال يعيش على وقع الفاشية وهي تزحف على أقدامها كما على بطونها.. فاللقاح الذي زرعه الغرب عبر جورج سوروس وأمثاله قد أنتج في النهاية عالما هجينا مملوءا بالعنف والعلل.. ولكن مراد عباس لا يستطيع أن يصمت أو يتواطؤ أو يحيد عن الحقيقة كما يراها. إنه صوت للذين لا صوت لهم، غير أن صوته لا يصل إلى الأعماق، تماما مثل صوت صديقه توفيق بن بريك.. مخبول، مجنون، ثرثار، قل ما تشاء فيه، لكنه لا يخرس. ومستحيل أن يعود فيبتلع كلامه إذا وصل إلى حلقه.. كلامه يخرج من بطنه.. من الأعماق ويصعد إلى رأسه لكي يأخذ

معنى وهندسة منطقية ثم يطلقه بقوة كما الرشاش الأوتوماتيكي.. رجل ينهض من فراشه لمهمة وحيدة هي التحليلات السياسية والتاريخية.. ولأنه فصيح وسليط اللسان وغاضب باستمرار وباحث عن الاختلاف، فإنه أحيانا يبدو مضطربا، غير أن ذلك ما يزيده تألقا وسحرا لدى معجبيه ومعجباته حتى ليبدو وكأنه نسر ينتقل بين خمسة أو ستة قمم جبلية!..

*** *** ***

ولكن «العين الثالثة» بالنسبة لمراد عباس هي السينما كذلك . فهو يشعر أنه ممزق الأحشاء بين عالم السينما، وبين العالم الواقعي.. فحين يفكر في السينما يصبح رجلا لا يطاق من فرط حساسيته، متجهما وقاسي الملامح كأنه قاتل مأجور. يفقد حسه المميز بالدعابة، ويتحول إلى شخص عدواني تجاه كل الذين حوله بحيث لا يترك شتيمة لا يسددها لمسؤولي الثقافة في البلاد، خاصة لأولئك الذين صعدوا بعد الثورة وراحوا يجمعون الجوائز على حساب البوعزيزي دون أن يخرجوا ولو فيلما وثائقيا واحدا عن البوعزيزي. ولطالما حاول مع صديقه فريد ريكوبي أن يتجاوز محنته، ولكنه كان دائما يصطدم بما يسميه بالمناورات السخيفة والمؤامرات المحبطة للعزائم والأوغاد الذين يمزجون بين النذالة والضجر. كان مراد حين يستبد به الغضب لأنه عجز عن إنجاز حتى فيلم واحد.. قصير وفقير، لا يجد من يتكلم معه إلا مهى زعفراني.. ولكن فريد ريكوبي أكثر الناس قربا له يؤكد أنه لو لم تكن مهى مجرد امرأة افتراضية لنالت من شتائمه الكثير حين

تستبد به نوبات الغضب العارم. الغضب على الزمن الذي يمضي بلا توقف.. الغضب عن العمر الذي يتسرب مع الشهقات ويتبخر من النيكوتين.. الغضب من الثورة التي أطردت أم الشهيد/ الرمز، ثم راحت تعدد خصال الشهيد وقبائح أمه على حد سواء.

إن مراد عباس الذي هو خليط بين الوهم والواقع، بين المادي والافتراضي، بين السينما والحياة هو في الحقيقة علة نفسه.. فهو العلة والمعلول حسب فريد. وهو عدو نفسه حسب ستيفاني. وهو أحيانا مهرج حسب زملائه السينمائيين. إنه يبدو كما أن كلمة «ملون» أو «متعدد» قد ابتكرت من أجله.. أما مهى زعفراني التي لم تلتق معه إلا مرة واحدة (بما أن المرة الأولى كانت عابرة وبالصدفة، والمرة الثانية كانت مبرمجة على أن لا تتجاوز حدود التعارف وإذ قيمنا المرتين، نجدهما مرة واحدة من حيث الجدوى) فهي تجد فيه الخيالي العظيم والطريف والعابر والمتوهج والساخط وكذلك المدهش في أفكاره والمتدفق في عواطفه.. كل ذلك من خلال الشاشة فقط.. وهو نفسه يمكن أن يطلق عليها كل تلك الأوصاف ويضيف إليها، أنها العابرة للفضاءات والمثيرة للتحدي والصمود ضد النذالات.

كان غارقا في تأملاته الملتبسة حول جيمس بوند وكانط وكذلك حول جويس وابن المقفع، وهو يعد نفسه بالتفرغ لقراءة «ثلاثية الإسكندرية»، للورنس داريل حين تلقى رسالة على هاتفه من مهى تطلب منه أن يذهب إلى الايباد.

- عزيزي مراد. دخلت الآن جناح الايرفرانس. بعد سويعات

سأكون في تونس. ثمة أنواع كثيرة من الشمبانيا. هل تريد كأسا. نحن ربما في حاجة إلى روحها لا إلى طعمها.. أو تريد كأسا من «السانت ايميليون».. هل أسمعك رنين الكأس.. لدي رغبة أن اشرب كاسي وكاسك معا.. اسمع جيدا لا معنى للمسافات أمام الروح.. قل لي ماذا أنت تشرب. هل هو ماغون قرطاجني..

- أشرب ذلك الذي تصبينه الآن من فاهك في فاهي. يا الله ما أعذبه ولكن الأمر اختلط عليّ، إذا لم أعد أعرف أيهما الأعذب..

- إليك رشفة من هنا وأخرى من هناك.. وتذوق جيدا وقل لي أيهما الأعذب.. قبل حين دخلت مغازة اللانجري. واشتريت بعض الأشياء وكنت أفكر فيك..

- أحسست بذلك. بل كنت أتلصص عليك. كنت ساكنا داخل المرآة. ولقد أعجبني ما اشتريت. قلت في نفسي لم تشتر ما أحب ثم رأيتك تقلبين الكيلوتات فتركتك لوحدك مراهنا نفسي ما إذا كان الذي أعجبك هو ما أحب أن أراه وألمسه.. هنيئا لك ولي لأنني نجحت في رهاني.. ملمسه ناعم.. وسوف يستمد وهجه من جسد مستبد!

- أكاد أتذوقك مع نبيذ «السانت ايميليون» يا مراد..

- هل إلى هذا الحد نتشابه.. هل نتشابه لأننا نحمل في داخلنا اكسير الطفولة المدهش.. أي أننا لانزال ننتمي إلى المرحلة الفموية..

- أرجو ألا يكون نموّنا قد توقف عند تلك المرحلة (ههه).

دون مزح، لا أظننا نتجاوز أية مرحلة.. وإنما المراحل تلتحم ببعضها وتمتزج بلا فكاك.

- أحب ذلك. كل اللذة تسكن في الفم. تنبع من الفم وتستقر في الفم. نتذوقها بالفم ونمتصها بالفم.. الفم ليس بالوعة.. إنه محرار للجسد..

- لاحظت تركيزك على الفم.. أنا أكثر ديمقراطية مع حواسي..

- نعم، لغة وضحكات وتذوقا أو لعقا.. كل شيء يوجد تحت سلطة اللسان.

- ها أنت تذكرني بسلطة اللسان.. تلك السلطة التي غالبا ما أخضع لها.. شيء مخيف ومحطم لكل مقاومة.

- طبعا لا أهمل بقية الحواس.. الأنف هو العضو الأكثر إثارة.. بدونه لا تبتهج الحواس الأخرى، بعده يأتي اللسان الذي هو سيد اللعبة، بطل المسرحية. يبدأ في التسلل إلى العقل ثم ينتهي متسللا إلى المناطق الدافئة والحرجة والرطبة.

- خطير.. هذا اللسان يا مراد. أنت تحكم استعماله إلى درجة يجعلنا شضايا.

- (ضحكت لكلمة خطير).. هل تكتشفين ذلك الآن؟

- أعرف أنكما خطيران.. أنت ولسانك..

- أنا الآن في غاية الانتشاء يا مهى.. والآن لا أحب أن أنزلق أو اندلق..

- مراد، أنا التي انزلقت.. خذ انزلاقة أخرى مني إليك قبل أن

أصعد إلى الطائرة..

- أحب انزلاقاتك.. هات بأخرى لكي أبلغ بؤرة الضوء.

- انزلق أنت مرة أخرى. سنصل إلى بؤرة الضوء معا..

- لا عليك.. أنا أفعل ذلك. إنه يكاد ينطحك من خلف الشاشة.. أنت التي ستزلقيه بيدك هذه المرة..

- هو الانزلاق الكبير إذن.. من خلف الشاشة وتحت ملمس أصابعي.. يا إلهي!.. ما هذا؟..

- نعم.. حتى أجعلك ممتلئة ومنتشية وهاذية.. ولكن قبل أن تزلقيه.. العقيه قليلا

- أنا أهذي الآن.. آه لو ترى ما أفعل به. لا أريد أن أرى شيئا ما. ينطبق علي هنا المثل: الزلقة بفلقة!..

- الفلقة! هل تعرفين ما هي؟ إنها قصبة السيد.. سأضربك بها الآن..

- أرجوك، ولكن برفق وعلى مهل.. لا أريد أن يزعجني شيئا حين أنحني أمام القصبة!..

*** *** ***

مع أنني أصبحت على قناعة أن متى أهدى رجلا وردا إلى سيدة، لا يلبث أن يفقدها، فإنني أصريت على ذلك كاختبار للمرة الأخيرة.. حدث ذلك أكثر من مرة حتى أصبحت أقوم بذلك في حركة لاواعية كما لو أنني أريد فعلا فقدانها.. أو أريد أن أبتعد عنها

في وقت مناسب.. أعطتني مهى عنوانها ثم دلتني بالهاتف كيف أدخل إلى الحي (أحد المنارات) وقالت لي: حين تصل إلى الشارع ستجدني واقفة في انتظارك.. اشتريت باقة ورد كبيرة إلى حد ما. وبعد أن دفعت ثمنها، قدم لي بائع الورد زئبقتين صغيرتين قائلا:

- سيد مراد لا تنسى الزئبق Muguet إنه موسم الزئبق..

غمرتني مهى بترحاب حار وابتسامات عريضة ثم قادتني إلى الصالون لأجد أمها وأبوها وكذلك شقيقها وهم يرحبون بي.. قالت لي: هذه مفاجأة.. لم أخبرك عنها .. ولكن كما ترى أنهم يريدون التعرف عليك.. اندمجنا بسرعة في أحاديث طويلة عن الثورة والسياسة، وحتى عن الزبالة التي ملأت شوارع تونس. ثم انتقلنا إلى الحديث عن الموسيقى والفن.. قالت مهى:

- هذه هي أمي التي علمتني الغناء والموسيقى.. أمي تغني وتعزف بمهارة..

وتدخل الأب ببشاشة فقال:

- ليس ثمة أسعد من بيت سيدته تغني..

وقال شقيقها الذي عرفت أنه عاد منذ مدة قصيرة فقط من باريس ثم التحق بشركة والده المصدرة للكابلات..

- كما ترى، سيد مراد، حظي كبير، أن لي أما وأختا يحبان الغناء والموسيقى..

أما مهى فظلت ساكتة وهي تبتسم بلا انقطاع. كانت تجلس قبالتي ولم يكن لباسها محتشما. كشفت قليلا عن صدرها الباذخ

(سألتها فيما بعد لماذا كانت لا تتكلم، أجابتني، بأنها أعطتني فرصة للاندماج أكثر). في ذلك المساء الذي كان لا يزال مثقلا بحرارة النهار. وهو نهار بدا لي وكأنه مستعار من الجحيم رغم أن الربيع لم ينتصف بعد.. انتقلنا لنجلس في الحديقة.. تأخر أبوها للالتحاق بنا، فأشرت لمهى أن تأتي لتجلس إلى جانبي.. لم تمتنع، ولكنها جلست قليلا ثم قامت لتترك مكانها لأبيها.. قالت لأخيها:

- غدا إذا استمر هذا الحر، فلا بد أن تأخذني إلى البحر..

ولكن أمها ردت:

- ليس غدا.. بعد غد، لأنني أحتاج للسيارة لكي أذهب وأبوك لزيارة أخيه.. أخوه مريض ولا بد أن نزوره.

لم تعلق مهى. وأعترف أنني وجدت نفسي في حرج.. بين أن أعرض عليها الذهاب إلى البحر فأبدو كرجل متسرع أو يصطاد الفرص عند المنعطفات، أو لا أعرض وألوذ بالصمت فأتهم بأنني لست جنتلمانا وربما منغلقا ومتشددا.. تجاوزت ذلك الإحراج حين قام أبوها يتمشى وسط الحديقة، فقلت لها بأنه يمكن أن نترافق إلى البحر، لكنها اعترضت على عرضي المحتشم بابتسامة عريضة (كنت لا أزال أخمن أن تلك الابتسامات الناعمة والدافقة ليست إلا انتصارات ضد الخيبات، ضد الشعور بالفشل، وكذلك ضد كل شيء يبدو لها لم ينضج بعد. بل ربما هي سلاحها الوحيد ضد كل فضاضة الرجال وسفاهاتهم حتى وإن كانوا لا يستبطنون أية ميول نحو الشر. ولكن بالنسبة لي، ولو أرادت لغتي أن تكون واقعية بما كان يمليه الوضع، لم تكن إلا وعدا بالسعادة ينساب

من عيون ناعسة وشفاه مكتنزة وطرية ومبللة، ليفتح شبابيك ومشاريع حكايا كما تفتح أزرار قمصاننا في البداية بسرعة ولهفة).

أومأت مهى بحركة لأمها، فقامت، ثم قالت لي:

- هل تريد أن ترى أمي كيف تعزف على البيانو..

قلت:

- سيكون أمرا مدهشا.. ثم أضفت: بشرط أن أسمعك تغني معها..

دخلنا إلى الصالون ثانية.. وجلست الأم إلى البيانو ثم طلبت مني إن كنت أرغب في سماع مقطع من أغنية ما.. لم يكن بذهني أي شيء محدد، ولكن بما أن مهى تعشق نجاة الصغيرة، فقد وجدت طلبي بسرعة. قلت:

- لا تنتقد خجلي «لنجاة الصغيرة»، ما رأيك يا مهى ؟!

(ولا شك أن امرأة تعد نفسها بتجربة غرامية عظيمة، لا بد أن تسعى بكل جهدها لكي تنجح.. كما لا شك أن أمًا ترى ابنتها على وشك الوقوع في غرام عظيم لا بد أن تسعى لإسعاد ابنتها وكذلك إسعاد الرجل الذي سيسعد ابنتها.. وفي مثل هذه الحالات، يبتعد الرجال عن الحرج.. وهكذا فيما تأخر الأب في الحديقة، انشغل شقيق مهى بمكالمات هاتفية جعلته يخرج هو أيضا إلى الحديقة)..

وحين تعزف الأم وتغني البنت، فلا شك أن ذلك الرجل المحظوظ جدا.. قد أصبح يقف على برج العذراء في قمته الأعلى. والحقيقة أحسست بالسعادة تغمرني من كل جانب حتى لم أعد قادرا على

الاستماع السلبي.. وهكذا عبرت عن متعتي بآهات عميقة.. ولما أوشكت مهى على نهاية الأغنية، اقتربت منها أكثر، لكنها ابتعدت عني وعن أي إحراج.. قلت لها حين أكملت:

- لم أكن أعرف كيف تصيرين نغما حين تغنين..

ثم التفت إلى أمها..

- أما أنت يا مدام، فإن البيانو يصبح تحت أصابعك وحشا كاسرا.. (ربما لم أتوفق جيدا في ذلك القول، إذ كنت أود أن أقول، أن البيانو، ذلك الوحش الموسيقي الذي اخترعه الإيطاليون، وكان جزءا عريقا وأصيلا من النهضة، قد بات تحت أصابعها حيوانا جميلا وأليفا).. كانت أم مهى تغني في شبابها في فرقة الرشيدية. هناك تعلمت العزف والغناء كهاوية وليست كمحترفة. بدأ صوتها في السنوات الأخيرة يضعف بسبب تقرحات خبيثة في الحنجرة.. وكان طموحها الموسيقي قد تقلص منذ أن تزوجت، لكنها استمرت في حبها للغناء والموسيقى وهو ما نقل العدوى إلى مهى.. وكان يمكن لمهى أن تصبح مغنية شهيرة لكن دراستها في كندا ثم زواجها الأول قد قلصا من طموحاتها.. مع ذلك فهي لا تتوقف على الغناء أبدا.. وهي الآن تغني بأكثر من لغة وتعرف أكثر من فنان شهير مثل يانيس باريوس وهاريس الكسيو وانجيلا ديمترو وحتى ايرين باباس اليونانيين ومثل سلين ديون الكندية. لا تزال تعشق الغناء بطريقة صوفية ولم تفارقها أبدا النشوة التي كانت تشعر بها في طفولتها حين كانت ترى أمها تغني!

لما حان موعد ذهابي وقمت لأسلم، تسللت أم مهى إلى المطبخ

ثم أتت بعلبتين وفتحتهما أمامي فوق الطاولة التي تعلوها مرآة ضخمة، ذات نقوش أرابيسك. وقالت:

- سيد مراد.. أحب أن أقدم لك هذه الهدية البسيطة.. هذا مسطبان من العسل الحر.. من نحل ضيعتنا.. وهذا مسطبان من معجون البرتقال.. وهو من إعدادي الخاص..

بعد ذلك حملت مهى العلبتين ووضعتها في كيس بلاستيك جميل من مطار أورلي، ثم سارت معي إلى السيارة..

في الطريق اكتشفت وأنا أستعيد تفاصيل تلك الزيارة، أن العاشق إذا كان امرأة أو رجلا يتصرف كطفل بريء ونزق في نفس القوت. ربما لأنه لم يدخل في عالم الالتزامات بعد، فهو لا يجد نفسه مجبرا على قواعد شكلانية. العاشق سرعان ما يتحول إلى طفل ويرفض ان يتحول إلى رجل ناضج.. ولربما تلك إحدى تقنيات الإغواء.! وبما أن العلاقة الآن قد امتدت من الافتراضي، إلى العائلي، فإنه من الصعب أن نجد لها موضعا أو ووصفا محددا. هل هي علاقة ستتحول إلى صداقة عائلية.. أم هي علاقة ستتحول إلى التزام واشتراطات وحتى زواج.. أم هي علاقة سوف لن تكون بأكثر من انتفاضة عاطفية مؤقتة لا تلبث أن تخمد.. مثلها مثل الثورة التونسية.!

حوالي منتصف الليل، أي بعد عودتي إلى البيت، وأنا لا أزال ممتلئا بتلك الأمسية الدافئة والناعمة.. كتبت إلى مهى:

- فهمت الآن ما العلاقة بين الحب والثورة.. يصبح الحب في زمن الثورة أكثر عنفوانا. وبدونه لا تنجح أية ثورة. فهو رحيقها

وطاقتها.. فإذا رأينا أن الثورة فشلت، فلأنها فرغت من الحب.. وإذا رأينا حبا قد فشل، فلأن ذلك الحب قد تخلى من أي عنفوان ثوري..

- تظن إذن أن للثورة تأثير على حياتنا العاطفية؟

- نعم وبالتأكيد. لقد لاحت لي الثورة منذ البداية كملاذ.. كحقل جديد للاندماج، كتصعيد نبيل للعاطفة البشرية. ويمكن أن يكون الحب حالة فردية، لكنه لا يتناقض مع الثورة كحالة جماعية. تسألين لماذا؟ لأن الثورة ليست إلا تحقيقا لوعد مؤجل أو حلم مخذول.. هذا ما يجب أن نصنعه لأنفسنا لا أن ننتظر حتى يصنعه لنا الله!..

- يا الله. إنك تسحرني بغموضك. كما أسحرتني في المساء بانفتاحك..

- مهى.. حين نمرض أو نتعرض لأزمة ما، نتذكر الله فنقول: أين هو الله؟ لماذا لم يأت إلي الله؟ ولكن تعرفين جيدا أن الله لا يأتي. بالأحرى إنه يأتي بطّريقة أخرى وفي مكان آخر. فحين نحب مثلا يصبح القلب ممتلئا بالله.. وكلما شعر المحب بالسعادة، داعب بطنه أو صدره وهو يردد: يا الله.. يا الله!

- وهل أنت الآن تداعب بطنك..

- صدقيني.. أنا في غاية السعادة.. ولكن المرء لا يملك الأحداث لأنها تمر بسرعة وإنما يملك رواية لتلك الأحداث..

- أوافقك.. الأحداث قد تتشابه وقد لا تتشابه، وقد تستمرّ في الحدوث وقد تنقطع ولكن الرواية.. طريقة سرد تلك الأحداث

هي التي تختلف ومع ذلك هي التي تبقى.

- في كل رواية ثمة خياران. إما أن تروي ما حدث فعلا.. أو أن تروي ما تراه أنت أنه قد حدث.. في الأولى ثمة العقل والمنطق والتسلسل. وفي الثانية يسيطر العجائبي والسحري.. وإذا كانت الرواية، أي النص يحمل 50 ٪ من الواقعي، فإن الـ 50 ٪ الثانية توجد في السرد والمجاز.. في أحيان كثيرة يتساءل القارئ عن صدقية الأحداث، فلا يجد من يدله، وآنذاك يقع التواطؤ مع صاحب النص، فتحدث المتعة.. إن المتعة يا مهى.. لا توجد إلا في التواطؤ. تماما كما لا تبدأ إلا مع المراودة..

- أنت أعلم بفنون المراودة..

- المراودة مثل المطاردة (ما يسميه الحقوقيون بالتحرش) لأنها فن قائم بذاته. ولكن حقوق الإنسان منعتنا من تطوير ذلك الفن.. أنا سأظل أعتقد دائما أن المطاردة هي أيضا حق من حقوق الإنسان. (ههههه)

- أحب ما تقول يا مراد. إنك تجعلني مسترخية بشطحاتك العذبة.. بل تجعلني أتلمس مناطق الرغبة.. أنا في غاية الاسترخاء..

- إنك تقودينني إلى حيث يدفعني هذا العنيد..

- رأيتك تقتربين منه جذلى وولهانة.. وها أنت تخطفينه بنظرة حارقة.

- مممم..

- ماذا تريدني أن أفعل.. أو يجب أن أقول لك ما أريد.!

- نعم قولي.

- سأجلس فوق قصبتك.. ها أن الفارس راكب فوق حصانه، ولكن الحصان هو الذي يضرب الفارس لكي يركض بسرعة، هذه المرة.

- أي حصان هذا الذي يضرب فارسه يا مهى؟

- أنا في أشد الوحشة والشوق.. ماذا تريدني أن أفعل؟

- أريدك أن تأتي عندي غدا.. في المساء..

*** *** ***

وجود كل من ستيفاني ومهى في تونس في نفس الوقت أربكني. ورغم لهفتي للاختلاء بمهى وإلحاحي عليها، إلا أنني رحت أبحث عن أعذار مناسبة لكي أتخلص من اللقاء معها.. ولكن مهى فاجأتني بأنها لن تستطيع أن تراني إلا بعد فترة طويلة لا تقدر على تحديدها، إذا ما تعذر اللقاء هذه الليلة. وسمعتها وهي تسقط الإحراج جانبا على الهاتف:

- إذا لم نلتق هذه الليلة، فإنه من المحتمل إلا نلتقي إلا بعد فترة طويلة.

- ولماذا؟ هل لديك أشغال مستعجلة؟

- نعم، علي أن أعود إلى باريس في مساء الغد. سأحجز لأمي سريرا في مستشفى «سان بلبتري».. أمي مريضة يا مراد.. ولكنها تقاوم بكل قوتها.. وسأضطر إلى أن أتفرغ لها.

تركت لي قليلا من الوقت لكي أفكر ثم أقرر.

- أنا في انتظار مكالمتك..

للحقيقة لست بارعا في نسج الحبكات والتخلص من مواعيد أنت ترغب فيها ولكنها حين تقترب تصبح عبئا ثقيلا عليك.. ومع ذلك فقد اتصلت بستيفاني وطلبت منها أن تؤجل موعدنا، لأنني مضطر للذهاب إلى مدينة «الحمامات» للقاء بأحد السنيمائيين العرب.. ذكرت لها اسم «يسري نصر الله» المصري ودعمت الحبكة بعدة أسماء حقيقية أخرى حتى أبدو أكثر تماسكا. بعد ذلك اتصلت بمهى وقلت لها وكأنني انتصرت على جبني:

- أحتاج إلى جنونك هذه الليلة.. اتركي عقلك في البيت..

قالت:

- ما أجمل أن يكون المرء بلا عقل أحيانا..

كانت كل من ساعتي وساعة مهى في تلك اللحظة تشيران إلى الحقيقة ذاتها. ولذلك كان علي من جهتي أن احتفي بها بلا مساومة.. فبالنسبة إلي لاتزال المرأة توجد في المنطقة اللزجة من حياتي. اعتقدت دوما أنني قابل للانزلاق في كل لحظة، ومع ذلك فإنني لا أزال قادرا على التماسك ومقاومة السقوط في الحب.. وها هي مهى تبدو كما لو أنها ألقت علي القبض في تلك المنطقة اللزجة.. فكما يمكن أن نفقد الموهبة خلال البحث عن أعمال توفر لنا العيش، كذلك يمكن أن تفقد التوازن حين تهجم عليك أكثر من امرأة في نفس الوقت.. ولكن ستيفاني هي زوجتي السابقة أو مطلقتي.. وقد أقيم دردينيل عميق بين جسدينا منذ فترة، إلا أنه بمجرد أن أحاول الاقتراب من مهى، أشعر أن ذلك الدردينيل بدأ يتحرك بيني وبين ستيفاني.. أما مهى فهي المرأة

الافتراضية التي قضيت مدة في مطاردتها، حتى استكانت وباتت سخية وناضجة كحبة تفاح.. وهي مستعدة أن ترحل كطيف كما ظهرت كطيف إن أحببتها أو لم أحبها. وإن جامعتها أو لم أجامعها.. وإن أشبعتها أو لم أشبعها.. هكذا بدا لي الأمر. ورأيت أن المسألة كلها قد تختصر في مجامعة أو مضاجعة قد تكون ناضجة أو فاشلة ثم تنتهي الحكاية.. فبعد تجربة طويلة مع النساء، وجدت أن ما لا يطاق في حياة رجل مثلي، هو أن يقوم بإنضاج امرأة للدخول إلى المغامرة، وحين تأتي الفرصة يتركها ويتجه نحو مطاردة غيرها.. وحين تستبد تلك الحالة بأي رجل أو تتكرر معه أكثر من ثلاث مرات، فلا بد أن ذلك الرجل قد أصابه «هوس الاستيهام» أكثر ما أغوته التجربة. لأن التجربة هي ما نعيشه مع المرأة التي نطاردها أو نصطادها. أما ما سبق ذلك فهو عالم الاستيهام والتخيلات المربكة والارتعاشات الموحدة.. هل يخاف ذلك الرجل أن يفقد أناه حين يندمج مع امرأة؟ هل يخاف أن يفقد فن المطاردة حين يدخل تحت سقف الحب مع امرأة واحدة؟ هو ذلك.. وأكثر بكثير.. فحين تصبح تعيش تحت شرط المرأة التي أحببتها، تصبح قيمة الحياة لديك تستمدها من قيمة ذلك الشرط.. ولأن ذلك الشرط هو أن تتخلى عن حياتك السابقة، فإنه قد يعني ذلك أيضا أن تتخلى عن بقية حياتك لذلك الشخص.. أعرف أن هذه «أمراض» تستوطن معظم الفنانين باعتبارهم يمثلون فئة ذات حساسية عالية كذلك معظم الأعازب اللاإرداديين.. ثم إني أعرف أن لحظة السعادة ليست تلك التي ستغمرني عند المضاجعة، بل هي التي ستغمرني بعد المضاجعة.. أي بعد أن أجد نفسي وحيدا

متحررا من كل ثقل.. ولكن هذا ما لم يحدث معي هذه المرة حين غادرتني مهى.. حين ودعتها بعد مضاجعتين عظيمتين تركتني إلى الفراغ. وهو فراغ لم أشعر به من قبل.. ففي العادة حالما أودع المرأة، لا يعود يهمني أن تعود إلي بيتها أو تذهب إلى عشيق آخر... تنتابني تلك الحالة في كل مرة تقريبا . أشعر كما لو أنني نزعت حذائي واستلقيت على فراش وثير ومريح.. في مرات قليلة حصل معي العكس. ما إن أودع تلك المرأة حتى أطاردها بعشرات المكالمات الهاتفية. أسألها إلى اين ذاهبة ؟ وهل وصلت أم بعد.؟ وكيف تفكر في الذي حدث بيننا ؟ وهل أعجبتها طريقة المضاجعة؟ ومتى ستعود ألي.؟ وإذا كانت متزوجة أضيف للأسئلة بعض البهارات الحارة.. أحذرها من المضاجعة مع زوجها.. أقول لها لا تتركيه يغوص بلسانه إلى حيث غصت، وإلا فإنه سيشتم رائحتي.. باختصار، أحرضها على كراهية زوجها، لكن إحداهن قالت لي ذات مرة: «إنك تحرضني على مضاجعة زوجي بأسلوبك هذا.. وإذا عاد لمضاجعتي بقوة كما كان، فإنك لن تراني!». علمتني تلك المرأة درسا آخر من دروس الجنس، هو أن أغلب النساء حين يقمن بخيانة الزوج، فإنهن لا يبحثن عن «حب بديل» لحب بدأ يذبل. وإنما هن يبحثن عن محرض لحبّ قديم أو للإثارة والشهوة.. فأغلب النساء بعد أن يعدن من بيوت عشاقهن يصبحن ولهات ومغرمات بأزواجهن.. في حالة مهى غير المتزوجة كنت واثقا أنها امرأة لا تسقط بسرعة ولا بسهولة، ولكنني بعد مضاجعتها غيرت رأيي فيها وأصبحت غير واثق في ما يسمى بالتزاماتها العشقية!.. حين دخلنا إلى فسحة القاموس البذيء، شعرت أن قاموسها أكثر

ثراء من قاموسي، فحتى لو أن العبارات هي نفسها التي يرددها معظم الناس على السرير، إلا أن مهى كانت تقولها بطريقة أخرى، جارفة معها كل ما لا ينسى من حكايات لا بد أنها عاشتها ولا يمكن بأية حال أنها كانت تتخيلها في اللحظة وأنا موجود بداخلها عن جدارة وبجدارة القضيب الضخم الذي ورثته عن أبي.. هل كان يمكن لي أن لا أصدق، أن ذلك قد حدث معها فعلا.. (كنت غارقة في قراءة مقال يستعيد قصة مارلين مونرو. وكانت الطائرة قد دخلت في أجواء الأطلسي المظلمة وهي متجهة إلى أمستردام.. وبعد أن وزعت المضيفات علينا الأغطية، وأطفأوا كل أنوار الطائرة، جاء رجل زنجي ليجلس إلى جانبي.. ثم رايته قد أدخل يده إلى ما تحت الغطاء ثم بدأ الغطاء يتكور ويأخذ شكل خيمة. خيمة صغيرة كانت مرفوعة على وتد واحد.. تخيلت أنه وتد عظيم ..ثم وضع يده اليسرى قرب يدي.. لم أحرك يدي. كنت كمن أدعوه إلى ملامستي ثم تباطأ، فحركت يدي بشطارة لألامس طرف إصبعه الكبير.. إصبعه كان دليلا على أن قضيبه عظيم.. تصلب إصبعه حتى أصبح في كفي وأنا ممسكة به بقوة.. ثم رفع يده فارتفع كفي معها ووضع إصبعه قرب فمي.. كان يريد أن أدخله في فمي أو ألعقه بلساني. لم أتباطأ، كنت قد بدأت أغمض عيني ثم رحت أمص أصابعه. فرادي ثم بالاثنين.. بعد ذلك سحبني فدفن رأسي بين ركبتيه تحت الغطاء.. كاد أن يصرخ حين أطلق حليبه.. كان خاثرا ومخلوطا بروائح عود القرنفل..)

حين أحسست أن الحكاية قد أوشكت على النهاية، سألتها:

- ثم ماذا.. الم يجلسك على ذلك الوتد؟

- لا.. ليس في الطائرة.. ولكن حالما وصلنا إلى قاعة الترانزيت في أمسترادام حتى قادني إلى الحمام ثم دفعه بداخلي من الخلف.. من الخلف يا مراد.. ليس ثمة أمتع من تلك الحقيقة التي رأيت فيها نفسي على المرآة، وأنا مثل عاهرة.. لا تهتم به يا مراد.. اهتم فقط بعاهرتك الآن.. ادفعه أنت أيضا حيث دفعه..

- وما اسم ذلك الميبون.

-اسمه برنار.. برنار الذي ينتظرني منذ مدة، برنار الذي سألتقيه بعد غد في باريس.. هل تحب أن ينكحني أمامك؟

لما بلغت الذروة.. كانت مهى قد أغمي عليها تقريبا. لمدة خمس ثواني، امتلأت عيناها بالبياض وهي غائبة تقريبا ثم بدأت تتحرك. اقسمت لي أنها لأول مرة تجرب من الخلف مع رجل. قلت لها: أن ذلك ما يجب أن يفعله أي رجل مع طيز مثل طيزك؟ لقد خسرت سنوات طويلة دون أن تنتبهي إلى مصدر اللذة العظيم!

وبما أن ما يقال عادة أثناء المضاجعة، يذهب هباء بعد المضاجعة ولا يعود يهتم به أي احد إذ يعتبره مجرد طقطقات لجمر يشتعل. هبط منسوب البذاءة وبدأنا نعود إلى أرض الحقيقة الأخرى.. الحقيقة التي تواجهنا بأسئلتها وقلقها. سألتني إن كان بالإمكان أن ألتحق بها في باريس في الأسبوع المقبل، فعبرت عن سعادتي ورغبتي، ثم قلت لها:

- أنا أيضا لا بد أن أذهب إلى الجزائر بعد أربعة أيام..

لم أكن أكذب عليها.. كنت فعلا عازما على الذهاب إلى الجزائر.. وكانت فكرة الفيلم لا زالت تعذبني (وكانت الأميرة سارة إسماعيل

داي تنتظرني لكي أتحدث معها في إنتاج فيلم دعائي عن محلات مجوهرات تملكها.. فحين لا نحقق مواهبنا، يمكن لنا أن نقوم بأعمال تجارية من أجل العيش). وهذا الجزء أخفيته جدا عن مهى كما أخفيته على فريد ريكوبي وستيفاني.

الفصل التاسع عشر

بين المتحدثة باسم الخارجية الروسية ماريا زاخاروفا والمتحدث الرسمي باسم قصر قرطاج عادل زريقات، عهود طويلة موغلة في التخلف والتملق ومسافات أطول موغلة في الطين والوحل. فرقصة كالينكا التي أدتها السيدة الشابة ماريا أمام رؤساء قمة آسيان في مدينة سوتشي، قد جعلت البابا يدعو لها بالتألق والنجاح.. لأنها أنست العالم آلامه وفضاعاته. أما عادل زريقات الذي يرتدي قناع طبيب مزيف فقد علق:«إن هيبة الدولة لا تسمح له بالرقص. لكن متى علا صخب المزود، فإن أردافه لا تتوقف على الاهتزاز».

عاش عادل وماريا في عواصم غربية. هو باعتباره «مناضلا» في جحافل المجاهدين الإسلاميين. وهي باعتبارها ابنة لدبلوماسي روسي عريق.. ولكن قانون الصدفة الذي جمع بينهما في منصب المتحدث الرسمي قد توقف عند ذلك الحد ليبدأ قانون التجربة والحياة الذي كشف عن معدن كل منهما وثقافته وعلاقته بالعصر والحداثة.! لم تكن رقصة ماريا زاخاروفا تضاهيها من حيث الأداء والانسجام والخفة والمهابة إلا رقصة ذلك الجندي اليوناني الذي قفز ببزته العسكرية على الركح فبدا كما لو أنه زوربا قد خرج

من الشكنة ليرقص أمام الفنانة هاريس الكسيو.. جثى على ركبتيه عدة مرات. وضع طاقيته قرب ساقي هاريس، ثم قفز بحركة سريعة فنفض الغبار عن بنطلونه وفتح ذراعيه كنسر يريد أن يحلق، فيما فتحت هاريس كل نوافذ فستانها (الساري) لتطير معه.. ولو رأى عادل زريقات ذلك الجندي اليوناني وهو يرقص بشهامة وفحولة لأبدى تفززه لأن الجيوش لا ترقص وإنما تحارب حسب زعمه أو على أقل تقدير، لتساءل: كيف يمكن لرجل يعتقد أنه يرقص وهو لا يحرك أردافه ! كان عادل زريقات قد نال لقب «المتملق الكبير» في تونس ما بعد الثورة.. انتمى إلى ستة أحزاب في ظرف عام واحد ثم بات ناطقا رسميا باسم الرئاسة.. لم يخف هوسه في البداية بالإسلاميين، بأولئك الذين يؤمنون كثيرا ويخافون قليلا من الله.. أو علاقته الحميمية ببعض رموزها.. وحين بدأ المركب يتجه نحو المضايق، قفز قفزة واحدة ليجد نفسه في قلب الذين يؤمنون بالله قليلا وببعض الشيوخ كثيرا.. كانت العناية الإلهية في عونه.. وبات ذلك التعبير من مؤلفاته البديعة وحقوقه الخاصة.. فاجأ الجميع بالصعود الصاروخي.. وعرف بعد ذلك بصاحب «حدسية الشيخ» التي سيطرت على التونسيين بعد الثورة بسبب الخوف والقلق.. وقال عنه كتاب آخرون مثل توفيق بن بريك: من أين أتى، هذا العبقري صاحب النظارات الطبية؟ وأضاف:«أنه فاق كل توقع لدى العرب كما لدى المغول».. ولكن مراد عباس لم يكن أبدا مستغربا من عادل زريقات، لأن التملق مستوطن بداخله كإرث ثقافي عريق!.. أما فريد ريكوبي فقد صاغ قرفه في هذا الرجل كما يكتب الشعراء:«عندما خلع الطبيب قفازتيه،

سقط رماد من بين كفيه.. وعندما خلع نظارتيه رأى نفسه قد تحول إلى برج.. وعندما أراد أن يتكلم سقطت أسنانه.. ورأى ظله يتمدد وهو واقف تحت بؤرة الشمس، لم يعد قادرا على الحركة، فجاء رجل ليحطمه بفأس كما تحطم الجدران القديمة!..».

قال مراد عباس لستيفاني، أنه سيسافر إلى الجزائر عما قريب لأنه لم يعد قادرا على هضم كل هذه القاذورات.. فالبلاد حسب رأيه امتلأت بالنفايات من كل نوع. نفايات رجال ونفايات نساء ونفايات أفكار ونفايات سياسيين ونفايات فنانين ونفايات أخرى.. أليس من المقزز أن نرى كل مساء عادل زريقات وهو يرغي كالرحى فوق رؤوس التونسيين ويخبرهم بأن جيشهم الوطني قد أطاح بخلية إرهابية هنا وأخرى هناك دون أن يكون متأكدا مما يقول؟ أليس من دواعي الانتحار في هذه البلاد أن يطلق عادل زريقات عنانه لأرقام خيالية ستنفقها الحكومة في الأسابيع القريبة وقد نسي ما قاله البارحة فقط عن تدهور الأوضاع الاقتصادية وتدهور الاحتياطيات النقدية؟..

استمعت ستيفاني جيدا إلى «تشنيعات مراد» فهي تعرفها جيدا وتجد أحيانا لذة في الاستماع إليها لأنها تجعلها متيقظة لأحاسيس الضفة الأخرى. وقد وجدت فيها مبالغات شديدة ناتجة عن حالة الإحباط التي يعيشها مراد، لكنها لم تأت لإقناعه برأي مخالف أو للدفاع عن عادل زريقات. فهي نفسها لا تجد في ملامحه أية علامات ذكاء أو صدق أو قدرة على الإبداع.. لغته مكعبة ومليئة بالعبارات القديمة وذات المرجعية الأصولية وتصريحاته طويلة ومهلهلة وليس لها مذاق. فهي تخلو من الدماثة والدعابة

والاحتمالية والمعلومة. إنشاء في إنشاء يتكلمها كما لو أنه يقرأها من لوح أو سبورة. وهي أحيانا تتساقط من فمه قبل أن تصل إلى الصحافيين من شدة امتلاء فمه بما يسمى بالحشو البلاغي.. (ستيفاني نفسها كصحافية التي حضرت ندوات صحفية كثيرة عبر العالم وخبرت سياسيين ودبلوماسيين لا تجد أية مرجعية فكرية أو سياسية في خطابات عادل زريقات. إنه نموذج المثقف البهلوان كما يعرفه غنتر غراس. فهو شخص يدعي أنه مثقف. خريج جامعة لكنه بلا عقيدة.. بلا رؤية.. يرافق الهيئات الثقافية.. يتابع المؤتمرات والجوائز ويحصل على تكريم بعض المؤسسات الثقافية، ينشر بعض المقالات الإنشائية مستعملا بعض دهائه في توزيعها وتضخيمها، بعد ذلك يختار اليمين أو اليسار لكي يصطف وراءه. حسب ساعة البندول المعلقة في الساحة العامة ثم يبدأ صعود السلم، معتمدا على ضحكة من هنا، وعلاقة من هناك. وقبلة من هناك.. وحين يصل لا يجد أفقا أمامه لأنه بلا أفق.. ولا مشروعا لأنه بلا رؤية.. البهلوان.. هو ذلك الطفل الذي لا يكبر والذي يظل ضاربا بالطبلة وسط الطاولات والحفلات كما يفعل أوسكار بطل فيلم الطبلة..)

قال مراد عباس لزوجته السابقة ستيفاني حين سألته عن سبب ذهابه إلى الجزائر:

- أريد أن أختفي. في مثل هذا الوضع الكئيب رغم كثرة الألوان، على الذين مثلي أن يحتجبوا. فمادام ليس لنا صوت. فلا فائدة من حضورنا كصورة. نحن رهائن بين يدي بهلوانات كثيرة.. صامدون ولكن إلى متى؟.. من ناحيتي قررت أن أهرب من هذه النفايات.

تسلحت ستيفاني بشيء من الشجاعة ثم دفعت بسؤالها:

- هل ثمة ما يدعوك إلى السفر؟ هل جاءتك تهديدات. إني أشعر كما لو أنك تريد أن تهرب.

قال مراد:

- لا..

ثم كررها ثلاث مرات:

- لا.. لا.. لا أبدا..

(كان في الحقيقة يخفي عنها تطورات قضية رحمة الصديقي، حتى لا يزرع بداخلها التوتر والفوضى.. وقد أصر أن يخفي ذلك جيدا.. ولكن قاعدة شخصيته الأساسية أردعته عن الكذب وجعلته يصارحها.. فهي لا تزال أقرب الناس إليه وأكثرهم صدقا..) ثم قرر أن يتكلم:

- ستيفاني.. أثناء غيابك أخضعوني ثلاث مرات لاستجوابات مملة حول علاقتي برحمة الصديقي وبزوجها الشهيد.. كانوا يذكرون لي أشياء نسيتها ولم اعد أتذكرها. بل اختلط علي الأمر حتى أصبحت أتخيل أن ما يعرضونه أمامي من معلومات قد حدثت معي. وأنا لست متأكدا أنها حدثت أو لم تحدث.. أحد المحققين وكان متعاطفا معي قال لي بصراحة: إنهم يريدون أن يلبسوك تهمة القتل ثم يغلقون الملف.. لكنهم يجدون صعوبة في نسج الحبكة إذ هم لا يريدون أن يشوهوا سمعة رحمة الصديقي التي تتمتع بتغطية سياسية في الداخل والخارج..

خيم صمت كئيب على ستيفاني، ثم رأت مراد يندفع إلى المطبخ ليأتي بزجاجة بيرة.. عرض عليها:

- هل تريدين أن نتقاسمها ؟

أومأت له بإصبعها أنها لا ترغب. ثم سألته:

- هل واجهوك ببعض المعطيات..

- أطلعوني على تقرير الاتصالات الهاتفية.. ووجدوا أن عدد المكالمات كان يزيد عن ألف مكالمة خلال نصف العام الأخير.. قالوا لي أن منسوب المكالمات قد ارتفع ثلاث مرات بعد اغتياله مباشرة..

- ثم ماذا؟ سألت ستيفاني..

- وجدوا لي صورة واحدة تجمعني مع رحمة الصديقي.. وكنت أتحادث معها أمام «بار الشيلنغ»..

ثم أضاف:

- هذه الصورة لا يمكن أن يلتقطها إلا رجل يعرفني.. لقد التقطت لي من فوق بما يعني أن الشخص الذي التقطها كان يجلس معي في الطابق الثاني من المقهى نفسه. وكان يراقبني باستمرار. وهو لا يكون غير «العربي سمار».

- من يكون هذا العربي السمار؟

- رجل من جهاز البوليس السياسي.. يعرفني جيدا ويعرف شلتي. وكان أيضا يعرف الشهيد.. طرد من عمله بعد الثورة وذهب إلى بيته مذعورا ثم أعيد إلى عمله في عهد الترويكا. وهذا هو أسلوب «أبناء العصبان». يفرغون أمعاء الخروف من كل الأوساخ ثم يعيدون حشوها بخلطة حارة، يطبخونها ثم يقدمونها كأكلة من التراث العريق..

رأت ستيفاني في تلك اللحظة أن مراد قد أصبح رجلا بلا فرح.. تدرج نحو التعاسة التي يوجد فيها الآن بساقيه وكذلك برغبته.. أراد الطلاق بلا سبب.. ورفض العمل تحت البيروقراطية العتيدة. وابتعد عن الأحزاب الكريهة والمغلقة والمليئة بالبلادة والصراخ، وأراد أن يكون «هو» لا غيره ولا حتى شبيهه، ولكن ها هو يجد نفسه وحيدا عند منحنى الحياة.. فمراد لم يعد شابا. إنه كهل متقدم.. وحين نمعن في رفض السلطة لنصبح أكثر تحررا، تمعن السلطة في إذلالنا لأننا أصبحنا أكثر وحدة. بلا سند.. بلا جاه.. ولا تبقى بداخلنا إلاّ المقاومة التي تميل إلى الخمول والذبول مع كل مطلع شمس.

كان موعد ستيفاني مع خوسيه بلانتيرو الذي وصل إلى تونس من المغرب في الصباح، قد اقترب.. وكانت تريد أن تخبر مراد بعدة أشياء مثل لقائها مع موظف كبير في الخارجية الفرنسية بباريس. كما كانت تريد أن تعرف أكثر عن هذا الذي اسمه «العربي سمار». ولكنها اكتفت بسؤال وحيد. قالت:

– هل تستطيع أن تسافر؟ ألا تعتقد أن اسمك أصبح في قائمة الممنوعين من السفر؟

قهقه ساخرا كرجل مجنون ثم قال:

– لا تقلقي. قريتي لا زالت توجد داخل حدود الجزائر!

*** *** ***

جاء خوسيه بلانتيرو إلى تونس مع ساندرا سلطاني التي ستصبح بعد فترة ساندرا بلانتيرو، كما قال لستيفاني وهو يبتسم مادا يده

لمداعبة يد ساندرا.. لكنه لم يحدد تلك (الفترة).. كان ينتظرها في الصالون الكبير لفندق الشيراتون.. كان الليل قد حط على تونس، فبدت من فوق هضبة الشيراتون متلألئة بأضوائها غارقة في الصمت. عرض عليها أن تتناول مشروبا، لكنها رفضت. قالت له: إنها جاءت فقط للسلام، وسوف تعود في وقت آخر من نهار الغد لكي تصحبه وساندرا في جولة للمدينة القديمة.. شعر بلانتيرو أن ستيفاني متوترة وليست على مزاجها الرائق كما هي عادة، فطلب منها أن يتمشى معها قليلا في حديقة الفندق. ظهرت له تونس وكأنها أو هي فعلا قد شيدت على عدة تلال.. وباعتباره متخصصا في العمارة، رأى أن أعلى تلة هي تلة الشيراتون. وحين سارا نحو محطة السيارات، قال لستيفاني: أن تونس تشبه غرناطة في هيئتها المعمارية الخارجية.. إنني لم ألاحظ ذلك في المرة السابقة.. ربما لأنني سكنت في منبسط البحيرة ولم أتمكن من التجوال لدواعي أمنية، إذ أن الثورة لازالت في بداياتها!.. كانت ستيفاني لا تزال متوترة وهي تنتظره حتى يكمل ملاحظاته الانطباعية ثم قاطعته قائلة:

- سيد بلانتيرو. أنا لا بد أن أذهب بعد خمس دقائق.. ولكن قبل أن اذهب وقبل أن تسألني لماذا، سأقول لك أن لدي مشكلة ليس بإمكاني الآن أن أشرحها أو أفككها.

سألها بلانتيرو وقد رآها حزينة تكاد أن تبكي:

- وما هي هذه المشكلة؟

- زوجي السابق، أب طفلي طارق لا بد أن يسافر.. إنه مهدد بالقبض عليه.. هل ثمة طريقة لكي تساعدني؟

لم يسألها بلانتيرو ما السبب، ولكنه سألها:

- إلى أين يريد أن يسافر؟

- هو يريد أن يذهب إلى الجزائر..

بعد صمت قصير جدا.. قال بلانتيرو بحزم:

- أفهم من كلامك، أنه لا يستطيع.. ولنفترض أن الوضع كذلك.. فليست لدي الآن إلا فكرة واحدة..

ثم أضاف:

- الياهو دانيال سينطلق بيخته من ماربيا بعد يومين مع شاهي شهبار ومارغريتا مارتيناز وقد اتفقنا أن يمضوا ليلة في تونس ثم ننطلق جميعنا إلى إسطمبول.. في هذه الحالة يمكن أن نتدبر أمره..

- سيرفض مراد. أنا أعرفه جيدا، لن يصعد في يخت صاحبه إسرائيلي..

- ولكن ليس بإمكانه أن يعرف ذلك..والبخت يرفع علما اسبانيا..

- وإذا عرف في ما بعد، قد يرمي نفسه في البحر، وقد يلقي بي أنا أولا..

- ضعيه أمام الحقيقة، قد لا يرفض..

فكر بلانتيرو قليلا وهو يوبخ حظه حين يجد نفسه عاجزا.. ثم قال:

- هل تريدين أن أوصله بنفسي إلى الجزائر؟

- كيف؟ سألت ستيفاني..

- بإمكاني استئجار سيارة سياحية.. سيصحبني كدليل سياحي.

وعند نقطة الحدود سيجد من ينتظره لكي يتولى أمره.. لن يستغرق هذا الأمر إلا عدة ساعات.. ضعيه أمام الخيارين ثم أخبريني..

أبدت ستيفاني استحسانها للخيار الثاني وإن كانت تثق أكثر في سلامة الخيار الأول.. وبما أنها هي ذاتها لا ترغب أن يكون معها على يخت الياهو دانيال، فإنها حصلت على نقطة إضافية لترجيح الخيار الثاني.. ابتعدت عن الموضوع كله ثم سألته:

- هل ستذهب معنا خطيبتك ساندرا إلى إسطمبول يا خوسيه؟..

أجاب خوسيه بسرعة:

- ستعود إلى طنجة بعد تمضية عدة أيام حتى يصل اليخت..

عادا خوسيه وستيفاني إلى الصالون من الباب الجانبي للفندق.. ولكنهما لم يجدا ساندار في مكانها. دب بعض القلق في خوسيه واعتقد أنها غضبت وصعدت إلى غرفتها، ولكن ستيفاني رأتها قادمة من ممر الحمامات.

قالت له:

- ها هي ساندرا يا خوسيه

ثم قالت لساندرا:

- إنه يرتعش منك. لو وضعت يدك على قلبه لوجدته يخفق بسرعة.

بعد ذلك طبعت على خديها قبلتين ثم صافحت خوسيه وودعتهما على أمل لقاء آخر..

*** *** ***

اتجه خوسيه وساندار نحو المطعم. اقترح عليها في البداية أن يتعشيا في المطعم أو يطلب العشاء إلى الغرفة فوافقت على المطعم.. كان رأسه لا يزال مثقلا بالمشكلة التي حدثته عنها ستيفاني.. وبما أنه التزم بمساعدتها.. فهو وضع نفسه تحت الاختبار.. وراح يفكر في خيار ثالث أكثر أريحية وتكيفا مع وضعه كسائح وكذلك مع وضع خطيبته ساندرا. ففي كل الأحوال، فإذا قد التزم بالمساعدة، فلا يعني ذلك إلى حدود المخاطرة أو حدوث الضرر بالنسبة لساندرا. فهو ملتزم تجاه ساندرا بعقله وقلبه وشهامته قبل كل شيء. ثم أن لو وقع مكروه ما فساندرا ستكون مجرد ضحية في حكاية رديئة لا تعرفها.. ولأنها مغربية وليست إسبانية مثله، فإن أمورها ستتعقد أكثر. لذلك كان قد بدا يتريث، لكنه لم يفقد حماسه لكي يساعد ستيفاني.. وحتى يرضي ضميره من الجانبين.. فقد فكر أن يتصل بصديقه وزميله البروفسور إسماعيل داي ويضع أمامه «المشكلة» دون أن يجعل منها مشكلة.. سيقول له أن لديه صديقا يريد الذهاب إلى الجزائر.. وهو مخرج سينمائي (لا يعلم خوسيه أن مراد فعلا هو مخرج سينمائي) سيقوم بتصوير بعض المشاهد في الجزائر. وهو يحتاج إلى المساعدة هناك.. وقبل أن يبلغ نقطة الذروة في تلك الحبكة التي كان يرسمها في خياله، سألته ساندرا:

- هل تريد سمكا أم لحما ؟

استمر خوسيه في تهجي قائمة الطعام (لم يكن يقرأ.. كان يفكر في قضية ستيفاني) ثم أجاب وصوته منخفض:

- سأتناول سمكة قاروص مشوية.. وما رأيك في كأس من

السانجريا ساندرا.. أنا سأطلب قنينة من النبيذ الإسباني «ريوخا».. أضاف مبتهجا:

- إذا كان لديهم «الريوخا» كما هو مكتوب على لائحة المشروبات. فهذا يعني أن تونس لازالت بخير.. هذا مؤشر جيّد..

سألته ساندرا:

- كيف ذلك؟ ماذا تعني بذلك. النبيذ الإسباني يوجد بكثرة في المغرب. لماذا لا يوجد في تونس؟

قال خوسيه دون صعوبة في تفسير ذلك:

- ما حدث في تونس لم يحدث في المغرب. السياسة قتلت الاقتصاد وقضت على السياحة.. ألا تلاحظين أن المطعم يكاد يكون خاليا من السياح.. لا يوجد فيه إلا التونسيون وهم يكرعون جعتهم ويستعينون عليها بالضجيج والزيتون المملح والحمص المحمص!!

(بعد أن سجل النادل الطلبية، عاد خوسيه يبحث عن الحلقة الضائعة لتهريب مراد إلى الجزائر.. أصبح الآن مقتنعا أن ما سيقوم به هو عملية تهريب شخص من بلد إلى بلد، وهو من بلد ثالث.. وهذا أمر لا يتطابق مع مبادئه.. ومع ذلك فإنه لم يعثر في مخيلته على أي شيء.. سوى عن التداعيات السلبية التي بدأت تتكاثر من حوله..). طرد الفكرة كلها من ذهنه.. أفرغ رأسه جيدا ثم راح يملأ جوفه بنبيذ الريوخا العابق والخاثر.. قال لساندرا، وهو يضرب كعب كأسه بكأسها الممتلئ بالسانجريا:

- في إسبانيا، حين يسكرون ينادون على «الكوديو». يصبح

الجنرال فرانكو هو دليل النشوة لديهم. رأيت ما يشبه ذلك في بغداد والسودان.. على نهر دجلة حين يستبد «العرق» بالعراقيين يصبح السيد الرئيس وكأنه النادل الكبير.. أو النادل هو السيد الرئيس.. ثمة مخاتلة لم أفهمها جيدا آنذاك.. ولكن في الخرطوم، وحين سمعتهم ينادون على النادل بالشيخ.. عرفت أن ما دام هناك خمر، فلا مانع من الدكتاتورية بكل ألوانها.. ربما ذلك هو ما يقصده الإسبان.. ما دام هناك نبيذ فلا مانع لديهم من حكم فرانكو.. أو من حكم الشيخ الترابي.

بعد ما علقت ساندرا على ذلك بقولها:

- كل شعب يحب طغاته وهو يودعه الواحد تلو الآخر، فاجأته بسؤال كانت تريد أن تخبأه إلى اليوم التالي، لكنه انفلت منها بعد أن انتصف كأسها:

- ماذا كانت تريد منك مدام ستيفاني؟ لم تقل لي.. كانت متوترة.. ألست على صواب؟..

حدقت ساندرا في عيني جيدا.. لمحت الحب والإصرار في عينيها.. كنت أعرف أنه حين نحب شخصا، نحب وجهه حتى لو كان الأمر يتعلق بحالتنا. كانت ساندرا شابة لم تتجاوز عتبة العشرين إلا بنحو ثلاث سنوات، وأنا أتجاوزها بنحو أربعين عاما. ومع ذلك فإذا كنت أنا أعشق قسمات وجهها البلوري، فهي كذلك تعشق تجاعيد وجهي وقسماته التي لم تعد متناسقة بفعل الزمن.. كان وجهها انعكاسا ربانيا لوجهي.. ولذلك لم يكن بإمكاني أن اكذب عليها، وإلا فإن ذلك الانعكاس الرباني قد تلطخه الشياطين بأوساخها فيفسد كل شيء بيننا إلى صباح اليوم التالي.. قلت لها:

- ستيفاني واقعة في مشكلة.. وقد أوقعتني معها في ورطة.. هل يمكنك مساعدتنا ؟!

اتسعت عينا ساندار، ورمت بخصلة شعرها التي تخفي جانبا من عينها اليسرى، نحو الخلف، ثم استعدت جيدا لكي تسمعني. قلت بمرح لكي أخفف من هرمون القلق لديها:

- الأمر بسيط. مشكلتها تتلخص في أن زوجها السابق واسمه مراد يريد أن يسافر إلى الجزائر أو حتى إلى ليبيا، لأنه أصبح مطاردا ومهددا بالسجن. وقد طلبت مساعدتي.. أما ورطتي فقد وعدتها بالمساعدة وأنا لا أملك خطة متكاملة..

- وهل تعرف ما هي مشكلة زوجها حتى يجد نفسه مهددا بالسجن يا خوسيه؟

لم يكن خوسيه مستعدا لمثل ذلك السؤال. ولم يكن متسلحا بكل المعلومات. وبما أنه كان يثق في استقامة ستيفاني، فلم يشأ أن يطرح عليها أية أسئلة. فقد أرجأ كل شيء إلى وقت آخر.. ولكن ساندار أيقضته على تداعيات أخرى قد تكون خطيرة.. فلو أن مراد مورط مثلا في جريمة قتل، فإن كل الذين سيساعدونه على الهروب يصبحون مورطين في الجريمة نفسها.. حتى ذلك الحين لم يكن منتبها إلى لب المشكلة. سماها «بمشكلة ستيفاني» ونسي لبها.. وربما لهذا السبب، فإنه لم يعثر على حبكة لحل هذه المشكلة، لأنه لا يعرف لا اسمها ولا وزنها ولا حجمها ولا حتى ثقلها الأخلاقي..

أجاب خوسيه بعد أن تبخرت صدمة المباغتة، مباغتة السؤال الذي ألقت به ساندرا.

- لم أتحدث معها في ذلك. ذهبت مباشرة في التفكير لمساعدتها.. كنت أعرف أنها ستصارحني في الوقت المناسب. ولا أعتقد أنها ستضعني في مشكلة إذا أخرجتها أنا من مشكلة.. فبيننا علاقة قديمة وعمل كبير وأصدقاء كثيرين..

كانت أذنا ساندرا قد بدأتا في نوبة من الطنين.. لا تعرف مصدر ذلك على وجه التحديد.. أهو بسبب الضجيج الذي يملأ المطعم؟ أهو بسبب كوب السانجريا الذي فرغ تاما. أهو بسبب تلك المشكلة التي انتقلت إليها كالعدوى.. أم هو بسبب كل ذلك زائد الموسيقى العالية التي لم تعد تطيق سماعها من فرط ابتذالها. بدا الأمر لها وكأنها في سوق شعبي للكاستات المبتذلة التي تجمع بين خطب الشيخ شعراوي وكاظم الساهر وعبد الوهاب الدوكالي وقراءات الشيخ السديري.. وفي لحظة ما، لم يعد يصل إليها من كلام خوسيه إلا القليل.. فأذنها اليمنى قد ملأها الطنين تماما. أما اليسرى فجرفتها تلك الموسيقى الصاخبة.. لم تنتظر حتى يأتي النادل بالحساب.. وطلبت من خوسيه أن يغادرا المطعم إلى ناحية المسبح لتشتم بعض الهواء النظيف.. ثم قامت ووقفت أمامه تحثه على القيام..

- خوسيه.. سيسجلون كل شيء على الغرفة.. هيا..قم.. لم اعد قادرة على البقاء هنا حتى لدقيقة واحدة.

*** *** ***

قضينا ليلة ممتعة بعدما خرجنا من المطعم.. بدأ مفعول السانجريا يلتهب ويتصاعد في رأس ساندرا حتى هجمت علي ونحن لا زلنا

جالسين إلى جانب المسبح. كان الظلام يخبئنا جيدا عن متلصصي المسابح.. ثم كان بالإمكان أن نسمع دبيب خطوات أي متلصص إلا إذا كان يمشي حافيا.. ومع ذلك تحاملنا على الصعود إلى الغرفة.. كان ولعنا ببعضنا لا يوصف.. فأنا كنت قادرا على إخضاعها لأي نوع من ألاعيب الثيران الإسبانية. وهي كانت تملك القدرة على جعلي قويا ومشرقا ومندفعا بلا أي جهد كبير أو منشطات جنسية. فحين يكون الولع عاليا لا تكون ثمة أية حاجة لتلك المنشطات التي يستعين بها من كانوا في مثل عمري.. كنت كمن يستقطع نحو ثلاثين عاما من عمره ويرميها خلفه لأتساوى مع ساندرا وأصبح في مثل انفجارها وصهيلها.. وحين تسرب شعاع الصبح إلى غرفتنا نهضت كشاب في الثلاثين.. هاتفت صديقي في الجزائر «إسماعيل داي» وقلت له، أنني في تونس لبضعة أيام.. ثم استأذنته في إعطاء هاتفه لأحد الأصدقاء التونسيين القادمين إلى الجزائر.. قلت له أن اسمه مراد.. وهو زوج صديقة فرنسية اسمها ستيفاني نيكولاس. ثم أغلقت فمي عن أي شيء آخر. أبدى إسماعيل داي ترحابه السخي. أما ساندرا فقد نهضت من فراشها وكأنها مذعورة وهي تقول لي:

- قضيت الليلة تفكر في زوج ستيفاني.. ألهذا الحد تحبها ؟

- لا، لا يا ساندرا.. لا تقولي هذا.. ستأتي إلينا بعد حين إلى الفندق ولا بد ان أرفع من معنوياتها حتى برشة من المجاملات.. ما الذي فعلته ؟ سأقول لها: أن صديقا لي سيستقبله في الجزائر ونغلق الموضوع..

- وهذا الصديق ليس إلا إسماعيل داي.. والد مروان الذي

سحبتني منه.. وقد يذهب هذا الذي اسمه مراد ويلتقي بمروان ويصبح صديقا له ثم شيئا فشيئا يعلم أنني أعيش معك.. مع خوسيه، أستاذ مروان وصديق والده.. وشيئا فشيئا، يتعرف على العائلة ويتعرف على أخت مروان، وقد يتزوجها.. ثم تتطور الحكاية إلى أن تصبح وجع رأس دائم لنا جميعا.. أليس هذا ما سوف يحدث يا خوسيه..

- ولكن يا ساندرا.. من قال لك أنه سيصل هذا الذي اسمه مراد إلى الجزائر، أصلا؟ ثم افترضي أن هذا الذي تفكرين فيه قد حدث.. ما الذي يلزمنا تجاه مروان أو غيره.. كذلك افترضي أنه ذهب لوحده وتعرف بالصدفة على أخت مروان، هل سنبقى دائما خائفين من ظهور مروان.. بعد قليل ، قال لها:

- ها. لماذا صمت.. ألا زلت تحبين مروان ؟!

رد خوسيه لها الصاع صاعين كما يقول العرب، أما الإسبان فيقولون:«حين ينقر الديك ديكا آخر.. انتظره سيرد عليه بدجاجتين».. (يختار الديك المنقور أهم دجاجتين من سرب الديك الناقر، ثم يمطتي فوق كل واحدة على مرأى منه، حتى لكأنه ينقر زميله من أجل أن يقوم بواجب لم يعد قادرا على القيام به). ضحكت ساندرا وهي تستمع إلى تفسير خوسيه في مادة نكاح الدجاج. ولما رآها قد عادت إلى بهجتها، استعجلها للنزول لتناول فطور الصباح.. قال لها:

- هيا.. لننزل. ثورك جائع.. أحتاج إلى علف طازج يا ساندرا.. هيا. قبل أن تأتي ستيفاني..

بعدما أحضرنا العصائر والفطائر والكرواسون والقهوة والحليب أمامنا، ذهبت لأوصي له بأومليت.. ثم عدت له بتفاحة وطلبت منه أن يبدأ بقضمها أمامي.. قلت:

- هذه التفاحة أهم منشط لقلبينا يا خوسيه..

سألني: كيف.! اشطريها بالسكين وخذي نصفها..

- لا.. حين تقضمها أنت بأسنانك، سينتعش قلبك بعصير التفاح. وينتعش قلبي لقضمها بأسنانك.. افعل ذلك أنت كما لو تقضم صدر ساندرا يا خوسيه..

كانت تلك مداعبات صباحية نتبادلها عادة عند فطور الصباح.. ولم أكن أدرك عمقها حتى قال لي خوسيه في ذلك الصباح:

- هل تعرفين يا ساندرا.. إنك تثيرين في داخلي هلع هرقل. كان رمزا للفحولة وكذلك للأكل.. يأكل ثورا بكامله وبإمكانه أن ينكح بأقوى من ستة ثيران.. جال بلدانا كثيرة حتى بلغ كورنثيا بلد الملذات. وهناك نكح امرأة كان اسمها «أوكيمون بازيليك». كان اسمها اسما لنبتة مثيرة ومنشطة للطاقة الجنسية.. وحين فعل بدا أنه اكل النبتة، فازداد هياجه وهلعه بالجنس.. إن أكل الطعام هو الترجمة الشبقية لأكل الأنثي..

- إذن كل التفاحة لتلهم خيالي..أنت هرقلي العجيب.. وأنا «أكيمون بازيليك».. أنت من بلاد هرقل العظيم.. وأنا من طنجة، حفيدة كورنثيا العظيمة.

شوش هذا الغزل العالي النبرة والمجاهر ذهن خوسيه. وشعر كما لو أنه تبلل، على الأقل حين سال لعابه مع عصير التفاحة وهو

يقضمها كما لو أنه ينتقم منها.. تماما مثلما يفعل معي.. وما كدت أقول له: أن ينتبه لقميصه من سائل التفاح، حتى وقفت ستيفاني أمامنا لتخبرنا أنها وصلت..

*** *** ***

اقترحت علينا ستيفاني جولة في المدينة القديمة. قالت انها جميلة وعابقة بالروائح والنشاط. ثم سالتني ما إذا كنت راغبا في رؤية جامع الزيتونة. وذكرتني بالجولة التي قمنا بها في جامع الحمراء بغرناطة حيث لعبت دور المرشد السياحي. ثم التفتت إلى ساندرا وقالت لها:

- جامع الزيتونة، صرح عظيم في تونس. رغم أنه أصغر حجما من الأزهر في القاهرة أو «القرويين» في فاس، إلا أنه الأقدم..

حين أصبحنا في باحة الجامع، لاحظ خوسيه ما يمكن أن يلاحظه أي سائح. وأظنه قال مكرها: أن الإهمال ساطع للعيان.. أبوابه مشققة ولم تدهن منذ سنوات عديدة كما هو واضح.. ثم تساءل: كيف يمعنون في إهمال مثل هذا الصرح فيما هم يرفعون الإسلام عاليا؟ بعد ذلك قال:

- حين يخلو البناء من أية روح يصبح ركاما. يصبح مجرد نفاية. العمارة كانت هي الجمال الأول للفن وللمقدس معا لأنها الجسد الذي يغلف الروح.. تماما هي جسد إنساني. ترتفع على المادة الثقيلة الخاضعة لقوانين الثقالة ثم يكون قوامها جمعا بين أشكال الطبيعة وتحقيق الانعكاس المتناظم للروح.. العمارة الكبيرة، سكنا أو معبدا أو مسجدا أو كنيسة أو حتى ملعب كرة قدم أو

مبنى إداريا، كانت دائما للجماعة لكي تشعر بالترابط والاتحاد. بعد ذلك يأتي النحت ليعبر عن مضمون فرداني أو إبداع شخصي.. وهو تجسيد عن طريق المادة لإنسان بلغ استقلاليته على يدي فنان يعمل في حدود المنازعات والآلام. فالنحات يأتي بعد المعماري.. ثم يأتي من بعدهما الرسام الذي يبعث الحياة في كل هيئة عن طريق الألوان.. إنه يتحد مع الطبيعة دون أن يندمج أو يتبخر لأنه هو ذاته وعي الطبيعة. كان غوته يعتبر الرسام بمثابة إلاه صغير، لأنه يمنح السعادة والعذابات لرسوماته. فعن طريق الألوان وتدرجاتها، تتقلص الأبعاد ويشاع الضوء. ذلك الضوء يجعل العمارة والنحت منتجات متطورة، فيما اللوحة تنير نفسها بنفسها وتحمل في ذاتها عتمتها الخاصة. بعد الرسم، تأتي الموسيقى. وبعد الموسيقى يأتي الشعر، وهو الأرق والأكثر روحية في أشكاله المتعددة الملحمي والغنائي والتمثيلي. فهو الفن الذي يعيد فيه الإنسان خلق عمل فني كان قد خلقه إنسان آخر، حسب هيغل.. وحسب هيغل دائما «فإن ما يأتي بعد العمارة والنحت والرسم والموسيقى والشعر، هو فن ناقص كالرقص أو هندسة الحدائق أو حتى المسرح.!»

لم أشأ أن أقاطع بلانتيرو في إشراقاته. كنت أستمع إليه بانتباه شديد كأستاذ في الحضارات وفن العمارة ثم كرسام.. أما ساندرا فلم تهتم كثيرا بما كان يقوله. بل لم تضع حتى شالا فوق رأسها كما فعلت أنا. كانت تتبعنا بتثاقل ونحن نتجول في أرجاء الصحن، ولكنها كانت أحيانا تلمس بعض الأعمدة الرخامية النحيفة ثم تحدق في السقف كما لو أنها تتساءل كيف يمكن لهذه الأعمدة النحيفة أن تقاوم هذا الثقل الضخم لعدة قرون؟؟ ولاحظ خوسيه

ذلك فأراد أن يقترب منها لكي يدفع عنها حيرة التساؤل ويرفع لديها من شهوة المعرفة. قال خوسيه وهو يخاطب ساندرا:

- هذه الأعمدة التي تنتظم وتتناظر ضمن هندسة بديعة، توجد رمزيتها في طاقة التناسل الإنجابية. ابتدعها الهنود كاحتفالات في البداية طلبا للقوة والسمو والاستمرارية ثم بناها الإغريق ثم الرومان ثم المسلمون. لم تكن مجهولة في مصر القديمة ولا في بابل. لقد تحدث هيروديت عن احتفالات شبيهة في قرطاج.. بدلا من القضيب ابتكروا أشياء أخرى. بحجم ذراع. فإذا ما شددن النساء الخيط انتصبت هذه الآلات الصغيرة تحت سراويلهن تعبيرا عن آلة الرجل.. بعد ذلك تحولت تلك الأعمدة رافعات لأي بناء مقدس أو جماعي.. بدأت غليظة في البداية.. ثم أعرض عند القاعدة وتتناحف حتى القمة.. ثم أصبحت نحيفة كما في هذا الجامع وكما في جامع الحمراء. بعد ذلك ختم قائلا:

- ليس للعامود من هدف غير أن يحمل.. إنه يرفع دون أن يسد الرؤية كالجدار. وهو ينتصب بملء الحرية. وبحكم هذه الغاية، فلا يجب أن يكون لا قويا أكثر مما ينبغي ولا ضعيفا أكثر مما ينبغي، وإلا فإنه سيبدو مسحوقا تحت وطأة الحمل أو مندفعا إلى الأعلى بخفة كبيرة وكأنه يلاعب الحمل ملاعبة..

تمادى خوسيه بلانتيرو في وصفه للأعمدة إلى حد شعرت فيه أنا وساندرا بالإحراج.. ولو لم تقاطعه ساندار، لقال كلاما أكثر طراوة وإيحاء من ذلك.. قالت ساندرا وهي تجره من يده..

- يكفي.. نكمل الحديث في مقهى.. لقد تعبت من الوقوف..

آنذاك خرجنا من جامع الزيتونة ثم سرنا باتجاه ساحة القصبة، ليتعرف خوسيه على الساحة التي دارت فيها المناورات العتيدة والرخيصة حول إجهاض الثورة التونسية!..

الفصل العشرون

حين التقى خوسيه بلانتيرو ومراد عباس، بدا لي الأمر وكأن سلفادور دالي قد التقى بباكونين. اندمجا بسرعة ونسيا الزمن وتحدثا باستغراق في الفن والسياسة والتاريخ. وتعاونا على شتم الربيع العربي والعولمة والرأسمالية ورهانات النخب الفاشلة وخياناتها لذاتها وللثورة.. كان يلانتيرو قد استعاد نباهته وأصوله السوريالية. وتخلى قليلا عن حيائه وكذلك عن وقاره الأكاديمي. أما مراد عباس فقد مدح كثيرا باكونين الذي كان أكثر ثورية من ماركس الذي بنى معبدا يشبه معبد السعادة عند رجال الدين.. بدا الرجلان على قدر كبير من التوافق النظري.. ورغم أن مسيرتهما الحياتية مختلفة، بل ومتعارضة إلا أنهما كفنانين أو كفيلسوفين، إن جاز التعبير، كانا متشابهين في العبارة والملاحظة والذكاء والنفاذ إلى جوهر الأشياء. تحدث بلانتيرو عن زيارته التي قام بها البارحة لجامع الزيتونة وقال: «أن ما رأيته كان بقايا من عهد قديم».. ثم أضاف: «أعتقد أن حالته الحالية، هي ميزان الحرارة في مؤخرة هذا المجتمع. لا أحد يريد الاقتراب منه أو قياس حرارته لأنهم يقعون تحت الموانع والعواقب والعجز». (كان خوسيه قد قال في ليلة البارحة لساندرا بعد أن أكملا حصتهما الجنسية..

رأيتك وأنت في صحن المسجد تتفحصين وتلمسين أعمدته كما تداعبين قضيبا.. لست الوحيدة في ذلك الإحساس.. لو ابتعدت قليلا أو كثيرا عن ذلك المكان المقدس وتأملت جيدا بعيون رسام سوف ترين قضيبا ضخما وشاهقا، الذي هو الصومعة أو المئذنة، وإلى جانبها بطن امرأة حبلى في شكل قبة.. ذلك هو المسجد في العمارة الإسلامية.المسجد هو الجسد البشري المجسد.. في نسخته الذكرية والأنثوية الموحدة..)

- نعم يا سيد بلانتيرو. إنك تثير هنا ما يسمى بالمقدس المتغير.. ثمة ما يجعلنا نشك ما إذا كان هذا المجتمع لا يزال يتمسك بمقدساته، أو راح يبحث عن مقدسات أخرى. إن ضريح كمال أتاتورك أو ضريح لينين أو البانتيون في باريس كلها مقدسات شخصانية أخرى.. إن معاول الرأسمالية قد انهالت على جميع المقدسات الأخرى لتهديمها بدءا بالسيادات والأوطان والديانات وحتى الكتابة والطبيعة.. أليست«داعش» معولا من هذه المعاول؟ أليست الانترنيت عدوانا سافرا ضدِ الكتابة وكذلك ضد الذاكرة البشرية؟ بعد برهة أضاف مراد يقول:

- أعتقد أن هذا الأمر بدأ منذ زمن طويل.. فحين احتل المسيحيون الإسبان تونس، جعلوا من جامع الزيتونة إسطبلا لأحصنتهم. وحين جاء المسيحيون الفرنسيون حاصروا طرقات جامع الزيتونة بثلاثة أو أربعة مواخير. واحد للشعب واسمه «عبد الله قش»، والثاني للخواجة واسمه «البيت الكبير»، والثالث للنخبة الفرنسية واسمه «بيت النخيل». وثمة رابع للجالية اليهودية عرف «بدار برايخا».. هكذا حين يريد المسلم أن يقطع

المسافة بينه وبين المسجد ليلقى ربه، يجد نفسه مضطرا إلى عبور أحد المواخير.. لا يمكن أن نفهم ذلك كأنه أمر اعتباطي.. لقد كان مخططا له في عملية تدنيس كبرى شملت كل شيء.. لم يتم الاستحواذ على الأرض، بل على السماء كذلك. ولم تكن العملية خطأ أو ضرورة معمارية وإنما هي هندسة للخراب وخواء الروح.

كانت ستيفاني قد انهمكت في حديث جانبي مع ساندرا حول الموضة وحقوق المرأة والرسم ومهنة الصحافة.. لم تلاحظ ساندرا أبدا ذلك الحزن الذي كان يسكنها في المرتين الأخيرتين. وجدتها قد تخلصت من عبء مراد الذي كان يثقل كاهلها كما عرفت من خوسيه. ولكنها أرادت أن تعرف المزيد دون أن تنتبه ستيفاني، لذلك قلبت عدة أسئلة في ذهنها فلم تجد ما يخفي نواياها جيدا. ثم قررت أن تسألها ما إذا تحدد موعد العودة إلى إسطمبول، فأجابت ستيفاني:

- خوسيه على اتصال بالسيد الياهو دانيال. إنه يعرف ربما أكثر مني.. ربما بعد ثلاثة أيام..

قالتساندار:

- ثلاثة أيام فقط وأعود إلى طنجة.. كان بودي أن أذهب معكم إلى إسطمبول.. ثم وجدت الفرصة لتزلق سؤالها:

- ومراد، سيكون معكم أيضا؟

قالت ستيفاني بعفويتها:

- قد يذهب إلى الجزائر. سيذهب هناك لرؤية صديق لم يره منذ عدة سنوات.

ثم سمعت مراد يقول وقد ارتفع صوته: (كتب ماركس سيناريو دراميا للتاريخ الإنساني. لقد عبر عن لعنة البشر المتضافرة دائما مع إمكانية الخلاص والنقاء.. وفي النهاية بنى عمارة يسكنها العمال والرأسماليون وكذلك العلماء والفنانون، باعتبارهم شخصيات التاريخ الدرامية التي صارعت من أجل تعزيز العقل والعلم في سياق تمكين الإنسانية من الانعتاق والحرية، لكنهم وهم يصارعون أطلقوا قوى الشر التي اغتصبت كل الحريات ودمرتها.. ذلك هو الجدل يا سيد بلانتيرو وحيث يكون كل شيء حامل لنقيضه.. بل لنفيه!)..

وافق بلانتيرو على قراءة مراد للماركسية التي تبقى محاولة للحرية انتهت بارتهان أكبر وأكثر ثقلا.. ورأى فيها ذكاء خارقا قد كان عثر عليه في كتابات باكونين وكتابات السورياليين. وأدرك أن مراد ربما كان ماركسيا لكنه أصبح ماركسيا ضالا كما حصل معه تماما.. ولما بات متأكدا أن مراد سينمائي، قال لنفسه: هكذا حين يفقد الماركسيون ثقتهم في الماركسية يتحولون إلى ليبراليين صغار أو دكتاتوريين صغار. بعضهم ينقذهم الفن من إحباط الماركسية. ولا شك مثلما أنقذني الرسم من خواء الحزب الشيوعي الإسباني المنحرف، فإن السينما هي التي أنقذت مراد من جنون الارتطام بالواقع الثقيل..

قال بلانتيرو وهو يبحث في ذاكرته السينمائية عن دعم لقراءة مراد..

- في فيلم «ناهشو الأجساد»، لا تهجم علينا القوة الفضائية مباشرة كما في فيلم «حرب العوالم» بل يتم الاستيلاء على البشر

من الداخل حتى لا يبقى أي شيء من روحهم وعواطفهم. أجسادهم كانت تحتوي على إرادة حرة ثم أصبحت مجرد هياكل جوفاء تتحرك في مسرح خال وخاو من الإبداع..

- مؤسف هذا يا سيد بلانتيرو.. إذا واصل اللبيراليون في رفع الحواجز أمام الأخلاق، فإن الأقبح هو المستقبل لنا جميعا.. لا شيء يجعلني حزينا وأكثر حزنا من قرد فقد كل أفراد عائلته، حين أجد أناسا يصفقون لداعش أو يمدحون القرضاوي أو يدعون للظواهري بطول العمر، أو سياسيين يتحدثون عن الوطنية على مائدة السفير الأمريكي..

- ليس علينا أن نقتل أنفسنا إذا كنا أذكياء لأجل أناس اغبياء.. يا مراد.. في النهاية نحن كائنات عابرة..حيوانات تمشي عموديا وتدفن أفقيا.!

آنذاك تدخلت ستيفاني لتقول مازحة:

- ألا يكفي من حديث الفلسفة يا مراد..

رد مراد ضاحكا:

- إنها «فلسفة لا تسافر» على رأي روسو في هيغل! أليس كذلك يا سيد بلانتيرو! ثم أضاف:

- ولكن الفلاسفة يجوعون.. بل هم أكثر نهما للأكل.. ألم تشعروا بالجوع الآن؟ سأدعوكم جميعا إلى مطعم في حلق الوادي لتناول العشاء.. هناك قرب قلعة السجن التي أقامها الإسبان عند غزوهم لتونس.. ما رأيكم؟!

قال بلانتيرو:

- منذ أن وصلت إلى تونس، أصبحت أكثر نهما للأكل. ثم قفز بسرعة وهو يتفقد خزان بطنه!

*** *** ***

قضت ساندار أسبوعا في تونس مع خوسيه بلانتيرو ثم عادت إلى طنجة. ودعها في المطار بأكثر من قبلة ووردة.. وودعته بعدة دمعات طازجة. قالت له: إني أكاد أن أصرخ بأنني أحبك لأجعل كل العالم يسمعني. ووضع يده على فمها وهو يحضنها ويرجوها بأن لا تفعل ذلك.. واعدا إياها بإتمام كل شيء عند عودته من إسطمبول. دس في حقيبتها اليدوية حزمة صغيرة من الدولارات ثم قال: هذه النقود لشراء بعض الهدايا.. ثم قادها إلى باب قاعة المغادرة، فاختفت وهو يراقبها بشغف.. في ذلك اليوم سيصل الياهو دانيال ومعه شاهي شهبار ومارغريتا مارتيناز على يخته من ماربيا إلى مدينة الحمامات، لذلك عاد مباشرة إلى الفندق ليرتب أمور المغادرة ويتجه نحو الحمامات مع ستيفاني نيكولاس..

كانت ستيفاني في انتظاره ومعها مراد عباس، الذي قرر أن يوصلها إلى الحمامات بسيارته «الغولف». وبعد أن وضع خوسيه حقيبته في صندوق السيارة انطلق مراد عباس فعرج على صديقه فريد ريكوبي حيث كان ينتظره في «مقهى الشيلنغ» ليؤانسه عند العودة من الحمامات..

لا أحد من الأربعة قد أجهد نفسه كي يفتح موضوعا للنقاش. ظل فريد صامتا.. ومن حين لآخر كان يدردش مع خوسيه الذي

يجلس معه في الخلف.. مراد لم يكن قادرا على الكلام حتى لو وقع استفزازه.. فأثناء القيادة يصبح منضبطا ومنتبها للطريق وشرطة المرور فقط. أما أنا، فقد استغرقت في تفكير جانبي ونسائي بحت. كنت مشغولة فقط متى سأصل إلى أول صيدلية لكي أشتري «جفافات» بعدما انتبهت إلى أن العادة الشهرية قد داهمتني.. وفي أول مدخل الحمامات أوقفت مراد أمام صيدلية. وبعد أن اشتريت، علبة جفافات، انحرفنا باتجاه الجنوب للذهاب إلى الفندق الذي حجزت فيه ثلاث غرف وجناحا. واحدة لي وواحدة لخوسيه وثالثة لمارغريتا وجناحا لالياهو وشاهي..

سألني خوسيه بتخابث قبل أن نذهب إلى الميناء لاستقبال اليخت، وكان المساء قد اقترب:

- هل تزوج الياهو وشاهي؟

قلت له:

- ربما.. نحن نعيش في زمن السرعة.. سرعة الاتصالات والتنقلات وكذلك العواطف..

ثم استدركت متسائلة:

- ولكن هل الياهو لم يكن متزوجا؟!

لا أحد منا كان يمتلك الإجابة. فالياهو دانيال رجل كتوم وغامض بطبعه. وشاهي شهبار امرأة قادرة على الإطاحة بأعتى الرجال.. ولكن خوسيه قال لي شيئا آخر:

- يجب ألا نصدق حماقات الأقوياء والأذكياء. إنها خرافة سرعان

ما تنهار لكي يحصل الانصياع. الانصياع شيء موجود بالفطرة والوراثة لدى الرجال الذين يعتقدون أنفسهم أنهم أقوياء، لأنهم مولعون باللعب.. بالخداع وكذلك بالطمع.. ثم أضاف مجرّحا في كل من الياهو وشاهي: الطمع هو الشيء المشترك لدى الياهو وشاهي. يبدا في البداية كنوع من الوجدان الصوري ثم يتطور إلى عملية استحواذ عاطفي بعد ذلك ينتهي إلى صراع وجودي.. وبما أن لا أحد يتخلص من آفة الطمع، فإن كل منهما ينصاع للآخر.. يصبح الآمر مأمورا والمأمور أمرا ثم يتم الانسجام المخاتل!..

كان خوسيه قد استولت عليه النميمة في تلك اللحظة. لم أجاريه إلا بقدر بسيط جدا لأنني شعرت بأنه كان في حالة عاطفية سيئة لوداعه ساندرا. لم ألاحظ عليه الحزن، ولكنه كان باديا في كلماته وحركاته.. كنا جالسين في كافتيريا صغيرة في قاعة الانتظار للميناء، وفجأة رن هاتف خوسيه، فعرفت من خلال حديثه أن اليخت قد وصل. وأن الجميع يتقدم نحو صالة الوصول.. وكان علينا أن نسرع لملاقاتهم..

*** *** ***

وصلنا بعد ظهيرة يوم الخميس إلى إسطمبول. استغرقت رحلتنا على متن اليخت تقريبا ليلة كاملة ونهارين إلا نيف.. تركنا ساحل الحمامات صباح الإربعاء. وبلغنا سواحل كريت اليونانية عند فجر الجمعة. ولاحت لنا سواحل البوسفور عند الظهيرة.. كنا ثلاثة سيدات ورجلان، مع طاقم اليخت الذي يبلغ ثلاثة رجال.. حبشي من أحباش إسرائيل ومالطيان. وخلال تلك الرحلة كنت واعية

بسعادتي إذ كنت واثقة أن مراد سيتغلب على محنته ويبلغ مقصده مثلي تماما. وحين تلقيت رسالة من مراد ونحن لانزال في المرفأ، تأكدت أن أحاسيسي لم تخدعني.. لم افقد السيطرة على عواطفي وإنما كنت منساقة للتعبير عنها.. ولم أجد أفضل من أن أخبر خوسيه بلانتيرو بذلك. قلت له، أن مراد وصل إلى الجزائر.. عبر الحدود ووجد صديقه يحي علوان في انتظاره. كيف؟ لا أعرف؟

عبر لي خوسيه عن فرحه.. ثم قال:

- ساندرا أيضا قد وصلت إلى طنجة.. طلبت مني أن أبلغك السلام وأقبلك بالنيابة عنها.. ولكن الآن سأقبلك قبلتين، واحدة من ساندرا والثانية مني لتهنئتك بخروج مراد سالما..

ورغم أنني كنت كأبهى امرأة في تلك اللحظة وأنا أتلقى رسائل مراد القصيرة الواحدة تلو الأخرى، إلا أنني كنت أحسب أن المرأة الأكثر بهاء مني هي السيدة شاهي شهبار. بدت لي في البداية وكأنها مغامرة متنقلة عبر العصور، منذ عصر لويس الخامس عشر الذي ترك كل النساء حين تعرف على مدام دوباري.. ثم رايتها كما لو أنها «سارة هارتس» التي أصبحت الزوجة الرابعة لنتنياهو.. إن الثنائي بيبي وسارة هما من طينة واحدة، بل هما من نفس المعجون الذي استخرج منه الثنائي الياهو وشاهي.. فحين وقعت عينا بيبي في عيني سارة، اشتعل ذلك البريق الذي ينبأ بهطول المطر وكان اللقاء على متن رحلة في خطوط العال. كذلك حين لامست يدا الياهو يد شاهي في أول لقاء لهما في ماربيا وهو يتجه إلى فندق «كوستا أورينتال» حتى تجاوز كل منهما جدار الزجاج العازل

بينهما.. قاوم ذلك الجدار لحين ثم تهشم لأن كل من الياهو وشاهي قد تعاونا على ذلك.. وكما لم يترك نتنياهو فراشته تطير بعيدا عنه، إذ فاتحها في ثاني لقاء بالزواج مبديا استعداده للطلاق من زوجته الثالثة «فلور» الأمريكية، فإن سارة التي رأت الملك يضعف إلى ذلك الحد، أحست بنصر لا مثيل له إذ تأكدت بأن بإمكان «الخادمة»، (مضيفة الطيران) أن تصبح زوجة للملك. ولا شك أن الياهو استعمل أسلوب قائده نتنياهو» «إذا عجزت عن النيل من امرأة، فتزوجها.. أو أعرض عليها الزواج». قال لي بلانتيرو خلال الرحلة، يبدو أن شاهي تمكنت من الياهو. لقد وضعته في القفص ككلب ذهبي.. حسب ما أعتقد فإنها ليست امرأة تقبل بنصف رجل. فحتى لو كان متزوجا، فإنها سترغمه على الطلاق..

ذهب بلانتيرو باتجاه ما كنت أفكر فيه فقلت له:

- إذن كما هو تبع خطى سيده، فإن شاهي تتبع خطى سارة؟

سألني بتعجب:

- من تكون سارة؟

أجبته ضاحكة:

- سارة نتنياهو، التي بدأت «تائهة في الجو» ثم أصبحت قائدة للقائد. ألا ترى أن شاهي تفعل نفس الشيء!

قال بلانتيرو محذرا:

- حذاري عند الاقتراب منها.. إنها قوية ولئيمة. وتوجه الشتائم لمن تشاء حين تغضب.. ثم أضاف:

- السيدة مارتيناز اشتكت مرارا من تصرفاتها. قال لي في آخر لقاء معها، أنها ستطرح الموضوع أمام مصعب الصراف.. بل ستقترح تغييرها لأنها امرأة لا تعرف حدودها لا في العمل ولا خارج العمل.. ثمة من راقبها جيدا داخل الفندق. وأعتقد أن السيدة مارتيناز تملك شريطا مصورا على قدر كبير من البذاءة!.. فقد تحول «كوستا أورينتال» إلى ما يشبه الماخور لمدة اسبوع خلال حفل لعرض الأزياء.. ظهر ذلك العرض وكأنه غطاء لحفل من الجنس الباذخ بين فتيات إسبانيات ومغربيات وأمراء خليجيين.. الياهو نفسه كان على علم بذلك.. وقد يكون هو نفسه قد أوصى بتصوير ذلك الشريط.. وربما النسخة التي ستسلمها السيدة مارتيناز للشيخ مصعب الصراف، هي النسخة ذاتها التي سيسلمها الياهو دانيالو إلى مأموريه في إسرائيل..

أيقظني بلانتيرو من سبات ذهني عميق. لم أتوقع ذلك أبدا وإن كنت منذ البداية على حذر شديد من ذلك الثنائي شاهي والياهو. وكما لو أنني تناولت منشطا ضد النعاس والغباء، توقعت أن اللعبة قد أوشكت على النهاية على الأقل فيما يتعلق بي.. قلت لبلانتيرو..

- نتوقع إذن إجتماعا عاصفا في دار «آل أوشاكي» في إسطمبول.

أجابني بلانتيرو الذي أثق في رجاحة عقله وتحاليله:

- ليس بالضرورة.. ثمة فصول أخرى من اللعبة الكبرى لم تكتمل بعد..

تقلبت على أكثر من مخدة في تلك الليلة، كنت أبحث عن فكرة إما للاعتذار من اجتماع الغد تحت طائل المرض، أو الحضور

والتمترس وراء الصمت حتى لا أقع في حفرة من الحفر.. استعصت علي الأفكار كما استعصى علي النوم.. وفي الصباح، ورغم أنني لم أنم أكثر من ساعتين بدت لي الأمور أكثر وضوحا وبدأت أكثر شجاعة مما توقعت.. كان الشيخ رشدي العطار قد أعلن عن افتتاح الاجتماع، حين وصلت.. رحب بنا جميعا، بعدما أخذت مكاني إلى جانب السيدة مارتيناز وبلانتيرو.. وخلال ترحيبه المنمق والمليء بعبارات المديح الرنانة ذات المذاق الشرقي، لاحظت أن مصعب الصراف، كان غائبا وأن سمى عبد الصمد هي أيضا كانت غائبة وأن رجلا آخر لم أعرفه من قبل كان يجلس في المكان الذي اعتاد مصعب الصراف الجلوس عليه.

قال الشيخ رشدي العطار منهيا حديثه:

- أردت فقط في هذا الصباح أن أرحب بكم. وأعلمكن بأن تستعدوا غدا لاجتماع مثقل بالمهمات. وأنا على يقين أنكم قادرون على صنع المعجزة.. ثم التفت إلى ذلك الرجل الذي لم أره من قبل وقال:

- أقدم لكن بهذه المناسبة الشيخ همام الخزرجي. فهو الذي سيتولى مهام مصعب الصراف من الآن..

بعد ذلك قال:

سأخبركم خبريتين صغيرتين: الأولى أن صديقتنا سمى عبد الصمد قد ألقي القبض عليها في لبنان. والثانية أن صديقنا أمير داعش أبو عمر العدناني قد تمت تنحيته وخلفه نائبه أبو بشر القرشي الذي عين نائبا له أبو أنس القحطاني.. وهذا أمر لم يعلن

عنه بعد رسميا.. ومن واجبنا جميعا أن نوجه الآن التحية للبجعة البيضاء السيدة مرام حسن الحلبية!

التفتت رؤوسنا جميعا بإتجاه مرام كما لو أن شخصا قد كبس علينا كبسة واحدة.. ابتسمنا لها صاغرين كما لو أننا ننفذ أمرا أو ننتظر وعدا ما .. وآنذاك أضاف الشيخ العطار يقول:

- لولا البجعة، ما كان للوحش أن يسقط.

هكذا في لحظات الارتياب الشديدة ينخلع قلبي ويتشتت فكري وأصبح عاجزة تماما عن بلوغ أية درجة من الوضوح (كنت قد تركت مرام في الموصل وكنت شبه متأكدة أنها كانت مكلفة بمهمة) . لم أكن أحتاج إلى التأكيد الآن، ولكن أحتاج إلى الشفقة..أو حتى إلى صفعة كي أصحو كما يجب.. باختصار كنت كمن يحتاج إلى نداء الضمير، ذلك الضمير الغارق في المباهاة وهو لا يدرك أنه معذب ومحقر.. ذلك الضمير الذي لازال ينبض ببعض الحياة وهو ما انفك يحذرنا من الاقتراب من المحرقة الكبيرة.. ذلك الضمير الذي يستيقظ فجأة حين يجد نفسه كهاو داخل لعبة جهنمية!..

قلت لبلانتيرو، بعدما ابتعدت قليلا عن مراد شمان الذي لايزال يرحب بي:

- قل لي.. هل فهمت شيئا.. اخبرني. إني لا أرى إلا طلاسم..

قال بلانتيرو، وقد كان متأكدا بما قاله إلى حد المباهاة:

- كل شيء واضح يا ستيفاني.. مصعب أطيح به. والعدناني قتل أو استبدل بيدق آخر في لعبة الشطرنج. وسمى وقعت في الفخ الذي

أرادت أن يقع فيه الجميع.. ولكن انتظري غدا..

بعد أن ترشف قليلا من قهوته، استعاد صوته وقال:

- في لعبة الموت، كما في لعبة الشطرنج.. بعد نهاية اللعبة، يوضع الملك والحصان في نفس العلبة..

تمشينا معا نحو الحديقة. أحسست بالخيبة كسحابة ثقيلة وداكنة تحط على أكتافي، ولكني كنت متأكدة أنها متى انقشعت، انتعشت روحي وأدركت مدى ما ارتكبته من أخطاء.. وآنذاك أيقنت ما توقعته قد حدث تقريبا.. ثم سمعت بلانتيرو يسألني:

- كيف سيكون رأيك، لو تحرك بنا اليخت بعد يومين إلى حيفا؟

انتهت

تونس في 02 جويلية / يوليو 2016



roman / رواية

KITSH 2011

الكاتب: الصافي سعيد

الطبعة الأولى: سبتمبر 2016

الناشر والموزع: سوتيميديا للنشر والتوزيع
العنوان: 85 شارع بالفي ـ تونس
صندوق بريد: 570 تونس ـ حشاد
تونس 1049
الهاتف: 31400756 (216+) **الجوال: 97126757** (216+)
الفاكس: 32400756 (216+)
البريد الإلكتروني:
contact@sotumedias.tn

المعرف الدولي للكتاب
978-9938-918-06-9



الطباعة: المغاربية للطباعة واشهار الكتاب ـ تونس

المؤلف: الصافي سعيد

كاتب وصحفي وروائي تونسي

له أكثر من عشرين مؤلفا تبحث في التاريخ والعلاقات الدولية والمذكرات والمستقبليات والرواية منها:

- مثلث الشياطين الاستوائي.
- بن بلة يتكلم (مذكرات).
- العتبات المدنسة في الشرق الأوسط.
- سنوات المتاهة في القرن الحادي والعشرين.
- عودة الزمن الإمبراطوري.
- الحمى **42** : لا أنبياء ولا شياطين.
- بورقيبة سيرة شبه محرمة.
- المضاد الحيوي: مخاضات بين زمنين.
- خريف العرب: البئر والصومعة والجنرال.
- المعادلة التونسية: كيف نصنع المستقبل؟.
- جدل ما بعد الثورة..
- جيوبوليتيك الدم:
التاريخ الأسير والجغرافيا التصدعة.
- كازينو+ (رواية).
- حدائق الله (رواية).
- سنوات البروستاتا (رواية).
- الإغواء الملكي (رواية).

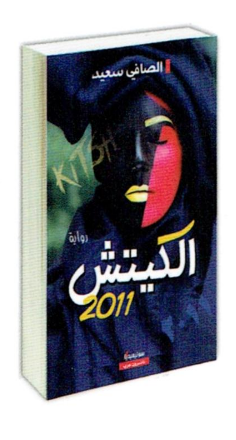
حالما انتهيت من كتابة النص، أحسست أنني خرجت من حياة ثم عدت إلى حياة أخرى. شعرت بفراغ يغمرني ويأخذني بقوة إلى ارتباك النهايات.. كنت مستمتعا بعالم آخر قد صنعته بنفسي وبأشخاص آخرين قد أصبحوا أصدقائي.. عايشتهم برفق ولم أكن لأقسو عليهم حتى عندما يداهمني الغضب أو النضوب.. أحببتهم جميعا ولم أكره أحدا منهم. حتى دناءاتهم لم تكن ثقيلة. سكنت في دواخلهم وسكنوا بداخلي..كانوا يذهبون معي إلى كل مكان.. إلى غرفة النوم، إلى المقهى، إلى الحمام.. لا بل أصبحت أشرب معهم القهوة وأتجادل معهم وأفكر في مصيرهم إلى درجة بات من الصعب عليّ طردهم أو تصفيتهم.. قلت ذات مرة لإحدى صديقاتي الواقعيات: «أنا عائد الآن إلى البيت، لألتقي مع شاهي شهبار». سألتني من تكون؟ أجبتها: إحدى بطلات روايتي الجديدة.. لقد أحببتها.. أنا الذي رسمتها على الورق. والآن أريد أن ألتهمها كمن صنع تمثالا من الحلوى ثم أكله.

هكذا يعيش الروائي. فهو يكتب حياة أخرى، متدفقة، ذات إيقاعات متصاعدة ومتوترة، مصنوعة من بؤس العزلة، فتصبح أكثر متعة من الحياة الواقعية، الرتيبة والكئيبة التي نعيشها، والتي لا نتدخل كثيرا في مجراها إلا وهميا! وبذلك فهو يصنع من عزلته أقصى درجات متعته.. وها إني أدعو القراء إلى مشاركتي في هذه المتعة، فأقول: أن من حرم نفسه من متعة القراءة، عاش حياة واحدة بائسة.. ومن عاش عزلة الكتابة، عاش حياة مليئة بالمتع..!

الصافي سعيد



رواية



السعر: 27.500 د.ت


9 789938 918069

سوتيميديا
ناشرون عرب